التفسير البلاغي للاستفهام

في القرآن الحكيم

أول تفسير موضوعي لـ (١٢٦٠) استفهاماً في القرآن كله

تأليف الدكتور
عبد العظيم إبراهيم المطعني

الجزء الثاني

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٣٩٠٣٧٤٦

اسم الكتاب: التفسير البلاغى
للاستفهام فى القرآن الحكيم
أول تفسير موضوعى لـ (١٢٦٠)
استفهام فى القرآن كله
الطبعة الثالثة ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م
الدكتور عبد العظيم المطعنى
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية -
عابدين - القاهرة.
٤١٦صفحة : (جـ ٢) ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع : ٩٨/١٤٢٥٦
الترقيم الدولى : .I.S.B.N
977-225-124 - 8

سورة التوبة

١ - ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ، إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۞ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً، يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٧، ٨].

الدراسة والتحليل:

سورة التوبة، وهى مدنية، من السور التى اهتمت بالتشريع السياسى حرباً وسلماً، وكشفت فى هذا الإطار زيف المنافقين، وفضحت سرائرهم، ورصدت كثيراً من ألاعيبهم وتَلَوُّنهم.

وكان أول صورتين استفهاميتين فيها واردتين فى مجال الفقه السياسى، وتوجيه المؤمنين إلى كيفية معاملة المشركين فى الصراع المحتدم بين الفريقين فى عصر نزول القرآن، وهى المعاملة بالمثل:

فمن أوفى بعهده مع المؤمنين أوفى له المؤمنون بعهده، ومن خان وغدر فلا عهد له عند اللّه يأمر المؤمنين بالوفاء به، ولا عهد لهم عند رسول اللّه (إمام المؤمنين) يلزمه الاستمرار فى الوفاء به.

وهذا التشريع (المعاملة بالمثل) أخذه الفقه الدولى العام - الآن - عن الإسلام. لأنه مبدأ عادل كل العدل وعلى هذه القاعدة التشريعية الحكيمة، بنى نبذ عهد المشركين ونفيه عند الله وعند المؤمنين، كما بنى التزام بعض تلك العهود على القاعدة نفسها. وهى المعاملة بالمثل. مع ملاحظة أن المعاملة بالمثل فى الإسلام حق لا واجب، لذلك فإن ترك المعاملة بالمثل جائز إذا كان فيه إصلاح أو صلاح وهذا يكون فى الخصومات التى بين الأفراد. فإن العفو أولى من المؤاخذة إذا ترتب عليها حسم. أما بين الدولة الإسلامية وخصومها فإن العفو قد يغرى العدو بتكرار العدوان والمبالغة فيه. وأن يُحمَل العفو على الضعف، وقد صدرت الآية الأولى بهذا الاستفهام:

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ وصدرت الآية الثانية بهذا الاستفهام:

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً﴾[1] أى أن الأصل أن لا عهد للمشركين عند الله ولا عند المؤمنين إلا الذين عاهدوا المؤمنين واحترموا العهود، فهؤلاء يتربص بهم المؤمنون فإن استمـروا على الوفاء أوفوا لهم بعهودهم، وإن نكثوا نُبذت عهودهم.

والاستفهام فى صدر الآيتـين للإنكار. الأول أصالة والثانى تكريرا وتوكيداً. وعلى هذا النسق توارد كلام الأئمة:

يقول الإمام جار الله: (**كيف**) استفهام فى معنى الاستنكار والاستبعاد لأن يكون للمشركين عهد»[2].

وبعد كلام طويل يقول أبو السعود: «والاستفهام إنكارى لا بمعنى إنكار الواقع كما فى قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ..﴾ بل بمعنى إنكار الوقوع »[3].

هذا ما قاله فى الصورة الأولى، أما الثانية فقد عقَّب عليها بقوله:

«وإنما أعيـد الاستنكار والاستبـعاد تأكـيدا لهـما وتمهـيداً لتـعداد العلل الموجـبة لهما.[4].

وهذه لمحة طيبة من أبى السعـود؛ لأن الآية الثانية ذكرت أربع علل لنفى أن يكون للمشركين عهد، وهى:

* إهدارهم للتحالف والحقوق والصلات الواجبة الرعاية .
* نقضهم للعهود.
* الخداع بالقول (**يرضونكم بأفواههم**).
* الأحقـاد والأضغـان التى يكنونها فى صـدورهم. ويتابع الألوسى أبا السـعود وإن اختلفت بعض ألفاظه عنه، فالمعنى واحد. وأورد فى الاستفهام الثانى كما أورد أبو السعود أنه لاستبعاد استمرار المشـركين على العهد مع ما فيه من الـتوكيد للأول،

---

(١) الإل: الحلف أو القرابة. والذمة العهد.

(٢) الكشاف: (٢/ ١٧٥) ويقول فى الثانى : تكرار للأول.

(٣، ٤) تفسير ابى السعود: (٤/ ٤٤) و (٤٦).

والتمهيد لتعداد العلل الموجبة لبراءة اللّه ورسوله من المشركين. وأنهم لا عهد لهم عند الله ولا عند رسوله[1].

ويقول القاضى البيضاوى: (**كيف يكون**) استفهام بمعنى الاستنكار والاستبعاد لأن يكون لهم عهد ولا ينكثوه، أو لأن يفى اللّه ورسوله لهم بالعهد وهم نكثوه» [2].

يريد أن يقول إن إنكار أن يكون للمشركين عهد له واحد من اعتبارين:

الأول: ليس لهم عهد يستقرون عليه.

الثانى: ليس لهم عهد يفى به الله ورسوله. والواقع أن المعنى واحد على الاعتبارين، فعدم وجود عهد لهم عند أنفسهم يلتزمون به هو السبب فى إنكار أن يكون لهم عهد عند اللّه وعند رسوله يجب الوفاء به. وإذا بدأنا بنفى أن يكون لهم عهد عند اللّه ورسوله يستحق الوفاء رجعنا إلى الاعتبار الأول، لأن عدم الوفاء بعهدهم هو عدم وجود ذلك العهد (المحترم) عندهم. فالمآل واحد، وكذلك يرى الشيخ رشيد رضا من المحدثين، أن الاستفهام فى الصورتين للإنكار. فقد قال فى الأول: «هذا الاستفهام للإنكار المشوب بالتعجب» [3].

ويقول عن الثانى: إنه نفس الأول. وإنما أعيد للفصل بالكلام الطويل [4].

وليس عند الامام الطاهر جديد لم يقله السابقون فالاستفهام بصورتيه للإنكار. بيد أنه جعل الانكار فى الموضعين مسلطاً على الدوام لا على الواقع، لأن العهد كما قال وقع وتم بإذن اللّه، والإنكار فى الصورة الأولى فى جميع الأحوال. وفى الثانية فى الحالة الخاصة المذكورة فى الآية [5].

والخلاصة: أن الاستفهام فى الصورتين وإن تكرر فى اللفظ فهو استفهام واحد، والثانى مبدل من الأول لدواعٍ اقتضت ذلك الإبدال، وهى كما نصوا عليها، توكيد الاستفهام الأول بالثانى،مع ذكر أسباب أخرى موجبة للإنكار، وهى أربعة سبق رصدها. والدليل على هذا أن المنكر المستبعد قد حذف مع الاستفهام الثانى للدلالة على أنهما واحد فى المعنى.

---

(١) روح المعانى (١٠/ ٥٤).

(٢) تفسير البيضاوى (٢/ ٣٩٦).

(٣، ٤) تفسير المنار (١٠/ ١٦٤، ١٦٥).

(٥) التحرير والتنوير : (١٠ / ١٢٣).

والأئمة قد أجمعوا على أن هذا الاستفهام للإنكار والاستبعاد. وهذا حق. وقد أحسن الشيخ رشيد رضا حين أردف التعجيب على الإنكار. فإن من يدعى أن المشركين مع نقضهم العهود والمواثيق يكون لهم عهد واجب الرعاية على كل حال فقد أغرب ودعا إلى التعجب من ادعائه.

كما أن الشيخ الطاهر بن عاشور قد أجاد حين نص على أنَّ الانكار منصب فى الموضعين على دوام العهد مع المشركين فى المستقبل أو انشاء عهود جديدة معهم بعد انقضاء مدة عهود من أوفى بعهده مع المؤمنين منهم. وليس منصباً على العهد نفسه، لأنه قائم بالفعل وهذا كلام طيب يحسب للإمام بن عاشور، بدليل أمر اللّه المؤمنين باتمام عهد غير الناكثين منهم فى أوائل السورة . وفى الآية الأولى من آيتينا هاتين.

اسرار النظم وبلاغياته

* استعمال **(كيف)** فى الإنكار له طريق كنائى لطيف مرَّت الإشارة إليه من قبل، وهو أن كيف فى الاستفهام الحقيقى للسؤال عن الحال. فإذا استعملت فى الاستفهام المجازى فى الإنكار كان مبنى هذا الإنكار أن السؤال عن الحال ينشأ عن عدم تصورها، أو عدم وجودها. وكل موجود له أحوال لا تعد فإذا انتفى الحال ترتب عليه أنتفاء صاحب الحال. وهذا هو الإنكار، فقد جعل المستفهم نفى الحال وسيلة لعدم وجود صاحب الحال نفسه.

*﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ. .﴾ قدم الجار والمجرور على (عهد) لأن المقصود بالإنكار هو عهد المشركين لا مطلق عهد. فالجار والمجرو هو محط الإنكار.

وتكرار الظرف (عند) فى **(عند اللّه وعند رسوله)** لتأكيد الإنكار فى حالتى التشريع والعمل. فليس لهم فى شرع اللّه عهد ولا فى معاملة رسوله لهم عهد.

* ﴿عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ استطراد المراد منه زيادة توضيح الذين يتم لهم المؤمنون عهدهم من المشركين؛ لأنهم لم ينكثوا عهودهم. ثم حث وترغيب المؤمنين فى الوفاء بهذا العهد الذى جرى قرب المسجد الحرام خير بقاع الأرض.

* ﴿فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ استعارتان تبعيتان استعيرت فيهما الاستقامة

وهى الاعتدال فى الحسيات للوفاء بالحقوق فى المعنويات.

* ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ تذييل مؤكد لمضمون الكلام قبله وتوكيد الخبر لأن مضمونه من الحقائق العظيمة.

* ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً﴾ .

فى (**كيف**) إيجاز بالحذف تقديره: (يكون للمشركين عهد عند اللّه وعند رسوله) حذف من الثانى لدلالة الأول عليه وفى هذا الحذف فخامة لا توجد لو ذُكِرَ المحذوف. ومن أسرار هذا الحذف ضيق المقام من المشركين وخياناتهم وفى (**يظهروا عليكم**) كناية عن الغلبة لأن من شأن الغالب الاستعلاء على المغلوب. ومن علا شيئا ملك أمره، أو استعارة تبعية شُبِّه فيها الاستعلاء المعنوى بالاستعلاء الحسى بجامع التسيطر فى كل منهما مع مراعاة جواب الشرط والجملة تعليل لأن يكون لهم عهد مرعى الحرمة عند المؤمنين.

* ﴿لاَ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً﴾ كناية عن إهدار الحقوق والحرمات. وأصل الرقوب النظر بالحفظ أو العطف .

* ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ كناية عن عدم الإخلاص.

* ﴿وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ كناية عن خبث طواياهم. وفى إسناد الإباء إلى القلوب مجاز عقلى علاقته المكانية والتقدير: ويأبون بقلوبهم نظير (**يرضونكم بأفواههم**) والسر البلاغى فى هذا الأسناد المجازى الاشارة إلى أن قلوبهم امتلأت حقداً حتى لكأنها صارت لفرط ما فيها من مكر عدواً آخر للمؤمنين يتربص بهم الدوائر.

* ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ تذييل مقرر لمضمون الكلام قبله والمعنى العام فى الآيتين تحذير المؤمنين من الكافرين وكشف أحوالهم لهم.

* * *

٢ - ﴿أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمَاً نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَأُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، أَتَخْشَوْنَهُمْ، فَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣].

الدراسة والتحليل:

الإسلام عادل قوى، والعدل حينما ترعاه القوة يؤتى ثماره. ومن عدل الإسلام احترام العهود والوفاء بها والحث الدءوب على رعايتها، مهما كان الطرفان المتعاهدان فاذا رعى المعاهد عهودنا رعينا عهوده. اما إذا خان فلا عهد له.

وقد أبانت سورة التوبة فيما تقدم أن المشركين طبيعتهم الغدر بالمؤمنين، وإذا تظاهروا بالوفاء فذلك لضعف فيهم لا يؤهلهم للغلب على المؤمنين، وحين يرون فى أنفسهم قوة، وفى المؤمنين ضعفاً نكثوا وفتكوا وطعنوا فى ديننا.

وفى هذه الحالة سرعان ما يتحول عدل الإسلام إلى قوة هادرة زاجرة، ولكنها مهذبة. وعلى هذا المنهج جاء الحث على قتال الناكثين عهودهم، المؤذين لرسول اللّه والمؤمنين. والنهى عن القعود عن قتالهم فى آيتنا هذه وقبلها جاء قوله تعالى:

﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِى دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾.

وفى آيتنا استفهامان:

الأول: ﴿أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمَاً﴾ ؟

والثانى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾؟

وقد حمل الإمام جار الله الاستفهامين على التقرير فقد قال فى الأول: «دخلت الهمزة على **(ألا تقاتلون)** تقريراً بانتفاء المقاتلة»(١).

وقال فى الثانى: **(أتخشونهم)** تقريراً بالخشية منهم وتوبيخ عليها »(٢). أما أبو السعود فيختلف توجيهه للاستفهام عن توجيه الزمخشرى، إذ يقول فى الأول: **(ألا تقاتلون)** الهمزة الداخلة على انتفاء مقاتلتهم للإنكار والتوبيخ تدل على تحضيضهم على المقاتلة» (٣).

(١- ٣) الكشاف (٢/ ١٧٧- ١٧٨) .

أما الثانى (**أتخشونهم**) فلم يصرح فيه بالانكار، ولكنه فسَّره تفسيراً إنكاريا[1].

والألوسى حذا حذو أبى السعود [2].

والبيضاوى صرَّح فى الأول بالإنكار المفيد للمبالغة فى الحث على قتالهم. وفسر الثانى تفسيراً إنكاريا [3].

وخلاصة رأى أبى حيان أن (ألا) حرف عرض ومعناه هنا الحث على قتالهم»[4] .

هذا ما قاله فى الأول . أما الثانى فقد تابع فيه الامام جار الله حيث قال:

(**أتخشونهم**) تقرير للخشية منهم وتوبيخ عليها» [5] ويوافق الشيخ رشيد رضا من سبقوه بجعل (ألا تقاتلون) استفهام إنكار يحيل النفى إثباتا. هذا فى الأول. أما الثانى فمع مجاراته لهم أنه للإنكار والتوبيخ يستبعد أن يكون لجماعة المؤمنين، ويرجح أنه موجَّه إليهم باعتبار من كان فيهم من المنافقين [6].

أما خاتمة المفسرين البلاغيين - حتى الآن - فقد جوَّز فى (ألا) أن تكون حرفا واحداً معناه الحث على القتال - هنا - وأن تكون مركبة، من حرفين:

همزة الاستفهام + لا النافية. وجوز أن يكون هذا الاستفهام ونظيره (اتخشونهم) للتقرير كما ذهب الزمخشرى. أو الإنكار كما ذهب غيرهما.

والخلاصة: بعد عرض آراء الأئمة فاننا نرجح فى (ألا) ان تكون للتحضيض والحث الشديد على قتال الموصوفين فى الآية الكريمة. وإن كان استفهاما فإن الأظهر فيه أن يكون للإنكار وكذلك (أتخشونهم) واحتمال التقرير فيهما كما ذهب الإمام جار الله الزمخشرى والإمام أبو حيان، احتمال مرجوح فيما نرى لأن التقرير يخاطب به المنكر، وهذا يقتضى أن المؤمنين أنكروا أنهم لم يريدوا قتال العدو وتراخوا عنه، وهذا لا وجود له فى ذهن أحد.

ولذلك فإن البلاغة تقتضى اعتبارهم مقرين بتراخيهم عن القتال فجاء الاستفهام لإنكار هذا التراخى الذى هم عليه.

---

(١) تفسير أبى السعود: (٤/٤٨).

(٢) روح المعانى: (١٠/ ٦٠).

(٣) تفسير البيضاوى (٢/٣٩٨).

(٤) النهر الماد (٥/ ١٥).

(٥) البحر المحيط (٥/١٦).

(٦) تفسير المنار (١٠/ ١٧٤- ١٧٦).

أما ما ذهب إليه صاحب تفسير المنار من تحاشى توجيه الانكار للمؤمنين. فهذا تحرُّج لا داعى له، إذ من المعلوم بالضرورة أن اللّه حين خاطب المؤمنين بهذا الخطاب كان المؤمنون بمعزل عن قتال الواجب عليهم قتالهم. والا لما خاطبهم الله هذا الخطاب الملىء بالعتاب والحث والترغيب فى القيام بأعباء الدعوة.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدأُ وكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؟ هذا التركيب برمته تهييج وإلهاب ليقوم المؤمنون بواجباتهم القتالية ضد عدو يتربص بهم ولا هم له الا القضاء عليهم وعلى دعوة الحق التى شرفهم اللّه بالانتماء إليها.

وفى **(نكثوا)** استعارة تبعية حيث شُبِّه عدم الوفاء بالأيمان والعهود بنقض الحبل بعد برمه، بجامع ما يترتب على كل من الإفساد وفوات المطلوب.

* وفى قوله: **(نكثوا)** و **(هموًّا)** - **(وهم بدأوكم)** تعليل للحث على القتال. وأن موجياته نشأت من قبل العدو لا من قبل المؤمنين.

وكذلك إيجاز بالحذف فى **(هموا)** اى هموا بإخراج الرسول من مكة، أو من المدينة إن كان الحديث عن اليهود. والأول أصوب وفى **(وهم بدأوكم أول مرة)** أى بدأوكم بالاعتداء أول مرة والبادىء بالظلم هو الأظلم.

﴿أَتَخْشَوْنَهُم، فَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ أوثرت الخشية على الخوف لأن الخشية خوف + تعظيم المخوف منه. فجاء إنكار الأمرين معاً.

* الخوف المجرد من كل اعتبار زائد عليه.
* ثم الإجلال والتعظيم فى القوة أو العدد. وإنكار أمرين ذميمين أبلغ من إنكار أمر واحد.

وأفعل التفضيل (أحق) ليست على ظاهرها. فليس لغير اللّه حقية فى الخوف منه والخشية والتعظيم، وإنما أتى بها لنفى الاشتراك أصلاً، أى فاللّه حقيق بهذا.

* ﴿إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تهييج وإلهاب لحثهم على التخلق بأخلاق كمال الإيمان،

وإيهام أنهم فى منزلة من فقد الإيمان توصلا من هذا الإيهام إلى درجة الكمال اعتقادا وعملاً. لأن العمل صنو الإيمان.

* * *

٣ - ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً، وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

[التوبة: ١٦].

الدراسة والتحليل:

كانت الآيات السابقة على هذه الآية تحث على الجهاد وتحمل المشاق فى سبيل اللّه، ثم جاءت هذه الآية ناعية عليهم أن يحسبوا أن رضوان اللّه والوفاء له بحقوقه يكفى فيه القول دون العمل ودون احتمال المشاق والمتاعب وصعاب الأعباء.

لذلك صدرت الآية بهذا الاستفهام:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾؟

و (أم) كما يقول الزمخشرى منقطعة. ومعنى الهمزة فيها التوبيخ على وجود الحسبان . والمعنى: إنكم لا تتركون على ما أنتم عليه حتى يتبين الخلص منكم، وهم الذين جاهدوا» (١).

معنى هذا الكلام أن الاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ وأن **(أم)** بمعنى **(بل)** و**(الهمزة)** ، أى: بل أحسبتم. والإضراب - هنا - انتقالى لا إبطالى.

يوضح هذا الإمام أبو السعود فيقول: «أم منقطعة، جيء بها للدلالة على الانتقال من التوبيخ السابق إلى آخر، وما فيها من همزة الاستفهام الإنكارى توبيخ لهم على الحسبان المذكور(٢)، أما الألوسى فيقول: **(أم حسبتم)** خطاب لمن شق عليه القتال من المؤمنين أو المنافقين. و (أم) منقطعة جيء بها للانتقال من أمرهم بالقتال إلى توبيخهم، أو من التوبيخ السابق إلى توبيخ آخر والهمزة المقدرة مع بل للتوبيخ على الحسبان المذكور»(٣) ونحا البيضاوى هذا النحو(٤).

---

(١) الكشاف (٢/١٧٨).
(٢) تفسير أبى السعود: (٤/٤٩).
(٣) روح المعانى: (١٠/٦٣).
(٤) تفسير البيضاوى: (٢/٣٩٨).

والخلاصة: أن هذا الاستفهام عند الأئمة جميعاً للإنكار والتوبيخ، وبعضهم يتحرج من نسبة التوبيخ للمؤمنين، ومن أنه لا حرج فيه فمن الأصوب أن نقول: العتاب بدلاً منه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(أم حسبتم)** وردت هذه الصيغة فى النظم القرآنى كثيراً، والمراد من الاستفهام بها الإنكار، وقد أوثر الحسبان على الظن فلم يأت: (أم ظننتم) قط فى القرآن، مع أن معنى حسب هو ظن فى عرف اللغة، وإيثار **(حسب)** على **(ظن)** فى هذه المواضع هو المناسب بلاغة فى مقام الإنكار، لأن الحسبان أقوى من الظن، فالنفس مع الحسبان فى اطمئنان، ومع الظن فى قلق، والحاسب كأنه معتقد فتوجيه الإنكار إليه أولى من الإنكار على الظن.

* **(وليجة)** الوليجة هنا هم البطانة أو الأولياء، وهم حسب المصطلح الحديث (العملاء) أو (الجواسيس) شُبِّهوا بالنافذة التى تكشف ما وراء الستور، على سبيل الاستعارة الأصلية.

* ﴿وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أسلوب خبرى مستعمل فى التهديد الحامل على الاستقامة، لأن من يستشعر أن الله محيط بكل شئ علماً نزع عما نهى الله عنه وإن كان مما لا يطلع عليه الناس.

* وفى تقديم **(الجهاد)** على **(اتخاذ الوليجة)** إشعار بأهمية المقدم على المؤخر، فالجهاد لا يعدله شئ من الطاعات بعد الإيمان.

* وقال: ﴿الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾ ولم يقل **(المجاهدين)** لأن التعريف بالصلة من شأنه الدلالة على اختصاص الموصول بتلك الصلة، وكونه قد عُرِف بها أكثر من معروفيته بسواها.

* * *

٤ - ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ، وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٩].

الدراسة والتحليل:

مع أن موضوع سورة التوبة هو الفقه السياسى سلماً وحرباً، فإن فيها ردوداً على مشكلات ذات شأن كانت تعرض للمسلمين.

من هذه المشكلات النزاع فى القربات والطاعات من حيث مساواة بعضها لبعض، وأفضلية بعضها عن بعض، وهذه الآية الكريمة فيها رد على نزاع كان قد دار بين فريقين حول خدمة بيت الله الحرام، ورعاية حجاجه والإيمان بالله والجهاد فى سبيله وأياً كان طرفا النزاع مسلمين - مسلمين أو مسلمين ومشركين فإن الرد القرآنى جاء حاسماً سواء كان المشركون هم الذين أدعوا مساواة عمارة المسجد الحرام وسقى الحجاج مثل الإيمان والجهاد؟ أم كان المدعى لهذا هم المسلمون الذين تأخر إسلامهم إلى ما بعد فتح مكة فى مواجهة تفاخر المهاجرين السابقين إلى الإسلام.

نقد القرآن هذا النزاع فحسمه بهذا الاستفهام: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فى سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ﴾ وهذا الاستفهام للإنكار بإجماع أهل الذكر، ونكتفى هنا بقول بعضهم توخياً للإيجاز، وليكن الشيخ رشيد رضا من المحدثين، وفى هذا يقول: «والاستفهام فيه للإنكار، وتشبيه الفعل بالفاعل والصفة بالذات فإسناد كل منهما إلى الآخر من ضروب الإيجاز المعهودة فى بلاغة القرآن»[1].

ثم قال مرة أخرى: «والاستفهام للإنكار المتضمن لمعنى النهى، أى لا تفعلوا ذلك فإنه خطأ ظاهر ونكتة هذا التعبير بيان أن هذا الفعل ليس كالفعل الآخر، وأن الفاعل لكل منهما ليس كالآخر، بل بينهما من التفاوت والدرجات ما بينه تعالى بياناً مستأنفاً بقوله: (**لا يستوون عند الله**)[2].

(١، ٢) تفسير المنار (١٠/١٩٦).

والخلاصة: أن هذا الاستفهام للإنكار المتضمن فعلاً معنى النهى للتفاوت بين الطاعتين المقارن بينهما وأن من يدعى تساويهما فقد أبعد القول، ويحق أن يُنهَى عنه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(أجعلتم سقاية الحاج)** الخطاب هنا حرى بأن يكون طرفاه من المسلمين، وقد وردت الرواية بهذا فى حديث عن النعمان بن بشير، فقد روى الإمام مسلم وغيره أن النعمان بن بشير قال: «كنت عند منبر رسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه، فقال رجل منهم: ما أبالى أن لا أعمل لله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج، وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام، وقال آخر، بل الجهاد فى سبيل الله خير مما قلتم، فزجرهم عمر، وقال لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، ولكن إذا صُلِّيتْ الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه، فدخل بعد الصلاة فاستفتاه فنزلت **(أجعلتم سقاية الحاج...)**.

ومما يؤيد هذا أن المشركين لا مشابهة بينهم وبين المؤمنين حتى يكونوا موضع موازنة بينهم وبين المؤمنين، وأعمالهم فى سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام لا وزن لها عند الله.

أما مقابلة السقاية والعمارة وهما مصدران أصلاً بالذات (كمن آمن) فالمفسرون قدروا مضافاً فقالوا: كإيمان من آمن، وقد نبه صاحب تفسير المنار إلى سر هذا التخالف فى المقابلة بأنه للتنبيه على نفى التساوى بين الفاعلين وبين الفعلين، يعنى من آمن أعظم شأناً ممن سقى وعمَّر، وأن فاعل الإيمان أسمى قدراً من فاعل السقى والتعمير، وهذه لمحة طيبة.

* وقوله: **(لا يستوون عند الله)** تأكيد للإنكار المفهوم من الاستفهام **(أجعلتم سقاية الحاج...)**.

* * *

٥ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ، أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ، فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ .[التوبة: ٣٨].

الدراسة والتحليل:

آية من آيات العتاب على ترك القتال الواجب فى سبيل الله، تنفى أن يكون للمؤمنين عذر - أى عذر - يبيح لهم التقاعس عن القتال إذا وجب، وتنكر عليهم الركون إلى الحياة الدنيا، لأن متاعها قليل، ومع قلته فإنه متاع زائل، وقد نزلت هذه الآية لما تراخى الناس عن تبوك وجاء فيها استفهامان، هما:

- ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ؟﴾.
- ﴿أَرَضِيتُمْ بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

والاستفهامان للإنكار والتوبيخ عند جميع الأئمة لم يشذ منهم أحد(١)

وطريق دلالة ﴿مَا لَكُمْ﴾ على الإنكار هو ما سبق من أن السؤال عن الشئ يستلزم عدم رؤيته أو وجوده، وهنا سُلِّط الإنكار على العذر المبيح لترك القتال، أو السبب الصارف عنه، أى لا عذر لكم فى القعود عن القتال.

والخلاصة: أن الاستفهام فى الآية للإنكار والتوبيخ كما قال الأئمة، ولا حرج من توجيه التوبيخ للمؤمنين مع قيام أسبابه، وكيف يكون هذا الحرج مع أننا نجد فى الآية التالية لهذه الآية ما هو أنكى من التوبيخ وهو التهديد والوعيد الشديد:

﴿إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَئٍ قَدِيرٌ﴾.

أسرار النظم وبلاغياته:

* النداء بـ(**يا أيها الذين آمنوا**) ثم مخاطبتهم بقوله: (مالكم) ترقيق فى الخطاب لاستمالة قلوب المخاطبين ودعوة إلى سبيل الله بالحكمة، والمعنى: يا من أسعدكم

---

(١) الكشاف (٢/ ١٨٩)، أبو السعود (٤/ ٦٥)، روح المعانى (١٠/ ٩٤)، البيضاوى (٢/ ٤٠٤)، البحر المحيط (٥/ ٤١)، تفسير المنار (١٠/ ٣٦٦)، التحرير والتنوير (١٠/ ١٩٦).

الله بنعمة الإيمان لا نرى لكم عذراً في تباطؤكم عن القتال والعدو يتربص بكم الدوائر.

* **(انفروا فى سبيل الله)** النفر كناية عن الخروج إلى القتال فى سبيل الله، وتعدية النفر بـ(فى) بدل (إلى) إشارة إلى أن **(سبيل الله)** يبدأ بالخروج من أول خطوة من بيت النافر فهم فى كلاءة الله ورعايته حتى يستشهد أو يعود، ولو قيل (إلى) لم يكن النفر فى سبيل الله إلا بعد الوصول إلى ميدان القتال، وفى المعنى المستفاد من (فى) يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿. . . وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، ثُمَّ يُدْرِكْهُ المَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

* **﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾** التثاقل هو التباطؤ، وهذه العبارة كناية عن التقاعس عن القتال، كناية عن موصوف، وهى أبلغ فى موضعها مما لو قيل (تقاعستم) أو (تخلفتم)، لأن المتثاقل مشدود لعدم رغبته فى القتال إلى الأرض يمنعه خوره من مجرد الحركة، وهذه الكناية يتولد عنها أخرى هى الميل إلى ملذات الحياة الفانية من حب الأهل والمال والولد والراحة والدعة وسقوط الهمة وانحطاط المنزلة.

* **﴿أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ﴾** بين الأرض - أرضيتم جناس، وهو من البديع اللفظى لتشابه طرفيه فى اللفظ واختلافهما فى المعنى.

ودخول (من) فى قوله **(من الآخرة)** على الآخرة إشارة إلى معنى (البدلية) أى: بدل الآخرة، وفى (من) إلماح إلى الحرمان كأنه قيل: أرضيتم بالحياة الدنيا والحرمان من الآخرة؟ توبيخاً وتأنيباً.

* **﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾** أسلوب قصر موصوف، هو متاع الحياة الدنيا، على صفة هى القلة.

وبين الحياة الدنيا والآخرة طباق إيجاب اقتضاه المقام، وهو الموازنة بين المتاعين: القليل الزائل والكثير الدائم.

* * *

٦ - ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الحُسْنَيَيْنِ، وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِّنَ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا، فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ﴾

[التوبة: ٥٢].

الدراسة والتحليل:

أحدث المنافقون فى المدينة شغباً واسعاً، وأرجفوا إرجافاً ما وسعتهم الحيلة، وكان يبغون الفت فى عضُد المؤمنين يمسكون العصى من الوسط ليسهل عليهم الإنزلاق بسرعة إلى أى الطرفين إذا رأوا لهم فيه نفعاً.

وقبل هذه الآية آية تصور متابعتهم لأحوال المؤمنين، فإن أصاب المؤمنون خيراً حزنوا، وإن مستهم مصيبة تضاحكوا كعادتهم وقالوا: لقد احتطنا لأنفسنا فنجونا مما حل بالمؤمنين فأمر الله رسوله أن يواجه شماتتهم بهذه المواجهة الحكيمة:

(**قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، هو مولانا، وعلى الله فليتوكل المؤمنون * قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين** (يعنى الانتصار عليكم أو الشهادة) **ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا**)، وقد صدرت الآية الثانية بهذا الاستفهام: (**هل تربصون بنا**).

وهذا الاستفهام للإنكار والنفى: أى لن يصيبنا إلا ما قدره الله علينا، وعلى هذا التفسير سار جميع الأئمة[١].

والخلاصة: أن هذا الاستفهام وإن لم يصرح فيه الأئمة بأنه للنفى أو الإنكار فإن الإنكار الحصرى ظاهر فيه، فليس أمام المؤمنين فى جهادهم إلا النصر أو الاستشهاد وهما أمران بلغا الغاية فى الحسن والكمال، وقد يترتب على هذا إفحام الخصم وتبكيته ورد كيده فى نحره.

أسرار النظم وبلاغياته:

* إيثار (**هل**) فى الاستفهام - هنا - إشارة إلى تحقيق مدخولها: إما النصر المؤزر، وإما الفوز بأعلى درجات المجاهدين فى سبيل الله.

---

(١) الكشاف (٢/ ١٩٤)، وأبو السعود (٤/ ٧٣)، روح المعانى (١٠/ ١١٥)، البحر المحيط (٥/ ٥٢).

والجملة قصرية. . قُصِرَ فيـها الموصوف، وهو مآل المجاهدين فى سبيل الله، على صفة الحسن البالغ والكمال الكريم، وفى (**إحدى الحسنيين**) كناية عن موصوف: النصر أو الشهادة.

* ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيـبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ إظهار اسم الجلالة (الله) لتفظيع العذاب المرتقب لهم.

وفى (**أو بأيدينا**) مجاز مرسل علاقتـه الجزئية، حيث أطلق الجزء (الأيدى)، وأريد الكل، ولهـذا الجزء مـزيد إخـتصـاص بالعـذاب، لأن اليد هى الـتى تحمل السـلاح وتستعمله فى المعركة.

* ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ﴾ الأمر فى (**فتربصوا**) للتهديد والوعيد والتحسير، لأن ترقب الشر أنكى على النفوس من وقوعه، فهو كالموت البطئ فى شدة الإيلام.

* * *

٧ - ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَـادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِـيهَا، ذَلِكَ الخِزْىُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٦٣].

الدراسة والتحليل:

جاءت هذه الآية تعقيباً على مواقف مريبة للمنافقين كان أقربها لهذه الآية ما سجله الله عليهم فى الآية السابقة عليها مباشرة.

﴿يَحْلِفُـونَ بِـالله لَكُمْ لِيُـرْضُـوكُمْ وَاللهُ وَرَسُـولُهُ أَحَـقُّ أَنْ يُرْضُـوهُ إِنْ كَـانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

إن روح النفاق الخداع والمراوغـة، ومخالفة اللسان الـقلب وهذه بضاعة إن راجت عند بعض الناس فلن تروج عند الله، وهؤلاء الكذبة الذين يخدعون المؤمنين نسوا أن الله عليم بذات الصدور، أو صـدروا فى خداعهم للمؤمنين صـدور الناسى أو الجاهل بأن الله يعلم ويرى، لذلك صُدِّرت آيتنا بهذا الاستفهام:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُـولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ وهو استفهام تقرير لا محالة، وقد أشرنا إلى ضابطه من قبل مرات، وهو:

همزة استفهام + نفى = (تقرير)، لذلك فلا ضرورة تدعو إلى استطلاع ورصد مذاهب العلماء فيه، لأن خلاصة ما يقال فيه أنه: تقرير.

أما المعانى التى تتولد عنه فهو الإلزام بالحجة، والتهديد بسوء المصير بعد بيان موجباته من الحلف الكاذب والخداع المقيت ومشاقة الله ورسوله.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا﴾ العطف بإلفاء فى (فأن) للإيذان بأن ما بعدها مسبب عن ما قبلها، فالخلود فى نار جهنم استحق عليهم بما قدموه من نفاق ومحادة لله ورسوله.

وتوكيد الخبر بـ(أن) واسمية الجملة لأن المنافقين مع علمهم بهذه الحقيقة نُزِّلوا منزلة من يجهلها وينكرها لعدم جريهم فى الاعتقاد والسلوك وفق ما يقتضيه علمهم.

وتقديم الخبر (له) على اسم (أن) - (**نار جهنم**) لإفادة القصر، أى له لا لغيره.

والإفراد فى (له) و(**خالداً**) مراد به العموم، إذ المعول عليه فى هذا المصير المؤلم هو الصفة، فمن تحققت فيه فهو المتوعد بالخلود فى نار جهنم.

* ﴿ذَلِكَ الخِزْىُ الْعَظِيمُ﴾ تذييل مقرر لمضمون الكلام قبله.

والتعبير باسم الإشارة (ذلك) الموضوع للمشار إليه البعيد لتهويل الخزى وبلوغه الغاية فى الشناعة والفظاعة.

وهو خبر مستعمل فى الوعيد والتهديد الشديد، وقد قام اسم الإشارة مقام العاطف الرابط بين جواب الشرط المتقدم على هذه الجملة وبينها.

* * *

٨ - ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: ٦٥].

الدراسة والتحليل:

وهذه الآية تواصل الحديث عن المنافقين، وتكشف بعض أخلاقهم حين يواجَهُون بمخازيهم، فإذا لامهم لائم أو أنكر عليهم مُنكر تصرفاً صدر عنهم، لم يجدوا إلا

نفاق الكذب وكذب النفاق محامياً عنهم، فيدعون أنهم لم يكونوا جادِّين فيما يؤخذ عليهم، بل كانوا هازلين.

وقد علَّمنا الله كما علم رسوله أن نرد عليهم بهذا الرد الحكيم:

﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾؟

إن اللعب والهزل له دوائر إذا تجاوزها أهلك أهله ونعى عليهم بالويل والثبور وعظائم الأمور.

ومع ظهور المراد من هذا الاستفهام فيحسن أن نستأنس ببعض أراء أهل العلم فيه، جامعين بين بعض القدماء وبعض المحدثين.

أبو السعود: رُوى أنه ﷺ كان يسير فى غزوة تبوك وبين يديه ركب من المنافقين يستهزئون بالقرآن وبالرسول ﷺ، ويقولون انظروا إلى هذا الرجل - يعنى محمداً - يريد أن يفتح حصون الشام وقصورها هيهات هيهات - يعنى بَعُدَ. بَعُدَ - فأطلع اللهُ نبيه على ذلك فقال: احبسوا علىَّ الركب، فأتاهم فقال: قلتم كذا وكذا، فقالوا: يا نبى الله والله ما كنا فى شئ من أمرك ولا من أمر أصحابك، ولكن كنا فى شئ مما يخوض فيه الركب ليقصِّر بعضنا على بعضٍ السفر.

(قل): غير ملتفت إلى اعتذارهم، ناعياً عليهم جناياتهم منزلاً لهم منزلة المعترف بالاستهزاء، موبخاً لهم على أخطائهم(١).

بعد أن ذكر سبب النزول لوَّح بأن هذا الاستفهام للإنكار والتوبيخ.

ويقول الشيخ الطاهر: «والاستفهام إنكارى توبيخى»(٢).

والخلاصة: أن هذا الاستفهام للإنكار على المنافقين، وقد تضمن هذا الإنكار تكذيبهم وتقريعهم على سوء صنعهم.

أسرار النظم وبلاغياته:

* الإقسام فى **(ولإن سألتهم)** وتوكيد الجواب فى (ليقولن) للنعى من أول الأمر على المنافقين، بأنهم لن يترددوا فى الكذب الذى هو بضاعتهم الرائجة مع تغليظ ذلك

---

(١) تفسير أبى السعود (٤/ ٨٠). (٢) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٢١).

الكذب بإخراجه فى أسلوب قصرى مؤكد (**إنما كنا نخوض ونلعب**).

* (**نخوض**) استعارة تبعية شبه فيها لهوهم بالاغتياب الآثم والاستهزاء الشنيع بالخوض فى الماء بجامع التسلية والمرح فى كل منهما.

* * *

٩ - ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ، فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

الدراسة والتحليل:

وردت هذه الآية فى ختام الحديث عن المنافقين الذى تقدم عنهم فى هذه السورة، وسيأتى حديث آخر عنهم بعد الحديث عن المؤمنين وصفاتهم المباينة كل المباينة لصفات المنافقين، ومثلما تجاهل المنافقون من قبل وعيد الله لأمثالهم تجاهلوا هنا مصارع الشعوب والأمم التى عتت عن أمر ربها، مثل أقوام نوح وعاد وثمود وإبراهيم وأهل مدين والمكذبين لما أنزل الله.

ولما كانت هذه الأمم قد صُرِعت واستؤصِلت من الوجود جزاء وفاقاً جاء هذا الختام الحكيم فى نهاية الآية:

﴿فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

وفى هذا بلاغ للمنافقين وللناس جميعاً ليحذروا غضب الله فيبادروا إلى الإيمان والتقوى.

أما الاستفهام الذى فى صدر الآية: (**ألم يأتهم**) فهو استفهام تقرير وتذكير، وقد عرفنا أن التقرير مطرد فى كل استفهام دخلت فيه همزته على نفى، تلك هو خلاصة ما يقال فيه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (**ألم يأتهم**) التفات من الخطاب فى أول الآية السابقة على هذه الآية: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ

قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً﴾ إلى الغيبة فى صدر هذه الآية (**ألم يأتهم**).

وسره البلاغى - فيما يبدو لنا - التمهيد لترك الحديث عنهم وبدء الحديث عن المؤمنين.

* ﴿نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ إسناد الآيتان إلى النبأ مجاز عقلى لأن النبأ طريقه السماع والرواية الناقلة، وعلاقته المفعولية، وسره البلاغى تعظيم وتفخيم شأن ما حل بتلك الأقوام حتى لكأنه يسعى بنفسه ليروى حكايته لهم، والإضافة فى (نبأ الذين) للاختصاص، أى النبأ الخاص بهم، والذين من قبلهم إجمال أما تفصيله فهو قوله تعالى: (**قوم نوح**) وما عطف عليه.
* ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بدل أو عطف بيان لـ(نبأ الذين من قبلهم)، أو استئناف بيانى إجابة على سؤال حاصله: ما نبأ الذين من قبلهم؟
* ﴿فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ اللام فى (**ليظلمهم**) لتأكيد النفى فى «ما كان».
* ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ تذييل مقرر لمعنى الكلام قبله، لأن نفى ظلمهم عن الله، يقتضى أنهم هم الذين استوجبوا بكفرهم ما حل بهم من كوارث.

وتقديم المعمول (**أنفسهم**) على العامل (**يظلمون**) لتوافق رءوس الآى، ثم لإفادة الاختصاص، أى ما يظلمون إلا أنفسهم لا غير أنفسهم.

وفى تسمية العقاب ظلماً مجاز مرسل باستعمال السبب فى المسبب، لأن عقابهم كان سببه ظلم أنفسهم بكفرهم وتكذيبهم رسل الله إليهم.

* * *

١٠ - ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨].

الدراسة والتحليل

وكانت هذه الآية تعقيباً على مخزىً من مخازى المنافقين، هو خلفهم للوعد، ووعدٌ مع من؟ مع الله، وكان ثعلبة بن حاطب من كبار المنافقين، سأل رسول الله ﷺ أن يدعو الله له بسعة الرزق، فدعا له فغنى غنى واسعاً، وكان قد وعد إذا أغناه الله كان من الصالحين العارفين بفضل الله عليهم الشاكرين بالإنفاق فى الخيرات، ثم امتنع عن إخراج زكاة ماله فأنزل الله فيه هذه الآيات:

﴿وَمِنْهُم مَّن عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ، وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.

والاستفهام (**ألم يعلموا**) خلاصة ما قيل فيه أنه للتقرير والتقريع والوعيد، وقد مرَّت بنا نظائره وضابطه قريباً.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (**سرهم ونجواهم**) طباق إيجاب اقتضاه المقام، وتوكيد الخبر فى (**أن الله يعلم**) لتنزيل المنافقين منزلة الجاهل المنكر، وكذلك فى (وأن الله علام الغيوب).
* صيغة المبالغة فى اسم الفاعل (**علام**) مضافة إلى (الغيوب) ليكافئ العلم المعلوم، وقد تقدم تفصيل ذلك فى آية سورة المائدة[1].

* * *

(١) انظر (١٠٢) من هذه الدراسة.

١١ - ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَن عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤].

الدراسة والتحليل:

انتقل النظم القرآنى الحكيم مرة أخرى من الحديث عن المنافقين إلى الحديث عن المؤمنين، وقد عرَّج فى حديثه السابق على هذه الآية على جفاة الأعراب، وكراهيتهم لإخراج الزكاة واعتبارها مغرماً وإتلافاً للمال فى غير نفع، وللزكاة فى سورة التوبة مزيد اهتمام، وقبل هذه الآية بآيات بيَّن الله مصارف الزكاة الثمانية، وبيَّن أنها فريضة من الله، وأشار إلى موقف المنافقين من الإنفاق عامة، ومن الزكاة خاصة، وقبل آيتنا هذه جاءت هذه الآية:

(**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها**) ثم تلتها آيتنا مصدرة بهذا الاستفهام.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾.

ولا نريد أن نطيل الحديث عنه بعد أن مرَّت بنا نماذج عديدة حللناها تحليلاً وافياً مرات.

وخلاصة ما قيل فيه: أنه استفهام تقرير أصالة، أما أبرز المعانى المتولدة عنه - هنا - فهى الترغيب والحث على التوبة وإيتاء الزكاة وكل صور الإنفاق الحر إذا كان فى سبيل الله، لأن من علم أن الله هو وحده المكافئ على التوبة النصوح القابض للصدقات التى يراد بها وجهه الكريم بادر بالتوبة والإنفاق الواجب والتطوع.

أسرار النظم وبلاغياته:

* فى الآية الكريمة أسلوبا قصر، **الأول:** (**الله هو يقبل التوبة عن عباده**) يعنى لا غيره.

والثانى: ﴿أَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، يعنى: لا غيره.

وفيها أسلوبا توكيد: الأول: (**أن الله هو يقبل**) فقد أكد الخبر بـ(أن + اسمية الجملة + ضمير الفصل + تعريف الطرفين).

والداعى البلاغى لهذا التوكيد أمران: الأول: كون مضمون الخبر حقيقة عظيمة، وقد مرَّ شرحها قبل هذا مرات.

والثانى: رد إنكار من هو منكر من الخلق، والقرآن خطاب لكل الأجيال، فالمنكر يواجه بالتوكيد لإزالة إنكاره، والمقر يزيده التوكيد يقيناً وثباتاً، أما الموضع الثانى من مواضع التوكيد فهو قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ودواعى توكيده هى ما تقدم فى الموضع الأول، وصيغة المبالغة (التواب) والصفة المشبهة باسم الفاعل (**الرحيم**) تفخيم لمضمون الخبر، والثناء البالغ على الله عز وجل.

* وفى ﴿يَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ استعارة تبعية، حيث شبِّه القبول بالأخذ بجامع حصول النفع فى كلٍ، وفى (**الصدقات**) بدل (الزكاة) ترغيب فى بذل المال زكاة كان أو غير زكاة لأن معنى الصدقة دليل صدق الإيمان.

* * *

١٢ - ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

الدراسة والتحليل:

قبل هذه الآية آيتان مستا واقعة كانت آيتنا هذه تعقيباً عليها، أما الآيتان فهما:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ، وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى، وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً، لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾.

والواقعة التى مستها هاتان الآيتان واقعة المسجد الضرار الذى بناه المنافقون بالمدينة ليناوئوا به الإسلام ويضارُّوه، ويكون مأوى لهم ولمن يعادى محمداً ﷺ، وليفرقوا بين المؤمنين، وكان زعيم من زعماء المنافقين هو أبو عامر الراهب، وهو من الخزرج وكان قد تنصر قبل الإسلام، هو صاحب هذه الفكرة ليفت فى عضد المسلمين، ويشتت جمعهم بعد أن هاله توحدهم فى ظل الإسلام.

وقبيل غزوة تبوك دعوا رسول الله ﷺ ليصلى لهم فيه إماماً ليضفوا على مسجدهم

هالة من الشرف والفضل، ولكن الله أنبأه بكيدهم فلم يصل فيه، بل سلط عليه من هدمه وسواه بالأرض، أما المسجد الذى أشارت الآية الثانية إلى أنه أسس على التقوى من أول يوم فهو مسجد قباء الذى بناه النبى ﷺ عقب هجرته إلى المدينة فى الأيام الأولى منها قبل بناء مسجده الكبير.

والاستفهام: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوانٍ خَيْرٌ أَمْ مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾.

هذا الاستفهام وقف منه الأئمة ثلاثة مواقف:

* ففريق منهم لم يُبِنْ المراد منه، وهم الزمخشرى وأبو حيان والبيضاوى.
* وفريق قال: إن المراد منه هو الإنكار، وهما أبو السعود والألوسى[1].
* وفريق ثالث قال: إن المراد منه هو التقرير، وهما الشيخ رشيد رضا، والشيخ الطاهر بن عاشور[2]. والذين لم يصرحوا فيه بشئ لا تعليق لنا على مواقفهم لأنها سلبية.

أما الذين قالوا: إنه للإنكار فقد سَهَوْا عن الأصوب أو عن الصواب.

بيان ذلك أن هذا الاستفهام وقع فى حيزه معنيان: أحدهما وهو:

الأول: خيرية البناء المؤسس على تقوى من اللهِ ورضوان.

أما الثانى: فهو سلب الخيرية عن البناء المؤسس على شفا جرف هار.

والأول ثابت وهو مقرر، والثانى غير ثابت وهو منكر، وتطبيق القواعد البلاغية يجزم بأن الاستفهام هنا للتقرير، لأن الذى ولِىّ الهمزة هو المقرر به الثابت، وهو إثبات الخيرية لبناء التقوى والرضوان، وهذا الاستفهام ليس لنفى المساواة بين الطرفين، لأن نفى المساواة لو كان مقصوداً للزم منه أن للبناء الذى أسس على شفا جرف هار نصيب من الخيرية، وهذا محال لقوله تعالى: ﴿**فانهار به فى نار جهنم**﴾، فحمل هذا الاستفهام على الإنكار يكاد يكون محض خطأ، ولا يجوز الاعتذار عن الشيخين

(١) تفسير أبى السعود: (٤/١٠٣) وروح المعانى (١١/ ٢٢).

(٢) تفسير المنار (١١/٣٦) والتحرير والتنوير (١١/ ٣٤).

الجليلين (أبو السعـود والألوسى) بأنهما نظرا إلـى الطرف الثانى وهو: (أم من أسس بنيانه على شفا جـرف هار) لا يجوز هذا الاعتذار لأن فيه إهداراً لصدر الاسـتفهام، والكلام مسـوق لإثبات الفـضل له ونفيه عـن الطرف الثانى، فمـا الذى يسوغ لهـما إرسال النظـر إلى البعيـد وغضـه عن القريب كـما لا يجـوز شطر النظر باعتـبار أن الاستفهـام هنا استفهامان: الأول للتقـرير، والثانى للإنكار، لأن مجئ النظم الحكيم على ما جـاء عليه يسـتهدف المقـارنة بين الطرفين، ليكون التقـرير فى الأول موحـياً بالإنكار فى الثانى.

ولهذا نقول: إن ما قـاله الشيخان من أن الاستفهام للإنكار، إنما هو سـهو منهما، أو سهو من أبى السعود أخذه عنه الألوسى تقليداً خالياً من التفكير.

وهذا يفضى بنا إلى اعتماد ما قاله الإمـامان الشيخ رشيد رضا، والشيخ الطاهر بن عاشور، أثاب الله الجميع من اجتهد فأخطأ ومن اجتهد فأصاب، وكما قيل فى المثل: لكل جواد كبوة، ولكل عالم هفوة.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿عَلَى تَقْـوَى مِنَ اللهِ وَرِضْـوَانٍ﴾ استـعارة مكنيـة فى ﴿عَلَى تَقْـوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ﴾ حيث شُبِّهَتْ التقوى بالأسـاس الذى يشاد عليه البناء، ثم حذف المشبه به ورمز له بخاصة من خواصه وهى (على) المفيدة للاستعلاء، وهى استعارة معقول لمحسوس، وسرها تفخيم البناء وجلال شـأنه وقوته وإيثار حرف الجر (فى) لتضمين التقوى معنى الخوف وتنكير **(تقوى)** و**(رضوان)** للتعظيم، ونسبتها لله كذلك، وقوله تعالى: **(أسس)** ترشيح للاستـعارة لملاءمته المشبـه به، ونكتته تفخيم شـأن التقوى وثبات ما بنى عليها.

* ﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَـفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ استعارة تمثيلية، حيث شبهت الهيئة الحاصلة من بناء المسجد الضرار على الكفر والمكر والإفساد بالهيئة الحاصلة من بناء حسى على أرض رخوة لاثبات لها، والجامع هو سرعة الفناء مع خيبة رجاء بانيها.

* ﴿فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ كناية عن شقاء البانى فى الدنيا بتهدم بنائه، وفى الآخرة بالخلود فى الجحيم.

* والإظهار بدل الإضمار فى (**بنيانه**) الثانى، حيث لم يقل (أسسه) لاختلاف حقيقة البناء على التقوى عن حقيقة البناء على الجرف الهار ولو عُبِّر عنه بالضمير للزم اتحاد البناءين.

* * *

١٣ - ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ، وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

الدراسة والتحليل:

تمثل هذه الآية عقداً سخياً أبرمه الله مع المجاهدين فى سبيله، ولا يجاهد فى سبيل الله إلا مؤمن كامل الإيمان، هو عقد سخى، لأن الله خالق الأنفس ومالك الأموال، وهو هنا يشترى الأنفس التى هو خالقها، والأموال التى هو مالكها، فهل بعد ذلك من سخاء أو كرم؟

والقصد من هذا كله هو تعظيم الجهاد فى سبيله، وما سبيله إلا سبيل الحق.

والمجاهدون فى سبيل الله يقبضون هذا الثمن «الغالى» وهو «الجنة» سواء جاهدوا فَقُتِلوا، أو جاهدوا فَقَتَلُوا، لأنهم يستحقون «الثمن» على التَّلَبُّس بالجهاد الصادق، لا على موت فيه أو حياة.

فيا لها من بُشرى بشَّرهم بها من إذا عاهد أنجز، وإذا أنجز أجزل، وذلك هو الفوز العظيم.

والاستفهام الذى فى الآية استفهام نفى وترغيب وحث على الجهاد الخالص فى سبيل الله: أى لا أحد أوفى من الله بعهده.

وإذا كان المتبادر إلى الذهن هو نفى (الأوفوية) أى الزيادة فإن المقام يقتضى نفى المساواة كذلك، فوفاء الله - لأنه الله - لا يعلو عليه وفاء ولا يساويه وفاء.

هذا، وقد يذهب بعضنا إلى أن الاستفهام - هنا - للتقرير لا للنفى والإنكار، نقول إذا ذُهب هذا المذهب يكون التقرير هو تقرير النفى المفهوم من السياق، لا تقرير شئ آخر سواه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى. . .﴾ توكيد الخبر لتقرير هذه الحقيقة العظيمة ولترغيب المؤمنين فى الجهاد.

وفى (**اشترى**) استعارة تبعية، ولا شراء ولا بيع على الحقيقة، وإنما شُبِّه قبول الله لجهاد المجاهدين بالأنفس والأموال بالشراء بجامع النفع الذى يترتب على كل، وهو الحصول على الثمن وحسن الجزاء.

وتقديم الأنفس على الأموال لأفضلية الجهاد بالنفس على الجهاد بالأموال، وفى كلٍ فضل.

* ﴿بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ توكيد الخبر لضمان الحصول على الثمن، وتقديم الجار والمجرور (لهم) وهو خبر، على (الجنة) وهى مبتدأ لإفادة القصر: أى لهم لا لغيرهم، وهو قصر تنزيلى[1] بمعنى أن المجاهدين لفضلهم عند الله كأن الجنة لم تُخلق إلاَّ لهم.

* (**فيقتلون ويقتلون**) من صور اجتماع الجناس والطباق، فهو جناس للتشابه اللفظى مع اختلاف المعنى، وطباق لأن (القاتلية) تضاد (المقتولية).

وفيهما إيجاز بالحذف، لحذف المفعول فى الأول، والفاعل فى الثانى، أو بتنزيل الفعل منزلة اللازم، أى: يحدث منهم قتل، ويقع عليهم قتل.

* ﴿وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ إيجاز بالحذف فى (وعداً عليه حقاً) أى وعد الله هذا وعداً.

وقال (**حقاً**) ولم يقل: واجباً، لأن الواجب يكون على المدين، ومَنْ فوقه سلطان،

---

(١) البلاغيون يسمون مثل هذا القصر: القصر الإدعائى، وتأدباً مع كتاب الله نسميه «تنزيلى» لتنزيه كلام الله عن هذا الوصف لأن الادعاء مالا أصل له.

والله ليس فوقه سلطان، وليس لأحد عليه تبعة، أما (حقا) فهو اللائق بالكريم العزيز.

وتقديم التوراة على الإنجيل والقرآن، وتقديم الإنجيل على القرآن مراعاة للترتيب الوجودى الزمنى، لا لأفضلية المقدم على المؤخر، وإن كان هذا غير ممتنع فى تقديم التوراة على الإنجيل.

* ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ الأمر فى (فاستبشروا) للتبهيج والتفريح، ولما استعار لقبول الله لجهادهم (الشراء) استعار لجهادهم بالأنفس والأموال البيع ولم يعكس فيستعار لجزاء الله (البيع) مع أن الجنة سلعة هى التى يطلق عليها البيع، ولجهادهم الشراء لأن البائع ليس فى مكنته شئ أكثر من تسليم المبيع، أما المشترى ففى مكنته أن يبذل للبائع أكثر من الثمن، وهذا أولى من تعليل الإمام أبى السعود لعدم التعكيس(1)، وكذلك لأن البائع لا يبيع إلا لاحتياج، أما المشترى فلا يشترى إلا عن غنى.

* ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ما فى هذا التركيب من عناصر التوكيد والتفخيم إشارة إلى بلوغ جزاء المجاهدين الغاية القصوى فى الرفعة والكمال، والالتفات من الغيبة إلى الخطاب للتكريم والقرب من الله بعد الجهاد فى سبيله.

* * *

١٤ - ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

الدراسة والتحليل:

لاتزال السورة - سورة التوبة - تظهر فضائح المنافقين، وهى - هنا - فى أخريات آياتها، وهذه الآية تتابع المنافقين وهم فى مخابئهم، وتلتقط ما يدور بينهم من خبايا، وتنشرها على مسامع المؤمنين ليحذروهم وما تبثه أيتنا عنهم - هنا - تعليق لهم على نزول بعض سور القرآن، يقولون فيما بينهم:

---

(١) انظر أبى السعود (٤/١٠٦).

* ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً﴾؟

وهذا الاستفهام - كما قال الأئمة - استفهام مجازى، المتكلم والمخاطب فيه هم المنافقون، قالوه على سبيل الاستهزاء والسخرية، هذا ما قاله المفسرون وما يقوله أهل الذكر من البلاغيين.

أسرار النظم وبلاغياته:

* إيثار (إذا) فى الشرط على (إن) إشارة إلى أن المنافقين لا يتراخون عن الاستهزاء بالقرآن أو يندر منهم هذا الاستهزاء، بل هذا عادة لهم كعادات الطعام والشراب.

وفى بناء الفعل (**أُنزلت**) للمفعول إيجاز بالحذف وإشارة إلى أن الغرض البلاغى لا يتوقف على ذكر الفاعل، بل على الحدث نفسه، وهو الإنزال ولأن فاعل الإنزال معلوم.

* ﴿فَمِنْهُم مَّنْ يَقُولُ﴾ هذه العبارة إشارة إلى أن القائل بعضهم لا كلهم، وهذا من عدل الله مع المنافقين وهم يحاربون الله ورسوله.

* ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً﴾ تقدم أن الاستفهام هنا المراد منه الاستهزاء والسخرية من القرآن والمؤمنين، وهذا يعتبر سخرية خاصة بآية سورة (الأنفال) وهى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾ [الأنفال: ٢].

* ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ تعريض بالمنافقين ورد لاستهزائهم وتأكيد لما سخروا منه، وأنه واقع فعلاً لكن عند غير المنافقين.

* وفى إسناد زيادة الإيمان إلى السورة مجاز عقلى علاقته السببية، وحقيقة الكلام: زادهم الله إيماناً بسبب سماعهم لآيات الله تتلى عليهم.

* أما (**وهم يستبشرون**) فهو تذييل مقرر لمضمون الكلام قبله.

* * *

١٥ - ﴿أَوَ لاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦].

الدراسة والتحليل:

فى هذه الآية إشارة إلى بلادة حس المنافقين، وعدم انتفاعهم بالتجارب التى تمر بهم، والابتلاءات الإلهية التى تحل بهم من صحة ومرض، وغنى وفقر، وفرح وترح، إن العاقل هو الذى تصقله المحن، وتهذبه الأحداث، أما هؤلاء المنافقون فهم كالأنعام أو هم أضل.

وقد تصدر الآية هذا الاستفهام: (أوَ لا يرون)، وهو كما تقدم مرات ومرات: استفهام تقرير، هذا معناه - أصالة - أما ما يُردف عليه من معانٍ ثانية فأبرزها - هنا - التسفيه والتقريع، وهذه خلاصة ما يقال فيه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* الرؤية فى (**أو لا يرون**) يجوز حملها على الجمع بين البصرية والعلمية، لأن ضروب الفتن والابتلاءات لا تقتصر على واحدة منهما.

وإيثار المضارع (**يرون**) للدلالة على تكرار ما ينزل بهم من اختبارات فى أنفسهم وفى أموالهم.

* والعطف بـ(**ثم**) للتشنيع بهم، والنعى عليهم، يعنى أن فترات الابتلاء التى تمر بهم يتعظ فيها من يتعظ، ولكنهم ماضون فى ضلالهم.

* ﴿لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ كناية عن تمام البلادة لأنهم لا يتوبون عملاً، ولا يذكرون فكراً فيما حل بهم.

* * *

١٦ - ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا، صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧].

الدراسة والتحليل:

وهذا مسلك آخر دنئ من مسالكهم مع القرآن الكريم يضيقون به ذرعاً إذا تلى، ويسرعون فى الهروب من سماعه، ويسأل بعضهم بعضاً هل يراكم أحد من المسلمين ثم ينصرفون لأنهم يملون سماع صوت الحق، فويلٌ لهم ثم ويلٌ لهم.

والاستفهام ﴿هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ استفهام حقيقى معناه التأكد من أن أحداً لا يراهم وهم يتسللون.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أى يتبادلون نظر الاستخفاف والهزء بكتاب الله، ولكى يحددوا موقفهم من الكلام الذى يتلى، وهو الانفضاض من مجلس سماع القرآن.
* والعطف بـ(ثم) للدلالة على تراخى انصرافهم لحيظات لنفى تهمة الزهد فى سماع القرآن.
* ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ جملة خبرية لفظاً ومعنى، أو لفظاً فقط إنشائية معنى، وتكون دعاءً من الله عليهم بالطمس على قلوبهم وتخصيص قلوبهم بالصرف كناية عن حرمانها من فقه ما يتلى عقاباً لهم على سوء مقصدهم.
* ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ الباء للسببية أى بسبب غبائهم، وإيثار ذكر (قوم) وكان يمكن الاستغناء عنه لإمكان التعبير عنهم بالنكرة المفيدة للتقليل والذم والتحقير.

* * *

سورة يونس

١ - ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ، قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾

[يونس: ٢].

الدراسة والتحليل:

سورة يونس شبيهة بسورة الأنفال فى التركيز على شئون شبه الجزيرة العربية فى بدء الدعوة، وموقف قبائل قريش من الرسالة الخاتمة، ودحض كثير من الشبهات التى كانوا يشغبون بها على الإسلام، مع تفنيد عقيدة الشرك، ولفت الأنظار إلى قصص الأمم الغابرة، ثم التوسع فى عرض قصة موسى مع بنى إسرائيل الذين كانوا مع مشركى العرب فى اللجاجة والحمق، والتنويه بقوم يونس كنموذج فريد لطاعة الرسل والاحتماء بالإيمان.

وفى ختام السورة تثبيت للنبى ﷺ، ودعوة للتمسك بالوحى والتحلى بالصبر.

وقد صُدِّرت آيتنا هذه بهذا الاستفهام:

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً. . .﴾.

يقول الإمام جار الله: «الهمزة لإنكار التعجب والمتعجب منه»[١].

ويتابعه البيضاوى: **(أكان للناس عجباً)** استفهام إنكار[٢].

ويقول أبو السعود: **(أكان للناس عجبا)** الهمزة لإنكار تعجبهم[٣].

ونقل الألوسى عبارة أبى السعود لفظاً ومعنى[٤].

والخلاصة: أن هذا الاستفهام لإنكار تعجب قريش من بعث محمد ﷺ رسولاً منذراً ومبشراً، لأنه تعجب ليس فى محله، ولا وجه له عقلاً.

---

(١) الكشاف (٢/ ٢٢٤).

(٢) البيضاوى: (٢/ ٤٢٧).

(٣) تفسير أبى السعود (٤/ ١١٦).

(٤) روح المعانى (١١/ ٥٩).

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾.

المراد بالناس كفرة قريش، لأنهم هم الذين قالوا هذا الكلام، وأوثر ذكر الناس على ذكر الذين كفروا توصلاً إلى نسبة (**رجل**) وهو محمد ﷺ إليهم هكذا (رجل منهم)، ولو قيل الذين كفروا لما صحت تلك النسبة، ونكتة هذه النسبة النعى عليهم لأنهم يعرفون محمداً معرفة جيدة، ولم يجربوا عليه كذباً قط، فكيف يتهمونه بإدعاء الرسالة، ولو قيل: إلى محمد لفات هذا المعنى.

* ﴿أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

تفصيل للإجمال الذى فى (**أوحينا**) و(**الناس**) فى هذا الموضع، وفى الموضع المتقدم مجاز مرسل أُطلق فيه العام وأريد الخاص، وهم مشركو العرب، وإيقاع الإنذار على الناس باعتبار معناه الخاص، وتخصيص الذين آمنوا بالتبشير لأن الوعد الحسن من الله خاص بالمؤمنين.

وتقديم الإنذار على التبشير للتناسب بينه وبين التعجب من وحى الله إلى النبى ﷺ.

والجمع بين النذارة والبشارة طباق إيجاب اقتضاه المقام.

* ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ قدم صدق: مركب إضافى قيل إنه بمعنى السابقة والمنزلة الرفيعة، فهو - إذا - مجاز مرسل من إطلاق السبب - القدم - وإرادة المسبب - وإضافة القدم إلى الصدق للبيان والتشريف، ويتولد عن هذا المجاز كناية لطيفة عن الحظوة والسعادة.

و(**عند ربهم**) للتبهيج والتفريح وتحقق الحصول.

* ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ فُصِلَتْ هذه الجملة (قال) عما قبلها لأحد اعتبارين:

الأول: أن تكون جملة تفسيرية لعجب الكفار من بعث محمد رسولاً من عند الله.

الثانى: تكون جواباً عن سؤال نشأ عما قبلها حاصله (**ماذا قال الذين كفروا**).

* و(إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ) مقول القول، وقد أُكدَ الخبر بـ(إن + اسمية الجملة + اللام)، لرغبة أنفسهم الشديدة فى تكذيب الدعوة، وإظهارها فى معرض الدعاوى الموغلة فى البطلان، ولمواجهة إصراره ﷺ على المضى فى التبليغ والإنذار.

وإيثارهم اسم الإشارة (هذا) الموضوع للمشار إليه القريب تحقيراً منهم فى زعمهم، كما حكى القرآن عنهم فى غير هذا الموضع:

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِى بَعَثَ اللهُ رَسُولاً﴾

[الفرقان: ٤١].

وقالوا فى هذا الموضع (ساحر) وفى غيره (سحر) كما فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧] لأن الحديث فى آية يونس عن **(الرسول)** وفى آية الأنعام عن **(الكتاب)** اختلف الموصوف فاختلف الوصف بين ساحر وسحر.

* * *

٢ - ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، يُدَبِّرُ الأَمْرَ، مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣].

الدراسة والتحليل:

الآية السابقة كانت حكاية عن رفض مشركى العرب للرسالة وفى هذه الآية شروع فى ذكر الحقائق العظيمة والبراهين الساطعة على تكذيبهم بالرسالة، لأن الله الذى أرسل محمداً ﷺ هو رب الكائنات، وخالق الأرض والسموات وصاحب الجلال والكمال، بيده مقاليد كل الأمور، يصرفها كيف يشاء، لا شريك له، فليعبده العابدون، وليتنبه من الغفلة الغافلون.

وفى ختام الآية ورد هذا الاستفهام: **(أفلا تذكرون)**.

وأربعة من الأئمة هم: الزمخشرى - أبو السعود - الألوسى - ثم البيضاوى لم

ينصوا - صراحة - على المراد من الاستفهام مع عناية بعضهم بتحليل التركيب الذى صيغ فيه، كقول أبى السعود: «**أتعلمون أن الأمر كما فُصِّل فلا تتذكرون**»[1]، وواحد منهم فسره بأنه للتقرير والحض وهو أبو حيان[2]، أما ابن عاشور فهو عنده للإنكار والتقريع[3]، وواحد فسره بأنه استفهام تعجب، وهو الشيخ رشيد رضا وهو قريب من قول ابن عاشور[4]؟.

والخلاصة: أن هذا الاستفهام للإنكار، وهو إنكار الواقع أى عدم التذكر أما التعجب الذى ذهب إليه صاحب «المنار» فمعنى رديف على الإنكار والنفى، لما عرفنا من قبل أن التعجب من المعانى التابعة لا المتبوعة.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ التفات من الغيبة فيما تقدم إلى الخطاب هنا، ونكتته البلاغية مواجهة المخاطب بهذه الدلائل العظيمة، أما توكيد الخبر بـ(إن) واسمية الجملة فلإزالة تعجب المشركين الذين استبعدوا أن يبعث الله من البشر رسولاً، والخبر من الحقائق العظيمة التى يناسبها فخامة البيان عنها، وتقديم السموات على الأرض لأن آثار القدرة فيها أظهر، ولرفعها من غير أعمدة حاملة، والنص على تحديد مدة خلقها بستة أيام لبيان كمال القدرة الإلهية المبدعة، وهى كناية عن المدة القصيرة التى تم خلقها عنها، وليس المراد الأيام المعهودة بل مقاديرها المساوية لها.
* ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ العطف بـ(ثم) للترقى فى الرتبة، والاستواء على العرش فيه تأويلات:

الأول: مذهب السلف (أهل السنة) وهو إجراؤه على دون تأويل أو صرف عن الظاهر، بلا كيفية ولا تحيز، وفى هذا ورد قول الإمام مالك من أئمة أهل السنة:

الاستواء معلوم، والكيف به مجهول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب.

---

(١) تفسير أبى السعود: (٤/ ١١٩).
(٢) البحر المحيط (٥/ ١٢٤).
(٣) تفسير المنار (١١/ ٢٤٣).
(٤) التحرير والتنوير (١١/ ٨٨).

الثانى: تأويل الاستواء بخضوع كل ما فى الوجود لله عز وجل، فلا راد لقضائه، ولا شريك له فى أمره وهذا مذهب الخلف، وبعض من السلف.

الثالث: مذهب جمهور البلاغيين، وهو إما كناية عن بسط نفوذه عز وجل على جميع الكائنات، ولا يقدح فى هذا أن الكناية يصح معها إرادة المعنى الحقيقى للفظ، وهى الجلوس الحسى، لأنهم يقولون إن إرادة المعنى الحقيقى مع المعنى الكنائى جائزة لا واجبة، فإذا ترتب على تلك الإرادة محظور عقلاً أو شرعاً أو هما معنى أمتنعت تلك الإرادة كما فى هذه الكناية (**استوى على العرش**).

وإما استعارة تمثيلية شبهت فيها الهيئة المعنوية الحاصلة من خضوع الكائنات لقضاء الله وقدره ونفوذ أمره حسبما أراد بالهيئة الحسية الحاصلة من تمكن السلاطين من الجلوس على كراسى الحكم وطاعة الناس لهم.

وأياً كان التأويل فإن «كلام الله» شئ وتفسيره وتأويله شئ آخر، ويشفع لعلمائنا أنهم جميعاً مجتهدون والباعث على هذا الاختلاف بينهم هو تنزيه الله عز وجل عن صفات الحوادث، والمجتهد إذا أخطأ - مع حسن النية - له أجر، وإذا أصاب فله أجران، فلا يستساغ أن يُكفِّر أهلُ مذهب أهل مذهب آخر، بل تكون قبلتنا جميعاً قول الحق فى فهم المتشابه الذى ورد فى كتابه العزيز:

﴿. . . وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا. . .﴾ [آل عمران: ٧].

ذلك هو سبيل المؤمنين، ولا سبيل لهم سواه.

* ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ استئناف ابتدائى للترقى فى كمال الرتب الإلهية، وهو استعارة تبعية لأن التدبير هو النظر فى عواقب الأمور فاستعير للعلم بها، أى أن الله تعالى محيط علماً بمبادئ الأمور وعواقبها.

(وآل) فى الأمر للاستغراق الشامل لجميع الأمور كبيرها وصغيرها، ويجوز أن يكون استعارة التدبير للاتقان والإحكام، بل هذا أولى لاشتماله على العلم بها.

* ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ كناية عن تفرده فى التصرف كما يريد، ونفى أن

يكون لشفيع شئ إلا إذا أذن الله عز وجل، ودخلت (من) على (شـفيع) لاستغراق النفى وفى الجملة قصر موصوف على صفة، ونفى الشفيع كناية عن نفى الشفاعة، حيث تُوُصِّل بنفى السبب إلى نفى المسبب.

* ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فاعْبُدُوهُ﴾ إيثار اسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد «ذلكم» وتعميم الخطاب فيه إعلام برفعة شأنه وفخامة قدره.

وإعادة (**الله ربكم**) للتقرير بحقية ما ذكر، وتمهيد للأمر بالعبادة فى «**فاعبدوه**» والفاء للإيحاء بوجوب فورية الطاعة والإنقياد له.

* ﴿أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ إيثار التذكر على التفكر للإعلام بجلاء ما ذُكر من الدلائل الباهرة من آلاء الله وبراهينه الساطعـة على جلاله وكماله وحكمـته إذ يكفى فيهـا مجرد التذكر والتنبيه، وهذا من دقائق البيان القرآنى المعجز.

* * *

٣ - ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ، فَقَـدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ، أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦].

الدراسة والتحليل:

من المواقف التى وقفـها مشركو العـرب من القرآن الاقتراح الذى قـدموه لصاحب الرسالة، وقد تضمن مطلبين:

- أن يأتيهم ﷺ بقرآن آخر غير الذى يتلوه عليهم.
- أو يُدْخِل تعديلاً على القرآن يتضمن حذف مالا يوافق أهواءهم.

جاء هذا فيما حكاه عنهم القرآن فى هذه الآية:

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَات قَالَ الَّذينَ لاَ يَرْجُونَ لـِقَاءَنَا إئْت بِقُرْآن غَيْرِ هَذَا أوْ بَدِّلْهُ، قُلْ مَا يَكُـونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تلقَاءِ نَفْسِي، إنْ أَتَّـبِعُ إلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ، إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وقد تضمنت هذه الآية جانباً من الرد عليهم، أما الجانب الآخر فقد تضمنته آيتنا، وفيها أمر الله رسوله أن يقول لهم:

إن الأمر بيدى الله ولو كان قد شاء عدم تلاوة القرآن ما تلوته عليكم، وكيف أبدِّل شيئاً فيه بكلام من عندى وأنتم تعرفون الفروق العظيمة التى بين كلامى وبين كلام الله فكيف لى أن آتى بمثل كلامه إحكاماً وإعجازاً؟

وجاء فى ختام الآية هذا الاستفهام (أفلا تعقلون)؟ وهو مثل نظيره الذى تقدم فى الآية السابقة (أفلا تذكرون) وما قيل هناك يقال هنا.

فهو استفهام إنكار وتقريع، إنكار عدم التعقل وتدبر الأمر، وتقريع على تركهم المهم وشغلهم بمالا جدوى فيه، وهذه خلاصة ما فى هذا الاستفهام من معان مجازية.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ تفنيد لما قدموه من اقتراح خبيث بالدعوة إلى تبديل القرآن أو تحريفه، وإعلام بأن الأمر كله لله، وليس القرآن من عندى فأبدله أو أحرفه، ولو فعلت لظهر تبديلى وتحريفى لعدم قدرة أحد أن يأتى بكلام مثل كلامه الذى تحدى به الجن والإنس.

وفى العبارة إيجاز بحذف مفعول المشيئة، والتقدير: «لو شاء الله عدم تلاوة القرآن عليكم ما تلوته عليكم».

(ولا أدراكم به) توكيد لمتعلق المشيئة بنفى إعلامهم به عن طريق عدم التلاوة، أو أى طريق آخر غيره، وهو من عطف العام على الخاص زيادة فى إفحام الخصم.

* ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّنْ قَبْلِهِ﴾ تجهيل لهم وتسفيه، فقد عاشروه وعاشرهم أربعين سنة قبل أن يتلو عليهم القرآن فكيف غاب عنهم الفروق بين كلام الله وبين كلامه وهم عُمُد البلاغة وأساطين البيان.

* ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ أتعلمون هذه البداية فلا تنتفعوا ولا تُعملوا عقولكم لتهتدوا إلى التمييز بين الصحيح وغير الصحيح، وبين الممكن وغير الممكن، أم على القلوب أكنة، وفى الآذان أوقار؟

* * *

٤ - ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ، قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1] [يونس: ١٨].

الدراسة والتحليل:

استأنفت هذه الآية الحديث عن مخازى الذين لا يرجون لقاء الله، ويقترحون على رسوله الكريم تغيير الوحى كلية، أو تحريفه جزئياً، وهنا يخبر عنهم النظم الأمين برأس خطاياهم وهو عبادة غير الله، وزعمهم أن هذه الأصنام ستكون واسطة بينهم وبين الله.

ولكن القرآن يُفحمهم حين يطالبهم من أين علموا أن معبوداتهم ستكون شافعة لهم عند الله؟ الله لم يقل هذا، فهل لهم مصدر تشريعى لا يعلمه الله ولا يعلم ما يقول فهم يعكسون القضية ويُصعدون من الأرض إلى السماء وحياً؟ ليُعْلموا الله بما لا علم له به فى سماواته ولا فى أرضه.

وجاء هذا المعنى فى هذا الاستفهام:

﴿أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي ٱلأَرْضِ..﴾ وفى المراد من هذا الاستفهام يقول أهل الذكر:

للإمام جار الله الزمخشرى كلام نفيس نستمتع بنقله هنا، قال رحمه الله:

«أى أتخبرونه بكونهم شفعاء عنده؟ وهو إنباء بما ليس بمعلوم لله، وإذا لم يكن معلوماً له، وهو العالم بالذات، المحيط بجميع المعلومات لم يكن شيئاً، لأن الشئ ما يعلم به ويخبر عنه، فكان خبراً ليس له مخبر عنه، فإن قلت: كيف أنبأوا الله بذلك؟ قلت: هو تهكم بهم وبما ادعوه من المحال الذى هو شفاعة الأصنام وإعلام بأن الذى أنبأوا به باطل غير منطو تحت الصحة، فكأنهم يخبرونه بشئ لا يتعلق به علمه»[2].

---

(١) قبل هذه الآية مباشرة قوله تعالى: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً...﴾ ولما كان القول قد تقدم مفصلاً عن هذه الصيغة بأمثلتها الستة عشرة لم نُعِدْ الحديث عنها هنا دفعاً للتكرار.

(٢) الكشاف (٢/ ٢٣٠).

خلاصة معنى كلام الزمخشرى: أن الاستفهام - هنا - للإنكار والتهكم بالمشركين وبما قالوه.

وأن النفى المراد منه تُوَصِّل إليه بطريق الكناية، وهى نفى علم الله بما قالوه، والله يعلم كل موجود، ولو كان ما قالوه موجوداً لعلمه الله، فلما لم يتعلق لله به علم كان معدوماً استلزاما ويتابعه الإمام أبو السعود ويذكر التبكيت بدل التهكم[١] ويدلى الألوسى بدلوه وفى النهاية يقول:

«والمقصود من ذكر إنباء الله بمالا تحقق له ولم يتعلق به علمه التهكم والاستهزاء وإلا فلا إنباء»[٢].

ويقول البيضاوى: «فيه تقريع وتهكم بهم»[٣].

وما قاله هؤلاء الأئمة الأربعة كافٍ فى تجلية المراد من الاستفهام هنا.

والخلاصة: أن الاستفهام هنا مجازى المقصود فيه تكذيب المشركين وإنكار ما ادعوه مع التهكم بهم والتبكيت لهم.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ إيثار الفعل المضارع (يعبدون) للدلالة على أن عبادتهم للأصنام عادة لهم يمارسونها حيناً فحيناً وليست زائلة.

و(من دون الله) بيان وتخصيص لعبادتهم، وإظهار للنعى عليهم إذ العبادة فى ذاتها غير منكرة، ولكن المنكر منها ما كان لغير الله، سواء كانت مع الله - كما يدعى المشركون - أو كانت خاصة بغير الله.

﴿مَالَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ التعبير بالموصول (ما) دون مَنْ إشارة إلى ما فى الأصنام من الجمادية.

وإيثار المضارع (يضرهم - ينفعهم) لاستغراق النفى فى جميع الأوقات: الحال + الاستقبال، ثم الماضى، لكن الدلالة على نفى الحال والاستقبال دلالة منطوق اللفظ، وأما الدلالة على النفى فى الماضى فدلالة مفهوم المعنى لأن قوله تعالى: **(مالا يضرهم**

---

(١) تفسير أبى السعود (٤/ ١٣٢). (٢) روح المعانى: (١١/ ٨٩).

(٣) تفسير البيضاوى: (٢/ ٤٣١).

ولا ينفعهم) معناه: إن شأن الأصنام الملازم لها أنها لا قدرة لها على الضر والنفع والاقتصار على ذكر نفى الحاضر والمستقبل إزالة لما علق بأذهان المشركين أنها تنفعهم أو تضرهم وقت عبادتها، وهو يبدأ من الحاضر إلى المستقبل، أما الماضى فلم يَعُدْ لهم اهتمام به.

وتقديم الضر على النفع لم يطرد فى نظم القرآن، بل قد يقدم النفع على الضر، كما فى قوله تعالى فى أواخر هذه السورة: ﴿وَلاَ تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَالاَ يَنْفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ﴾ [يونس: ١٠٦]، ولكن يستدعى تقديم ما يقدم منهما داعٍ قد يدق ويلطف، فإذا تلمسنا هذا الداعى فى هذين الموضعين فليس ببعيد أن الحديث عن المشركين استدعى تقديم الضر لأنه الأنسب بهم، وبخاصة أن الحديث عنهم فى الآية المذكورة قبل آيتنا هذه مباشرة وصفهم بالأظلمية والافتراء على الله، والإجرام، فكان معنى هذا أن الله هو القادر على ضرهم بسبب تلك الجرائم، لذلك قُدِّم الضر على النفع.

أما فى الآية الثانية التى قُدِّم فيها النفع على الضر، فلأنها خطاب مع صاحب الرسالة ﷺ، فقُدِّم النفع على الضر فى خطابه لكرامته عند الله، وكراهة أن يُبْدَأ معه بالضر وإن كان منفياً.

* ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ﴾ التعبير بالمضارع **(يقولون)** للدلالة على تكرار هذا القول وكثرة وروده على ألسنتهم.

أما اسم الإشارة **(هؤلاء)** الموضوع للمشار إليه القريب فللإعلام بأن أصنامهم لا يغيب ذكرها عن قلوبهم وفاء منهم لما زينه لهم الشيطان.

* ﴿بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الْأَرْضِ﴾ هذا التركيب كله كناية عن انتفاء زعمهم شفاعة أصنامهم، لأنه لو كان حقاً لعلمه الله، فانتفاء علم الله به انتفاء له نفسه، وتكرار (لا) و(فى) فى قوله تعالى: **(ولا فى الأرض)**، وكان يمكن أن يقال: والأرض، لتأكيد النفى واستغراقه كل أفراد المنفى.

* ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تذييل مقرر لوحدانية الله وعلو شأنه على جميع مخلوقاته.

* * *

٥ - ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّـنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الحَـَّى مِـنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَمَن يُدَبِّـرُ الأَمْـرَ، فَسَيَـقُولُونَ اللَّهُ، فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

الدراسة والتحليل:

فى إطار مواجهة عقيدة الشرك وردت هذه الآية تلقى درسا بليغاً على أولئك الذين أتخذوا من دون الله أصناماً آلهة، أن معنى الألوهية يمكن تلخيصه فى الهيمنة الكاملة على الكائنات والتفرد بالنفع والضر. وعلى هذا الأساس حاورت هذه الآية المشركين، وطرحت عليهـم سؤالا إثر سؤال لتلفت أنظارهم إلـى عبادة الله وحـده وأن لايرجوا سواه فى جلب خير أو دفع شر.

لذلك احتشدت فى هذه الآية هذه الاستفهامات:

* **من يرزقكم من السماءوالأرض؟**
* **أفمن يملك السمع والأبصار؟**
* **من يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى؟**
* **من يدبر الأمر؟**
* **أفلا تتقون؟**

وهذه الاستفهامات الخمسة قسمان:

* قسم منها وهو الأربعة الأول؛ للتقرير.
* وقسم منها وهو الأخيـر للإنكار (أفلا تتقون) والائمة لم يهتمـوا بتفصيل المراد من الأربعة الأول سوى الشيخ ابن عاشور فقد نص على التقرير وأبو السعود نص على الإنكار فى الخامس[1] وبقية الآئمة بين بين،

والخلاصة: أن الاستفهـامات الأربعة الأول للتقرير بالفاعل ولذلك ولى الاسـتفهام (من) فى المواضع الأربعة.

أما الخامس (**أفلا تتقون**) فهو كما قال أبو السعود:

أتعلمون ذلك فلا تتقون. يُنكر عليهم عدم تقواهم وخضوعهم لله الذى بيده تلك النعم الجليلة.

(١) التحرير والتنوير: (١١/ ١٥٥) وتفسير أبى السعود (٤/ ١٤١).

أسرار النظم وبلاغياته:

* تقديم الرِّزق من السماءوالأرض لشدة احتياج النفوس إليه، وتقديم ما يأتى منه من السماء على مايأتى من الأرض لنزول الماء من السماء، وهو أصل الرزق الذى يأتى من الأرض.

وذكر السمع والأبصار عقب الرِّزق لأن بهمـا يكون تمام النعمة وهما أظهر الحواس التى يكتسب بها العلم والمعرفة ويحفظان الانسان من كثير من الأضرار.

ثم تلاهمـا إخراج الأحيـاء من الأموات، والأمـوات من الأحيـاء وهذا كناية عن الفيض الآلهى والتكاثر، وتعـاقب الأجيال(١) ثم تلاها تدبيـر الأمـر المنتظم لكل مـا تقدم، وهو من عطف العام على الخاص، لشمول مالم ينص عليه فى الخاص.

* والسر فى عطف ملكية السمع والأبصار بـ(أم) وماعداها بالواو التنبيه على ماللسمع والأبصار من أهمـية فى حـياة المخاطبين فـرداً فرداً والصنع الآلهى العـجيب الذى أخرجهما فيه، «فعُطِف بـ(أم) للانتقـال من نعمة جليلة إلى نعمة جليلة مثلها وفى **(يدبر الأمر)** استعارة كما تقدم فى الآية الثانية من هذه السورة.

* وفى **(أفلا تتقون)** فضلا عن الإنكار على عدم التقوى حث عليها وترغيب فيها.

* * *

٦ -﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّـلاَلُ. فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

الدراسة والتحليل:

بعـد أن وقَّف الله الناس وقررهم علـى أنه بيده مـقاليـد كل الأمور من الإيجـاد والإعدام وبينهما وما قبلهما ومـا بعدهما، ناسب ذلك أن يعقب بترسيخ تلك الحقائق فى وجدانات العباد فجاءت هذه الآية بتقرير ما تقدم مشتملة على استفهامين:

* **«فماذا بعد الحق الا الضلال»؟**

---

(١) انظر فى تفسير هذا الإخراج بحثا جديداً مهما فى كتابنا: «دراسات جديدة فى إعجاز القرآن- مناهج تطبيقية فى توظيف اللغة - مكتبة وهبة - القاهرة.

* **(فأنّى تُصرفون)؟**

وهذان استفهامان مجازيان، يقول أبو السعود فى بيان المراد منهما:

«الاستفهام إنكارى بمعنى إنكار الوقوع ونفيه»[1] هذا فى الأول ويقول فى الثانى:

«استفهام إنكارى بمعنى إنكار الواقع واستبعاده»[2] والفرق بينهما أن الأول لإنكار الوقوع، والثانى لإنكار الواقع.

ونحا الألوسى منحى الإمام أبى السعود من جعل الأول لإنكار الوقوع والثانى لإنكار الواقع[3].

أما أبو حيان فقد نص على أن المراد من الأول النفى. ولم يصرح به فى الثانى، واكتفى بتفسيره إياه تفسير الاستفهام الإنكارى[4].

ومن المحدثين الشيخ الطاهر بن عاشور، تابع من قبله من الآئمة فى حمل الاستفهامين على الانكار، ولكنه لم يعبأ بأن يكون للوقوع أو للواقع.

والخلاصة: أن الاستفهام فى الموضعين استفهام إنكارى ويضاف إلى الاستفهام فى الأول الإفحام، وفى الثانى التعجيز.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ الفاء لتعقيب هذا البيان المؤكد لصفات الجلال والكمال والجمال فى الآية المذكورة قبل هذه مباشرة.

واسم الإشارة **(ذلك)** الموضوع للمشار إليه البعيد للدلالة على علو شأنه عز وجل.

وإثار اسم الجلالة **(الله)** لتربية المهابة فى النفوس لأقتضاء المقام إياها و(ربكم) إلماح إلى صفات الجمال القدسية و(الحق) إشارة إلى ثبات تلك الصفات العلية والتعريض بعبدة الأصنام.

* ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ﴾ الفاء تفريع للاستفهام الانكارى **(أفلا تتقون)** على الاستنتاج الواقع بعد الدليل»[5].

وإظهار **(الحق)** للمرة الثانية فى الآية **(بعد الحق)** وكان يمكن أن يضمر (بعده)

---

(١) تفسير أبى السعود: (٤/ ١٤٢)

(٢، ٣) روح المعانى: (١١/ ١١٢)

(٤) البحر المحيط (٥/ ١٥٤)، والنهر الماد

(٥) التحرير والتنوير: (١١/ ١٥٨)

لتقريره على أبلغ وجه والجملة قصرية. قُصِـر فيها (غيرية الحق) على (الضلال) قصراً حقيقيا تحقيقيا.

ومن (**بعد**) استعارة حيث استعير «بعد» لـ (**غير**) على سبيل الاستعارة التبعية، لأن من تجاوز الحق ارتمى فى وادى الضلال.

* ﴿ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ للعلماء فى (أنَّى) مذهبان: أحـدهما: أنها بمعنى (كيف) ودلت على الإنكار بطريـق الكناية ، لأن نفى الحـال- كـما تقـدم مـرات- يسـتلزم نفى صاحب الحال وهذا مذهب الأقدمين من السادة المفـسرين وغيرهم والثانى: ماذهب إليه سماحـة الشيخ طاهر بن عاشور من أن (**أنى**) للاستفـهام عن المكان. وهذا ما نميل إليه [(١)]، وتكون دلالتهـا على النفى حينئذ أن نفى المكـان يستلزم نفى الحلول فيـه، ونفى الحلول يسـتلزم نفى الحالِّ، وهذه كـناية اعتـمدناها بناء علي مـذهب الأقدمين فى الاسـتفهام بـ(مَ) و (لِمَ) و(كـيف) وقد فصلنا هذا من قـبل فى صور الاسـتفهام بهذه الأدوات، ونـظائرها وبناء الفعل (**تُصْرَفون**) للمفعـول بعد حذف فاعله اشارة إلـى استبعاده وشناعـته، لدرجة أنه لايكاد يوجد له فـاعل يُنسب إليه ودلالة هذا الاستفهام على (الإفحـام) دلالة برهانية قاطعة لأن الحق والضلال- أى الباطل- لاواسطة بـينهما. فـإما الحق وهو ماعليـه الموحدون. وإمـا الباطل. وهو ماعليه المشركون.

* * *

(١) إنما قلنا: وهذا ما نميل إليه «لأن دلالة «أنى» على المكان دلالة مشعـة من اللفظ نفسه لقربها نطقا من «أين. ولأن ذكر «بَعْد» مكان «غير» فى «بعد الحق» يناسب هذا المعنى.

٧ - ﴿قُلْ هَلْ من شُرَكَائكم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْـقَ ثُمَّ يُعيدُهُ، قُلِ اللَّهُ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيـدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * قُلْ هَلْ مِن شُـرَكَائكُم مَّن يَهْـدى إِلَى الْحَقِّ، قُلِ اللَّهُ يَهْدِى للْـحَقِّ، أَفَمَن يَهْدِى إِلَى الْـحقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِـدِّى إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٤ - ٣٥].

الدراسة والتحليل:

فى هاتين الآيتين مواجهة ساحقة لعقيدة الشرك بعد المواجهات المتقدمة التى تركت عقيدة الشرك عظاما نخرة، والأمر (قل) فى صَدْرَى الآيتين للإفحام والتعجيز وقد ورد فيهما سبعة استفهامات هى:

* ﴿. . هَلْ من شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾؟
* ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾؟
* ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِى إِلَـى الْحَقِّ﴾؟
* ﴿أَفَمَنَ يَهْدِى إِلَى الحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾؟
* ﴿أَمَّن لاَّ يَهِدِّى إِلاَّ أَن يُهْدَى﴾؟
* ﴿فَمَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؟

وللسادة الأئمة كـلام طويل حول هذه الاستفهامـات ومع طوله فلا تكاد تجد بينهم خلافا يذكر فى المعانى الأصول المرادة منها وها نحن أولاء نوجـز ما قالوه غير مقيدين بفردية أقـوالهم بل آخذين بمجـموع ماتواطؤا عليـه خشيـة الإطالة لو ذكرنا مـا قالوه واحداً واحدا، وإذا كان لبعضهم إضافة حسنة عزوناها إليه اعترافا بفضله.

﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّن يَبْدأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ اتفق الأئمة على أن هذا الاستفهام للإلزام والتبكيت ماعدا الطاهر بن عاشور فقد جمع بين التقرير والإنكار فيه قال:

«والاستفهام إنكار وتقرير بإنكار ذلك [(١)]» وسيأتى شرح هذا فى مبحث الخلاصة.

* (فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) أجمـعوا على أن الاستفـهام فيـه للإنكار وأن (أَنَّى) بمعنى كيف،

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ١٦١).

ونفى الحال- كما تقدم مرات- يقتضى نفى صاحب الحال.

ماعدا سماحة الشيخ الطاهر فإن (أَنَّى) عنده استفهام عن المكان [1]، كما تقدم هذا عنده فى (**فأنى تصرفون**) وعلى هذا يكون الإنكار ناشئا عن نفى المكان الذى يقتضى نفى الحلول، ونفى الحلول يقتضى نفى الحالِّ فيه.

وهذه الطريقة مشهورة عند المفسرين، وهى كناية لطيفة كما تقدم مرات.

* ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ﴾ هو للإنكار عندهم أى لا أحد من شركائهم يبدؤ الخلق ثم يعيده ولا أحد من شركائهم يهدى إلى الحق.

﴿أَفَمَن يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّى﴾ هذا الاستفهام للتقرير، أى الأحق بالاتباع هو الذى يهدى إلى الحق. لا الذى لايهدى إلى الحق

* ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ فيها استفهامان:

الأول: (**فما لكم**)؟ والثانى (**كيف تحكمون**)؟

والأول للإنكار بطريق النفى: أى لاشىء ثبت لكم فى عبادتكم لغير الله. فتوُصِّلَ بنفى الداعى إلى نفى المدَّعى وهو الاشراك.

والثانى للإنكار والتعجيب من شأن المخاطبين،وطريق الإنكار- هنا- هو كما تقدم: السؤال عن الحال -هنا- يقتضى عدم وجوده ، وعدم وجود الحال يقتضى نفى صاحب الحال بالطريق البرهانى كما يقول أبو السعود لأن كل موجود له أحوال لاتحصى ومحال أن يوجد «شىء» وليس له حال: فالإنكار والتعجيب المتولد عنه ناشىء عن طريق الكناية لأن نفى اللازم يقتضى نفى الملزوم.

فمثلا البلوغ لازم فى الإنجاب فإذا انتفى البلوغ وهو اللازم انتفى الإنجاب وهو الملزوم فلا يصح نسبة الوالدية للأطفال.

والخلاصة: أن المراد من الاستفهامات هنا يختلف باختلاف المقام والتركيب الذى صيغ عليه الاستفهام، فالاستفهامان:

﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ للنفى والإنكار المسلطين على

---

(١) المصدر نفسه والموضع.

الفاعل و﴿هَل مِن شُرَكَـائِكُم مَّن يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ﴾ للنفى والإنكار المسلطين على الفاعل كذلك.

أما الإلزام والتبكيت اللذان صرح بهما الأئمة فهما معنيان تابعان للإنكار.

وما نقلناه عن الطاهر بن عاشور من أن الاستفهام فيهما للإنكار والتقرير فيمكن الاعتذار عنه بوجه من وجهين:

الأول: أن يقال أن الإنكار دلالة منطوق اللفظ وهو إنكار فاعلية الأصنام لبدء الخلق وإعادته والتقرير دلالة مفهوم اللفظ، وهى أن الفاعل غيرها وهو الله تعالى.

الثانى: أن يكون منزعه فى هذا هو قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَءُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ولكن يؤخذ عليه أن التقرير دلالة الأمر الثانى.

أما الخلاف بين الجمهور وبين سماحة الشيخ الطاهر بن عاشور حول (أنى) هل هى بمعنى كيف؟ أم بمعنى أين أو بعبارة أخرى:

هل هى للاستفهام عن الأحوال أم عن الأمكنة؟ وكنا قد ملنا إلى مذهبه هذا فى (فأنى تصرفون) لأن الصرف من مكان إلى مكان يناسبه أن تكون (أَنَّى) بمعنى (أين)

أما - هنا- ﴿فأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ فالمذهبان متساويان لأن أفك بمعنى انقلب. وهو يحتمل إرادة التعجيب فيه فى مجال الاعتقاد والرأى. أى: أى عقيدة أو رأى تقلبون إليه بعد عقيدة التوحيد. أو فى المكان أى: أى مكان تقلبون إليه إذا رفضتم عقيدة التوحيد نظيره من القرآن قوله تعالى : ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾.

والشيخ الطاهر لم يتمسك بالمكانية الحقيقية فى هذا الموضع كما تمسك بها فى الآية السابقة. ولكنه قال إن القلب مجازى، وهو إفساد الرأى وكذلك الاستفهام عن مكان مجازى[(١)].

ويترتب على هذا أن فى الاستفهام على رأيه مجازين: مكان مجازى، وقلب (يعنى انتكاس) وتشبيههما بالمكان والقلب الحسى استعارتان ترشح كل منهما الأخرى ومواضع بحث هذه الاستفهامات عند الأئمة هى المشار اليها فى الهوامش[(٢)].

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ١٦١)

(٢) الكشاف (٢/ ٢٣٦) البيضاوى (٢/ ٤٣٥): أبو السعود (٤/ ١٤٢) روح المعانى (١١/ ١١٣) البحر المحيط (٥/ ١٥٥) تفسير الرازى (١٧/ ٨٨) تفسير المنار (١١/ ٢٦٥).

أسرار النظم وبلاغياته:

* إيثار (هل) فى الاستفهامين الإنكاريين ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾؟ (**قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق**)؟ إيذان باستقصاء التحقيق مع المخاطبين لإزالة شبهاتهم فى فورية وحسم الفورية المستفادة من فعل الأمر (**قل**) والحسم المستفاد من أداة الاستفهام (هل).

وإيثار دخول (مِنْ) فى (من شركائكم) ولم يُقَل: هل شركاؤكم، ليعم العجز كل شركائهم فرداً فرداً حتى يشمل جميع الشركاء وفيه إيحاء بتوجيه فكرهم ليختبروا معبوداتهم فرادى وجمعا حتى يتبين لهم خطأ معتقدهم فتلزمهم الحجة أو يهتدوا.

* ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ هذا جواب الاستفهام وقد عرفنا من قبل أن الاستفهام المجازى الأصل فيه إغفال ذكر جوابه، ولكن فى النظم القرآنى تقدمت لنا صور استفهامية مجازية ذُكرت معها إجاباتها. وكنا قد هُدينا إلى دواع بلاغية من النظم القرآنى اقتضت ذكر الإجابات، منها أن لايكون للخيال مجال فى تكوين الجواب وتلوينه.

ومنها كون الاستفهام عن حقيقة عظيمة ثابتة لايضيرها إنكار منكر، ولايتوقف ظهورها على إجابة مجيب.

وهذا الجواب تنطبق عليه هذه الضوابط، لذلك صُرِّح به هنا.

وفى هذا الذكر تبكيت وتحسير للمشركين فبعد إثبات عجز آلهتهم المدعاة عن فعل شيء، أى شيء فضلا عن عجزهم عن بدء الخلق وإعادته، حسن أن يقرر ويُعيَّن الفاعل الحق لما يعجز عنه كل مخلوق.

وتصدر جملة الجواب بـ(قل) للاهتمام بالمقول وسرعة تبليغه والمواجهة به.

وتقديم اسم الجلالة (الله) على الفعل (يبدأ) لأن الانكار فى الاستفهام المجاب عليه كان لإنكار الفاعل هكذا (**هل من شركائكم من يبدأ الخلق..**) فناسب أن يكون الجواب بإقرار الفاعل (الله يبدأ).

وايثار المضارع (يبدأ) على الماضى: بدأ لما فى الخلق من تجدد وحدوث على مر الأزمان.

والعطف بـ(ثم) لما بين كل خلق وإعادته من تراخ لايعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.

وإظهار (الخلق) مرة أخرى فى الجواب بعد ذكره فى السؤال لأنه محط التحدى. ولما فى الإظهار من قوة الإيحاء بالمعنى المراد.

* ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ الفاء مشعرة بالسببية، أى بسبب ما تقدم من عجز أصنامكم وباهر قدرة الله فأى اعتقاد غير التوحيد تقلبون وترتدون إليه؟ وهذا على مذهب الجمهور القاضى بأن (أنّى) بمعنى (كيف) فى السؤال عن الأحوال.

أما على ما ذهب إليه ابن عاشور من أن (أنى) للاستفهام عن المكان بمنزلة «أين» فيكون المعنى:

بعد ما تقدم من حقائق فأى مكان تذهبون وتقلبون إليه؟

وبناء (**تؤفكون**) للمفعول لما قيل من قبل فى (تصرفون) لشناعة الفعل وغرابته حتى لايكاد يوجد له فاعل يُنسب إليه، وهذا سبيل دقيق من سبل الدعوة تحفل به بلاغة القرآن.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ استفهام إنكارى إفحامى كما تقدم.

وفصل جملة (قل) عما قبلها للإيذان بإن كل جملة ركن وحدها فى الإلزام والإفحام وإبطال عقيدة الشرك.

* ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ عُدِّى (يهدى) هنا باللام (للحق) وفيما تقدم عليه بـ(إلى) هكذا: (**يهدى إلى الحق**) وفيما تأخر عليه كذلك (**يهدى إلى الحق**).

فما سر هذا الاختلاف بين ما تقدم وما تأخر عليه، والأتفاق بين المقدم والمؤخر؟

لِمَ لم يُقَلْ فى الجميع (إلى الحق) أو (للحق)؟

إذا تأملنا فى دقائق المقامات ظهر لنا ذلك السر البلاغى الدقيق. فالهداية للحق فى (**قل الله يهدى للحق**) منسوبة إلى الله تعالى، لأن فاعل (يهدى) هو الضمير المستتر

العائد على اسم الجلالة. وقد تكرر هذا الاسناد باسناد جـملة الخبر كلها (يهدى) إلى الله.

أما فيما تقدم عليه فالهداية منسوبة لفظاً إلى الأصنام وهى لاتملك من الأمر شيئاً، أى شىء فما أبعدها عن الهداية وما أبعد الهداية عنها.

أما فيما تأخر (**أفمن يهدى إلى الحق**) فإن نسبة الهـداية هنا وقعت عامة مع أن المراد بها هو الله. والذى يؤخذ من هذا هو الآتى:

أولاً: فى نسـبة الهداية إلـى الاصنام عُدِّى الفـعل (يهدى) بـ(إلى) المشـعرة ببـعد المسافة بين البداية (الأصنام). وبين النهاية (**الحق**) وهذا توكيـد للإنكار فى صدر الآية أما فى نسـبة الهداية إلى اللـه فقد عُدِى الـفعل «يهدى» باللام المفـيدة للاختـصاص والقرب بين البداية (الله) والنهاية (الحق).

وفى نسبة الهداية العـامة عدى كذلك بـ(إلى) ولايضير أن الله داخل فـيها دخولاً أوليا، لأن تعدية الفـعل معه باللام (**قل الله يهـدى للحق**) قد قـررت صلة الحق بالله فالله هو الحق، والحق هو الله.

وهذا من دقائق الأسرار البلاغية فى كتاب الله العزيز.

* ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾ أفعل التفضيل ليست على ظاهرها بل هى بمعنى (حقيق) وأوثرت لفظا لما فيها من نفى المساواة المقتـضى لنفى الاشتراك أصلا بمعونة المقام ﴿لاَّ يَهِدِّى إلاَّ أَن يُهْدَى﴾ كناية عن معبودات المشركين من الإنس والجن والملائكة ونفى القدرة عن هذه الشرائح المدركـة يستلزم نفـيها بالطريق البـرهانى عن ما عبـدوه من صور وأشكال جمادية وحـيوانية ولاداعى لما تكلفه بعض المفـسرين من تأويلات لإدخال الأصنام وإخراجها من القدرة الذاتية على الهداية والاهتداء[١].

* هذا وقد شـاع فى الآيتين ضروب مـن الإيجاز بالحـذف والإيجاز القِصَـرى، ومنه النماذج الآتية:

---

(١) انظر ما قالوه فى هذا الشأن مهتديا بالبيان الهامشى للمصادر الذى تقدم ذكره فى غضون هذا المبحث حول الاستفهامات الستة.

* قل لهم يامحمد- يهدى من يشاء إلى الحق. أفمن يهدى من يشاء إلى الحق- أحق أن يتبعه جميع الناس فى الاعتقاد والسلوك.

ومن إيجاز القصر:

الحق- الخلق- يبدأ- يعيد- فمالكم- تحكمون

* **ومن ألوان البديع ما يأتى:**

الطباق بين يبدأ -**يعيد- يهدى - لايهدى**.

السجع: (**تؤفكون**) - (**تحكمون**).

والآيتان من الحجاج الممتع المفحم ينتزع أدلته من البدهيات المسلمات، ويتسرب إلى القلوب فى رفق وإحكام، ويستثير كل المشاعر والوجدانات حتى ليحول خصوم الحق إلى خصومة بينهم وبين أنفسهم ولولا عناد من عاند منهم لما بقى على ظهر الأرض منهم مشرك واحد وصدق الله العظيم القائل:

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً. .﴾ [النمل ١٤].

* * *

٨ - ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

الدراسة والتحليل:

تقدم أن عرضنا من قبل لموقف من مواقف المشركين من القرآن فى هذه السورة، وأنهم اقترحوا على صاحب الرسالة أن يلغى هذا القرآن ويأتى بقرآن غيره أو يبدله بما يناسب هواهم. ووقفنا على رد القرآن عليهم وهنا فى هذه الآية توكيد لعندية القرآن الآلهية ساقته آية حكيمة قبل آيتنا هذه مباشرة وهى:

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى من دُونِ اللَّهِ، وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْه، وتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَرَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

بعدها وردت آيتنا تعرض موقفا آخر من مواقفهم من القرآن، هو دعواهم أن القرآن ليس من عند الله، بل هو مفترىً من دونه، هذا قولهم عرضه القرآن بكل أمانة

وصدق، ثم تحداهم بما يثبت كذب هذه الدعوى بكل قوة ووضوح.

وفى مطلع هذه الآية ورد هذا الاستفهام:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾؟

وللإمام جار الله كلام موجز ونفيس فى بيان المراد من الاستفهام، وتكذيب دعوى المشركين بأن محمداً- صلى الله عليه وسلم- قال هذا القرآن من عنده، ثم أدعى إنه كلام الله؟ قال رحمه الله:

(**أم يقولون آفتره**): بل: أيقولون اختلقه؟ على أن الهمزة تقرير لإلزام الحجة عليهم. وإنكار لقولهم، واستبعاد، والمعنيان متقاربان (قل) إن كان الأمر كما تزعمون (**فأتوا**) أنتم على وجه الافتراء (**بسورة مثله**) فأنتم مثلى فى العربية والفصاحة، ومعنى بسورة مثله: أى شبيهة به فى البلاغة وحسن النظم»[1].

فقد فسَّر (أم) بالانقطاع- أى بمعنى (بل) (والهمزة) ولم يبين المنتقل عنه ولانوع الإضراب كعادته فى الإيجاز، أمَّا الهمزة فقد عكس الترتيب بين المعنى المراد منها آصالة، وبين المعنى الناشىء عنه، فقدم الإلزام لهم بالحجة وهو معنى تابع لامتبوع، على الانكار والاستبعاد، وهو المراد من الاستفهام أصالة.

أما أبو السعود فقد مزج فى كلامه بين كلام الزمخشرى وما قاله هو، وأم - عنده- منقطعة كما ذهب الزمخشرى أما الهمزة فقد أجاد فى بيان المراد منها حين قال:

«والهمزة لإنكار الواقع واستبعاده» [2]

ويخطو الإمام الألوسى خطوات جديدة بعد اعتماده ماقاله الإمامان وهذا قوله: (**أم يقولون افتراه**): أم منقطعة، وهى مقدرة ببل والهمزة عند سيبويه والجمهور. أى: بل أيقولون. وبل انتقالية، والهمزة لإنكار الواقع واستبعاده أى : وما كان ينبغى ذلك. وجُوِّز أن تكون للتقرير لإلزام الحجة والمعنيان متقاربان كما قيل. (هذا كلام الزمخشرى) وقيل : إن (أم) متصلة، ومعادلها مقدَّر. أى: أتقرون به أم تقولون افتراه.وقيل هى استفهامية بمعنى الهمزة، وقيل عاطفة بمعنى الواو والصحيح الأول[3]

---

(١) الكشاف (٢/ ٢٣٧).
(٢) تفسير أبى السعود: (٤/ ١٤٦)
(٣) روح المعانى: (١١/ ١٦٨)

وهذه الآراء التى حشدها يبدو عليها الضعف، وبخاصة حمل (أم) على الاتصال، وكذلك مجرد العطف.

وللشيخ الطاهر بن عاشور كلام حسن أبداه حول هذا الاستفهام ننقله نصا لنفاسته:

(أم) للإضراب الانتقالى من النفى إلى الاستفهام الانكارى التعجيبى، وهو ارتقاء بإبطال دعواهم أن يكون القرآن مفترى من دون الله.

ولما اختصت (أم) بعطف الاستفهام كان الاستفهام مقدراً معها حيثما وقعت فالاستفهام الذى تشعر به (أم) استفهام إنكارى تعجيبى والمعنى: بل أيقولون آفتراه بعد ما تبين لهم من الدلائل على صدقه وبراءته من الافتراء؟

«ومن بديع الأسلوب، وبليغ الكلام أن قَدَّم وصف القرآن بما يقتضى بعده عن الافتراء[1] وبما فيه من أجل صفات الكتب، وبتشريف نسبته إلى الله تعالى ثم أعقب ذلك بالاستفهام عن دعوى المشركين افتراءه ليتلقى السامع هذه الدعوى بمزيد الاشمئزاز، والتعجب من حماقة أصحابها[2].

والخلاصة: أن الذى لا نزاع فيه أن المراد- أصالة- من هذا الاستفهام هو الإنكار ويتبعه التعجيب، أما التقرير بالزام الحجة فلا صلة له بالاستفهام، وإنما مورده هو فعل الأمر ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ ونسبة الإلزام إلى الاستفهام هنا سهو ظاهر.

أسرار النظم وبلاغياته:

* إيثار المضارع فى (**أم يقولون افتراه**) لتكرار هذا القول منهم لبلادتهم وغيبة الفهم عنهم. وقوله (**افتراه**) إخراج على خلاف الظاهر، والأصل أن يقال: افتريته بتاء الخطاب، ونكتته كراهه مواجهته عليه السلام بأنه مفتر حتى فى سياق النفى.
* ﴿قُلْ فَأْتُوا﴾ التفات من الغيبة (**افتراه**) إلى الخطاب (قل) ونكتته التشريف الآلهى بتوجيه الخطاب إليه والأمر : (فأتوا) للتحدى والتعجيز وإلزامهم بالحجة (مثله) أى

(١)- يقصد الآية ٣٧ من يونس.

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٧٠).

مثل القرآن فى حسن النـظم والبلاغة، وعدم النظير وتنكير (سورة) للـتقليل إمعانا فى التحدى وإظهار عجزهم.

* ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ الأمر لتـوكيد التعـجيز فى (قل) والجملة مـعطوفة على (فأتوا) لمشاركتها إياها فى أن كليهما مقول القول.

* ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ إيثار (إن) على (إذا) لعدم تحـقق الشرط، والجملة- برمتـها- للتهييج والإلهاب للزيادة فى التحدى والتبكيت ومتعلق الصدق محذوف ، تقديره: فى دعواكم الافتراء.

* * *

٩ - ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ، أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لاَ يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ، أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لاَ يُبْصِرُونَ﴾

[يونس ٤٢ -٤٣].

الدراسة والتحليل

هذا تقسيم ثان للذين ناصبوا صاحب الرسالة العداء، وكان التقسيم الأول أن فريقا منهم يؤمن بالقرآن، وآخر لايؤمن، وهذا التقسـيم أن فريقا منهم يستمع إلى صاحب الرسـالة حين يتلو القرآن، وفـريقا يكثـر من النظر إلى الرسـول نفســه، كأنه يتـأمله ويتعقب تصرفاته ويشاهد معاملاته للناس، ويتفرس أحواله ويدرس أخلاقه.

وهما: - الاسـتمـاع والنظر- طريقان من طرق الـهداية والإيمان إذا كان الـباعث عليهما الصـدق وخلوص النية والبحث عن الحق. لأنهما يكشفـان عن مصدر للقدوة الحسنة التى لا توجد -سماعا- فى غير القرآن، ولا -عملا- فى غير رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويبدو - مما تكـشف عنه الآيتان- أن كثـرة سمـاع السامعين له وهو يـتلو القرآن، وتصويب نظر الناظر إليه- صلى الله عليه وسلم- أحـدثا عنده طمعا فى هدايتهم إلى الإسلام، وأن هذا الشـعور النبـيل الفياض بـالحب والخير، دفـعه عليـه السلام- إلى تكثيف الجـهد المبذول منه معهم، حـتى خيل إليه أنه بهذا العـمل الدءوب قادر على هدايتهم، وإصلاح حالهم.

لهذا - والعلم لله وحده - بصره الله بمالايطلع عليه هو ﷺ من سرائرهم وطوايا أنفسهم، حتى لاينخدع فيهم، وحتى يقف عند حدود التبليغ الميسور ولايكلف نفسه شيئاً فوق طاقتها. مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿طَهَ * مَاأنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ [طه ١-٣] وغير ذلك كثير فى آيات الكتاب العزيز.

وبناء على ماتقدم يكون معنى الآيتين:

.. فريق منهم يسمع إليك كثيراً، ولكنه سماع لايجاوز صماخ آذانهم، وفريق يهتم بالنظر إليك ولكنه نظر لا يتجاوز الصورة والشكل، فلا يخدعنك منهم طول سمع، ولاحدة نظر فتتوقع أنك بهذا تهديهم إلى الحق، فهم صم وفاقدو العقل، وعمى ،وفاقدوا البصيرة فماذا يُجدى فيهم سمع لافقه معه، ونظر لا اعتبار فيه[١].

وفى الآيتين جاء هذان الاستفهامان:

* ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لاَ يَعْقِلُونَ﴾؟
* ﴿ أَفَأَنتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لاَيُبْصِرُونَ﴾؟

وللأئمة فى المراد من هذين الاستفهامين أخْذٌ وردٌّ: جمهور القدماء قال إن الاستفهام فى الموضعين للإنكار والامام أبو السعود أطولهم باعا فى تحليل الآيتين بلاغيا وله فهم ثاقب، ونظرات دقيقة نوصى القارىء الكريم بالإطلاع عليها فى تفسيره لضيق المقام عن ذكرها بتمامها هنا وفيما يأتى قبس منها قال رحمه الله:

«همزة الاستفهام إنكارية والفاء عاطفة.. كأنه قيل: أيستمعون إليك فأنت تسمعهم.. ولو أنضم إلى صممهم عدم عقولهم، لأن الأصم العاقل ربما تفرس إذا وصل إليه صوت، وأما إذا اجتمع فقدان السمع والعقل فقد تم الأمر» [٢]، وقال فى نظيره:

---

(١) وضعنا هذا التفسير للآيتين بعد المدخل لأننا رأينا اختلافا واسعا بين المفسرين حولهما ولم نرتح إليه، فعسى أن يكون فيما كتبناه هنا شفاء لما فى الصدور وغنى عن الاختلاف الذى رأيناه.

(٢) تفسير أبى السعود (١٤٨/٤).

﴿وَلَوْ كَانُوا لاَيُبْصِرُونَ﴾ أى ولو انضم إلى عدم البصر عدم البصيرة، فإن المقصود من الإبصار الاعتبار والاستبصار والعمدة فى ذلك هو البصيرة »[1].

وكون الاستفهام فى الآيتين للإنكار بناء على تنزيل المخاطب صلى الله عليه وسلم منزلة من رأى نفسه قادراً على إقناعهم وهدايتهم هذا الرأى هو رأى المفسرين القدامى وقد أشرنا بالنيابة عنهم إلى ماقرره الإمام أبو السعود.

أما الطاهر بن عاشور فقد أنكر أن يكون الاستفهام فى الموضعين للإنكار، فقال:

«وهذان الاستفهامان مستعملان فى التعجب من حالهم، إذ يستمعون إلى دعوة النبى صلى الله عليه وسلم ولايفعلونها، وإذ ينظرون إلى أعماله وسيرته ولايهتدون بها فليس فى هذين الاستفهامين معنى الإنكار على محاولة النبى إبلاغهم وهديهم، لأن المقام ينبوعن ذلك، وهذه المعانى المجازية تختلف باختلاف المقام والقرائن، فلذلك لم يكن الاستفهامان إنكاراً »[2].

واضح أن الشيخ الطاهر فهم أن الإنكار الذى فسَّربه الآئمة الاستفهام فى الموضعين إنكار لمحاولة النبى صلى الله عليه وسلم إبلاغهم وهديهم وهذا لم يكن المقصود لهم من الإنكار بل كان مقصودهم إنكار الحرص الشديد منه صلى الله عليه وسلم على هدايتهم، وتحمله المشاق المضنية فى سبيل ذلك ولو كان هذا المعنى قد تبين للشيخ ابن عاشور لما أنكر هذا الإنكار الذى هو محق فيه.

أما التعجيب الذى اقترحه ليحل محل الإنكار الذى رفضه فهو معنى مردوف على الانكار وليس منفصلا عنه انفصال استقلال.

والخلاصة: أن الاستفهام فى الآيتين للإنكار، إنكار أن يكون صاحب الرسالة قادراً- مهما بلغ من الجهد- على إحداث أسباب الهداية فى قلوب المتحدث عنهم من إسماع يقود إلى التعقل. ، أو إراءة ينشأ عنها عندهم التبصر، وفيهما تسلية له صلى الله عليه وسلم بأن صدودهم عن الإيمان لم يكن لقصور منه فى التبليغ وحسن القدوة، بل لآفات فيهم جعلت سماعهم كلا سمع، ونظرهم كلا نظر.

---

(١) تفسير أبى السعود (١٤٨/٤).   (٢) التحرير والتنوير (١٧٨/١١).

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ إيثار المضارع لتكرار الاستماع وحدوثه كلما سنحت لهم فرصتـه، وتقديم الاستماع على النظر فى الآية الثـانية؛ لأنه الأشيع فى التلقى والمعارف ولعدم توقفه على مايتوقف عليه النظر من توفر مايهىء للنظر من شروط.

* ﴿أَفَأَنتَ تُسْـمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لاَ يَـعْقِلُونَ﴾ تقديم الضـمـيـر (أنت) أو الفاعل (المعنوى) على الفعل (تسمع) لأنه محط الإنكار على ماتقدم بيانه فى الدراسة.

ووضع **(الصم)** موضع (هم) لتأتّى تشبيههم بالصم فى عدم انتفاعهم بما يسمعون، وهى استعارة أصلية

﴿وَلَوْ كَانُوا لاَ يَعْقِلُونَ﴾ كناية عن التيئيس من هدايتـهم، شبههم أولا بالصم فى عدم الانتـفاع بالقـرآن وبولغ هنا فى بيـان إعراضهـم فجعلهـم مسلوبى العـقول لأن اجتماع الصمم وعدم التعقل يسلبان عمن أصيب بهما كل وسائل التأثر، فهم كالدمى أشكالها أشكال الإنسان وطبيعتها الجماد أو الحيوان.

والواو فى **(ولو)** عاطفة على محذوف تقديره: أأنت تسمع الصم لو كانوا يعقلون، ولو كانوا لايعقلون، وهى (لو) الوصليـة للدلالة على المبالغـة فى الأحوال حـسب اقتضاء المقام.

وهى التى يكون مـابعدها أقصى مـايتعلق به الغرض من الـكلام، ولذلك يقدرون قبلها جملة معناها ضد الجملة التى دخلت عليها **(لو)** وقد سبق تقدير هذه الجملة منذ أسطر.

* ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَـنظُرُ إِلَيْكَ﴾ ما قيـل فى نظيرتها يقال فـيها، وكل ما بينهـما من اختلاف جـمع الفعل فى تلك **(يستمعون)** وإفراده هنا (ينظر) وأن الاسـتعارة هناك (الصمم) وهنا (العمى).

وفى تعليل الجمع فى **(يستمعون)** والإفراد فى (ينظر) أن السمع أكـثر أفراداً وأيسر وقـوعا من النظر لإن الإنسـان كثـيراً مـا يسـمع من لا يراه ومحـال أن يرى كل من يسمع، وهذا توجيه مقبول والاستعمالان بعد (مَنْ) فصيحان لغة وبلاغة.

لأن (الجمع) مـراعاة لمعنى (من) و(الافـراد) مراعـاة للفظ (من) ولهمـا فى القرآن نظائر أخرى.

وفى (العمى) استعارة أصلية كما فى (الصمم) والاستفهام لإنكار أن يكون الرسول قادراً على هداية من جمع إلى عمى البصر عمى البصيرة.

* ﴿وَلَوْ كَانُوا لاَ يُبْصِرُونَ﴾ لو وصلية كما تقدم وتقدير المحذوف معها هكذا:

أأنت تهدى العمى لو كان يبصرون ولو كانوا لايبصرون والمراد بالإبصار المنفى فى الآية (حدة البصيرة) وتقديم الضمير (أنت) ليس للقصر- كما فهم بعضهم- بل لأنه محط الإنكار.

أما القصر فيمتنع لأنه يستلزم أن يكون غير الرسول قادراً على ذلك وهذا غير وارد هنا ولا يجوز أن يكون (القادر) هنا هو الله، لأن الله لا يُكره أحداً على عمل شيء ولو سلمنا بالقصر هنا وجب أن نسلم به فى قوله تعالى ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

* * *

١٠ - ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية تقص علينا سؤالا كان يتفوه به منكرو البعث كلما ذكّرهم الدعاة باليوم الآخر، وردد على أسماعهم بعض ما سيكون فيه وقد ذكر القرآن فى مناسبات مختلفة ورود هذا السؤال عنهم. وهو:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعنى «حددوا لنا يوم القيامة هذا الذى تخوفوننا به.

وهذا الاستفهام يدل على المراد منه، وهو الاستبعاد المفضى إلى الإنكار، بمعنى أنه لن يكون أصلاً[١].

وهذه هى خلاصة ماقيل فيه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(يقولون)** نلحظ أن القرآن يؤثر التعبير بالمضارع كثيراً فيما ينسبه إلى المشركين من

---

(١) روح المعانى (١١/ ١٣٠).

شبهـات للدلالة على لغطهم الذى يتكرر كثيـراً ،من ذلك ورود المضارع **(ويقولون)** فى صدر هذه الآية والوعـد كنايه عن يوم القيامة وفـيه إيجاز بالحذف لأن التـقدير متى يكون أو يتحقق هذا الوعد؟

وإنكاره جاء بطريق الكناية لأن السؤال عن زمن تحققـه يستلزم عدم وجوده، وعدم وجود الزمن يستلزم عدم وجود الوعد نفسه.

* * *

١١ - ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْنَهَاراً مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ * أَثُمَّ إِذَا مَاوَقَعَ آمَنتُمْ بِهِ، آلآن وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ * ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِما كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [يونس ٥٠ - ٥٢].

الدراسة والتحليل:

لقد جمع المشركون بين الشرك، وهو رأس الخـطايا وبين الجهل والحماقة. وهذا ما يعرضه علينا القرآن هنا.

فـقد اسـتـعجلوا حلول العـذاب بهم حين قـالوا: ﴿مَـتَى هَذَا الْوَعْـدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ كما قالوا فى سورة الأنفال ﴿. . اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِن عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]

وعلى حمـاقتهم هذه فقـد قابل الله حماقـتهم وجهلهم بالحلم والحكمة، فـمضى معهم شـوطا فى التذكير ولـفت الأنظار والكشف عن ضلالهم لعلهم يهتـدون. فأمر رسوله الكريم أن يقول لهم:

هبــوا أن عـذاب الله أتاكم وأنـتم آمنون فى غـفـلتكم، أو أتاكم وأنتـم نشطون متنبهون، كيف يكون حالكم تحت وطأة ذلك الهـول. ماذا تستعجلون منه وقد دهاكم أتستعجلون منه الإيمان وقد فات وقت الإيمان؟

أتظنون أن إيمانكم به بعد وقوعـه نافع لكم؟ كيف وقد كنتم تستـعجلون به تكذيبا للوعد به ولوقوعه؟

وقد جاء فى هذه الآيات الثلاث الاستفهامات الآتية:

(أرأيتم) - **(ماذا)** - **(أثم)** - **(آلآن)** - **(هل تجزون)**.

وقد عرفنا من قبل مذهب العلماءفى صيغة: أرأيت- أرأيتم، وأنها عندهم بمعنى فعل الأمر: أخبرنى أخبرونى، وأن منشأ هذا القول كان النحاة، وفى مقدمتهم سيبويه، وأن البلاغيين جاروهم عليه حتى صار لهم مذهبا مجمعا عليه.. وكنا قد أبدينا فيه فهما مغايراً لما أجمعوا عليه، وأن ذلك الفهم قد يتعين فى كثير من مواضعه فى النظم القرآنى الحكيم.

ذلك الفهم خلاصته- الآن- أن يراُد بهذا التركيب **(أرأيت)** وما تفرع عنه:

أن يراد به استحضار صورة مادخلت عليه هذه العبارة فى الذهن، ليحكم عليها وهى حاضرة ماثلة فى المشاعر، لتهويل تلك الصورة وغرابتها، سواء كانت الرؤية بصرية أو علمية.

وذلك مثل قوله تعالى:

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّين * فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون ١ -٣] فالمطلوب بالاستفهام -هنا- استحضار صورة الذى يكذب بالدين ما هى؟ أى إثارة هذه الصورة فى الذهن مع التشويق إلى عقبى الكُلام كيف تكون.

وبعد هذا الاستحضار يأتى الحكم: (فذلك الذى يدع اليتيم. ولايحض على طعام المسكين) فيتمكن المعنى فى النفس كل تمكن.

وهذا من المواضع التى يتعين فيها هذا الفهم المغاير لما أشتهر عند النحاة والبلاغيين.

وفى آيتنا هذه يسوغ جداً هذا الفهم، فالله قد أمر رسوله أن يقول لهؤلاء المستعجلين بحلول العذاب عليهم: تصورا إن داهمكم عذاب الله فى آية لحظة ماذا يستعجل منه المجرمون- يعنى أنتم- غير الهلاك والدمار؟

وقد حمل المفسرون هذين الاستفهامين على الإنكار [1]، والذى يبدو لنا أن الأول **(أرأيتم)** استفهام تذكير وتوقيف لهم على حالهم تلك الغريبة، وهى استعجال ما فيه حتفهم وهلاكهم.

---

(١) انظر تفسير أبى السعود مثلاً (٤/ ١٥٣).

أما الثانى فهو استفهام نفى، أى لاتستعجلون منه - أى من العذاب- إلا الهلاك الذى لايبقى ولايذر والإلقاء فى نار جهنم.

وهذا أولى من جَعْل الضمير المجرورفى (منه) عائداً على الله كما فهم بعض المفسرين.

أما ﴿أَثُمَّ إِذَا مَاوَقَعَ آمَنتُمْ بِهِ، آلآن وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾؟

فقد حملهما المفسرون- وهم محقون- على الإنكار أى:

إنكار تأخير الإيمان إلى وقت حلول العذاب بهم. والذى نستريح إليه أن الأول ﴿أَثُمَّ إِذَا مَاوَقَعَ آمَنْتُم بِهِ﴾ مع دلالته على الإنكار المذكور فإن فيه تمهيداً لوقوع الاستفهام الثانى (آلآن) يعنى أفى هذه اللحظة يحدث منكم الإيمان، وقد كنتم من قبل تستعجلون به استعجال المنكر لوقوعه المكذب للوعد به.

ويكون المراد منه تبكيتهم وتحسيرهم وتجهيلهم وإظهار ضلالهم.

فهو بدل من الاستفهام الأول ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُم بِهِ﴾.

أما الاستفهام الخامس ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّبِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ فهو استفهام نفى يحمل معانى التبكيت والتحسير والتنديم والتجهيل وتوقيفهم على ما كانوا فيه من ضلال.

أما تفاصيل أقوال المفسرين فى هذه الاستفهامات الخمس فينظر إليها حسب الهوامش المثبتة فى أسفل الصفحة[1].

والخلاصة: أن الاستفهام الأول والثانى والثالث والرابع والخامس تدور معانيها عند الأئمة بين الإنكار والتعجيب والتجهيل، وأن (أرأيتم) بمعنى فعل الأمر: أخبرونى وقد أثبتنا ما رأيناه أولى فى بعض هذه المواضع فى الدراسة فلا داعى لتكراره هنا.

---

(١)- الكشاف (٢/ ٢٤٠) ابو السعود (٤/ ١٥٣) روح المعانى (١١/ ١٣٢) البحر المحيط (٥/ ١٦٥) البيضاوى (٢/ ٤٣٨) الرازى (١٧/ ١٠٨) تفسير المنار (١١/ ٣٢٢) التحرير والتنوير (١١/ ١٩١).

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً﴾ لم يقل (ليلا) ليقابل (نهاراً) لنكتة نص عليها البيانيــون، وهى أن المراد التقـابل بين وقتى تمام الغـفلة وتمام اليقظة، والناس لاينامــون بمـجرد دخــول الليــل، بل يقضــون جزءاً طويلا وهم **مستيقظون** فلو قيل (ليـلاً) لما حصلت هذه النكتة، أما (بيــاتاً) فتشعـر بالركون إلى البيوت. وهى موطـن الدعة والراحة وبين **(بياتاً)** و **(نهاراً)** طباق.

وإسناد الآيتين إلى العذاب مجــاز عقلى، وسره البلاغى تهـويل ذلك العذاب حتى لكأنه من شدة عدائه للمشركين يأتى ساعيا من نفسه لإيلامهم.

* ﴿مَاذَا يَسْتَعْـجِلُ مِنهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ فى هذه العـبارة إيجـاز بالحذف -فـيمـا نرى- والتقــدير: (ماذا يستـعجل منه **المجرمون**) الا الهــلاك والدمــار لهم، والمـعنى عند المفسرين: ماذا يكذب منه المجرمون، حملاً لاستعجالهم على التكذيب.

وفى **(المجرمون)** وضع لظاهرٍ مـوضع الضمـير، لأن الأصل كـان أن يقال: مــاذا يستعجلون منه أو ماذا تستعجلون منه وأوثر هذا الظاهر (المجرمون) على ذلك الضمير لما فيه من مرونة تأتى وصفهم بالاجرام.

* ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْـتُم بِهِ﴾ ايثار (إذا) دون (إن) إعلام بتحـقق وقوع الموعود به وهو العذاب، وإيــثار الماضى **(آمنتم)** وكــان الأصل أن يقــال: **(تؤمنون)** لأن (إذا) شــرط لما يستــقبل من الزمــان. لإفــادة تحقق الوقــوع، وهو الإيمان القَســرى الذى لافضــيلة فيــه لفاعله ففى العـبارة اسـتعارة فى زمن الفـعل حيث شُــبِّه الإيمان فى المستقبل بالإيمان فى الماضى بجامع تحقق الوقوع فى كل، مثل قوله تعالى فى مطلع سورة النحل ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّه فَلاَ تَسْتَعْجِلوهُ﴾

* ﴿وَقَدْ كُنتُمْ بِه تَسْتَعْجِلُونَ﴾ عُدِّى الفعل **(تستعجلون)** بحرف الجر (البــاء) لتضمـنه معنـى **(تُكذِّبون)** وهذا من إيجاز القِصَر لأن الفعل **(تستعجلوه)** دلَّ على معناه لفظا، وعلى مـعنى **(تكذبون)** تضـميناً فـصارت الجـملة الواحدة فى اللفظ جـملتين فى المعنى.

* ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ العطف بـ (ثم) للتراخى الزمنى مع الترتيب، وجاءت صلة الموصول (ظَلَمُوا) ولم يقل أجرموا ليتأتّى وصفهم بالأمرين الذميمين معاً. الاجرام أولا، ثم الظلم ثانيا وللتفنن فى الخطاب وتلوينه.

* وفى (ذُوقُوا) الأمر للإهانة، وهو استعارة تبعية شبه فيه الاصطلاء بالذوق بجامع شدة الإحساس فى كل منهما.

أو هو قرينة المكنية إذا كان الكلام على معنى تشبيه العذاب بالطعام. وسرها البلاغى أن العذاب هو قوتهم فى نار جهنم، وإضافة العذاب إلى (الخلد) من إضافة الموصوف إلى الصفة، أى : العذاب الخالد

* ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ إيثار (هل) لتحقق وقوع الجزاء المجانس لعملهم فى الحياة الدنيا.

وبناءالفعل (**تُجزون**) للمفعول للعلم بالفاعل وإشارة إلى أن محط الفائدة هو وقوع الجزاء فى نفسه، ولم يتعلق الغرض ببيان فاعله وتعيينه.

والباء فى (بما) للسببية و(ما) موصولة صلتها جملة (**كُنتم تكسبون**) أو مصدرية، والتقدير: بكسبكم وإيثار المضارع (**تكسبون**) لما فيه من إحياء وبعث لآثامهم التى كانوا قد اقترفوها فى الحياة الدنيا. وكأنها تقع ساعة يقال لهم هذا القول.

وفى العبارة أسلوب قصر، قصر موصوف على صفة، حيث قصر جزاؤهم الوفاق وهو الموصوف على سببية كسبهم من الكفر والمعاصى، قصراً حقيقياً وحذف معمول الصلة (ظلموا) إما حملاً على العلم به من مواضع أخرى فى القرآن صُرِّح فيها به مثل: (**ظلموا أنفسهم**)

وإما بتنزيله منزلة اللازم: أى حصل منهم الظلم تبشيعاً للظلم ومغبته، ليحذره من يحذره. وليظلم نفسه من يظلمها.

* * *

١٢ - ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ، قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ، وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣].

الدراسة والتحليل:

الكفر اضطراب عقلى ونفسى، ومن مظاهر هذا الاضطراب فى كفر مشركى العرب تلوُّن مواقفهم أمام الدعوة، وتذبذبهم بين هذا وذاك.

وهذا ما نراه فى هذه الآية والآيات التى قبلها، فبعد أن حكى عنهم القرآن تكذيبهم بالبعث، عاد فحكى هنا أنهم توجهوا بالسؤال مرة أخرى للنبى ﷺ، وكأنهم طالبو إرشاد وتوجيه توطئة لأن يؤمنوا، حكى القرآن عنهم هذا التَّلَوُّن فى هذه العبارة:

(ويستنبئونك أحق هو)

وقد أجمع الأئمة أن الاستفهام هنا مرادهم منه الإنكار والسخرية، ولكنهم أظهروه فى مظهر الجد الذى لاهزل فيه، وهذه خلاصة ما قيل عنه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* السين والتاء فى (**يستنبئونك**) للطلب، وأوثر الفعل المضارع للدلالة على أنهم كانوا يلحُّون على النبى ﷺ بهذا الكلام. ولم يقولوه مرة واحدة.
* أما جملة (**أحق هو**) فبيان للاستنباء المفهوم من الجملة قبلها. وتقديم (حق) وهو المسند، على (هو) وهو المسند إليه لأن (**حق**) هو محط الإنكار والسخرية عندهم. وتنكير (**حق**) للتحقير حسب زعمهم.
* ﴿**قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ**﴾ جواب الاستفهام. وصدِّر بفعل الأمر (**قل**) لأهمية المقول وإيجاب المواجهة، وقد أكد الخبر بـ (**إى**) المفيدة لتحقق المسئول عنه الذى وقعت هى فى صدر جوابه، ثم بالقسم واسمية الجملة ثم (إنَّ ولام التوكيد).

وتنكير (**حق**) فى (**لحق**) للتعظيم. والمراد بـ (حق) فى الموضعين: الصدق والوقوع، يعنى: أواقع هو؟ نعم: إنه - والله - لواقع.

وإنما أكد الخبر لمواجهة الإنكار المفهوم من السؤال.

* والتوكيد بالقسم فى خطاب غير المؤمنين للتعريض بهم وأنهم كان الأولى لهم أن يتركوا هذا العناد ويصدقوا الرسالة فيخاطَبوا خطاب المؤمن.

وفيه لطيفة بلاغية أخرى: هى إغاظتهم حيث جُعِل ما كفروا به دليلا من أدلة تكذيبهم وإلزامهم بالحجة.

* ﴿وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ زيادة فى التكذيب والتحسير، ودخلت الباء على خبر (ما) - (معجزين) لإفادة الزيادة فى التوكيد الحاصل بحمل الخبر على المبتدأ أى: ومأأنتم بقادرين على الهروب منه وقت أن يقع. هذا ما قاله المفسرون. ونضيف إليه احتمالاً لاتأباه الدلالة هو أن يكون المراد (بمعجزين): وما أنتم بقادرين على رده وتعطيله يوم يحين وقوعه. بل إننا لنرشح أن يكون هذا المعنى هو المقصود لشدة المناسبة بين الدالِّ والمدلول.

* * *

١٣ - ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ، أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

الدراسة والتحليل:

نلاحظ أن النظم القرآنى الحكيم إذا واجه خصوم الدعوة فى دعوى قائمة يدعونها، فإنه بعد إبطال تلك الدعوى وتحقيق الانتصار عليهم، كثيرا ما يستطرد فيذكر دعوى أو دعاوى كانوا قد أظهروها قبل، ثم يكر عليها - استطراداً - فيبطلها مثلما أبطل الدعوى التى ورد ذكرها عنهم فى بداية المواجهة. هذه سنة من سنن البيان القرآنى تستحق الدراسة الموضوعية المتأنية ودواعيها البلاغية رائعة جداً.

لأن العدو إذا أوقعت به هزيمة أوهنت قواه، ولكن ما يزال به رمق من حياة، فإن إنزال هزيمة أخرى أو هزائم متلاحقة كفيلة بأن تجعل الخصم سريع الاستسلام أو يهتدى إلى ما تدعوه إليه.

وهذا ما صنعه القرآن - هنا - فبعد أن فنَّد باطلهم فى مسألة (**البعث**) وما يترتب عليها من ثواب وعقاب عاد فواجههم فى مسألة التحريم والتحليل التى سبق تفنيدها وإبطالها فى سورة (الأنعام).

لذلك اشتملت هذه الآية على الاستفهامات الآتية:

* ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ - ﴿آللَّهُ أذنَ لكُمْ﴾ - ﴿أمْ عَلَى اللَّه تَفْتَرُونَ﴾ ومذهب البلاغيين والمفسرين فى (أرأيتم) معروف لنا من قبل، وإضافتنا إلى هذا المذهب أشرنا إليها مرات فى هذه الدراسة.

فهو عند الجمهور بمعنى: (أخبرونى) كما تقدم. والمراد منه - عندهم - يختلف باختلاف المقام. وكثيرا ما يمرون عليه المرور العابر فلا يضيفون إلى تفسيره بـ بـ(أخبرونى) شيئاً، لأن معناه غالبا يظهر فى ما بعده لا فى نفسه.

وعلى الفهم الذى أبديناه أن هذا الاستفهام . . (**أرأيت - أرأيتم**) المراد منه استحضار صورة المستفهم عنه فى الذهن، ليُدَارَ الحديث عنه وهو حاضر ماثل فى مخيلة المخاطب، ولا يكون غائبا مجهولاً، لأن الحديث عن المجهول لايفيد.

وهنا: فإن المراد من (**أرأيتم**) أى: استحضروا صورة الرزق الذى رزقكم الله بأنواعه المختلفة من نبات وحيوان وغيرهما:

هذا الرزق أنتم جعلتم منه حراما وحلالاً على غير ما شرع الله. فمن أذن لكم فى هذا؟ آلله أذن أم أنتم الذين تفترون الكذب على الله.

والاستفهام فى الصورة الأولى إنكارى. أى: إنكار أن يكون الله أذن لهم.

أما الثانية: (**أم على الله تفترون**) فقد جوزوا أن تكون أم متصلة ويكون الاستفهام للتقرير والتبكيت لتحقق العلم بالشق الثانى، وهو الافتراء على الله. هكذا قال الإمام أبو السعود. ثم قال: «ويجوز أن يكون الاستفهام للإنكار وأم منقطعة. ومعنى بل فيها الإضراب والانتقال من التوبيخ والزجر على إنكار الإذن، إلى ما تفيده همزتها من التوبيخ على الافتراء عليه سبحانه وتعالى وتقريره»[١].

وجارى الإمام الألوسى الإمام أبا السعود فى جُل ما قال وجوَّز أن تكون (ما) فى قوله تعالى: (ما أنزل) هى (ما) الاستفهامية، وهذا احتمال بعيد فيما نرى. أما تقدير المعنى عنده فهو: «أرأيتم الذى أنزله الله تعالى لكم من رزق ففعلتم فيه ما فعلتم أى الأمرين كائن فيه الإذن من الله تعالى بجعله قسمين أم الافتراء منكم»[٢]؟ وهذا على تقدير أن (أم) متصلة.

---

(١) تفسير أبى السعود (٤/ ١٥٦).

(٢) روح المعانى: (١١/ ٢٠٨).

ويرى ابن عاشور أن الاستفهام - برمته - تقريرى مشوب بالإنكار. قال:

«والاستفهام فى (أرأيتم) و(**آلله أذن لكم**) و(**أم على الله تفترون**) تقريرى باعتبار إلزامهم أحد الأمرين إما أن يكون الله أذن لهم - يعنى ولا إذن قطعا - أو أن يكونوا مفترين على الله. وقد شيب التقرير فى ذلك بالإنكار»[1].

والخلاصة: أن حاصل ما تقرر أن الاستفهام فى (**آلله أذن لكم**) للإنكار وهذا حق. أما (**أم على الله تفترون**) فإن كانت أم متصلة فالاستفهام للتقرير. أى تقرير الشق الثانى وهو افتراؤهم على الله. وإن كانت منفصلة كانت الهمزة فى (بل أ) للإنكار. ويتبع الإنكار فى الحالتين التوبيخ والتكذيب.

وحمل (أم) على الاتصال - فيما نرى - أولى وأبلغ من حملها على الانفصال فى هذا المقام. ويكون المعنى عليه: لاشىء من الأمرين كائن.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿مِن رِّزْقٍ﴾ من: بيانية، وإيقاع الإنزال على الرزق مجاز متعدد التقدير. أن يكون الإنزال بمعنى التقدير من إطلاق المسبب وإرادة السبب، أو يكون الإنزال بمعنى التهيؤ لأن الأسباب كالماء، والإنضاج بالكواكب لها تأثير فى تهيئة الرزق للانتفاع.
والجمع بين (حراما - حلالاً) طباق إيجاب اقتضاه المقام، وتقديم (حراما) على (حلالاً) لأنه محط الإنكار لأن ما أحلوه أبقوه على صفته. أما ما حرموه فإن المخالفة فيه شنيعة، حيث حرموا ما أحل الله.
* ﴿آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ إيجاز بالحذف فى حذف المتعلق، وتقديره (فيه) أى أذن لكم فيه.
* ﴿أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ تقديم الجار والمجرور (على الله) على (تفترون) للقصر زيادة فى التشنيع عليهم، وإظهار اسم الجلالة (الله) بدل الإضمار (عليه) لإظهار قبح جريمتهم لأن الافتراء على الله أشنع ضروب الافتراء.

* * *

(١) التحرير والتنوير: (١١/٢٠٨).

١٤ - ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً، سُبْحَانَهُ، هُوَ الْغَنِىُّ، لَهُ مَافِى السَّمَوَاتِ وَمَافِى الأَرْضِ، إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهذَا، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ﴾

[يونس: ٦٨].

الدراسة والتحليل:

فى هذه الآية انتقال من الحديث عن مشركى العرب إلى الحديث عن اليهود والنصارى الذين دَعَوا لله ولداً. وتم الانتقال إلى الحديث برفق ولطف.

فبعد أن وجَّه الله رسوله لعدم الاعتداد بما يقول مشركو مكة، فى قوله عز وجل قبيل آيتنا هذه:

﴿وَلاَيَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ، إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً، هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وبين له مسببات هذا التوجيه بترك الاعتداد بما يقولون فى قوله سبحانه:

﴿أَلاَ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَمَن فِى الأَرْضِ، وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ فالله سبحانه هو مالك الملك، ومن كان من حزبه فلا يحزن.

أما المشركون فهم واهمون فى ما يقولون وما يعتقدون.. فأنت ترى أن الحديث عن الشرك جاء فى إطار تثبيت صاحب الدعوة ﷺ. فحسن أن يكون مناسبة للحديث عمن دعا لله ولداً. فكانت هذه الآية:

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً..﴾ هذا هو الرابط لما جاء فى هذه الآية بما قبلها. ثم جاء فيها هذا الاستفهام:

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ﴾.

طوائف الشرك جميعهم تربطهم رابطة واحدة، هى التوهم واتباع الظن. ومنهم اليهود الذين ادعوا أن «عزير» ابن الله والنصارى الذين ادَّعَوا أن عيسى ابن الله. فووجهوا بهذه العبارة:

﴿إِنْ عِندَكُمْ مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ﴾ أى ما عندكم من دليل على هذه الفرية. أما الاستفهام فإن جميع الأئمة، مجمعون على أنه للإنكار

والتوبيخ والتقـريع، وهذه خلاصة ما دار عليـه الحديث عندهم فى هذا الموضع، وهو أو ضح ما يكون دلالة عليه. فلا داعى للإطالة بذكر ما قالوه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴾ بيَّنا فى الدراسـة والتحليـل لطف المدخل فى هذا النظم للانتقال للحديث عن عـقائد أهل الكتاب، وعليه فإن الضمـير فى (قالوا) عام فى المشركين جـميعـا من عبدة الأصنام وغـيرهم من أهل الكتـاب. ويكون فصل هذه الجملة (قالوا) عما قبلها استئناء ابتدائى (نحوى) لبيان أقبح شناعات المشركين.

وقد ذهب الشيخ بن عـاشور إلى قصر الحديث - هنا - عن مشركـى مكة مستدلاً بأن الآية مكية؛ لأنها من سورة مكية، وأن القـرآن لم يتعرض لعقائد أهل الكتاب إلا بعد الهجرة إلى المدينة؟ وهذا سهو وقع فيه الشيخ الجليـل. فما أكثر حديث القرآن قبل الهجرة عن اليهود والنصارى، والرد على معتقداتهم. ويكفى هنا أن نذكر بما ورد فى سورة الكهف: ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَـالُوا اتَّخَـذَ اللَّهُ وَلَداً * مَّـالَهُـمْ بِهِ مِن عِلْمٍ وَلاَ لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً﴾ [الكهف: ٤-٥].

وماذا يفعل الشيخ الجليل بقـوله تعالى فى سورة الزخرف ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ منهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا أآلِهَـتُنَا خَيرٌ أَمْ هُوَ، مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف:٥٧-٥٨].

* ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ تنزيه لله عما نسبوه إليه. و(هو الغنى) توكيد لذلك التنزيه. والجملة قصرية فى المعنى قصـرت صفة الغنى على الله تعالى بتنزيل غنى من سواه منزلة العدم؛ لأنه غنى لأدنى ملابسه والله هو مالك كل شىء.

* ﴿لَهُ مَافِى السَّمَوات وَمَافِى الْأَرْضِ﴾ فُصِلتْ عما قبلهـا لأنها إما توكيد لها، أو عطف بيان، أو بدل. وإعادة الموصـول فى قوله تعالى **(ومافى)** لزيادة تقرير ملكيته عز وجل، وكان يمكن أن يقال **(والأرض)**.

* ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُـلْطَانٍ بِهَـذَا﴾ التفـات من الغيـبة للخطاب لإظهار تـكذيبهم ومواجهتهم به على أبلغ وجه.

* ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ﴾ المضارع للدلالة على تكرار هذا القول الباطل منهم. وإظهار اسم الجلالـة لبيان قبح قولهم. وتقـديم الجار والمجرور **(على الله)** على مقول القول **(مالاتعلمون)** للقصـر، ولموافقة رءوس الآيات. وفى الاستـفهام بعد الإنكار من الإلزام بالحجة والإفحام ما لايخفى.

* * *

١٥ - ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا، وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٧-٧٨].

الدراسة والتحليل:

قبل هاتين الآيتين قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوماً مُّجْرِمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُم الحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

ثم جـاء قول مـوسى الذى حكاه عنه القـرآن: **(أتقولون للـحق لما جاءكم..)** أنكر عليهم أن يسموا الحق سِحْراً. ووبخهم على هذا التخليط بقوله: **(أسحر هذا)**.

ثم جاء قول قومه منكرين عليـه - كذلك - الحق الذى جاءهم به فقالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا . .﴾ والاستفهامات الثلاثة:

* **(أتقولون)** - **(أسحر هذا)** - **(أجئتنا)**؟ كلها المراد منها الإنكار.

فمـوسى عليه السـلام ينكر عليهم أن يقـولوا على الحق الذى جاء به أنه سـحر، ولكنه لم يذكر هذا لدلالة مـا بعده عليه، والتـقدير أتقولون للحق لما جاءكم سـحر؟ أسحر هذا.

أما الاستفهام الثالث، وهو قول قوم موسى لموسى عليه السلام: **(أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا)** فهو كذلك للإنكار قطعا.

هذا واضح كل الوضـوح. وهو خلاصة مـا يقال فى هذه المواضع الثـلاثة. ولكن بعض الأئمة لم يتقن القـول فى الاستفهامين الأولين. مثل الإمـامين الزمخشرى وأبى السعود[1].

---

(١) الكشاف (٢/ ٢٤٢) تفسير أبى السعود (٤/ ١٦٨).

أسرار النظم وبلاغياته:

* فصلت جملة (**قال موسى**) عما قبلها للاستئناف البـيانى حيث نشأ سؤال عما قبلها كانت هى الجواب عليه، وذلك أن وصف قوم موسى للحق الذى جاء بأنه سحر، يستدعى سؤالاً مؤداه: وماذا قال موسى لقومه حين سمع كلامهم هذا.

* وجملة: (**أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا**) هى مقـول القول واللام فى (**للحق**) بمعنى (على) وأوثرت عليها لما تفيده من قوة إلصاق التهمة بالحق الخالص. وإنكار موسى قولهم هذا منظور فيه إلى قيدين:

الأول: الوصـف بـ (**سحر**) وهو مـحذوف لدلالة المذكـور عليـه والثانى: كـون الموصوف بهـذا الوصف الشنيع هو الحق أى: أتقولون على الحق سحـر؟ أهذا سحر؟ ففى العبارة إيجـاز بالحذف - نكتته كراهه ذكره مـوصوفا به الحق، وأشار إلى أنه فى غرابته لايكاد يُسْنده إلى الحق أحد إلا الحمقى.

وإيثار اسم الإشارة (هذا) للدلالة على ظهور الحق الذى أعماه عليه جهلهم.

* وقـوله (**ولايفلح الساحرون**) كناية عن تبـرئة نفـسه عليـه السـلام من أن يشتـغل بالسحر، لتأكيد إنكار وصفهم للحق بالسحر.

* (**أجئتـنا لتلفتنا عما وجـدنا عليه أباءنا**) فى أجئتنا وتلفتنا استعـارتان تبعيتان. شبهت الرسالة إليـهم بالمجىء الحسى بجامع التـصدى لهم والقرب منهم فى كل، وشـبه ترك عبادة أصنامهم بالالتفات الحسى بجـامع التغيير فى كل. وفى (الكبرياء) كناية عن السيادة وقد ضمنت الكبرياء معنى (التمكن) ولذلك عديت بـ (فى).

* (وما نحن لكما بمؤمنين) خبر مستعمل فى الإقناط والتيئيس.

* * *

١٦ - ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١].

الدراسة والتحليل:

فى هذه الآية تحديد لنهاية فرعون المشئومة، وقد جاء قبلها قوله جل شأنه: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ آمن قسرا لا اختياراً، ذليلا حقيراً بعد أن ملأ الأرض تعاليا وجوراً وظلما. وكان عبرة لجميع الطغاة والظالمين.

وفى هذا الاستفهام يقول الإمام الزمخشرى: **(الآن)** أتؤمن الساعة فى وقت الاضطرار، حين أدركك الغرق وأيست من نفسك»[١].

لم يصرح الزمخشرى بالمراد من الاستفهام، وإن كان كلامه يومىء إلى أنه للإنكار.

أما أبو السعود فيرى أن المراد هو الإنكار التوبيخى على تأخيره الإيمان، والتقريع على العصيان والإفساد[٢]، وكذلك قال الطاهر بن عاشور[٣].

والخلاصة: أن هذا الاستفهام للإنكار - أصالة - ومما ينشأ عنه التوبيخ والتيئيس؛ لأنه لم يؤمن تصديقا بالبلاغ الإلهى. وإنما أظهر ذلك القول قسراً لا فضل له فيه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(آلآن)** فى هذه العبارة إيجاز بالحذف لدلالة المقام على المحذوف وهو:

أتؤمن الآن؟ ودليل هذا ما ذكر حكاية عن فرعون فى الآية السابقة على هذه الآية، وهو:

﴿آمَنتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ﴾ وحتى فى إظهار هذا الإيمان لم يعرف فرعون **(الله)** لذلك قال: **(الذى آمنت به بنوا إسرائيل)**. وبهذا الجهل صين اسم الجلالة **(الله)** أن يجرى على لسان ذلك الصنم القذُر.

---

(١) الكشاف (٢/ ٢٥١). (٢) تفسير أبى السعود (٤/ ١٧٣).
(٣) التحرير والتنوير (١١/ ١٧٧).

أما حذف (تؤمن) الذى هو محط الإنكار فنكتته البلاغية هو عدم الاعتداد به، وأنه لا وجود له فى قلبه المعلول. فحذفه فى اللفظ دليل على انتفائه أصلاً. وهذا من دقائق أسرار النظم القرآنى المعجز.

* ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أسلوب خبرى ليس المراد منه فائدة الخبر، ولا لازم الفائدة بل المراد هو تحسير فرعون وتبكيته، وتعجيل المساءة إليه، لذلك جعل الله ختامه شر ختام.

وفى حذف ما يضاف إليه (قبل) إيجاز بالحذف أما (**وكنت من المفسدين**) فتذييل مقرر لمضمون الكلام قبله. والله لايحب المفسدين.

* * *

١٧ - ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

الدراسة والتحليل:

من الناس ناس قست قلوبهم، وصمَّت آذانهم، وعميت أبصارهم فدحروا وعُزِلوا عن الحياة، يأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم.

وقد ابتلى الله رسوله ﷺ كما ابتلى أولى العزم من الرسل - بقطيع من هؤلاء «الدمى» المتحركة، الذين لايسمعون قولا، ولايفقهون معنى. وكان عليه الصلاة والسلام يواصل الليل والنهار - فى دعوتهم إلى الإيمان فلا يزدادون إلا نفوراً، وهو حريص كل الحرص على هدايتهم، وغرس الإيمان فى قلوبهم، وكم تحمَّل من المشاق فى سبيل هذه الغاية النبيلة دون أن يجد لديهم صدى لكلمة قيلت، أو جَهْدٍ بُذِل وهو ماض فى طريقه لايعرف اليأس.

فأنْزلَ الله هذه الآية وآيات قبلها عزاء له وتسلية. ومن ذلك:

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لايُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ ثم جاء هذا الاستفهام فى آيتنا هذه:

* ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾؟

وللأئمة فى هذا الاستفهام مذاهب جمعت بين الاتفاق والاختلاف. ونسوق - فيما يأتى - نماذج من أقوالهم فى توجيه هذا الاستفهام:

فالإمام جار الله يقول:

«يعنى إنما الذى يقدر على إكراههم واضطرارهم إلى الإيمان هو - أى الله - لا أنت، وإيلاء الاسم حرف الاستفهام الإعلام بأن الإكراه ممكن مقدور عليه، وإنما الشأن فى المكره من هو؟ وما هو إلا الله وحده - يعنى الله - لايُشَارَكَ فيه؛ لأنه هو القادر على أن يفعل فى قلوبهم ما يضطرون عنده إلى الإيمان، وذلك غير مستطاع للبشر»[1].

يريد أن يقول:

إن الإكراه - يعنى الفعل - ممكن لا إنكار فيه، وإنما الإنكار فى الفاعل. وليس هذا الإنكار فى عموم الفاعل. بل فى فاعل يكون من جنس البشر أو من غيرهم من المخلوقات وإن كان رسولاً، لا يقدر أن يفعل هذا الفعل.

ويقول الإمام أبو السعود: «أفأنت تكره الناس» على ما لم يشأ الله منهم حسبما ينبىء عنه حرف الامتناع فى الشرطية، والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام، كأنه قيل: أربك لايشاء فأنت تكرههم **(حتى يكونوا مؤمنين)** فيكون الإنكار متوجها إلى ترتيب الإكراه المذكور على عدم مشيئته تعالى... وفى إيلاء الاسم حرف الاستفهام إيذان بأن الإكراه أمر ممكن، لكن الشأن فى المكره (اسم فاعل) من هو وما هو إلا الله وحده، لايُشارك فيه»[2].

أما ابن عاشور فيقول: «والاستفهام فى **(أفأنت تكره الناس)** إنكارى، فنُزِّل النبى ﷺ لحرصه على إيمان أهل مكة، وحثيث سعيه لذلك بكل وسيلة صالحة منزلة من يحاول إكراههم على الإيمان، حتى ترتَّب على ذلك التنزيل إنكاره عليه»[3].

والخلاصة: أن كون الاستفهام للإنكار الواقع على الفاعل المعين لاخلاف فيه. وأن الإضافة التى ذكرها الشيخ الطاهر التى سوغت الإنكار المذكور إضافة صحيحة.

---

(١) الكشاف (٢/ ٢٥٤).

(٢) تفسير أبى السعود (٤/ ٧٧).

(٣) التحرير والتنوير: (١١/ ٢٩٣).

وأما تقديم الفاعل (أنت) فلا نرى أنه يفيد القصر لأن الله لايكره أحداً على فعل شيء. ويناصر هذا الأداة (لو) المشعرة بانتفاء المشيئة. وهى لم تقيد فى النظم الحكيم بـ «القسر والإلجاء» الذى قرره الزمخشرى، وارتضاه أبو السعود فى أحد تفسيريه لما عطفت عليه الفاء. فنحن غير محتاجين لهذا إذا قلنا أن ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ﴾ أن المشيئة المنفية هى مشيئة الإيمان لا مشيئة الإكراه. وهذا هو الأنسب لا ماجرى عليه الإمام جار الله.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ أوثر الماضى (شاء) لتأكيد النفى المشعرة به (لو) وأوثر (رب) مضافا إلى ضمير المخاطب ﷺ؛ لأن المقام مقام تسلية وتثبت له عليه الصلاة والسلام، فأوثر ربك. لإمكان الإضافة فى (رب) دون (الله) ولما فى (رب) من معانى الإنعام وحسن الرعاية.
* ﴿لَآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ أكد جواب (لو) باللام والفعل الماضى وكل وجميع، للإعلام بأن مشيئة الله إذا تعلقت بشيء كان ولم ولن يتخلف. وفى هذا تذكير لصاحب الرسالة ليطمئن قلبه، وتسلو نفسه عن عناد قومه.
* ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ تقدم أن فى هذا الاستفهام إنكار أن يكون فى مقدرة صاحب الرسالة قدرة على إحداث الإيمان فى قلوب من لم يشأ الله إيمانه فشبّه ذلك «الإحداث» المطموع فيه بالإكراه فى عدم قبولهم نصحه مع الحرص منه ﷺ عليه لا أن النبى حاول إكراههم فعلا، ولا أن الله هو الذى يكرههم بناء على القول بالقصر كما تقدم.

* * *

١٨ - ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ، وَمَا تُغْنِى الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

الدراسة والتحليل:

قبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ، وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ كما أن هذه الآية جاءت عقب قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فى الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا؛ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ففى هاتين الآيتين السابقتين على آيتنا هذه توجيه للدعاة، وإمامهم محمد ﷺ من قبلهم بأن كل شىء يقع فى الحياة قد أذن الله فيه، ومحال أن يقع فيها شىء لم يشأه عز وجل. فالذين آمنوا واستقاموا كان إيمانهم مأذونا فيه من الله. والذين كفروا كان كفرهم مأذونا فيه من الله. فمن اختار الإيمان يسَّر الله له طرقه ومن أختار الكفر أذن الله له فيه. ولكن ليعلمْ الناس أن الله لا يجبر أحدًا لا على الإيمان، ولا على الكفر. مع ملاحظة حقيقة ينبغى أن يدركها الناس، وهى أن الذين كفروا هم الذين اختاروا الكفر برغبتهم بسبب تركهم إعمال عقولهم، وإعراضهم عن التأمل فى دلائل الإيمان فى ملكوت الله وفى أنفسهم، وإعراضهم عن الدعاة والناصحين لهم. فهؤلاء يطمس الله على أبصارهم وبصائرهم جزاء لهم على صدودهم. فلا يُفْهم أن الله هو الذى يختار الإيمان ثم يُكْره عليه من آمن، ولا يختار الكفر لبعض الناس ثم يكرههم.

وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَيَعْقِلُونَ﴾.

وبعد بيان هذه الحقائق، قال لرسوله: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ليقيم الحجة عليهم، لا أنه يُطمِّع رسوله فى إيمانهم. بدليل ما ورد فى الآية نفسها ﴿وَمَا تُغْنِى الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ والمراد من الاستفهام: ﴿مَاذَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ هو التأمل والاعتبار، ثم تفخيم المأمور بالتأمل فيه وهو ملكوت السموات والأرض وما بينهما. وهذا خلاصة ما قيل ويقال فى هذا الاستفهام.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ صُدِّرت هذه الآية بفعل الأمر (قل) إيذانا بأهمية المقول، وتفخيمًا لشأنه لما فيه من براهين ساطعة، وأدلة قاطعة على فطرية الإيمان بالله الخالق المصور المبدئ المعيد، القائم على كل نفس بما كسبت.

* وفى (**انظروا**) وهو فعل أمر لوجوب التأمل فى ملكوت الله، فى هذا الفعل استعارة تبعية، حيث استعير النظر للتفكر المفضى إلى الإيمان الصادق، بجامع الوضوح فى كل. أى تفكروا تفكرًا يجلِّى لكم الحق كما يجلى النظر صور المرئيات.

* ﴿مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ تفخيم إثر تفخيم لعجائب ملكوت الله، وهذا من الكلام القليل الدال على المعنى الكثير فهو من إيجاز القصر فى كلا طرفيه:

فالذى فى السموات رفعها بغير عمد، وما فيها من شموس وأقمار وكواكب.. الخ.

والذى فى الأرض المحيطات والبحور والأنهار والمعادن والأشجار والزروع. ثم كرويتها وذورانها حول الشمس وحول نفسها... الخ.

* ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْآيَاتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ (ما) فى (**وما تغنى**) إما نافية، وهو الأظهر، وإما استفهامية للإنكار والنفى.

وفى (**تغنى**) استعارة تبعية. استعير الغنى فيها للإفادة يعنى: لا تفيد، والجامع حصول النفع فى كل منهما. وسد الحاجة. والذين لا يؤمنون فقراء محتاجون لأسباب الهداية، ومع وجود تلك الأسباب ظلوا فقراء لأنهم لم ينتفعوا بها لإعراضهم عنها.

* ﴿الآيَاتُ وَالنُّذُرُ﴾ وفى إسناد (**تغنى**) إلى الآيات مجاز عقلى، لأن الآيات والنذر أسباب ذلك الغنى المنتفى فى حقهم لعدم الأخذ بها.

وعطف (**النذر**) على (**الآيات**) من عطف الخاص على العام. فالآيات تكون فى الخير والشر. والنذر لا تكون إلا فى الشر. والجمع بينهما إعلام بأن حالهم فى المطمع والمفزع سواء.

* * *

١٩ - ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَـوْا مِن قَبْلِهِمْ، قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: ١٠٢].

الدراسة والتحليل:

لما أفـادت الآية السـابقة أن المشـركـين لم يتـعظوا بالنظر فى ملكـوت السمـوات والأرض، حملت هذه الآية تهديداً ووعيداً لهم بأن مصيرهم بعد هذا الصدود والعناد هو الهلاك، يعنى أنهم لم يبق أمامهم إلا الوقائع السُّود والكوارث الجامحة المماثلة فى فظاعتـها الوقائع التى حـقت على الأمم التى كذَّبت الرسل من قـبلهم، وكانت تلك الوقائع مـعروفة لمشـركى العرب فى عصـر الرسالة الخاتمة، ثم أمـر رسوله الكريم أن يقول لهم: انتظروا مـصارعكم والعذاب الذى سـيحل بكم وستـرون، وسنرى معكم خذلانكم وانتصار الحق على باطلكم.

وقد صدِّرت هذه الآية بهذا الاستفهام: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ﴾؟ والمفسرون لم ينـصوا على المراد من هذا الاستفهـام إلا اثنين، وتباينت وجهتا نظريهما فيه.

الأول من الأقدمين، وهو الإمام أبو حيان. قال:

- وفى الاستفهام تقرير وتوعد وحض على الإيمان. والمعنى: إذا لجوُّا فى الكفر حل بهم العذاب، وإذا آمنوا نجوا، هذه سنة الله فى الأمم الخالية(١).

والثانى من المعاصرين، وهو سماحة الشـيخ الطاهر بن عاشور، قال: «والاستفهام مجاز تهكمى إنكارى، نُزِّلُوا منزلة من ينتظرون شيـئا يأتيهم ليؤمنوا، وليس ثمة شىء لأن ينتظـروه إلا أن ينتظروا حلول مـثل أيام الذين خلوا مـن قـبلهم، التـى هلكوا فيها»(٢).

والخلاصة: أن أبا حيـان - وهو نحوى ضليع - فاتـه أن فى هذا التركيب اسـتثناء مشـعراً بأن فى الكلام قصـراً أداته النفى والاستثناء، ولا أداة نـفى صريح فى الكلام فتـعين أن تكون (هل) استـفهامـية نافيـة. وهذا لا يصلح معه التـقرير والحض على الإيمان.

---

(١) البحر المحيط (٥/ ١٩٤). (٢) التحرير والتنوير: (١١/ ٢٩٨).

ولهذا فإن ما قاله الإمام الطاهر هو عين الصـواب فى المراد من الاستفهام. فهو - حقا - إنكارى تهكمى تهديدى.

أسرار النظم وبلاغياته:

* أوثرت أداة الاستفهام (هل) لإفادة التحقيق فى السؤال والجواب معًا.

أما (ينتظرون) ففى هذا الفعل استعارة تبعية تـهكمية، شُبِّه فيها بقاؤهم على الكفر بالانتظار بجـامع ما يتـرتب على كل منهـما من حـصول شيء. ولما كـان (الانتظار) لترقب ما ينفع المنتظر، كانت هذه الاستعارة تهكمية. لأن مصيرهم إلى أشد العذاب، فهى وزان قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

* وفى قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ﴾ تشبيه والتقدير: إلا أياما مثل أيام الذين خلوا، ووجه الشبه هو (الهلاك).

* وفى (**أيام**) مجاز مـرسل علاقته الزمانية، لأن مـعنى الأيام هنا: الوقائع المهلكة، فسـميت باسم الـزمن الذى وقعت فـيه. مثـل: أيام العرب، أى وقـائع وحروب العرب..

وأوثر الفعل (**خَلَوا**) على: مَضَـوا لما فى الفعل (خلا) من مـعنى الفراغ والزوال، وانمحاء الأثر.

* ﴿قُلْ فَانتَظِرُوا﴾ فعل الأمر (قل) لتفظيع شـأن المقول حسب دلالة المقام. وللدلالة على وجوب مواجهتهم للتحسير والتبكيت.

والأمر (**انتظروا**) للمبالغة فى تبكيتهم والتهكم عليهم وإهانتهم.

وحذف مفعول (**انتظروا**) للتهويل والتفظيع، إذ يؤمئ الحذف إلى أنه لغرابته لا يكاد يُصور عن طريق اللغة وإنما بالمعاينة والمشاهدة يوم يحل بهم.

* و ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ كثـيرا ما يرد هذا الأسلوب فـى القرآن، ويراد منه التحقيق والوعيد: تحقيق ما يُنتَظر، والتلويح بالتهديد. يعنى: ستَرَوْن ما يحل بكم من عذاب. وسنرى معكم ما يحل بكم لتعلموا صدقنا وأكاذيبكم.

* * *

سورة هود

١ - ﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً، وَلَإِن قُلْتَ إِنَّكُم مَبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ المَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [هود: ٧].

الدراسة والتحليل :

بين سورتى يونس وهود تآخٍ ظاهر، فسورة هود تلى سورة يونس فى ترتيب المصحف، وهى كذلك فى ترتيب النزول.

ومن يقارن بين «جو» السورتين يلحظ تشابهًا بينهما غير خفى.

فكلتاهما بدأت بالإيماء إلى إعجاز القرآن، ثم عادت إليه صراحة بعد ذلك.

وفى كل منهما تصدٍّ لعقائد المشر كين، عرضا ونقضا.

وفى كل منهما سرد لقصص الماضين من مكذبى الرسل مسوق للعظة والاعتبار.

وكلتا السورتين ختمتا بالثناء على الله عز وجل، ففى يونس: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ، وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ﴾.

وفى هود:

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

مع ملاحظة طريفة فى العرض والتناسق المتبادل بين السُّورتين لأن الموضوعات التى اشتركت فى عرضها السورتان جاءت على النهج الآتى:

ما بُسط عرضه فى يونس اختصر عرضه فى هود. وما اختصر عرضه فى يونس بُسِط عرضه فى هود.

مثال ذلك:

مواجهة سورة يونس لمشركى مكة، بدأت من أول السورة إلى الآية السبعين منها.

ومواجهة سورة هود لمشركى مكة، بدأت من أول السورة إلى الآية الرابعة والعشرين.

يعنى: بُسطت فى يونس،واختصرت فى هود، أى بنسبة ٣:١ والقصص فى سورة يونس بدأ من الآية (٧١) وانتهى بالآية (٩٣) أى = ٢٣ آية.

أما فى سورة هود فقد بدأ من الآية (٢٥) وانتهى بالآية (١٠٢) وهى نفس النسبة تقريبًا، أى نسبة: ١:٣.

وقصة موسى عليه السلام فى يونس بدأت من الآية (٧٥) إلى الآية (٩٣) = ١٨ آية. بينما هى فى هود أربع آيات فحسب من الآية (٩٦) إلى الآية (٩٩) أى بنسبة: ١:٤ تقريبا، أجل إنه لنسق عجيب، وسمة من سمات الإعجاز النظمى الحكيم.

أما آيتنا فقد ورد فيها هذا الاستفهام:

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ ؟ وجملة الاستفهام - هنا - تفسير أو بيان الغاية من قوله تعالى (ليبلوكم) وجاء على صورة الاستفهام - ولا استفهام فى الواقع - لذلك لم يهتم به الأئمة. ولم نر لهم فيه توجيها إلا عبارة وجيزة للإمام البيضاوى قال فيها:

إن الاستفهام للحض والتحريض على أحاسن المحاسن(١).

والخلاصة: أن هذه العبارة ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ لها نظائر فى القرآن، مثل: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٧] ومثل: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٢]. ومثل: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك:٢]. ونقول: إن هذه العبارة تخلو من معانى الاستفهام، فيما نرى، وأن المراد منها مجرد ترتب شىء على شىء ترتب المعلول على العلة. وإن جاءت فى اللفظ على صورة الاستفهام، والفرق بين هذا الأسلوب المكون من:

(أى + ما تضاف إليه + أفعل تفضيل + تمييز مزيل لما فيه من إبهام).

وبين الاستفهام الصريح بـ (أى) أن الاستفهام فى الأسلوب الأول لا يحتاج إلى

---

(١) تفسير البيضاوى (١/ ٤٥١).

جواب، لا مذكور ولا مقدر منوى فى النفس. أما فى الثانى فإن ذكر الجواب أو تقديره واجب يتوقف عليه تمام المعنى.

فقول فرعون للسحرة: ﴿. . وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧١].

لا يحتاج إلى جواب. والمراد به ترتب هذا العلم على تقطيع أيدى وأرجل السحرة من خلاف كما ورد فى صدر الآية.

ومثال ما احتاج إلى جواب فى الثانى قول سليمان عليه السلام:

﴿. . أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل ٣٨، ٣٩].

الفرق الثانى بينهما: أن الأول لا يكون إلا مجازًا والثانى يتردد بين الحقيقة والمجاز.

وسوف تتضح لنا هذه الفروق بين النوعين من خلال الآيات المتضمنة لهما فى النظم الحكيم وهى كثيرة.

ولما كان هذا الفهم جديدًا فى هذه المسألة، فإننا ندعو إلى التريث أمامه، فلا يرفضه رافض، ولا يجزم به جازم، حتى ننظر فيما بقى من شواهده من آيات التنزيل الحكيم.

أسرار النظم وبلاغياته

﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ لم يأت مع السموات والأرض من مادة الخاء واللام والقاف إلا الفعل الماضى (خلق) لأن دلالته على الواقع هى المتعينة هنا والخلق خلقان:

ماضٍ مستمر، ومنه خلق السموات والأرض. ومتجدد حادث كخلق الأجيال والزروع والحيوانات. وفى هذا الخلق المتجدد ورد قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمن لاَّ يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧].

وتقديم السموات على الأرض لأن آثار القدرة الإلهية فيها أظهر وأعجب.

وفى تحديد المدة بستة أيام كناية عن قصر الزمن الذى كمل فيه هذا الإبداع العظيم.

* ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ جملة اعتراضية بين المعلول، وهو خلق السموات

والأرض، وبين العلة، وهى الابتلاء بمعنى التكليف، أو حالية مسوقة للمبالغة فى آثار قدرة الله.

* ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ الابتلاء الاختبار لإظهار ما بـ (القوة) إلى ما بـ(الفعل) ليعلمه الله واقعا طبقا لما علمه متوقعا. وليكون المكلف شهيداً على نفسه أو لنفسه بما عمل من طالح أو صالح. حتى لا يظن أنَّ مجازاة الله لعباده ظلم أو محاباة، بل ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨].

* ﴿وَلَإِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

الواو للعطف أو الاستئناف الابتدائى للانتقال من غرض الحكمة من خلق الله السموات والأرض إلى بيان جانب من ثمار الابتلاء، وهو الكفر بالحق الذى أنزله الله. وأوثر هذا الجانب على جانب الإيمان والطاعة لأن الآية واردة فى إطار مواجهة القرآن لدعاوى مشركى مكة. واللام للقسم وإن للشرط و(ليقولن) جواب القسم ساد مسد جواب الشرط جريا على القاعدة النحوية التى أشار إليها ابن مالك فى ألفيته بقوله:

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم ... جواب ما أخَّرت فهو ملتزم

وتأكيد المقسم عليه بـ(إن) واسمية الجملة، وهو البعث بعد الموت، لأن المخاطب وهم مشركو مكة شديدو الإنكار للحياة الآخرة، أما توكيد الجواب الحاكى لقول الذين كفروا فللإيذان بأنهم مصرون على مقولة الكفر، وأن جوابهم لن يحيد عن هذا المصير.

وإيثار الموصول وصلته (**الذين كفروا**) لإمكان التسجيل عليهم بهذا الوصف (الكفر) الذي هو أقبح المعاصى، وفى ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أسلوب قصر موصوف هو اسم الإشارة المقصود منه الإخبار بالبعث بعد الموت، على صفة هى (**سحر**) فى زعمهم، وهو قصر حقيقى عند قائليه.

وإنما ساغ هذا الوصف عندهم للإخبار بالبعث لا من حيث إنه خبر لم يصدقوه، بل من حيث أن الكلام والنظم الحامل له لغرابته فى إحكام النظم والفصاحة والبلاغة غير المعهودة لديهم.

وفى وصف (**سحر**) بأنه (**مبين**) إشادة وشهادة - غير مقصودة منهم - بأن القرآن نمط وحده ليس له فى كلام البشر مثيل، وهكذا بالغوا فى الثناء عليه وهم يريدون ذمه.

وفى قوله تعالى: (**من بعد الموت**) تخصيص ودفع لتوهم غير المراد من (**مبعوثون**) لأن البعث يحتمل أكثر من معنى حسب الوضع اللغوى، فجاء قوله تعالى: (**من بعد الموت**) مخصصا له بالبعث من القبور، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

* * *

٢ - ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ، أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [هود: ٨].

الدراسة والتحليل:

للمشركين حيال الدعوة مواقف متقلبة. فإذا واجههم الداعى بوقوع البعث بعد الموت سخروا وقالوا هذا سحر؟ وإذا حذرهم من انتقام الله منهم على كفرهم وتكذيبهم قالوا ولِمَ لم يحل بنا ما توعدنا به وحذرنا منه. وآيتنا هذه مثلت وحكت عنهم هذا الموقف. ودلت عليه بهذا الاستفهام (**ما يحبسه**)؟ أى شىء حال دون حلوله بنا؟ فهم يريدون أنه لا انتقام كائن أبداً.

ولذلك حمل الأئمة هذا الاستفهام على الإنكار والنفى.

يقول الإمام جار الله:

(**ما يحبسه**) ما يمنعه من النزول؟ استعجالاً له على وجه التكذيب والاستهزاء[١].

أما أبو السعود فهو أكثر توضيحا إذ يقول:

(**ما يحبسه**): أى، أى شىء يمنعه من المجىء.. وإنما كانوا يقولونه بطريق الاستعجال والاستهزاء لقوله تعالى: (**ماكانوا به يستهزئون**) ومرادهم إنكار المجىء والحبس رأساً، لا الاعتراف به والاستفسار عن حابسه»[٢].

يعنى: أن ظاهرة كلامهم، وهو الاعتراف بالعذاب مع الجهل بسبب وقوعه، ليس

---

(١) الكشاف: (٢/ ٢٦٠).

(٢) تفسير أبى السعود: (٤/ ١٨٩).

مراداً لهم. وإنما مـرادهم التوصل بإنكار السـبب والسؤال عنه إلى نفـى المسبب وهو أصل العذاب. وقـد عرفنا من قبل أن استـعمال السؤال عن السـبب فى نفى المسبب طريقة كثيرة الورود فى القرآن. وأنها من أساليـب الكناية الدقيقة أو اللطيفة وقد مرَّت بنا أمثلة لها من كلام الله الخالص، ومن كـلام غير الله الذى وردت حكايته فى النظم الحكيم.

وتابع الألوسى الإمام أبا السعود مع اختلاف يسير فى العبارة[١] وهكذا صنع الشيخ رشيد رضا، والشيخ الطاهر بن عاشور[٢].

والخلاصة: أن هذا الاسـتـفهـام مـجـاز المقـصود مـنه الإنكار أصـالة. ثم التندُّر والسخرية؛ لاعتقادهم أنه لا وجود له لا حالاً، ولا مستقبلاً.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ) كناية عن قـرب وقوع العذاب بهم يوم هـدِّدوا به. وأصل الأمة الجيل من الناس الذين تظـلهم مدة واحدة، فنقل من الدلالة على (الجـيل الواحد) إلى الدلالة على الزَّمن الذى لبثه ذلك الجـيل، وهذا مجاز مرسل علاقتـه الحالِّيَّة. حيث أطلق (الحَالُّ) وأريد به المحلول فيـه -أى الزمن- والمراد بالعذاب ما حل بهم يوم بدر من قتل وأسر وهزائم.
* **(ما يحبسه)** استعارة تبعية، حيث شُبِّه مَنْعٌ مجىء العذاب بالحبس، بجامع القهر فى كل منهما.
* **(ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم)** ألا أداة تهييج وإثارة وتنبيه للإيذان بفخامة ما يقع بعدها. وإسناد الإتيـان إلى ضمـير العذاب مـجاز عقلى، لأن العـذاب مأتى به لا آت، وسره تفظيع وقعه، وكأنه يسعى نحوهم بإرادته.

و(لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنهُمْ) كناية عن تحقق إصابته لهم وأنه لا سبيل إلى الإفلات منه.

* (وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون) كناية عن إحاطة العـذاب بهم من كل جهة. والأصل: أحـاطهم الله به وأسند الحـوق بمعنى الإحـاطة إلى غـير فـاعله تهـويلا

---

(١) روح المعانى: (١٢/ ١٤). (٢) تفسير المنار: (١٢/ ٢٤) والتحرير والتنوير: (١٢/ ١٠).

وتفظيعاً، وإيثار المضارع فى (**يستهزئون**) إيزان بأن سخريتهم بالحق تكررت مرات. أما إيثار الماضى (**حاق**) فلتحقق الوقوع.

* * *

٣ - ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ، فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣- ١٤].

الدراسة والتحليل:

قبل هاتين الآيتين كان قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ، إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ صُدِّرت هذه الآية بالحديث عن القرآن، ثم ذكرت اقتراحين للذين كفروا بدل هذا القرآن الذى لا يروقهم. وهما اقتراحان فى غاية السخافة والحماقة أحدهما: إنزال كنز من السماء مملوء بالجواهر الثمينة كالذهب والفضة.

أو مجيء مَلَك معه يؤيد دعواه؟ وكان الرسول يضيق ذرعا مما يقولون. لولا أن الله وقَّفه على مهمته تجاه هؤلاء الكفار، وهى التبليغ والإنذار.

ثم أنتقل النظم الحكيم إلى تلقين صاحب الرسالة ليواجه هؤلاء الذين يتهمونه بافتراء القرآن، وهو بشر، وهم بشر مثله:

إذا اعتقدتم أنى صاحب هذا القرآن فأتوا بكلام مثله فى حسن النظم والفصاحة والافتراء؟ وما يمنعكم من هذا وأنتم مثلى بشر فصحاء بلغاء. هيا أفعلوا واستعينوا بمن شئتم من دون الله. فإن كان هذا كلامى وأنا فرد فستكونون أقدر منى على محاكاة ما أتلوه عليكم، لأنكم جماعة. وإلى هنا تنتهى المواجهة، ثم يخاطب القرآن فى الآية الثانية المؤمنين كلهم، لا النبى وحده، فيقول: إذا عجزوا عن الإتيان بالمطلوب فثقوا ثقة فوق ثقتكم أن القرآن نزل بعلم الله وحده، وليس لغير الله قدرة عليه، وأن الله واحد لا إله غيره فاسلموا أو دوموا على هذا الإسلام.

وقد ورد فى الآيتين هذان الاستفهامان:

* ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾؟ ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؟

والاستفهام الأول مرت بنا نظائره مرات. وخلاصة ما قيل فيه:

أن أم منقطعة بمعنى بل والهمزة، وبل للإضراب الانتقالى -هنا- حيث انتقل النظم من حكاية اقتراحهم إلى إنكار دعواهم أن القرآن مفترى من عند محمد ﷺ. فبل للانتقال. وهمزتها للإنكار والتوبيخ أما (**فهل أنتم مسلمون**) فلم يمر بنا نظير له حتى الآن وهذه أول مرة يرد فيها. فما هو المراد منه يا ترى؟ نبدأ بما قاله فخر الدين الرازى فيه حيث قال: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾: إن قلنا إنه خطاب مع المؤمنين كان معناه الترغيب فى زيادة الإخلاص. وإن قلنا إنه خطاب مع الكفار كان معناه الترغيب فى أصل الإسلام[1]» كلام الرازى هذا كان سيكون وجيها لولا قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ لأن المتبادر منها أنها خطاب للمؤمنين وكان الإمام الزمخشرى ومن بعده البيضاوى وغيرهما قد تأولوا الخطاب فى (**فإن لم يستجيبوا لكم**) بجواز أن يكون للمشركين، على أن يكون فاعل (**يستجيبوا**) وهو واو الجماعة عائدا على الذين يدعوهم المشركون لمناصرتهم يعنى: إذا لم يستجب لكم من تستعينون بهم فاعلموا أن عدم استجابتهم لكم لإحساسهم بأن هذا القرآن فوق طاقة البشر فاعلموا أنه إنما نزل بعلم الله، وأن الله واحد لا شريك له وأسلموا[2].

أما الاستفهام نفسه فإن حمل الخطاب على المؤمنين فمعناه كما نص عليه الزمخشرى: اثبتوا على العلم الذى أنتم عليه، وازدادوا يقينا وثبات قدم على أنه منزل من عند الله على التوحيد: ومعنى (فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ) فهل أنتم مخلصون»[3].

أما إن حمل الخطاب على المشركين فإن معنى: (**فهل أنتم مسلمون**) مبايعون بالإسلام بعد هذه الحجة القاطعة[4] أما أبو حيان فهو يحمل الاستفهام -على الأظهر- على أنه خطاب للمشركين، وأن (**فهل أنتم مسلمون**) المراد منه الأمر: أى أسلموا[5].

أما إذا كان الخطاب فى (**فإن لم يستجيبوا لكم**) للمؤمنين فإن معنى الإسلام فى

---

(١) التفسير الكبير: (١٧/ ١٩٧).

(٢ : ٤) الكشاف: (٢/ ٢٦٢)، وتفسير البيضاوى (١/ ٤٥٢).

(٥) البحر المحيط: (٥/ ٢٠٦) - (٢٠٧).

(فهل أنتم مسلمون) عنده هو ما قاله الزمخشرى[1].

هذا، ولم يخرج كلام بقية الأئمة عما ذكره هؤلاء وإن كانت بعض العبارات مختلفة.

والخلاصة: أن تردد الخطاب الجمعى بين المؤمنين والمشركين مما يحمله اللفظ، وإذا كان الخطاب فى (لكم) مرجحا لجانب المؤمنين فى الخطاب على جانب المشركين. فإن قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ، فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ هذه كلها مرجحات لجانب المشركين، لأن المؤمنين يعلمون أنه نازل بعلم الله، وأن الله واحد، وهم مسلمون يقينا. فكيف يكون العلم بإعجاز القرآن سببا منشئاً لهذه الاعتقادات المحققة لديهم؟ ولذلك اضطر من حمل الخطاب على المؤمنين لتأويل العلم والإسلام بالدوام والثبات كما تقدم.

ولذلك فإن الجزم بواحد من هذين التقديرين غير ممكن لاحتمال اللفظ الدلالة على كل منهما احتمالاً يكاد يكون متكافىء الطرفين.

هذا بالنسبة لـ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أى دوموا عليه إن كان المخاطب هو المسلمين، وأسلموا إن كان المخاطب هو المشركين.

أما الأول (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ) فهو للإنكار قطعاً واستعمال الاستفهام المجازى فى الأمر والنهى فى لغة القرآن كثير، ومثال الأمر قد تقدم الآن أما النهى فقد تقدم. ومنه آية النساء: ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ التفات من الخطاب فى (إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ) إلى الغيبة فى **(افتراه)** وسره كراهة إسناد الإفتراء إليه مواجهة، وليس فى الكلام نفى صريح.
* ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ الأمر فى **(فأتوا)** للتعجيز. و**(سُور)** مشبه، و**(مثله)** مشبه به، وهو القرآن ووجه الشبه: الفصاحة وحسن النظم، و**(مفتريات)** مجارات للخصم فى دعواه ليتوصل إلى إلزام نفسه بالكذب.
* (وَادْعُوا) الأمر لتأكيد التعجيز وللمبالغة فى قطع الأعذار عنهم.

---

(١) البحر المحيط (٥/٢٠٦، ٢٠٧).

* ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ تهييج وإلهاب، إمعانا فى التحدى وإقامة الحجة عليهم.

* ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ﴾ الأمر فى **(فاعلموا)** للتثبيت إن كان المخاطب المؤمنين، وللتحقيق إن كان المخاطب المشركين. و**(إنما..)** أسلوب قصر موصوف «هو الإنزال» على صفة «هو علم الله» وإضافة العلم إلى اسم الجلالة للتعظيم والتشريف.

* ﴿وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أن مخففة من الثقيلة، وأسمها ضمير الشأن محذوفا، والجملة قصر صفة الألوهية على ضمير اسم الجلالة قصراً حقيقيا تحقيقياً.

* ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أى داوموا على إسلامكم أو حققوا أصل الإسلام كما تقدم.

* * *

٤ - ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً، أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ، فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧].

الدراسة والتحليل:

النظم القرآنى فى هذه الآية أثار جدلاً واسعاً بين الأئمة جميعهم، ومن اشتغل بتفسير القرآن العظيم بوجه عام. وتعددت المذاهب فى تفسيرها. مع نقاط اتفاق واختلاف.

ومن الباحثين المحدثين مَنْ قدَّم لها بمقدمة حصر فيها مواضع الرأى المختلف، أو القابل للاختلاف من المعانى والألفاظ.

وأكثرهم إحصاء وإحاطة سماحة الشيخ الطاهر بن عاشور.

والآراء التى أبدوها حول الألفاظ والتراكيب المحتملة لأكثر من معنى، ظهر لنا من فحصها مرات أنها قسمان:

* آراء وجيهة يمكن قبولها ولياقتها بجلال كلام الله.

* وآراء ضعيفة لا يستساغ قبولها. أو الركون إليها، ونحن فى عرضنا للمراد من هذه

الآية لن نلتفت إلى ما لا يستساغ قبوله منها. ولن نتقيد برأى إمام معين، بل نرصد ما نراه الصواب، ولو لم يقل به أحدٌ منهم. وهذا كان منهجنا فى هذه الدراسة من البدء فيها ولكى يتضح المراد من هذه الآية ينبغى أن نجزئها على النمط الآتى:

(أ) ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ..﴾ المراد من **(من كان)** هو صاحب الرسالة ﷺ، ومن معه من المؤمنين.

والبينة المراد منها القرآن الكريم. **(يتلوه)** فهو من التلاوة بمعنى القرآن، أى يتلو القرآن الذى هو البينة. لأن القرآن هو البينة التى **(من ربه)** أى من رب محمد ﷺ.

والشاهد هو جبريل عليه السلام. و(منه) أى من الله؛ لأنه المراد فى **(من ربه)** يعنى رب محمد ﷺ.

لأن جبريل كان يتلو القرآن ليبلغه محمداً، كما كان ينزل على الرسل من قبله.

والضمير المجرور فى (منه) كناية عن اسم الجلالة يعنى يبلغ القرآن الذى هو البينة جبريل عليه السلام وهو شاهد على أن القرآن من الله.

ووصف جبريل -هنا- بأنه شاهد على (عندية) القرآن من الله لا غرابة فيه؛ لأن الله ذكر فى كتابه أن الملائكة جميعا شهداء على هذا. قال عز وجل: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ، أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ، وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾

[النساء: ١٦٦].

(ب) ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ الضمير فى **(قبله)** عائد على القرآن الذى هو البينة من الله التى كان عليها محمد أصالة، والمؤمنون تبعا أى ومن قبل القرآن التوراة المنزلة على موسى عليه السلام، شاهد ثان يشهد بصدق البينة بما فيه من البشارة برسالة محمد ﷺ، ورسالته هى القرآن.

وقد يتسع مفهوم شهادة التوراة بالصفة التى أنزلها الله عليها لا كما هى الآن. قد يتسع مفهوم شهادتها للقرآن بالصدق للتوافق فى أسس العقيدة وما يجب الإيمان به من الحقائق الغيبية؛ لأن الكتب السماوية لا تختلف حول أصول الإيمان. وعلى هذا تكون شهادة كتاب موسى عليه السلام للقرآن بالصدق هو مجموع هذين الأمرين:

الأول: التوافق فى أصول الإيمان.

الثانى: التبشير برسالة محمد ﷺ و(إماما) حال مؤول بالمشتق. أى مؤتما به لما فيه من (هدى ونور) ورحمة من الله للناس لأن الاهتداء به سبب فى حلول رحمة الله للعاملين بتلك الهداية، التابعين ذلك النور الإلهى الفاصل بين الحق والباطل. المبين لأحكام الشريعة من الحلال والحرام. والواجبات والمندوبات.

(جـ) ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ اسم الإشارة مشار به إلى الجمع المفهوم مِنْ (مَنْ) فى ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِ﴾ والمراد محمد ﷺ والمؤمنون به من المهاجرين والأنصار، يعنى يؤمنون بالقرآن المنزل على خاتم النبيين.

(د) ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ الأحزاب الطوائف كمشركى العرب واليهود والنصارى والمنافقين يعنى: ومن يكفر بالقرآن منهم فمصيره إلى النار.

(هـ) ﴿فَلاَتَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الحَقُّ مِن رَبِّكَ﴾ لاتك فى شك من القرآن، لأنه الحق من ربك لا ريب فيه والخطاب للنبى والمراد غيره.

(و) ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ بجميع ما أنزل الله وليس القرآن وحده.

يعنى: لا يستوى الذين وقفوا هممهم على متاع الحياة الدنيا والذين هم على بينة من ربهم، وقد قامت البراهين القاطعة على نسبة تلك البينة إلى الله من الملائكة والوحى الإلهى إلى موسى عليه السلام لما بين القرآن والتوراة -غير المحرفة- من توافق فى أصول الإيمان. والذين آمنوا ثابتون على إيمانهم بالقرآن ومن كفر به من الطوائف فمصيره إلى النار. فاثبتوا على إيمانكم بما أنزل الله، وهو الحق من عنده. ولكن أكثر الناس بجهلهم واستحواذ الشيطان عليهم يكفرون.

هذا الذى قدَّمناه مستخلص من أصوب ما قيل فى توضيح المعانى الغوامض فى هذه الآية، مع إضافات منَّ الله بها علينا، فنرجو أن يكون فى هذا العرض غناء للقارىء عما هو مبسوط فى كتب المفسرين، وبعضها يصيب القارىء بالدوار[1].

---

(١) انظر -إن شئت-: الكشاف: (٢/ ٢٩٢)، أبو السعود: (٤/ ١٩٤)، روح المعانى: (١٢/ ٢٦)، البحر المحيط: (٥/ ٢١١)، التفسير الكبير: (١٧/ ٢٠٠)، البيضاوى: (١/ ٤٥٢)، التحرير والتنوير: (١٢/ ٢٥).

أما المراد من الاستفهام فإن خلاصة ما قيل فيه، وهو الحق، أنه: لإنكار المساواة بين الفريقين، وهما: الفريق المؤمن المهتدى الذى يرجو الآخرة ورحمة الله والفريق الذى قصر همه على الحياة الدنيا وزينتها وكفر بما أنزل الله.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ، وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ جواب هذا الاستفهام محذوف، وهذه الجملة تنبىء عن تشبيه والمشبه به محذوف والتقدير:

أَفَمن كان على هذه الحال من الإيمان والهداية كمن هو كافر ولا يرجو إلا الحياة الدنيا. لا يستوون.

وهذا من الإيجاز بالحذف. وهو من التشبيهات السلبية التى تقدمت الإشارة إليها مرات.

وحذف المشبه به إيماء إلى نفى التكافؤ بين الفريقين وتنكير «بينة» للتفخيم، وهى كناية عن القرآن.

* ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ الهاء فى (يتلوه) كناية عن البينة بمعنى القرآن. وذُكِّر الضمير مراعاة للمعنى. وتنكير شاهد للتنوية بفضله، وهو جبريل عليه السلام مُبَلِّغ القرآن محمداً عن ربه، والجملة زيادة تفخيم للبينة.

* ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ حالان مؤولان. والعامل فيهما النصب محذوف تقديره: أنزلناه وفى (**إماما**) استعارة أصلية شبه فيها الكتاب (**كتاب موسى**) بالإمام بجامع حسن الاقتداء فى كل.

* ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ﴾ اسم الإشارة (**أولئك**) الموضوع للمشار إليه البعيد فيه تفخيم ورفعة لشأن المشار إليهم به وهم المؤمنون، بتنزيل بُعْد المكانة منزلة بُعْد المكان.

* ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ فى (الأحزاب) إيجاز قصرَ، حيث تضمن هذا اللفظ معانى كثيرة، أشرنا إليها فى الدراسة والتحليل. و(**موعده**) يعنى مصيره، وقد أوثر الموعد عن المصير للدلالة على أن هؤلاء قد أنذروا من قبل، وعرفوا أن الله وعد الكافرين النار فلم يرتدعوا، فهم الجانون على أنفسهم.

والإخبار بالموعد عن النار إشارة إلى أن النار مكان ما وُعدوا به من العذاب. فهو مجاز مرسل وفيه إيماء إلى صدق الوعد.

* ﴿فَلاتَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ الخطاب للرسول والمقصود غيره. وفيه تعريض بالذين كفروا به. وفى **(فى مرية)** استعارة مكنية شبهت فيها (المرية) وهى الشك والاضطراب بالظرف المحيط بالمظروف فيه. ودخول (فى) عليها دليل المشبه به المحذوف. وهى تعريض بالذين هم هذا شأنهم فى الكفر به.
* ﴿إِنَّهُ الحَقُّ مِن رَبِّكَ﴾ تأكيد الخبر بـ(ان) واسمية الجملة، لإزالة الريب والإنكار فيه، و**(من ربك)** للتعظيم والتقرير، وإضافة (رب) إلى الضمير وهو كاف الخطاب لتسلية النبى ﷺ وتثبيته.
* ﴿ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ تقرير للواقع وتثبيت إثر تثبيت، لئلا يكون كثرة الكافرين حاملاً لبعض المؤمنين على الشك والارتياب.

وإيثار المضارع **(لا يؤمنون)** على الماضى: لم يؤمنوا إشارة إلى أن كفر من كفر ليس مقصوراً على زمان دون زمان، ولا برسول دون رسول. ولكنه شأن الأغلبية من الناس. نظيره قوله تعالى فى غير هذه السورة:

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ، جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران ١٨٤].

* * *

٥ - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا، أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ، أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

الدراسة والتحليل:

وردت هذه الصيغة معطوفة بالواو أو بالفاء ست عشرة مرة فى القرآن الكريم، ولما كان قد شاع أن فى هذا التكرار مشكلة، تتلخص فى أن **(من أظلم)** تقتضى نفى الأظلمية عن غير المتحدث عنه، فكان ينبغى أن لا ترد إلا مرة واحدة تنفى الأظلمية

عن موصوف واحد فلا يشاركه فى الأظلمية سواه. ولكنها تكررت فجاءت المشكلة؛ يعنى أننا إذا نظرنا إلى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ كان معنى هذا أن من يخرب مساجد الله هو - وحده - أظلم الناس.

فإذا جئنا إلى هذه الآية: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا) عرفنا هنا كما عرفنا هناك أن من يفترى على الله الكذب هو أظلم الناس؟ وكيف يكون هو أظلم الناس وقد سبق أن أظلم الناس هو الذى يخرب مساجد الله؟

هذا هو الإشكال الذى وقف أمامه المفسرون كثيراً، وحاولوا إزالته بإجابات شتى.

وكنا قد عرضنا لهذا من قبل ونظرنا فى الآيات الست عشرة وأتضح لنا أن كل هذه الآيات تتحدث عن موصوف واحد فهو -إذا- أظلم الناس، كما أتضح لنا أنه لا مشكلة فى هذه الآيات. وقد فصلنا القول تفصيلاً فى كل ما يتعلق بالاستفهام فى الآيات الست عشرة فى موضع سابق من هذه الدراسة.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ عبَّر النظم القرآنى عن الذين يفترون على الله الكذب باسم الإشارة (أولئك) الموضوع للمشار إليه البعيد إيذاناً ببعدهم عن الحق وعن رحمة الله.
* وفى إيثار المضارع (**يعرضون**) تصوير لما سيكون يوم القيامة، وحذف فاعل الفعل وبناؤه للمجهول لعدم توقف المراد على ذكر الفاعل وتوفير العناية بالحدث نفسه وهو العرض على الله.

والعرض على الله عام فيهم وفى غيرهم، وإنما خصوا به هنا لما يترتب عليه فضحهم المشار إليه فى قوله تعالى:

﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ وعبروا عنهم بهؤلاء لانحطاط شأنهم يوم يقوم الحساب.

* ﴿أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ خبر مستعمل فى الذم والدعاء عليهم باللعنة. وإضافة اللعنة إلى الله لإفادة التهويل والتفظيع.

* * *

٦ - ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً، أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤].

الدراسة والتحليل:

الفريقان اللذان مثّلت لهما آيتنا هذه هما اللذان تحدثت عنهما السورة:

الفريق الأول بدءًا من قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ إلى قوله: ﴿لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ (خمس آيات).

أما الفريق الثانى فهم المتحدث عنهم فى قوله عز وجل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (آية واحدة) وجاءت آيتنا ضاربة لكل فريق منهما مثلا محسوسا يباين به كل فريق الآخر مباينة تامة: فالأول مُثِّل له بالأعمى والأصم.

والثانى مُثِّل له بالبصير والسميع. ثم جاء هذان الاستفهامان يتلو أحدهما الآخر:

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾؟ ﴿أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾؟ فما المراد منهما بلاغيا؟

كان الإمام أبو السعود أطول الأئمة باعا فى المراد من الاستفهامين. وننقل كلامه على ما فيه من طول؛ لأنه مهم. قال فى الاستفهام الأول:

«والاستفهام إنكارى مُذَكِّر لما سبق من إنكار المماثلة فى قوله عز وجل: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ﴾.

وقال فى الثانى: ﴿أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ أى تشكون فى عدم الاستواء وما بينهما من التباين.

أو: أتغفلون عنه فلا تتذكرون بالتأمل فيما ضُرب لكم من المثل. فيكون الإنكار وارداً على المعطوفين معاً.

أو: أتسمعون هذا فلا تتذكرون، فيكون -يعنى الإنكار- راجعا إلى عدم التذكر بعد تحقق ما يوجب وجوده، وهو المثل المضروب.

ثم قال: «ومعنى الهمزة إنكار عدم التذكر واستبعاد صدوره عن المخاطبين»[1].

وتبعه الإمام الألوسى ولم يضف جديدا ذا بال[2].

ولم يخرج الباقون عن هذا التوجيه فى الموضعين.

والخلاصة: أن الاستفهام الأول (**هل يستويان مثلا**) المراد منه النفى والإنكار، أى لا يستويان.

أما الثانى فقد اكتفى فيه الأئمة بأنه للإنكار، أى إنكار عدم التذكر مع وضوح التباين بين الفريقين، والذى نراه أن هذه الصيغة تستعمل فى الإنكار أصالة، وفى الحض والترغيب تبعا، حتى لو ذهبنا أن المراد منه -بعد الإنكار- الأمر: أى تذكروا ويكون الانتقال إلى هذا الأمر بعد إشعار المخاطب بتوبيخه على ما هو عليه، والانتقال منه بسرعة إلى ضده.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلأَعْمَى وَٱلأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ والسَّمِيعِ﴾ المثل مُشَبَّه، والمشبه به محذوف تقديره «مثل الأعمى والأصم» والكافَ أداة التشبيه. أو الكاف بمعنى مثل فتكون هى المشبه به والأداة محذوفة. وإنما كان الطرفان (مثل- مثل) للإيذان بغرابة هذا التمثيل، والتنويه به. ويحتمل أن يكون من التشبيه المفرد بأن يُشَبَّه الفريق الأول تشبيهين أحدهما بالأعمى، والثانى بالأصم، ووجه الشبه عدم الإدراك. وأن يشبه الفريق الثانى بالبصير، ثم بالسميع.

أو يكون مركبا بأن تشبه هيئة الذين كفروا فى عدم إبصارهم علامات الحق. وعدم سماعهم آيات الهدى بهيئة من جمع بين العمى والصمم، ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من التخبط والضلال. هذا فى شأن الفريق الأول.

أما الثانى فتشبَّه الهيئة الحاصلة من انتفاع الذين آمنوا باتباع هدى الله فى آياته الكونية وعملهم بتوجهات الوحى بعد سماعها وتدبر معانيها بهيئة من سلمت

---

(١) تفسير أبو السعود: (٤/١٩٨ - ١٩٩).

(٢) روح المعانى: (١٢/ ٣٤).

حواسة من الآفات وحقق لنفسه منافعها، واستضاء بنور الهداية، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من وضوح الرؤية ونجاح المسعى.

والغرض من التشبيه الأول: ذم الكفر والتنفير منه ومن الثانى: مدح الإيمان والعمل الصالح والترغيب فيه وهذا التشبيه - بصورتيه - تمهيد للاستفهام الأول (**هل يستويان**) وإيثار (**هل**) لتحقيق السؤال المترتب عليه تحقيق نفى المساواة.

* وفى حذف المعطوف عليه بـ(الفاء) كما قدره الإمام أبو السعود إيجاز بالحذف.

* * *

٧ - ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَآتَانِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود: ٢٨].

الدراسة والتحليل:

وردت هذه الآية فى المقاولات بين نوح وقومه، وكان نوح قد دعاهم إلى عبادة الله وحده، فردُّوا عليه دعوته وتطاولوا عليه فى القول. وحقَّروه وحقَّروا من آمن معه فرد عليهم نوح بهذه الآية التى اشتملت على هذين الاستفهامين:

﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾؟

﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ، أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾؟

والأئمة -كعادتهم- لم يقولوا شيئاً فى (أرأيتم) إلا أنه بمعنى: أخبرونى. وجعلوا جملةَ الاستفهام الثانى هى جواب الاستفهام الأول.

أما الاستفهام الثانى فهو للإنكار والنفى؛ يعنى أننا لا نكرهكم على قبول شىء أنتم له كارهون.

ونكتفى بما قاله سماحة الشيخ ابن عاشور فى هذين الاستفهامين لأنه أكثر وضوحا وشمولا ممن عداه.

و«**أرأيتم**» استفهام عن الرؤية بمعنى الاعتقاد، وهو استفهام تقريرى إذا كان فعل الرؤية غير عامل فى مفرد. فهو تقرير على مضمون الجملة السادة مَسدّ مفعولى (**أرأيتم**) ولذلك كان معناه آيلاً إلى معنى أخبرونى. ولكنه لا يستعمل إلا فى طلب

من حالُه حـالُ من يجحـد الخبـر. . . والاستفـهام فى أنلزمكمـوها إنكارى، أى لا نكرهكم على قبولها»[1].

جارى الشـيخ الطاهر مذهب النحاة الذى تابعـهم عليه البلاغـيون فى أن (أرأيتم) بمعنى أخبرونى، ثم قال إن المراد منه التقرير وأضاف أن فعل الرؤية (هذا) إذا لم يكن عاملا فى مفـرد لا يستعمل إلا فى طلب -أى مخاطبة- من كـان حاله منكرا للخبر. وهذه إضـافة تسلم له، ولكنهـا قابلة لـلنظر والمناقشـة؛ لأنها إن صـدقت على هذا الموضع فلن تصدق على مواضع أخرى. وسننبه عليها عند ورودها إذا شاء الله.

وهذه خلاصة ما يقال فى هذين الاستفهامين.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (أرأيتم) ما نزال نتمسك بـأن هذه الصيغة (أرأيتم) كيفما وقعت يراد منها الإثارة والانتباه واستحضار صورة المسـتفهم عنه فى الذهن؛ ليساق الحديث عنه وهو ماثل فيه. ويُخبر عنه وهو حاضر. وهذا المعنى لا ينفك عن هذه الصيغة، سواء لوحظ فيها معنى أخبرونى أم لم يلاحظ. وكل أمثلتها فى القرآن صالحة لتأدية هذا المعنى المطرد فيها.

وهنا يذكر نوح قومه بهذه الحالة التى وقعت فى حيز الاستفهام. فكأنه يقول لهم: اسـتحـضـروا فى وجدانكم حـالتى هذه التى أحـكيهـا لكم وعـوها حق الوعى، وتصوروا أنى عـلى بينة واضحـة من ربى، وفيهـا رحمـة لى ولكم، هل نلزمكم بالإيمان بها إذا لم تدركوا الحكمة والعبرة فيها. أألزمكم بها فى حال جهلكهم إياها وكرهكم لها؟

* وفى ﴿عُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ رأينا بعض الأئمة يقول: إن الحجة أو المعجزة كما يقال إنها بصيرة يقال إنهـا عمياء إذا لم يحصل بها هداية من عاينها. وهذا فـيما نرى حيف ينبغى دفعـه لأنه قَدْح فى المعجزة ووصف لها بالعجـز. والمعجزات من صنع الله. فلا يليق أن توصف هذا الوصف. وبناء العبارة نفسـها لا يساعد عليه، لأن الفعل

---

(١) التحرير والتنوير: (١٢/ ٥١).

بنى للمجهول ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ أى أن التعمية واقعة عليها لا منها. ولا يبعد أن يكون الفاعل هو (الشيطان) هو الذى عَمىّ الحجة، أى أخفاها عليهم بأن يقول لهم هى سحر مثلاً. وفى (عميت) حينئذ استعارة تبعية حيث شُبّه الإخفاء بالتعمية، بجامع عدم الرؤية فى كل. هذا هو اللائق بمعجزات الله أو رسالاته إذا كان المراد من البينة هى النبوة أو الوحى أو المعجزة. ولو سلمنا بأن المعجزة تكون عمياء إذا لم تهد إلى الحق، لما سلم كتاب سماوى ولا نبوة ولا معجزة من هذه الوصمة. ولكان ذلك قصوراً ذاتيا فى رسالات الله؟!

* * *

٨ - ﴿وَيَاقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ اللهِ إِن طَرَدتُّهُمْ، أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٣٠].

الدراسة والتحليل:

رد من نبى الله نوح عليه السلام، لما أحس أن قومه يريدون أن يطرد أتباعه من عامة الناس، وقد أطلقوا عليهم وصف (**أراذل**) محقرين لهم.

وقد اشتملت هذه الآية على استفهامين:

* ﴿مَن يَنصُرُنِى﴾؟ * ﴿أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾؟

والاستفهام الثانى (**أفلا تذكرون**) قد تقدم بيان المراد منه تفصيلاً فى الآية (٢٤) من هذه السورة. فما قيل هناك يقال هنا فلا داعى للتكرار مع قرب العهد بما تقدم.

أما الاستفهام الثانى فهو للنفى والإنكار، أى لا أحد ينصرنى من الله، وهذه خلاصة ما يقال فيه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* عُدِّى الفعل (**ينصرنى**) بحرف الجر (**من**) لتضمنه معنى: يُنقذنى إشعاراً لهم بأن طرد المؤمنين يغضب الله على من يطردهم. ومن غضب عليه الله انتقم منه، وليس فى الوجود من يمنع من أراده الله.

* وآثر أداة الشرط (**أن**) دون (إذا) لما فى (إن) من إيذان بتخلف الشرط. وللإشارة

إلى أن (طرد المؤمنين) لا يجوز أن يفكر فيه أحد، فضلاً عن قوة العزم عليه.
ولذلك لم يقل: إذا طردتهم لما فى إذا من تحقق الشرط.

* (**أفلا تذكرون**) إنكار لغفلتهم وتوبيخ عليها وحث وتحريض على التذكر الذى يجلى لهم الحق من الباطل.

* * *

٩ - ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ، قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥].

الدراسة والتحليل:

اللافت للنظر فى هذه الآية، أنها خطاب لرسول الله محمد ﷺ بعد ذكر ادعاء المشركين أنه قد افترى القرآن. يعنى أنها حديث عن شأن من شئون مشركى العرب مع خاتم المرسلين، جيء بها كالجملة المعترضة فى سياق الحديث عن نوح وقومه.

فالآية التى قبلها تعقيب على فصل من قصة قوم نوح مع نوح عليه السلام:

﴿وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ، هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

والآية التى بعدها تمهيد لفصل جديد من قصة نوح مع قومه ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

فيا ترى لِمَ جيء بهذه الآية بين كلامين متصلين دون أن تكون هى -فى الواقع الخارجى- عنصراً من عناصر ذلك الكلام المتحد الموضوع؟

هذا ما يدعو الناظر فى كتاب الله العزيز إلى التفكر وطول النظر، وقد بدأنا بالنظر فى كتب المفسرين الذين نرجع إليهم فى هذه الدراسة، علنا نجد ما يبل ظمأنا. ويشفى غليلنا لمعرفة السر فى وضع هذه الآية. ولكننا لم نظفر بشيء. وكان خلاصة ما قالوه هو الآتى:

* إن القائلين هم قوم نوح، أى: أم يقول قوم نوح: إن نوحا افترى ما جاء به ونسبه إلى الله.

وأن الخطاب فى (**قل إن افتريته**) لنوح رداً على قومه، فالآية على هذا من تمام قصة نوح مع قومه، وليست من قصة محمد مع قومه. وعزوا هذا إلى ابن عباس؟

* أو الخطاب لمحمد ﷺ، والقائلون (**افتراه**) هم كفار قريش. والذى زعموا افتراءه هو قصة نوح عليه السلام، والمعنى: أيقول مشركوا العرب إن محمداً قد افترى قصة نوح؟ ونسبوا هذه إلى مقاتل من التابعين؟ ولست أدرى أيقتنع القارىء بما أورده المفسرون هنا؟ أم ما يزال -مثلى- يبحث عن مخرج آخر تطمئن إليه النفس، ويستريح العقل.

كاتب هذه الدراسة غير مقتنع بما قيل، لأن فيه تكلفا ومجافاة لبلاغة النظم القرآنى، وماعُزى إلى ابن عباس إن كان اجتهاداً منه قبلنا ما قال وعزوناه إلى الاجتهاد الذى يثاب عليه أجراً واحداً. وكذا ما عُزى لمقاتل. وإن كان ما قالاه -ابن عباس ومقاتل- رواية لحديث نبوى احتجنا إلى معرفة سلسلة الرواة توصلا إلى الحكم ومعرفة درجة الحديث.

وكونه رواية عن رسول الله ﷺ أمر مستبعد لوجوه، أظهرها اختلاف وتضارب معنى الروايتين والصواب -كما نرى- أن لورود هذه الآية فى غير موضعها سراً بلاغيا رائعا وبديعا. وإليكم البيان:

والذى نقرره -ابتداءً- أن القائلين (**افتراه**) هم مشركو العرب. وأن الضمير المنصوب فى (**افتراه**) وهو الهاء هو كناية عن القرآن وإن لم يجر له ذكر فى سياق الحديث.

وأن الضمير المستتر فى (**افتراه**) وهو الفاعل كناية عن صاحب الرسالة ﷺ، وإن لم يرد ذكره فى سياق هذا الحديث.

وأن الخطاب فى (قل) له ﷺ. وأن تاء الفاعل، وها المفعول فى (افتريته) له وللقرآن.

هذا ما نقرره بكل ثقة، كما نقرر أنه من المحال أن تكون الضمائر التى أرجعناها لصاحب الرسالة وللقرآن ولمشركى العرب، من المحال أن تكون لنوح وما أرسل به وقومه لأن نوحا محكى عنه، وكذلك قومه، ولم يكن له ولا لهم وجود ساعة نزل القرآن.

وأن ما أرسل به نوح لم يكن موضع جدل ساعة نزل القرآن، وأن سادتنا المفسرين لم يفترضوا هذا الذى قالوه إلا اجتهاداً لما رأوا غرابة هذه الآية بين حديث ليس من مظان ورودها فيه.

كما نقرر أن ما قيل من أن القائلين هم مشركو العرب لكن الذى ادعوا افتراءه هو قصة نوح. فهذا القول بعيد كل البعد عن الصواب، وهو مجرد اجتهاد للتغلب على «مشكلة» ورود هذه الآية فى ثنايا الحديث عن قصة نوح عليه السلام. فهو اجتهاد يثاب عليه صاحبه أجراً واحدا مع خلوص النية.

أما سر ورود هذه الآية، وهى خاصة بالقرآن وموقف مشركى العرب منه، فمن البلاغة بمكان. فالإتيان بها فى الموضع الذى لا تجانس فيه ما قبلها وما بعدها هو البلاغة فى أعلى منازلها.

ولكن كيفْ؟

نعلم أن فى بدايات سورة «هود» هذه فى الآيتين (١٣ - ١٤) وهما:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ، فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ نعلم أن فيهما حديثا عن القرآن، وذكراً لدعوى مشركى العرب أن محمداً ﷺ قد افتراه. وقد لقَّن الله رسوله الجواب المفحم، وهو أن يأتوا بمثله إن كانوا صادقين، واستمر الحديث عن مشركى العرب، وكانت السورة قد بدأت به، حتى الآية الرابعة والعشرين.

ومن الآية الخامسة والعشرين بدأت السورة فى عرض قصة نوح مع قومه حتى الآية التاسعة والأربعين. يعنى قد استغرق عرضها خمسا وعشرين آية.

وعرض قصة نوح فى سورة هود ليس له مثيل فى القرآن لا فى الطول، ولا فى الوقائع والأحداث المعروضة فيها، فقد عرضت سورة هود قصة نوح عرضا كاملاً من البداية إلى النهاية. ووردت فيها تفاصيل لم ترد فى غيرها من سور الذكر الحكيم، والذى ورد فى غيرها «لقطات» قصيرة تناسب المقام الذى وردت فيه. وتختصر

الأحداث اختصاراً بديـعا، ومعنى هذا أن متابعة قصة نوح فى أبرز عناصـرها يستمتع بها سامعو سورة هود، وتكون الأذهان قد تنبهت. والنفوس قد شُدَّت لسماع ما يقال.

هنا، وفى هذه اللحظات التى توقدت فـيها الأذهان وتفتحت القـلوب تأتى قذيفة حارقة من قـذائف البيان، وهى ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْـتَرَاهُ، قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَـعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾.

وغرابة ورود هذه الآية فى ثنايا قصة نوح، مدعـاة للتفكر والتدبر، بل والتساؤل: ما لهذا الكلام وقصة نوح؟ ثم يفطنون إلى الغرض التربوى من هذه الغرابة.

فقوم نوح الذين سيهلكون بعد قليل كـذبوا نوحا فكان هذا التكذيب سببا فى ذلك الهلاك.

وهاهم -مشـركو العـرب- يكذبون محـمداً فى «عندية» القـرآن من الله، فإذا لم يتداركوا أمرهم ويؤمنوا فسيهلكوا كما هلك قوم نوح.

وهنا نجد هذه الغرابة قد استحالت إلفاً ووئاما. وبخاصة أن (**أم يقولون افتراه**) هنا، ما هو إلا إعادة لـ: (**أم يقولون افتراه**) هناك.

وقد اهتـدى علم النفس الحديث وعلم الأسلوب إلى هذا الـفن البيانى، وأسـموه بـ(الإسقـاط) والمراد منه إيراد ما ليس متـوقعا إيراده من المعـانى عند السامع فيـقذف المتكلم بكلام قصـير إذا توسَّم فى السامـعين درجة نشاط ذهنى عـالية فيـقذف بذلك الكلام القصير، الذى يحمل مـعنى يريد المتكلم إسقاطه على تلك الأذهان النشطة فى برق البصـر، ثم يتركـه ويعود إلى مـوضوع الكلام العـام بعد تأكده مـن قذف تلك القذيفة الخاطفة، التى احتال بحيلة لطيفة لإيرادها.

بل إن فن (الإعلام) أو (الإعلان) يستثمرها الآن على نطاق واسع.

فكم يشاهد الناس إعـلانات تذاع فى أثناء المباريات الكروية لتخاطـب حشدا هائلا من جماهير المشاهدين، ويكون هذا الإعلان المحظوظ باهظ التكلفة.

وفى القرآن الحكيم صـور أخرى لهذه (الإسقـاطات البديعة) ولولا خشـية الإطالة لأوردنا كثيرا منها. ولكن حسبنا من القلادة ما أحاط بالعنق.

وندعو القــارىء أن يقارن بين مــا قاله سادتنا المفــسرون حــول هذه الآية، وبين ما هدانا الله إليه وله -وحده- الحمد والمنة.

أما توجيه الاستفهام -بلاغيا- فإن (أم) منقطعة باتفاق أهل العلم، فهى بمعنى (بل) والهمزة. وبل للإضراب الانتقالى من غرض هو الحديث عن قصة نوح مع قومه، إلى غرض هو إفحام مشركى مكة وإنذارهم بسبب تـكذيبهم القرآن الكريم أما الهمزة فهى للإنكار والتوبيخ والتكذيب كما مرَّ بنا مـرات من قبل. وهذه خلاصة ما يقال فى هذا الموضع.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ هذا التعـبير صار عـلما بالغلبة فى القـرآن على الحديث عن القرآن لا عن سواه. الواو فـيه كناية عن المشركين العرب، والضمـير المستكن «هو» كناية عن صاحب الرسالة ﷺ. أما الضمير المنصوب «الهاء» فهو كناية عن القرآن. ومراجع الضمـائر الثلاثة: (مشركـو العرب -صاحب الرسالة- القـرآن) عُنُوا بهذه الضمائر، وإن لم يرد لهم ذكـر قريب منها، اعتماداً على شهـرة هذه العبارة مراداً منها أصـحاب الضمـائر الثلاثة، لكثـرة ورودها فى مزاعم المشركـين والرد عليهم وتكذيبهم فى دعواهم المعروفة بافتراء القرآن.
* ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ أسلوب جدلى بيانى فيه مـجاراة للخصم (مؤقتة) للتوصل إلى إبطال دعواه، وإيثار (إن) على (إذا) لما فى (إن) من الإيذان بتـخلف الشرط وفى (فعلىَّ إجرامى) إيجاز حذف، والتـقدير: علىَّ عقوبة إجـرامى. وإيثار (إجرامى) على (افتـرائى) إشارة إلى أن هذا الافتراء إثم عظيم يعـاقب فاعله أنكى العقاب.
* ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أُوثر (تجرمون) على (تقولون) للإعلام بأن قولهم ليس مجـرد قول، بل هو (الإجـرام) فى أبشع صوره. وإيثـار المضارع (تجـرمون) على (إجرامكم) إشارة إلى تكرارهم هذا القول، واستمرار هذا التكرار.

* * *

١٠ - ﴿يَاقَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْـرًا، إِنْ أَجْرِىَ إلاَّ عَلَى الَّذِى فَطَرَنِى، أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١].

الدراسة والتحليل:

لما دعا هود قومه (عاد) إلى عقيدة التوحـيد وإفراد الله بالعبادة. ووصفهم بالإفتراء على الله، بيَّن لهـم فى هذه آلاية أنه يؤدى رسـالة ربه إليـهم، ويخـلص فى النصح لهم، وأنه لا يطلب منهم أجـرا ورزقًا. لأن الله هو الذى يرزقه كـما يرزق غـيره من مخلوقاته. وأثار أذهانهم ليتأملوا هذه الحقائق والبدائه.

وجاء فى فاصلة الآية هذا الاستفهام: **(أفلا تعقلون)** وهذه الصيغة تقدمت لنا كثيرا وعرفنا ما قاله الأئمة فيها من إنكار عدم التعقل والتوبيخ، وكنا قد أضفنا إلى ما قالوه معنى هو: الحث والتحريض على التعقل. وهذه خلاصة ما يقال فيه.

أسرار النظم وبلاغياته :

* فى النـداء بـ **(يا قومِ)** مضاف للمـتكلم ترقيق وتليين فى الخطاب، واسـتمالة لهم لعلهم يلتفتون إليه ويسمعونه.
* وفى تنكير **(أجرًا)**، لإفادة التقليل والتعميم، أى: لا أسألكم أى أجر كان.
أما إضافة **(أجرى)** الثانية إلى الله بواسطة حرف الجر (على) فللتشريف.
* ﴿إِن أَجْـرِىَ إلاَّ عَلَى اللهِ﴾ جملة قصـرية، المقصور فيها الأجر، والمقـصور عليه **(الله)** قصرًا حقيقيا تحقيقيًا.
* ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾، أوثر العقل هنا على الذكر والتفكر للإعلام بأن ما غاب عنهم من البدهيـات التى يدركها العـقلاء ببديهة النظر. وفـى هذا تعريض بهم ووصف لهم بالغفلة.

* * *

١١ - ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا، أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْ رَّبِّى وَآتَانِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ، فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٢ - ٦٣].

الدراسة والتحليل:

ولما دعا صالح عليه السلام قومه (ثمود) إلى عقيدة التوحيد وإفراد الله بالعبادة، وذكرهم بنعمته عليهم وحثهم على التوبة ثاروا عليه، ورموه بالسَّفه والطيش، فقابل جفوتهم هذه بما قابل به نوح من قبل جفوة قومه. وقد ورد فى هاتين الآيتين ثلاثة استفهامات:

* ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا..﴾؟ * ﴿أَرَأَيْتُم إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى"؟
* ﴿فَمَنَ ينصُرُنِى مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾؟

والاستفهامان الثانى والثالث قد تقدما قريبا فى خطاب نوح لقومه، وفُصِّل القول فيهما تفصيلا فلا داعى لتكراره هنا.

أما الأول (**أتنهانا**) فهو بالاجماع استفهام إنكار وزجر فالإنكار أساس الدلالة هنا، أما الزجر فبعضهم يذكر مكانه التوبيخ، ومنهم من يرد التعجب على الإنكار. وهذه هى الخلاصة فيه، ولم نطل بذكر كلام الأئمة، لأنه لا اختلاف بينهم فى هذا الموضع[1].

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ حكوا عبادة آبائهم وكأنها تقع حين قالوا هذا القول. للإعلام بأنهم كأنهم يرون آباءَهم يقومون بتلك العبادة رأى العين؛ لأنها متمسكهم فى عبادة الأصنام فأخرجوها مُخْرَج الحاضر المشاهد لتوكيد إنكارهم النهى عنها.
* وفى (آباؤنا) تغليب للأباء على الأجداد؛ لأن الأباء أقرب إليهم زمنا. وهذا

---

(١) انظر مثلا: التفسير الكبير (١٨/١٨) والتحرير والتنوير (١٢/ ١١٠).

التغليب أداة من أدوات الإيجاز، لأنه أغنى عن ذكر المعطوف عليه، والتقدير: ما يعبد أجدادنا وآباؤنا. كما أغنى عن ذكر العاطف.

* ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ فيها توكيد الخبر لمواجهة صالح لهم بتحقيق التوحيد عقيدة وعبادة.

واستعارة بالكناية فى **(لفى شك)** حيث شبه الشك بـ (الظرف) المحيط بالمظروف، وحذف المشبه به ودل عليه بحرف الجر (فى) والمراد تفخيم شأن الشك، وفى هذا إيجاء بأنهم لن يستجيبوا لصالح أبدًا وكناية فى **(مما تدعونا)** إذ المراد به الحق الذى جاءهم به رسولهم وفى **(مريب)** مجاز عقلى بإسناد «الإرابة» لضمير الشك وهى للشاك نفسه. وفى هذا زيادة تفخيم للشك.

* ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أسلوب قصر، قصرت فيه الزيادة على التخسير، وصالح رسول برئ من «الخسار» فكيف يقول أنهم لا يزيدونه غير تخسير؟

والجواب: ليس المقصود من نسبة الخسار إليه أنه خاسر ساعة قال هذا الكلام. بل المراد خسار مترتب على عصيان ربه - لو عصاه - ويضاف إلى هذا الخسار خذلانهم إياه.

* * *

١٢ - ﴿قَالَتْ يَاوَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ، رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٢-٧٣].

الدراسة والتحليل:

لقطة سريعة من قصة إبراهيم أبى الأنبياء حين جاءته الملائكة، وكان قد كبر، وأمرأته عقيما، وبشرته بإسحاق من صلبه ورحم امرأته، ويعقوب من صلب إسحاق، دهشت أمراته وهى تسمع بشرى الملائكة، وتعجبت كيف تلد وهى وزوجها قد شاخا؟

وجاء فى هاتين الآيتين هذان الاستفهامان:

* **(أألد)؟** * **(أتعجبين)؟**

فى كلام طويل للزمخشرى أشار إلى أن الاستفهام الأول للتعجب، والثانى للإنكار[1] وسلك مسلكه الإمام أبو السعود[2].

أما الألوسى فلم يصرح بشىء فيهما وإن كان تحليله لهما على ما قال به الشيخان من التعجب والإنكار[3].

وقال الإمام البيضاوى فى الأول **(أألد)** إنه استفهام استعجاب من حيث العادة لا من حيث قدرة الله، أما الثانى فهو للإنكار[4].

وليس للأئمة الآخرين خلاف يذكر عما قاله هؤلاء.

والخلاصة: أن الاستفهام فى قول زوج إبراهيم: أألد استفهام تعجب مشوب بالإنكار، أو تعجب متفرع عن الإنكار، إذْ لم تجر العادة أن تلد النساء اللاتى فى سنها.

وهذا وارد بالنظر إلى طبيعة البشر إذا عراهم أمر مستغرب.

أما فى رد الملائكة على هذا بقولهم: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِن أَمْرِ اللهِ﴾ فهو للإنكار، ويضاف إليه التذكير فيما نرى.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿قَالَتْ يَاوَيْلَتَى..﴾ فصلت هذه الجملة عما قبلها للاستئناف البيانى، لأن سؤالا نشأ عن قول الملائكة، لها: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾ فكانت آيتنا جوابا عليه.

* **(يا ويلتى)** أسلوب تفجُّع وتهويل للأمر وتعجب منه. وهى استعارة بالكناية حيث شُبِّه الويل بمن يعقل ثم حذف المشبه به ورمز له بـ (النداء)، أى: يا ويلى هذا زمانك فاحضر.

* ﴿وَأَنَا عَجُوزٌ، وَهَذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ قُدِّم السبب المانع من الإنجاب القائم بها على

---

(١) الكشاف: (٢/ ٢٨١).

(٢) تفسير أبى السعود: (٤/ ٢٦٦).

(٣) روح المعانى: (١٢/ ١٠٠).

(٤) تفسير البيضاوى: (٢/ ٤٦٣).

القائم بإبراهيم لأن البشارة كانت خطابا لها، وفى (شيخًا) إيجاز بالحذف حيث حذف عامل النصب فيه. أى (ترونه).

* ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ فُصِلْت عما قبلها لأنها توكيد لها فبين الجملتين كمال الاتصال.

* ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾؟ فصلت عما قبلها لأنها استئناف بيانى، فبين الجملتين شبه كمال الاتصال.

* ﴿رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ فى رحمة وبركات استعارتان مكنيتان حيث شبه كل منهما بالسحاب المظل، أو السقف فى النفع والحفظ، ثم حذف المشبه به ودُلَّ عليه بحرف الجر (على) وفى ذكرهما: الرحمة والبركات تأكيد لإنكار التعجب الذى صاحت به زوج إبراهيم، كأنهم قالوا لها:

لا تعجبى مما بشرناك به فإن الله تعالى حفكم يا أهل بيت النبوة بالرحمات والبركات، وخوارق العادات والله على كل شىء قدير. فعلام تعجبين إذن؟

وفيه إيجاز بالحذف، حيث حذف حرف النداء وبقى عمله وهو نصب المنادى المضاف، وأل فى (البيت) للعهد الذهنى، أى بيت النبوة.

* ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ تذييل مقرر لمضمون الكلام قبله وأكد الخبر بـ (إن) واسمية الجملة، لإزالة التعجب المشوب بالإنكار فى قول زوج إبراهيم:

* ﴿أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ . وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾.

والتعبير بـ (امرأة) بدل زوجة فى (وامرأته قائمة) وبـ (بعلى) بدل زوجى. سنة بيانية مطردة فى نظم القرآن على كل زوجين لا ينجبان أو أصاب الحياة الزوجية خلل ما[1].

* * *

(١) انظر فى هذه الفروق «دراسات جديدة فى إعجاز القرآن» مكتبة وهبة - القاهرة.

١٣ - ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْـرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّـيِّئَات، قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ، فاتَّقُـوا اللهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي، أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾؟ [هود: ٧٨].

الدراسة والتحليل :

لقطة مفـزعة من قـصة لوط - عليـه السلام - مع قومـه. فقـد زارت طائفة من الملائكة لوطًا بعد أن زاروا عمه إبراهيم عليه السلام. وبينما الملائكة عند لوط إذ أقبل فريق من قومه يُسـرعون السير إلى بيته بعد أن أذاعت امراة لوط (العـجوز) نبأ وجود هؤلاء الضيوف عند لوط، وكـانوا فى سمت جميل، وبهـاء وحسن وجوه. فى هذه الأثناء أقبل عليه قومه يريدون فعل الفاحـشة بالضيوف، فتصدى لهم لوط، ورجاهم ألا يخزوه فى ضيفه متوددًا إليهم، حاثا لهم على الرشد والعفة.

وجاء فى هذه الآية على لسان لوط يخاطب قومه:

* ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾؟

وقد تتبـعنا أقوال الأئمة فيـه فوجدناهم يغفلون الحديث عـن المراد منه بلاغيا. إلا اثنان منهم قـال أحدهما إنه للتـوبيخ وقد عرفـنا أن التوبيخ معنى تابـع لمعنى آخر فى أساليب الاستفهام. إما للتقرير، وإما للإنكار.

وصاحب هذا الرأى هو الإمـام أبو حيان حيث قـال: «وفى ذلك توبيخ عظيم لهم حيث لم يكن منهم رشيد البتة»[1]. والثانى الطاهر بن عاشور، حيث قال:

«والاستفهام فى ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِـيدٌ﴾ إنكار وتوبيـخ؛ لأن إهانة الضـيف مسبة لا يفعلها إلا أهل السفاهة»[2].

والخلاصة: ما قـاله الطاهر بن عاشور من أن الاسـتفهـام هنا للإنكار غيـر مسلم، وليته ضرب عنه صفحا كما فعل الآخرون لأن التركيب الذى صيغ فيه الاستفهام يمنع أن يكون للإنكار:

لأن **(ليس)** أداة نفى، والجملة معها قبل دخول الهمزة عليها هى: **(ليس منكم رجل**

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٢٤٧). (٢) التحرير والتنوير (١٢/ ١٢٩).

رشيد) وهذا أسلوب نفى قطعا.

والهمزة التى دخلت على هذه الجملة فصارت (**أليس منكم رجل رشيد**) نفت النفى الذى كان حاصلاً بـ (ليس) وقد قام الإجماع على أن نفى النفى إثبات، وهذا حكم عقلى صريح، وليس مجرد اصطلاح.

ومعنى هذا أن الاستفهام فى قول لوط ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ استفهام تقرير واثبات لا استفهام إنكار ونفى.

وكان الأحرى بالشيخ الطاهر أن يبحث عن السر فى استعمال هذا الاستفهام التقريرى - هنا - لا أن يجعله إنكاربا مع ما فى هذا الجعل من مخالفة القواعد المجمع عليها.

وسر هذا الاستعمال - فيما نرى - هو الآتى: أن لوطا عليه السلام أراد بهذا الاستفهام الغاضب أن يستنفر منهم من يصدهم عن غيهم ويكون عونا له على كف شرورهم، فأخرج هذا الاستفهام مُخرج الاستفهام التقريرى وفاء بذلك الغرض عسى أن يهب واحد منهم ويقول: ها أنذا هو ذلك الرجل الرشيد، ومن الأغراض البلاغية لمثل هذا الاستفهام الاستعطاف والاستمالة.

وزان هذا وزان قول فرعون لموسى ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨].

يريد استعطافه واستمالته إلى التساهل فى شأن بنى إسرائيل فـ «ليس» لنفى الرشد عن مجموع قومه. و«الهمزة» لإثباته لرجل واحد منهم غير معين.

وهذا الأسلوب أشبه ما يكون بأسلوب الإلهاب والتهييج وهو فن بلاغى بديع، مرت بنا صور عديدة له.

هذا إذا كان هذا الاستفهام مجازيًا.

فإن كان حقيقيا فمعناه أن لوطا يستفهم هل منهم رجل واحد رشيد ينصحهم بترك ما هم فيه. هذا ومن الله التوفيق.

أسرار النظم وبلاغياته :

* ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾: هذا ضرب من ضروب السير، وقد أوثر هنا على ضروب السير الأخرى مثل: (يمشون، يسعون، يسيرون، ينطلقون)؛ لأن هذا الفعل (يُهرعون) لا يسد مسده فعل آخر من نظائره. وليس الفرق بينه وبين هذه النظائر فى القوة والضعف أو السرعة والبطء، وإنما الفرق بينه وبينها فى الباعث على السير أو الغرض من السير.

وكتب اللغة تنص على أن الفعل يكون فاعله مدفوعًا إليه بدافع قهرى. وغالبا مايكون هذا الدافع غرزِّيا انفعاليا وأن هذا الدافع يحمل المدفوع على السير دفعا لا يكاد يملك معه من أمر نفسه شيئا، كالكرة حين يقذفها اللاعب بقوة، وأحيانا تصاحب هذا الإهراع رعدة واضطراب فإذا عرفنا هذا ظهرت لنا سمة من سمات الإعجاز البيانى فى القرآن الحكيم. حيث أوثرت هذه الكلمة **(يُهرعون)** لأن قوم لوط حينما قصدوا بيت لوط كانوا أسراء شهواتهم الجامحة، هى التى تحركهم وقد فقدوا السيطرة على أنفسهم لانغماسهم فى الفواحش الدنيئة، مع تهيجهم البهيمى واضطراب أعضائهم.

* ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ اعتراض مسوق للتشنيع عليهم وإصرارهم على ارتكاب الفاحشة.
* ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ فصلت للاستئناف البيانى.
* ﴿وَلاَ تُخْزُونِ فِى ضَيْفِى﴾ وصلت بجملة، (فاتقوا) قبلها للتوسط بين الكَمالين لاتفاقهما فى الانشائية لفظا ومعنى.
* ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾؟ استئناف ابتدائى «نحوى» مسوق للحث على التعفف، وتنكير **(رجل)** لتفخيم شأنه وإيثار **(رشيد)** وهو صفة مشبهة باسم الفاعل على راشد لما فى الصفة المشبهة من تمكن الصفة فى الموصوف وثباتها فيه . يعنى: رجلا يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر.

* * *

١٤ - ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ، فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ، إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ، إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ، أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

الدراسة والتحليل :

حين هجم قوم لوط على بيته، وفيه الملائكة، تخوَّف لوط من الفضيحة، فطمأنته الملائكة بأنهم لن يستطيعوا اقتحام الدار، وأمرته - بأمر الله - أن يخرج من القرية ومعه أهله ليلاً، ويمضوا حيث يؤمرون. وأعلمته أن امرأته سيحل بها ما يحل بهم صباح نفس الليلة التى هُرعوا فيها إلى لوط.

وجاء فى فاصلة الآية هذا الاستفهام: ﴿. . أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

وخلاصة ما قيل فى المراد من هذا الاستفهام أنه: استفهام مجازى المراد منه - أصالةً -: التقرير(١).

أسرار النظم وبلاغياته :

* ﴿قَالُوا يَالُوطُ . .﴾ فصلت للاستئناف البيانى؛ لأن ما دار بين لوط وقومه تولد عنه سؤال حاصله: وماذا قالت الملائكة، فجاءت هذه الجملة جوابا عنه، فبين الجملتين شبه كمال الاتصال.

* ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ أكد الخبر فى الجملة الأولى بـ (إن) واسمية الجملة، لتسكين فزع لوط عليه السلام، وفصلت جملة **(لن يصلوا إليك)** عما قبلها **(إنا رسل ربك)** لأنها نزلت منزلة التوكيد المعنوى منها. فبين الجملتين كمال الاتصال.

وإضافة **(رب)** إلى ضمير المخاطب **(ربك)** وهو لوط لما فى (رب) من الرعاية والحفظ.

---

(١) الكشاف (٢/ ٢٨٤) أبو السعود (٤/ ٢٣٠) روح المعانى (١٢/ ١١٢) البيضاوى (٢/ ٤٦٥) البحر المحيط (٥/ ٢٤٧) التفسير الكبير (١٨/٣٧) تفسير المنار (١٨/ ١١٣) التحرير والتنوير (١٢/ ١٣٤).

وإيثار (**لن**) فى نفى الوصول لما فيها من قوة النفى ومضائه.

* ﴿وَلاَ يَلْتَفِتْ. . .﴾ وصلت بما قبلها (فـأسرِ) للتوسط بين الكمالين لاتفاقـهما فى الإنشائية لفظا ومعنى.

* ﴿إنه مصيبها ما أصابهم﴾ استئناف تعليلى لاستثناء امرأة لوط. والهاء فى (إنه) ضمير الشأن، وتوكيد الجملة لبيان حتمية وقوع الوعيد.

* وفى ﴿مَا أَصَابَهُمْ﴾ استعارة فى زمن الفعل، شبهت فيه الإصابة فى المستقبل بالإصابة فى الماضى بجامع تحقق الوقوع فى كل، وهى استعارة تبعية.

وفى إيثار الموصول (ما) فى (**ما أصابهم**) تهويل للوعيد.

* ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ توكيد الخبر فى الأولى تثبيتا للوط عليه السلام. والثانية استئناف تذييلى مؤكد لمضمون الجملة قبله. ودخول الباء على خبر ليس لتقوية النسبة بين المسند إليه والمسند، وإظهار (الصبح) فى موضع الإضمار فى الثانية لتقرير أنه هو الوقت الذى سيحل عليهم فى العذاب.

* * *

١٥ - ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِى أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ، إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَة مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ، إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ، وَمَا تَوْفِيقِى إِلاَّ بِاللهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٧-٨٨].

الدراسة والتحليل:

دعا شعيب عليه السلام قومه إلى توحيد الله عز وجل، كما دعا نوح وإبراهيم وهود وصالح. ثم دعاهم دعوة خاصة إلى احترام الحقوق والتعفف عن أكل أموال الناس بالباطل ووفاء المكيال والميزان، ونهاهم عن الفساد فى الأرض. فما كان منهم إلا أن سخروا منه، ورموه بالهوس الدينى كما يُرمى الدعاة الآن. وبدلاً من أن يؤمنوا بأن ما يدعوهم إليه شعيب وحى أنزله الله عليه، نسبوا ما يدعوهم إليه وينهاهم عنه

إلى صلاته وعبادته سخرية واستهزاء.

فقابل شعيب حماقتهم بالحكمة، وجهلهم بالحلم، وقال لهم فى هدوء المؤمن:

إنه على بينه وهدى من ربه، مع ما أنعم الله عليه به من طيبات الرزق، فهل رجل مثله مكنه الله وهداه ينحرف ويخون أمانة ربه، ويدعوهم إلى هوى نفسه؟ وأنه لا يريد إلا الإصلاح وفقا لهداية الله إياه. ومنه وحده يلتمس التوفيق والسداد وعليه وحده يتوكل، وإليه وحده ينيب ويرجع فى كل أمر من أمور نفسه، وأموره مع من أرسله الله إليهم.

وجاء فى هاتين الآيتين استفهامان:

الأول فى كلام قوم شعيب خطابا له، وهو:

* ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾؟ والثانى فى كلام شعيب خطابا لهم:

* ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى . .﴾؟

وفى الاستفهام الأول يقول الإمام جار الله:

كان شعيب عليه السلام كثير الصلوات، وكان قومه إذا رأوه يُصلى تغامزوا وتضاحكوا، فقصدوا بقولهم **(أصلواتك تأمرك)** السخرية والهزء. . . وأرادوا أن هذا الذى تأمر به من ترك عبادة الأوثان باطل لا وجه لصحته»[1] ومعنى هذا أن الإمام يُخرِّج الاستفهام على الإنكار والسخرية، أما أبو السعود والألوسى فخلاصة ما قالاه أن قوم شعيب لم يكتفوا بإنكار الوحى بل ادعوا أنه لا آمر به - أى بترك عبادة أصنامهم - من العقل أصلاً، وأنه من أحكام الوسوسة والجنون[2].

وجمع البيضاوى بين كلام الأئمة الثلاثة مع الاختصار[3]، أما أبو حيان فقد حذا حذو الإمام جار الله[4] وقد نهج بقية المفسرين هذا النهج مع اختلاف فى بعض الألفاظ.

والخلاصة: أن الاستفهام - هنا - استفهام إنكار وسخرية حسبما أملى عليهم الشيطان.

---

(١) الكشاف (٢/ ٢٨٦) بتصرف بالحذف. (٢) تفسير أبى السعود (٤/ ٢٣٢) وروح المعانى (١٢/ ١١٧).

(٣) تفسير البيضاوى (١/ ٤٦٦). (٤) البحر المحيط (٥/ ٢٥٣).

أما الاستفهام الثانى (**أرأيتم**) فقد عرفنا من قبل مرات أن الأئمة، يكتفون فيه بقولهم: أنه بمعنى: أخبرونى وقلما يضيفون أنه استفهام تقرير.

كما عرفنا أننا نضيف إلى ما قالوه معنى جديداً هو: أن هذا التركيب الاستفهامى يراد به استحضار صورة المستفهم عنه فى الذهن ليجرى الحديث عنها وهى حاضرة كى يتمكن المعنى المراد فى النفس كل التمكن.

وهذه خلاصة ما يقال فيه وفى نظائره.

أسرار النظم وبلاغياته:

* فصلت جملة (**قالوا يا شعيب**) عما قبلها لما بين الجملتين من شبه كمال الاتصال، وهو ما يعبر عنه علماء البلاغة بـ (الاستئناف البيانى)، لتنزيل الجملة المفصولة منزلة جواب عن سؤال مقدر نشأ عن الجملة المفصول عنها.

وقد سبقت الإشارة إلى أن الشيخ الطاهر بن عاشور يجعل هذا الفصل بين الجمل مطرداً فى مقام المحاورات والمقاولات دون احتياج إلى تقدير سؤال.

وماذهب إليه البلاغيون هو الصواب.

* وفى (**أصلواتك تأمرك**) مجاز عقلى عند البلاغيين، صارت فيه الصلاة - باعتبارها رمز الإيمان والتقوى آمرة. والآمر الحقيقى هو الله. وإيثار المضارع (**تأمرك**) للدلالة على تكرار أمره لهم بترك عبادة الأصنام وأكل أموال الناس بالباطل. أما بالنظر إلى قائلى هذه العبارة، وهم قوم شعيب، فلا إسناد إلى الصلاة لا حقيقى ولا مجازى، بل هو كلام قالوه على سبيل الاستخفاف والسخرية.

* ﴿أن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ فى هذه العبارة من إيجاز الحذف موضعان:

أحدهما: حذف حرف الجر (الباء) لأن التقدير: بترك عبادة ما يعبد آباؤنا».

والثانى (المضاف) وهو (عبادة).

* وفى التعبير بالمضارع (**ما يعبد**) عن الماضى (عَبَد) استحضار لصورة الفعل فى مقام الاحتجاج، وكأن تلك العبادة كانت تمارس ساعة قالوا هذا الكلام، واستحضار ما هو قدوة لهم فى مقام الاحتجاج أبلغ.

* هذا وقد أشرنا قريبا أن فى (آباؤنا) تغليبا بلاغيًا فصلنا فيه القول من قبل.

* ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ﴾ فصلت عما قبلها لشبه كمال الاتصال.

وفى إيثار (إن) فى ﴿إِن كُنتُ عَلَىَ بَـيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ مع ما تدل عليه من احتمال الشك فى وقوع الشرط. فى هذا الإيثار تليين فى الخطاب من القوم اعتمادًا على ظهور صلاح حاله واستقامته وحسن سيرته.

* ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ قصر صفة على موصوف: الصفة المقصورة هى إرادة شعيب عليه السلام. والموصوف المقصور عليه هو الإصلاح.

* ﴿وَمَا تَوْفِيقِى إِلاَّ بِاللهِ﴾ قصر صفة على موصوف: الصفة المقصورة هى التوفيق. والمقصور عليه هو (بالله).

* ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ قصر صفة على موصوف: الصفة المقصورة هى التوكل. والمقصور عليه هو ضمير اسم الجلالة فى (عليه) وهو الهاء.

* ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ قصر صفة على موصوف: الصفة المقصورة هى الإنابة. والمقصور عليه هو ضمير اسم الجلالة فى (إليه) وهو الهاء.

وقد اجتمع فى هذه أربع صور قصر كما ترى. وهذا عزيز فى غير القرآن.

* وفصلت جملة ﴿إِن أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ..﴾ عما قبلها لما بين الجملتين من كمال الاتصال؛ لأن الثانية بيان للأولى.

* وفصلت جملة ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ عما قبلها لكمال الاتصال لأن الثانية توكيد معنوى للأولى.

* ووصلت جملة ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ بما قبلها للتوسط بين الكمالين لاتفاقهما فى الخبرية لفظًا ومعنى.

* أما جملة ﴿وَمَا تَوْفِيقِى إِلاَّ بِاللهِ﴾ فالأظهر أنها استئناف نحوى.

* * *

١٦ - ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَهْطِى أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا، إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود: ٩٢].

الدراسة والتحليل :

لما ألح شعيب عليه السلام فى النصح لقومه، ولم يثنه عن إرشادهم استهزاؤهم به، واجهوه بهذه العبارة ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ، وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا، وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ، وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾؟

فعاد شعيب عليه السلام إلى هدوئه وقوته فى مواجهة الباطل فقال رادًا على مقالتهم:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِى أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ بادئا بهذا الاستفهام:

﴿أَرَهْطِى أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللهِ﴾؟

وخلاصة ما يقال: وقد قيل - فى هذا الاستفهام أنه استفهام إنكارى. أى: ليس رهطى أعز من الله بل الله هو أعز من رهطى ومن كل شىء[1].

أسرار النظم وبلاغياته:

* فصلت جملة: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِى. . .﴾ عما قبلها لما بين الجملتين من شبه كمال الاتصال، لأن السامع لقول قوم شعيب يتطلع بنهم إلى تعليق شعيب على هذا السفه والحماقة. فكانت هذه الجملة إجابة على ذلك التطلع الذى انتظره السامع. وهذا الموضع من أقوى الشواهد على صحة مذهب البلاغيين، وضعف مذهب الشيخ الطاهر بن عاشور اللذين تقدم ذكرهما آنفا فى توجيه الفصل بين الجمل.

* ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ كناية عن نسيان دين الله، أو عن الإعراض عنه. لأن (الوراء) هنا صالح للنسيان وللإعراض.

أو استعارة تمثيلية شبهت فيها صورة تركهم لدين الله مع إقبالهم على عبادة

---

(١) انظر - مثلا - : التحرير والتنوير (١٢/ ١٥١).

الأصنام بالهينة الحاصلة من صورة من جعل شـيئا خلف ظهره وتلهّى عنه بغيره، وأيا كان التصـوير البلاغى فى هذه العبارة فإن المراد منها تسـفيه أحلامهم وخيـبة رجائهم والسخرية منهم والتشنيع عليهم.

* وفى قوله (**ظهريا**) ترشيح للاسـتعارة، أو توكيـد للكناية، وإيثار الماضى(**اتخذتموه**) على المضارع: (تتخذونه) تسجيل عليهم بالبت والقطع فى الرضا بأمر ما كان ينبغى أن يفكر فيه عاقل.

* ﴿إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَـلُونَ مُحِيطٌ﴾ أسلوب خبرى مـستعمل فى التهـديد والوعيد. وتأكيده بـ «إن» واسمـية الجملة للمبالغة فى التـهديد، ولأن مضمون الخبر حـقيقة عظيمة ومن حق الحقائق العظيمة أن يُعبَّر عنها بأسلوب فخم عظيم مثلها.

* وفى قـوله (**محيط**) استـعارة تبعـية شبه فـيها علم الله بـكل شىء بإحاطة الظرف بالمظروف. وتقديم (**بما تعملون**) على (**محيط**) للاهتمـام لا للقصر، ولما فـيه من المبالغة فى التهديد.

* * *

سورة يوسف

١ - ﴿قَالُوا يَاأَبَانَا مَالَكَ لاَ تأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾

[يوسف: ١١].

الدراسة والتحليل :

تكاد تكون سورة يوسف ذات موضوع واحد، هو قصة يوسف مع إخوته، ومع عزيز مصر وامرأته. إلا بضع آيات فى آخرها. وهى من السور المكية. وسر نزولها بمكة، ما فى قصة يوسف من العظات والاعتبارات، وانتصار الحق على الباطل. وفى كتب التفسير روايات أخرى فى سبب نزولها يرجع إليها من شاء.

وأول استفهام ورد فيها هو قول إخوة يوسف لأبيهم:

* ﴿. . مَالَكَ لاَ تأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾؟

وقد وردت هذه الصيغة الاستفهامية كثيراً من قبل وضابطها أن تتركب من:

(ما) الاستفهامية + حرف الجر (اللام) + اسم مجرور، إما ضمير متكلم أو مخاطب أو غائب. وإما اسم ظاهر. وهو قليل.

وهذه الصيغة قد بيَّن أهل الذكر المراد منها وهو الإنكار والتعجب. وهذا المعنى ملازم لها حيث وردت.

والخلاصة: أن أخوة يوسف ينكرون على أبيهم إمساك يوسف عنده والخوف عليه من أن يصطحبه إخوته معهم فى انتجاعهم للرعى واللهو، ولا يرون مانعًا يمكن أن يتعلل به فى منعه من الخروج معهم.

أسرار النظم وبلاغياته :

* ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ . .﴾ فصلت هذه الجملة عما قبلها للاستئناف البيانى، لأن ما قبلها يقذف فى النفس سؤالا صورته: فماذا فعلوا مع أبيهم بعد أن حبكوا تلك المؤامرة سراً فى الكيد من يوسف؟

فجاءت هذه الجملة جوابًا على ذلك السؤال المقدر، فبين الجملتين شبه كمال الاتصال.

* وفى قولهم: **(يا أبانا)** تليين ورقة فى الخطاب وتودد لكى يستميلوا قلب أبيهم فيؤذن لهم باصطحاب يوسف.

* ﴿مَالَكَ لاَ تأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾ أىُّ مانع ثبت عندك حملك على حبس يوسف لديك وحرمانه من اللعب معنا، فقد جعلوا انتفاء المانع وسيلة للإنكار عليه بطريق الكناية، كما تقدم ذلك مرات.

* ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الواو للحال. والجملة فى موضع الحال والتقدير: حالة كوننا حافظين له من كل سوء.

وتوكيد الخبر فى هذه الجملة «الحالية» لإزالة ما عند أبيهم من ريب حيال تعرض يوسف للسوء إذا بَعُد عن رعايته لصغر سنه، وعدم درايته بالأمور.

وتقديم الجار والمجرور (له) على **(الحافظون)** للاهتمام بالمقدم، ولأنه محور الحديث. ولما فى تأخير **(الحافظون)** من مراعاة النسق الصوتى فى فواصل الآيات.

* * *

٢ - ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ من دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ، قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥].

الدراسة والتحليل:

حين عرضت امرأة العزيز نفسها على يوسف فاستعصم وأبى وهمَّ مسرعًا ليخرج من (القصر) فارًا بدينه، وتشبثت به فقدَّت ثوبه من الخلف، فى هذه الأثناء فوجئا بالعزيز عند الباب ففزعت امرأته، ولكنها لم تحر جوابًا ولم تعدم حيلة فأسرعت صائحة فى وجه زوجها:

﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وهذه العبارة: **(ما جزاء..)** تردد فهم الشارحين لها بين أن تكون (ما) نافية، يعنى ماجزاؤه إلا السجن أو العذاب. فإن كانت نافية فالأسلوب أسلوب قصر.

وبين أن تكون (ما) استفهامية. وهى بهذا الاعتبار تدخل معنا فى إطار هذه الدراسة المقصورة على أساليب الاستفهام والآيات التى وردت فيها تلك الأساليب.

وعلى أنها استفهامية يرد هذا السؤال: ما نوع هذا الاستفهام؟ وما المراد منه؟

قال الإمام جار الله:

«وما نافية، أى: ليس جزاؤه إلا السجن. ويجوز أن تكون استفهامة بمعنى: أى شيءٍ جزاؤه إلا السجن»[1].

وقد حذا الإمامان أبو السعود والألوسى حذو الإمام جار الله فجوَّزا فى «ما» النفى والاستفهام، وقدَّرا تقديره للمعنى[2] ولكنهم جميعا لم يبينوا ما المراد من الاستفهام على تقدير هذا الاستفهام فيها. وكذلك سلك الأئمة الباقون[3].

والخلاصة: أن الأئمة جميعًا جوَّزوا فى (ما) النفى والاستفهام وأنهم جميعا - كذلك - لم يبينوا المراد من الاستفهام.

والذى نراه من سياق الكلام ودلالة المقام أن المراد منه هو: التهويل والتفظيع. فقد هالها حضور زوجها وهى فى حالة مريبة ففزعت إلى حيلة تبرئ بها نفسها وتفحم غريمها فهوَّلت الأمر الذى هى فيه لتصرف سوء ظن زوجها فيها لما استعظمت ما وجدهما عليه موهمة أنها الطاهرة العفيفة الثائرة على من أراد أن يعبث بشرفها.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿اسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ استعارة تبعية، لأن المراد أسرعا نحو الباب، هو يريد الفرار منها، وهى تريد إرجاعه. فشبه الإسراع بالسبق الذى يحاول كل طرف الغلب فيه فنزل إرادة يوسف النجاة من كيدها، وإرادتها إرجاعه لممارسة الفحشاء معها منزلة الهدف الذى يتبارى نحوه المتسابقان.
* ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ﴾ استئناف بيانى كما تقدم. وكَنَتْ بـ (من) عن يوسف ولم تصرح باسمه لدلالة قرينة الحال عليه ولإخراج كلامها مخرج العموم لتنزيل اقتراحها بالسجن أو العذاب مُخرج القانون العام.

---

(١) الكشاف (٢/ ٣١٣). (٢) تفسير أبى السعود (٤/ ٢٦٨) وروح المعانى (١٢/ ٢١٨).
(٣) انظر - مثلها البحر المحيط (٥/ ٢٩٧) والبيضاوى (١/ ٤٨٠).

* وفى التعبير بـ (**اهلك**) عن نفسها، والعدول عن ذكر اسمها أو ضميرها تهويلا للأمر عند زوجها بإضافة كنايتها إليه.

* وفى إيثار الماضى (**أراد**) ترشيح لتصديق العزيز إياها، وأن يوسف تحققت منه إرادة الفاحشة منها.

* وفى تنكير (**سوءاً**) تهويل للأمر ونعى على يوسف بما اتهمته به من زور وبهتان.

* ﴿إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ استثناء مفرغ من جميع العقوبات. وهو أسلوب قصر باعتبار النفى الصريح فى (ما) إذا حملت على النفى. وباعتبار النفى المستفاد منها (أى ما) إذا حملت على الاستفهام الإنكارى المستعمل فى التهويل والتعجب.

وحذف فاعل (**يسجن**) وبناؤه لما لم يسم فاعله لأن الغرض لم يتعلق بتحديد الفاعل بل بوقوع الفعل فى نفسه.

* وفى تقديم (**السجن**) على (**العذاب**) ترجمة لما فى نفسها من حب يوسف والإشفاق عليه. وإبقاء لأملها فى استجابة ما أرادت منه. لأنها كانت بين حالتين متضادتين:

- المسارعة إلى تبرئة ساحتها أمام زوجها من هذا الموقف الشديد الحرج.
- ثم حبها ليوسف وعدم يأسها من حصول مرادها منه حتى مع هذا المأزق المتأزم.

* وفى تنكير (**عذاب**) مع وصفه بـ (**أليم**) إشارة إلى يسر هذا العذاب المقترح فى موقف الدفاع عن النفس. مع أن (**جُوَّاهَا**) يأبى أن يمس يوسف برشفة ماء، إن كانت تلك الرشفة تؤذيه، فلسانها عليه. وقلبها معه.

* * *

٣ - ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

الدراسة والتحليل:

لما استمر يوسف على عفته وطهارته، ورأى العزيز ومستشاروه أن يودعوه فى السجن حينا من عمره، ودخل مع يوسف السجن فتيان فى جرائم أخرى، ورأى كل منهما مناما لم يفهم المراد منه، وسألا يوسف أن يفسر لهما مناميهما، ثم فسرهما لهما وانتهز فرصة إعجابهما به، وراح يتحدث بفضل اللّه عليه وعلى آبائه إبراهيم واسحق ويعقوب، ويلقى عليهما درساً فى عقيدة التوحيد التى يجب أن يعتنقها كل الناس، وأن يفزعوا من عقيدة الشرك والوثنية.

وفى أثناء هذا الدرس العظيم خاطبهما قائلاً:

* ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾:
* ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ﴾؟
* ﴿أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾؟

وهذه الصيغة الاستفهامية كثيرة الورود فى كلام اللّه، ولها حالتان:

* أن تكون محكية عن غير اللّه، كما فى هذه الآية.
* أو تكون من كلام اللّه - أصالة - وليست محكية، عن غيره مثل قوله تعالى فى سورة القمر:

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٤٣].

ونريد بهذه الصيغة ما تكونت من همزة الاستفهام الصريحة و (أم) المعادلة لها. ولها منهج فى نظم القرآن سنذكره فى موضع قادم إذا شاء اللّه.

اما المراد من هذا الاستفهام - هنا - فهو:

فالإمام جار الله أورد فيهما هذا القول:

«أأن تكون لكما أرباب شتى يستعبد كما هذا ويستعبد كما هذا (خير) لكما؟ (أم)

أن يكون لكما رب واحد قهار لا يغالَب ولا يُشارَك فى الربوبية»[1].

وسلك أبو السعود فيه مسلك الشرح والايضاح كالزمخشرى ولم يبن المراد منه[2].

اما الألوسى فمع إيراده كثيراً من النقول فإنه صرَّح أن المراد من الاستفهام هو نفى الاستواء، يعنى أنه فى قوة الإنكار [3].

وحمله الإمام ابن عاشور على التقرير فقال: «فالاستفهام تقريرى» [4].

والخلاصة: أن هذا الاستفهام لما تركب من صورتين إحداهما بالهمزة **(أأرباب)** والأخرى بـ (أم) **(أم اللّه)** تباينت وجهات النظر فى المراد منه. وهو يحتمل ثلاثة أوجه أورد المفسرون منها اثنين وهما:

* أن يكون المراد منهما نفى المساواة فى الخيرية.
* أن يكون للتقرير.

فمن قال إنه لنفى المساواة نظر إلى الطرفين معاً ولكن يرد على هذا أنه لا اشتراك أصلاً بين عبادة الأوثان وعبادة اللّه فى (الخيرية) لان الأولى شر خالص والثانية خير خالص. فكيف يتوقع المساواة بينهما حتى يكون الاستفهام لنفى تلك المساواة، ولو كان الأمر - كذلك - لكان فى عبادة الشرك حظ من الخير. وهذا باطل بطلانا ظاهراً. أما التقرير فإن القائل به ينظر إلى الطرف الثانى **(أم الله)** ويهمل الجانب الأول: **(أأرباب)**.

والوجه الثالث الذى لم يذكره أحد هو أن يقال: إن هذا الاستفهام للإنكار والتقرير.

للإنكار بالنسبة للشق الأول: **(أأرباب متفرقون خير)**؟

لإن هذه الأرباب، وهى الاصنام شر محض لا خير فيها **وللتقرير**: بالنظر إلى الشق الثانى **(أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)** وهذا ما نميل إليه ونرجحه على سابقيه.

---

(1) الكشاف (٢/ ٣٢١).
(2) تفسير أبى السعود (٤/ ٢٧٨).
(3) روح المعانى (١٢/ ٤٤).
(4) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٧٤).

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿يَاصَاحِبَى السِّجْنِ﴾ نداء فيه لين وتودد مستحسن فى مقام الدعوة إلى اللّه. لأن مناداتهما بوصف الصحبة من دواعى الاخلاص فى النصح الموطىء للقبول عند المنصوح وإضافة (**صاحبى**) إلى (**السجن**) لأن (**السجن**) هو الذى نشأت فيه تلك الصحبة بين يوسف وبين الفتيين. وهذا أولى مما ذُكِر فى هذا الشأن عند سادتنا المفسرين.

* ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ كناية عن الأصنام. وأطلق عليها وصف (**الأرباب**) إما مجاراة لهما على ما كان شائعاً فى الملة التى ينتميان إليها. ويكون هذا القول من يوسف – عليه السلام– من باب مجاراة الخصم ريثما يكشف لهما عن خطأ هذا المعتقد.

وإما استعارة للأسياد، بجامع المهابة فى كل منهما. ويقوى هذا أن هذا التعبير، وهو (رب وأرباب) كان شائعاً فى لغة العبرانيين.

وتنكير (**أرباب**) للكثرة والتحقير كما ينبىء عن ذلك المقام الذى ورد فيه هذا اللفظ.

* ووصفهما بـ (**متفرقون**) إيماء إلى ذلك التحقير. والمراد التنفير من هذه العقيدة الفاسدة.

* ﴿أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ اسم الجلالة مسند إليه، مبتدأ والخبر محذوف دل عليه المذكور قبله، والتقدير: أم الله الواحد القهار خير. والمسند – هنا هو المقرر به. كما أن المسند فى الأول هو المنكر.

ووصف اسم الجلالة (الله) بـ (الواحد القهار) لهما سر بيانى بديع.

فـ (**الواحد**) لمقابلة الكثرة فى (**أرباب**) و (**القهار**) لمواجهة العجز والضعف فى (**متفرقون**) وهذا النسق فى ترتيب الصفات من قبيل اللف والنشر المرتب، لأن (الواحد) مقابل (أرباب) و (القهار) مقابل (**متفرقون**) فالأول للأول والثانى للثانى.

* * *

٤ - ﴿وَقَالَ المَلِكُ ائْتُونى به، فَلَمَّا جَـاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسوَةِ اللَّائى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ، إِنَّ رَبِّى بِكَيْـدِهِنَّ عَلِيمٌ * قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِـه، قُلْنَ حَاشَ للَّه مَـاعَلِمْنَا عَلَيْه من سُوء، قَـالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ، وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾

[يوسف : ٥٠، ٥١].

الدراسة والتحليل:

بعد أن رأى ملك مصر رؤياه العـجيبة: سبع بقرات سمـان تأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبـلات خضر وأخرى يابسـات وعجز معبـرو الرؤى من قومه عن تعـبيرها، ولجأوا إلى يوسف فى السجن فعبـرها لهم، أعجب الملك به ورغب أن يتخذه وزيراً، فتريث يوسف وقال لرسول الملك ارجع فاسأله عن خبر النسوة فسألهن. واشتمل هذا الموقف على صورتين استـفهاميتين، الأولى من كلام يوسف، والثـانية من كلام الملك مع النسوة. وهما:

* ﴿مَابَالُ النِّسْوَةِ﴾ ؟ ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاودتُّنَّ يُوسُفَ﴾ ؟

وهذان الاستفهامـان حقيقيان لا مجازيان. ومعنى كل منهـما أو المراد منهما هو ما دخلت عليه أداة الاستـفهام، فالمراد من الأول سؤال النسـوة عن ما عرفنه عن يوسف ساعة دخل عليهن. هل لمسن فيه ريبة؟ والمـراد من الثانى هو الأول بيد أن التعبير عنه مختلف فقـد عُبِّر عنه فى الأول بـ **(ما بال)**. وعُبِّـر عنه فى الثانى ، بـ **(ما خَطبكنَّ)** والمعنى فى الحالتين واحد إذ ردد الملك ما بدأه يوسف عليه السلام. فلم يبق أمامنا إلا مبحث:

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿وَقَالَ المِلِكُ ائْتُونِى بِهِ﴾ فى هذه العبارة إيجاز بالحذف، لأن التـقدير: فلما عبر لهم يوسف الرؤيا وجاء رسـول الملك فقص عليـهم قول يوسف[1] وأعجب الملك وقال. . . ، فالمحذوف أكثر من جملة وهذا الحذف شائع فى النظم القرآنى فى مقام

(١) يراعى أن من المحذوف - هنا - كل ما قاله يوسف من الآيات التى فصَّل لهم فيها مراحل الرؤيا.

القصص وهو حذف واضح مما يتقدم عليه ويتأخر من الكلام.

* ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ الَى ربِّكَ﴾ وفى هذه العبارة حذف كثير أغنى عنه المذكور، والتقدير:

فأرسلوا إلى يوسف فى سجنه رسولاً يبلغه أمر الملك فدخل عليه فبلغه رغبة الملك فى إخراجه من السجن والقدوم اليه، فلما عرف يوسف ما يريده الملك قال لرسول الملك ارجع إلى ربك. فرجع الرسول إلى الملك، وقص عليه ما قاله يوسف.

* ﴿ النِّسْوَةِ الَّلاتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ كناية عن النسوة اللاتى دعتهن امرأة العزيز وأعتدت لهن مجالس يتكئن عليها ليرين يوسف ويعذرنها لفرط حسنه وجماله .

* ﴿إِنَّ رَبِّى بِكَيْدهِنَّ عَلِيمٌ﴾ أكد الخبر بـ (إن) واسمية الجملة للإعلام ببراءته مما اتهمته به امرأة العزيز. ونسبة الكيد إليهن، والكائدة واحدة هى امرأة العزيز تأدبا منه عليه السلام، ودفعا لما عساه أن يُحجم الملكَ عن تنفيذ رغبة يوسف رعاية لزوجها عزيز مصر.

* ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ فصلت جملة قال عما قبلها للاستئناف البيانى؛ لأنها جواب على سؤال تقديره. ماذا قال الملك.

وفيها إيجاز بالحذف تقديره:

فلما عاد الرسول وأخبر الملك بما قال يوسف جمع النسوة وسألهن قائلاً (ما خطبكن). والخطب هو الأمر العظيم الشان.

* ﴿إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ المراودة كناية عن طلب إيقاع الفاحشة.

وإسناد المراودة لهن، والمراودة واحدة منهن جريا على الستر وتوصلا للإقرار بالحق.

* ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ الجملة الأولى **(حاش لله)** إيماء إلى براءته وبراءتهن مما نُسب اليه وإليهن من المراودة فى كلام الملك، وقد أكدن هذا بقولهن ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ وعبَّرن بنفى علمهن عن نفى السوء عنه على طريق الكناية؛ لأن نفى العلم بالشىء نفى لذلك الشىء أصلاً. ونكَّرْنَ (سوء) مع دخول (من) عليه، وهو مفعول به مبالغة فى نزاهته وعفته، أى: ما علمن عنه أدنى شىء من أدنى سوء.

* ﴿قَالَت اْمرَأَةُ الْعَزِيزِ اْلآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ فصلت هذه الجملة عما قبلها للاستئناف البيانى، لأن قول النسوة: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَاعَلِمْنَا عَلَيْـهِ مِن سُوءٍ﴾ يتولد عنه - بكل وضوح - سؤال خلاصته:

وماذا قالت امرأة العزيز؟ وهذا من المواضع التى تؤكد صحة مذهب البلاغيين، وترجيحه على مذهب الشيخ الطاهر من أن الفصل بين مثل هذه الجمل علته ورودها فى مقام المحاورات والمقاولات.

* وفى قوله: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ أسلوب قصر طريقه تقديم الظرف (الآن) على عامله (حصحص) أى فى هذه اللحظة لا فى غيرها من الزمن الماضى ظهر الحق وقوى واستقر.

* ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ﴾ قصر تعيين، لأن المراودة كانت - حسب اتهامها ليوسف من قبل، وإعلان يوسف أنها هى التى راودته - كانت عند الناس شركة بين الاثنين بلا تعيين[1] .

* ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ تذييل مؤكد لمضمون الكلام قبله. وقد أكد الخبر بـ (إن) واللام واسمية الجملة مبالغة فى صدق الاعتراف بنزاهته عليه السلام وكونه من الذين استقر فى الأذهان أنهم هم الصادقون.

* * *

٥ - ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ، أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّى أُو فِى الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [يوسف: ٥٩].

الدراسة والتحليل

تحكى هذه الآية أول لقاء تم بين يوسف وإخوته منذ ألقوه فى البئر. جاءوا إلى مصر ليمتاروا الطعام لأهلهم فعرفهم يوسف عليه السلام، وكانت مقاليد أمورها قد وضعها الله فى يده.

---

(١) قد يقال: إن النساء اللاتى دعتهن امرأة العزيز يعلمن أن يوسف لم يراودها لاعتراف امرأة العزيز أمامهن بأنها هى المراودة فكيف يقال بلا تعيين ؟ والجواب: انها بلا تعيين عند عامة الناس .

عرفـهم وهم لم يعرفـوه. لأن آخر عهـدهم به أنه كان طفـلاً، وها هو الآن شاباً يتربع على كرسى الإدارة والتوجيه. فأكرم ضـيافتهم، وأعطاهم من الطعام بمقدار فيه حكمة وحسن تدبير.

ثم قال لهم وهو يودعهم: أئتونى - فى المرة القادمـة - بأخ لكم من أبيكم غير شقيق لكم - يعنى أخاه بنيامين - فإن لم تأتونى به فلا تحدثوا أنفسكم بالقدوم إلىَّ.

ثم قال لهم هذه العبارة الاستفهامية الودود:

* ﴿أَلا تَرَوْنَ أَنِّى أُوفى الْكَيْلَ..﴾.

لم نجد للأئمة توجيهاً فى المراد من هذا الاستفهام وخلاصة ما يقال فيه أنه استفهام تقرير لدخول همزته على نفى، ونفى النفى إثبات. فـهو عليه السلام يقررهم برؤيتهم إياه موفيا الكيل وأنه يحسن وفادة الوافدين عليه من غير أهل البلاد، لأن إخوته قدموا عليه من فلسطين.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿قَالَ ائْتُونِى بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ نكَّر الأخ وكأنه لم يعرفـه إلا من حديثهم عن أهلهم الذى أجراه مـعهم يوسف عليـه السلام حتى لا يفطنوا إلى حـقيقـة الأمر، ويعرفوا أنه أخوهم يوسف عليه السلام.

* ﴿أَلا تَرَوْنَ أَنِّى أُوفِى الْكَيْلَ﴾ ترقيق وتليين فى الخطاب لاستمالة قلوبهم وترغيبهم فى العودة. ووضع المضارع (**ترون**) موضع الماضى (رأيتم) لاستحضار صورة الفعل بما يشتمل عليه من محاسن ولطائف فى المعاملة والوفاء والتودد.

وتوكيـد معـمول الرؤية (**أنى أوفى الـكيل**) للمبـالغة فى التـرغيب وحـسن الوفاء بالوعد، والرؤية بصرية علمية، لأنهم رأوا ذلك بأعينهم، واستقر فى مشاعرهم .

* ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ من تمام الترغيب والتمييل. وإن كان ظاهره الثناء على نفسه. وهذا الثناء غير مراد لذاته، وإنما جعله وسيلة لتقوية الروابط بينه وبينهم ليقضى اللّه أمراً كان مفعولاً، وهو من قبيل الكنايات التى ينتقل فيها من اللازم وهو الثناء هنا، إلى الملزوم وهو الميل النفسى والترغيب.

* * *

٦ - ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ، فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]

الدراسة والتحليل:

لما أخبر إخوة يوسف أباهم بما دار بينهم وبين يوسف بمصر، وهم لا يعرفون ولا أبوهم يعرف أن يوسف هو الذى كان على خزائن مصر، وأنه هو الذى رغب فى أن يُحضروا معهم - عند العودة - أخًا لهم من أبيهم، لما أخبروا أباهم بهذا النبأ تذكر أشجانه وأحزانه على فقد يوسف وتذكر تعهد إخوته بحفظه، ثم فاجأوه بأن الذئب أكله وخشى أن تتكرر المأساة فقال لهم:

﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيه مِن قَبْلُ. .﴾؟ وهذا أسلوب استفهام كما ترى. وقد وقف الأئمة من هذا الاستفهام مواقف متباينة نوجزها فى الآتى:

الموقف الأول: فريق منهم لم يُدْلِ فيه بشىء سوى أن قدموا فيه شرحاً عاماً. أما المراد منه فسكتوا عنه، وهم:

الزمخشرى، وأبو السعود، والبيضاوى [١].

الموقف الثانى: فريق منهم قال إن المراد منه الإنكار وهما:

الإمام الألوسى، والإمام الطاهر بن عاشور. فقد صرَّح كل منهما أنه استفهام إنكار.

قال الأول: **(هل آمنكم عليه)** «استفهام انكارى»[٢] وقال الثانى: «وجواب أبيهم كلام موجِّه يحتمل أن يكون معناه: أننى آمنكم عليه كما أمنتكم على أخيه.

وأن يكون معناه: ماذا أفاد ائتمانكم على أخيه من قبل حتى آمنكم عليه. والاستفهام إنكارى فيه معنى النفى »[٣].

ومعنى قوله: «كلام موجَّه» يعنى له وجهان متساويان فى الدلالة على معنيين

---

(١) بدءا من هنا نتوقف عن الرجوع إلى تفسير المنار؛ لأنه انتهى.

(٢) روح المعانى (١٣/ ١١). (٣) التحرير والتنوير (١٣/ ١٦).

مختلفين، مثل الفن البديعى المسمى بالتوجيه، والذى مثلوا له بقول الشاعر:

خاط لى عمرو ثيابا.. ليت عينيه سواء

وعمرو هذا كان «أعور» فاحتمل كلام الشاعر أن يكون دعاءً على عمرو بالعمى، وأن يكون دعاءً له بالإبصار، والذى نراه أن عدَّ كلام يعقوب من «التوجيه» غير سديد لما سيأتى فى الخلاصة.

الموقف الثالث: وهو لأبى حيان حيث قال: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾ هذا توقيف وتقرير وتألم من فراق بنيامين ولم يصرح بمنعه.. لما رأى فى ذلك من المصلحة»[1].

والخلاصة: ما ذهب إليه الإمامان الألوسى والطاهر من أن الاستفهام فى الآية للإنكار بعيد، والنظم لا يساعد عليه.

والصحيح ما ذهب إليه الإمام أبو حيان. لأن يعقوب عليه السلام أراد أن يقررهم بما حدث منهم من قبل مع يوسف فقد قالوا إنهم له لحافظون. ثم فرَّطوا وادعوا أن الذئب أكله، وكان أبوهم ما يزال يرفض هذا الادعاء، ويأمل فى عودة يوسف.

ومع تقريرهم بما حدث منهم من قبل فهو يُقرِّعهم ويوبخهم عليه، وليس الأمر كما قال ابن عاشور أن كلام يعقوب يحتمل الدلالة على معنيين - كالتوجيه - أولهما أن يكون بمعني: آمنكم عليه كما أمنتكم على أخيه من قبل، فالتجربة الأليمة التى عاشها يعقوب لفقد يوسف من قبل. تأبى بكل قوة رفض هذا المعنى. كما أن التركيب بما فيه من نفى أفادته (هل) واستثناء أفادته (إلا) يقطع بأن يعقوب عليه السلام يقررهم بما حدث منهم قبلا، ويعلن لهم رفضه رحيل أخيهم معهم ويدل على ذلك قوله من بعد:

﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُون مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦].

ولهذا فالصواب هو ما قاله الإمام أبو حيان رحمه الله، ونضيف إلى هذا أن الأئمة الثلاثة الذين لم يصرحوا فيه بالمراد منه فسروه تفسيراً يدل على أن يعقوب عليه السلام ما أراد من هذا الاستفهام إلا التقرير والتقريع.

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٣٢٢).

أسرار النظم وبلاغياته

* ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ﴾ فصلت جملة (قال) عما قبلها لشبه كمال الاتصال (استئناف بيانى).

وإيثار أداة الاستفهام (هل) لتحقيق وجه الشبه بين ائتمانه لهم على بنيامين وائتمانه لهم على يوسف، والشبه المراد تحقيقه هو عدم الوفاء بما وعدوا فى يوسف وما يعدون فى بنيامين.

وفى التركيب أسلوب قصر بين طرفى التشبيه، قصر موصوف هو ائتمانه لهم على بنيامين. على صفة، هى ائتمانه لهم على يوسف: يعنى ما هذا الا هو ذاك.

أما طرفا التشبيه فمعنويان، ووجه الشبه معنوى مثلهما. والتشبيه مجمل مرسل لحذف الوجه وذكر الأداة و (ما) فى **(كما)** صالحة للحمل على المصدرية والموصولية.

* ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ عطفت هذه الجملة على ما قبلها **﴿فالله خير حافظا﴾** للتوسط بين الكمالين، لا تفاقهما فى الخبرية لفظا ومعنى.

والجملتان مستعملتان لا فى فائدة الخبر ولا فى لازم الفائدة، بل هما مستعملتان فى تمجيد الله عز وجل وإظهار الثناء عليه.

* * *

٧ - ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ [يوسف: ٧١].

الدراسة والتحليل:

بعد أن وضع يوسف - عليه السلام- السقاية فى رحل أخيه، ثم انصرف إخوته ليعودوا إلى ديارهم بفلسطين، ناداهم مناد من قبل يوسف: ﴿أيها العير إنكم لسارقون﴾ فدهش إخوة يوسف من هذا الأمر، وعادوا مقبلين على النداء. وسألوا هذا السؤال: **﴿ماذ ا تفقدون﴾**.

وهو استفهام حقيقى المراد منه ما يدل عليه لفظ الفعل ﴿تفقدون﴾ وقد يكون مشوبا بالتعجب.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿قَالُوا﴾** فصلت هذه الجملة عن سابقتها للاستئناف البيانى لأن جملة ﴿أَيَّتُهَا العِيرُ

إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ ينشأ عنهـا سؤال مُلِحٌّ فى النفس لا يمكن دفعه، حـاصله: وماذا قال إخـوة يوسف رداً على هذا النداء المفاجىء؟.. وهذا من المواضـع التى تُصوِّب مذهب البلاغيين على رأى الطاهر فى الفصل بين هذه الجمـل وأمثالها كما تقدمت الاشارة إلى ذلك.

* (وَأَقْبَلُوا) لم يقل مثلاً: وعادوا، أو ورجعوا، لأن لغة القرآن تلتزم مادة (ق.ب-ل) فى الإقبال من حالة إدبار يكون المقبل متلبسا بها بالفعل(١).

* (تَفْقِدُونَ) أوثر المضارع - هنا - على الماضى. إشارة إلى وقوع الفـقد متصلا بزمن التكلم، ولمراعاة فواصل الآيات.

* * *

٨ - ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾ [يوسف: ٧٤].

الدراسة والتحليل:

لما أنكر إخوة يوسف أن يكونوا سارقين، فقالوا: ﴿تاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فى الأرضِ، وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ قال لهم معاونو يوسف:

﴿فَما جَزَاؤُه إِن كُنتُم كَاذِبِينَ﴾.

ولم يهتم الأئمة، ببيان المراد من هذا الاستفهام ، وخلاصة ما يقال فيه إنه استفهام تقرير واعتـراف بنوع العقوبة التى توقع فى مثل هذه الحـالة، لئلا ينازع إخوة يوسف فيها بعد ثبوت موجبها.

أسرار النظم وبلاغياته

* (قالوا) فصلت للاستـئناف البيانى، لتولد سؤال عن الجملـة الأولى حاصله: فماذا قال مـعاونو يوسف عليـه السلام لما انكر إخـوته أن يكونوا سارقين؟ فـجاءت هذه الجملة جوابا على ذلك السؤال المقدر.

* ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ الفاء للتفريع على ما قبله. والضمير الذى للغائب فى قوله **(جزاؤه)** يعود على السارق المفهوم من قولهم من قبل **(إنكم لسارقون)**.

---

(١) انظر مادة (ق.ب.ل) من كتابنا: دراسات جديدة فى إعجاز القرآن مكتبة وهبة - القاهرة.

والجزاء: العقاب. وسمى الجزاء عقابا لأنه يعقب الفعل الموجب له.

* * *

٩ - ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا منهُ خَلَصُوا نَجِيًّا، قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ، فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِى أَبِى أَوْيَحْكُمَ اللَّهُ لِى، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

[يوسف: ٨٠].

الدراسة والتحليل:

لما نجحت حيلة يوسف (البريئة) واستبقى أخاه بنيامين بعد استخراج (السقاية) من رحله حسب الخطة المرسومة ضاقت الأرض بما رحبت فى أعين إخوته، وتجمعت على صدورهم هموم مضاعفة:

* ماسأة يوسف «القديمة» التى بعثت من رقادها - الآن - .
* وماسأة أخيهم بنيامين الذى احتبسه يوسف.
* الميثاق الذى أخذه عليهم أبوهم ليأتنه بأخيهم بنيامين .
* مأساة رفض يوسف أن يأخذ مكان بنيامين واحداً منهم ليبروا لأبيهم بميثاقهم الذى أبرمه معهم.

تجمعت هذه المآسى القاتلة. فانتحوا جانبا بعد يأسهم ليتدارسوا الأمر.

وفجأة إذا بكبيرهم يتسمَّر بالأرض، ويذكر إخوته بميثاق أبيهم، وبإلقاء يوسف من قبل فى البئر، وكذبهم على أبيهم وقد جاء على لسانه هذا الاستفهام:

﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَافَرَّطتُمْ فى يُوسُفَ﴾.

وقد علمنا من قبل مرات أن صيغة هذا الاستفهام الذى تدخل فيه (الهمزة) على (نفى) يكون استفهام تقرير وهو كذلك هنا. فكبير إخوة يوسف يقررهم ويذكرهم هنا بأمرين:

* الميثاق الذى أعطوه لأبيهم قبيل قدومهم مصر فى هذه الرحلة.
* ما فعلوه من قبل مع يوسف.

ويريد مع هذا التقرير والتذكير تهويل الأمر الذى هم فيه. إذن، فإن خلاصة ما يقال فى هذا الاستفهام أنه: للتقرير والتذكير والتهويل.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ الفاء تفريع على ما قبلها والسين والتاء فى (استيأسوا) للتأكيد، أى حصل لهم اليأس القاطع لكل أمل (ونجيا) مصدر أوثر على اسم الفاعل (متناجين) اللمبالغة ، كرجل عدل.

وهذا إيجاز قِصَر بديع، إذ التقدير، اعتزلوا الناس حتى لا يسمعوا ما يدور بينهم من حديث حول ماذا يفعلون فيما هم فيه.

* ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ جملة (قال) فصلت عما قبلها لِكمال الاتصال، لأنها بدل اشتمال؛ لأن مناجاتهم أشتملت - فيما قيل فيها- على قول كبيرهم هذا.

ويجوز أن تكون استئنافاً بيانيا على تقدير سؤال هو: ماذا جرى فى مناجاتهم.

وأوثر المضارع فى (ألم تعلموا) على أن يقال: أما علمتم مثلا. استحضاراً لصورة الفعل مع توكيد وقوعه بالمضى فى المعنى؛ لأن (لم) تقلب معنى المضارع إلى المضى فى المعنى.

* وتوكيد الخبر فى ﴿أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ . .﴾ لتقوية التذكير والتهويل.

وإضافة (**موثقا**) بحرف الجر (من) إلى الله للمبالغة فى تهويل الأمر.

* ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ «جملة اعتراضية»جيء بها لقصد التذكير بما وقع منهم ليوسف وهو صغير. وفيها إيجاز حذف أى: تعلمون ما حدث منكم مع يوسف قبل ما حدث الآن فى شأن بنيامين.

* ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ﴾ كناية عن البقاء بمصر خشية من لقاء أبيه. وأل فى (**الأرض**) للعهد الحضورى، وهى أرض مصر، التى كانوا حضوراً فيها حين قال هذا الكلام.

* ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي، أَوْيَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ . . تقديم إذن أبيه فى تعليل البقاء بمصر على حكم الله له. لأن الأب هو صاحب الحق المباشر فى الميثاق وفى عودة

بنيامين. وتقديم الجـار والمجرور (لى) على الفاعل (أبى) لأن النفس به أكـثر تطلعا وتقديم (**اللّه**) على الجـار والمجرور (لى) عكس الأول مـراعاة للأصل. وللتـفاؤل بتفريج الأزمة من اللّه عز وجل.

* ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْـحَاكِمِينَ﴾ تذييل مـقرر لمضـمون الكلام قـبله وحذف المتـعلق فى (**الحاكمين**) لإفادة العموم. أى حكم اللّه خير حكم فى كل الأمور.

* * *

١٠ - ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْـتُم مَّا فَعَلْتُمْ بِيُـوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـاهِلُونَ * قَالُوا أَإِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ، قَـالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي، قَـدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنا، إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ، فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٨٩، ٩٠].

الدراسة والتحليل:

وفى آخر لقـاء تم بين يوسف وإخوته - وهم لا يعرفـونه - شكوا إلى يوسف ما نزل بهم من ضر. وهنا أراد يوسف أن يزيح الستار عن نفسه، ويكشف الغموض أمام إخوته فقال: (**هل علمتم..**).

إنها مفاجأة لهم، وزاد من وقعها أنه صاغها لهم فى أسلوب هذا الاستفهام: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أجل. كان هذا تـلويحا واضحـاً بالكشف عن أن الذى يكلمهم هو يوسف، ولذلك سـرعان ما فهم إخوته فـقالوا على الفور: ﴿أَإِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ﴾ خاطبوه فى دهشة، ووقع فى وجـدانهم أنه يوسف فأرادوا أن يؤكدوا ما فهـموه مؤكدا من إجـابة يوسف الذى قال: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ ثم استمر يلقى عليهم درساً قـد آن أوانه، ويبين لهم اختلاف الجزاء باختلاف العـمل. فهم قد أسـاءوا بالتآمـر على يوسف وأخـيه. وأن يوسف لزم طاعـة اللّه فـمكّن اللّه له فى الأرض. وأجلسه على عرش مـصر، بينما هم ظلوا قابعين فـى الأرض، يقفون منه موقف المستعطف المهيض الجناح. وأن للّه سنة لا تتخلف هى حفظ جزاء المحسنين.

اما الاستفهامان : ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ﴾ و(**أإنك لأنت يوسف**) فوجهات نظر الأئمة فيهما متقاربة:

وأظهر ما قالوه فيهما أنهما للتقرير. ويضاف إلىْ الأول: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ﴾ التذكير والتأنيب. أما الثانى فإن بعضهم قد جعله (للتعجب) مجرداً. وليس هذا بصحيح، بل هو للتقرير والتوثق.

وهذه خلاصة ما قيل وما يقال فى الاستفهامين على قراءة (الاستفهام) أما على قراءة الخبر ﴿إِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ﴾ فلا تتعلق لنا به مباحث[1].

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ جملة (قال) مفصولة للاستئناف البيانى؛ لأن النفس تتطلع إلى مارد به يوسف عليه السلام على قول إخوته، وما أظهروه من تخضُّع واستعطاف.

وفى ﴿مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ إيجاز بالحذف والمحذوف اكثر من جملة، إذ هو يتناول محاوراتهم مع أبيهم وما دار بينم هم من تفاوض للتخلص من يوسف وعزل أخيه عنه، ثم إلقاؤه فى الجب والكذب على أبيهم بادعاء أن الذئب أكله وتلطيخ قميصه بدم كاذب.

كما تُعد هذه العبارة كناية عن جرائمهم المشار إليها. وهى من استعمال الإنشاء فى التوبيخ والحث على التوبة .

* ﴿إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ تلويح بإعذارهم، وزيادة حث على الندم والتوبة إلى الله.

* ﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ جملة **(قالوا)** فُصِلت للاستئناف البيانى.

وتوكيد المستخبر عنه، لأنهم حين لوَّح لهم يوسف بأنه هو أخوهم يوسف، وقع فى وجدانهم أنه يوسف وقوعاً قوياً فصوروا استفهامهم حسبما هو فى وجدانهم من القوة فأكدوه بـ (ان) واللام واسمية الجملة .ولبعض المفسرين تقديرات أدخلوها على هذه العبارة، لم نذكرها لأن المقام غير محتاج إليها. ومن شاء فليراجعها فى مظانها حسب الهوامش المذكورة آنفا.

* ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ جملة (قال) مفصولة للاسئناف البيانى كتلك.

---

(١) انظر: الكشاف (٢/ ٢٤٠) وتفسير أبى السعود (٤/ ٣٠٣)، وروح المعانى (٣/ ٤٧) والبحر المحيط (٥/ ٣٤٠) والتحرير والتنوير (١٣/ ٤٧).

وعطفت جملة (هذا أخى) على مـثلها بالواو لإشراكهـما فى مقول القـول. وإيثار اسم الإشارة (**هذا**) الموضوع لـلقريب للإعـلام بأن أخاه بنيـامين كان حـاضراً هذا الحديث ولم يكن محبوساً وإيثـار (أخى) على بنيامين لأن الأخوة هى محط الفائدة بخلاف مالو قال: وهذا بنيامين لأن (العلمية) قد يشترك فيها معه غيره. ولم يقل: «وهذا بنيامـين أخى» لأنه معلوم لهم، ولأن ذكـر «أخى» يغنى عنه مع ما فـيه من تذكير لهم بقولهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إلى أَبِينَا مِنَّا﴾ .

* ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ خبر مستعمل فى إظهار الثناء على اللّه.

* ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِـرْ فَإِنَّ اللَّه لا يُضِيعُ أَجْرَ الـمُـحْسِنِينَ﴾ الهاء ضمير الشأن، وتقديم التقوى على الصـبر لتضمن التقوى الايمان باللّه. أما الصـبر فقد يكون من غيـر المؤمن. ومعمولا يتق ويصـبر محذوفـان، والتقدير من يتق اللّه ويصـبر على قضائه وبلائه وعبادته. فهذا مجاز بالحذف لأكثر من جملة.

والتوكيد بـ (إن) لتحقق التقوى والصبر على الوجه المحمود.

* ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الفاء واقعة فى جواب الشرط. وتوكيد الخبر، مع ضمـير الشأن فى (إنَّه) لبـيان أن رعاية المتـقين الصابرين سنة لله فى عـباده لا تتخلف أبداً.

ووضع المظهر موضع المضمر فى (**أجر المحسنين**) وكان الظاهر أن يقـال: لا يضيع اللّه أجره. لما فى المظهر مـن ذكر الإحسان ، والترغيـب فيه، وأن ذلك صُنْع اللّه مع كل محسن، لا يخص به محسنا دون محسن.

وإيثار المضارع فى (يتق) - (يصبر) - (لا يضيع) لاستحضار الصورة، وتكرر هذه الأحداث فى كل جيل.

وهذا درس آخـر ألقـاه يوسف على إخـوته، ناصحـاً لهم، وحـاثا على توبتـهم وإصلاح حالهم مع اللّه. لأنه من «المعلمين الكبار» وهم أنبياء اللّه ورسله.

* * *

١١ - ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا، قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُم إِنِّى أَعْلَمُ منَ اللَّه مَالاَ تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦].

الدراسة والتحليل:

بعد أن تكشفت الحقائق بين يوسف وإخوته، ورجع إخوة يوسف ومعهم قميصه الذى أمرهم بإلقائه على وجه أبيهم ليعود إليه بصره، يبدو أنهم حين اقتربوا من منازل أهلهم فرَّ حامل القميص فألقاه على وجه يعقوب، فارتد مبصراً فى الحال. ثم قال لهم:

﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ ؟

وهذا الاستفهام ، الذى تدخل فيه الهمزة على نفى هو استفهام تقرير - أصالة - كما تقدم فى مواضع كثيرة من قبل. ومع التقرير لا مانع من إفادته التذكير، وهذه خلاصة ما يقال فيه.

أسرار النظم وبلاغياته

* ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ الفاء عاطفة لجملة (لما أن جاء) على ما قبلها. وسر العطف وهى تفيد الفورية مع بُعْد ما بين مصر والشام للدلالة - واللّه أعلم - على سرعة السير فى العودة من مصر فرحاً وابتهاجاً بالفرج العظيم الذى منَّ اللّه به عليهم وذكر (أن) بين لما والفعل (جاء - البشير) لإفادة تمكُّن الفعل وتوكيده.

ووصف حامل القميص بأنه (**البشير**) لما فى هذه التسمية من أصالة فى الدلالة على ما تحبه النفوس وتأنس إليه

* ﴿أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ أُفرِد الفعل (**ألقاه**) هنا، وكان قد جُمع فى قول يوسف (فألقوه) لأن كلام يوسف كان خطابا لهم جميعهم، ولم يُعيِّن أحداً منهم للإلقاء، ثم أفرد (الملقِى) ولعله كبير إخوة يوسف؛ لأن خفة القميص لا تتطلب أكثر من فاعل واحد.

والفاء فى (**فارتد**) لإفادة فورية عودة البصر إلى يعقوب بعد إلقاء القميص على وجهه.

* ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ فصلت هذه الجملة للاستئناف البيان، لشدة تعلق النفس بمعرفة ما حدث من يعقوب عليه السلام بعد هذا الفرج العظيم، والخير العميم. فقد انزاح عنه (كابوس) ظل مخيما عليه سنين طوالا.

* ﴿إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ﴾ توكيد الخبر بـ (إن) لتقوية تذكيرهم بما قال لهم من قبل، ولنشاط نفسه ورغبتها فى إبداء ما كان قد ألهمه اللّه من قوة وثبات وإظهاراً لحسن الثقة فى اللّه عز وجل.

وإيثار المضارع(**أعلم**) و (**مالا تعلمون**) لاستحضار صورة العلم بالنسبة إليه، وصورة القصور فى العلم بالنظر إليهم.

و (**من اللّه**) للاعتراف بفضل اللّه عليه ، وإرجاع التوفيق فيه إلى اللّه الحكيم الخبير.

* * *

١٢ - ﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٧].

الدراسة والتحليل:

قبل هذه الآية حديث عن المرتابين فى إيمانهم، ختم بقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ ثم جاءت هذه الآية تنعى عليهم غفلتهم عما ينتظرهم من ويلات:

﴿أفَامِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّه﴾ ؟

والمراد من هذا الاستفهام هو الإنكار والتوبيخ بإجماع الأئمة[1]. وهو لإنكار الواقع. يعنى: أن اللهُ ينكر عليهم أمنهم وهم مصرون على الشرك. ثم يوبخهم عليه؛ لأن من كان على شاكلتهم فلا أمن له وإن طالت به السلامة فهم مخدوعون وسيعلمون أى منقلب ينقلبون.

---

(١) انظر: روح المعانى (١٣/٦٧) والبحر المحيط (٥/ ٣٥): الدر.

والخلاصة: أن هذا الاستفهام للإنكار - أصالة - ويُردف عليه من المعانى ما يناسب المقام كالتوبيخ والزجر والتحذير.

أسرار النظم وبلاغياته:

* إيثار الماضى فى (**أفأمنوا**) للتسجيل عليهم بالغفلة وخداعهم أنفسهم، فهم قد جزموا بذلك الأمن الذى لاحظ لهم فيه لو كانوا يعلمون.

وفى (**غاشية**) استعارة تبعية شبه فيها العذاب الذى سيحل بهم من كل جهة بإحاطة الظرف بالمظروف فيه، مع ما تدل عليه مادة (غ - ش- ى) من التعتيم والحيرة. وتنكيرها للدلالة على ما فيها من غرابة وهول لا عهد للناس به.

* ﴿أَوْتَأْتِيَهُمُ السَّاعَـةُ بَغْتَةً . .﴾ أو للتنويع، أى أن الذى ينتظر هؤلاء إما عذاب عاجل، أو عذاب آجل و(**الساعة**) كناية عن أهوال يوم القيامة و(**بغتة**) حال : أى مباغتة لهم، وهى للمبالغة فى التهويل؛ لأن الدواهى إذا فاجأت كانت أشد وقعا مما لو تقدم عليها علم بها، لتوهم مفاداتها والتحرز منها.

* ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ حال مؤكدة لما أفادته (بغتة) من شدة الغفلة والتلهى.

وقد أكد نفى الشعور بإسناده إلى ضميرهم (هم) مرتين:

مرة من حيث أسند الفعل إلى واو الجماعة العائد على (هم).

ومرة حيث أسندت جملة (**لا يشعرون**) برمتها إلى ضميرهم (هم) وهو مسند إليه، والجملة هى المسند وهذا أبلغ مما لو قيل: ولا يشعرون.

* * *

١٣ - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلكَ إلاَّ رجَالاً نُّوحِي إِلَيْهم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىَ، أَفَلَمْ يَسيرُوا فِي الأَرضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩].

الدراسة والتحليل:

قصة يوسف، التي هي واحدة من القصص النبوي، الذي هو أحسن القصص، عرضت الصراع بين الحق والباطل، ومهما علا فيها الباطل فقد اندحر في النهاية وعاد حسيرا، ورفرف علم الحق في الآفاق هاتفاً اللّه أكبر، وكان حقا علينا نصر المؤمنين.

ولذلك كانت خاتمة سورة يوسف عامة. فيها لمحات إلى التاريخ النبوي كله. لافتة الأنظار إلى العبرة من سوق هذا القَصص الحكيم، مبينة حقيقة الصراط الذي كان يدعو إليه كل الرسل. وفي أثناء هذا العرض ورد هذا الاستفهام مرتين في هذه العبارة.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ.. أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ وقد ذهب الشيخ الطاهر بن عاشور إلى أن الاستفهام الأول (**أفلم يسيروا**) إنكاري. ثم فسره تفسير استفهام التقرير فقال بالحرف:

«والاستفهام إنكاري؛ فإن مجموع المتحدث عنهم ساروا في الأرض فرأوا عاقبة المكذبين مثل عاد وثمود» (١).

ومقتضى كلامه هذا أن الاستفهام للتقرير لا للإنكار، وكان أبو حيان أشد حيطة منه حين قال:

«ثم استفهم استفهام توبيخ وتقريع» (٢).

وتابع الألوسي أبا حيان فقال: «والاستفهام على ما في البحر للتقريع والتوبيخ»(٣).

وسكت الباقون عنه، كما سكتوا - جميعاً - عن الاستفهام الثاني (**أفلا تعقلون**).

والخلاصة: أن الصواب في المراد من الاستفهام الأول هو أنه للتقرير أصالة،

---

(١) التحرير والتنوير: (١٣/ ٦٨). (٢) البحر المحيط (٥/ ٣٥٢).

(٣) روح المعاني (١٣/ ٦٨).

وللتقريع والتوبيخ والتـحذير تبعاً أما الاستفهام الثـانى فللإنكار، لإنكار عدم التعقل، ثم الحث عليه بعد التوبيخ.

فاللّه تعالى يقررهم أولاً بالسير فى الأرض وعـدم الاعتبار منه، منكراً عليهم هذه البلادة.

وفى الثانى ينكر عليـهم عدم التعـقل ثم يوبخهم، ويتخـذ من ذلك وسيلة للحث على التعقل والاعتبار.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَـالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ رد على مزاعم المشركين أن يرسل اللّه رجلا رسولاً، مع اقـتراحهم أن الرسل ينبغى أن يكونوا من الملائكة. فجاءت هذه العبارة وصفا دقيقا لخاتم الرسل ومن قبله من الرسل.

فمحمد - صلى اللّه عليه وسلم - رجل من أهل مكة موحى إليه من اللّه، فليس هو ببدع من الرسل.

وإيثار المضارع لاستحضار صورة (الايحاء) ووصلها بالرسالة الخاتمة.

* ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ نعى عليهم بلادتهم وغفلتهم عن حقائق التاريخ التى فيها عظات بالغات.

والمراد من النظر فى (**ينظروا**) الوقوف على آثار مـا حل بغيرهم من مـصارع الأمم الغابرة. ومعرفة كيفية حلول العواقب المؤلمة بهم.

(وكيف) ليست استفهامية كما توهم بعضهم، بل هى لفت نظر إلى حقيقة الكيفية المؤلمة، كما فى قوله تـعالى فى سورة الفيل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ أى كيفية فعل ربك العجيبة.

* ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا. .﴾ الواو للاستئناف الابتدائى (النحوى) والجملة مسوقة لبيان ما للمتقين عـند ربهم، إثر بيان المصير المؤلم للذين كفروا باللّه وعصوا رسله.

وتوكيد الخبر فى (**ولدار الآخرة**) للإعلام بخيرة الآخرة إعلاماً مؤكدا، ووقفها على الذين اتقوا ربهم.

* * *

سورة الرعد

١ - ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا ائِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ، أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، وَأُولَئِكَ الأَغْلالُ فِى أَعْنَاقِهِمْ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد: ٥].

الدراسة والتحليل:

سورة الرعد - مع قصرها - جمعت بين عدة أغراض، يمكن إرجاعها إلى قطبين:

الأول: تمجيد الله والثناء عليه وتعديد آلآئه، ومنها القرآن - وآياته فى الكون.

والثانى: عرض نماذج من أحوال عباده مؤمنهم وكافرهم طائعهم وعاصيهم.

وهذه الآية تدور فى فلك القطب الثانى، وهو عرض نماذج من أحوال الكفرة العصاة. فالله يُعجِّب رسوله ويُعجِّب كل من له عقل من حماقة منكرى البعث. الذين يتعجبون - جهلا - من إمكان الإعادة إلى الحياة بعد الموت وصيرورة الجسد ترابا.

ودعوة الله إلى التعجيب من جَهْل هؤلاء وحماقتهم وقعت موقعها فِعلا.

لأن هؤلاء لو تعقَّلوا قليلا لبان لهم سوء فهمهم ولآمنوا بالبعث كما يؤمنون بوجود أنفسهم ساعة قالوا ما قالوا، ولأن طريق الإيمان بالبعث قصير يسير. فالله قد خلقهم من العدم. ولم يكونوا ترابا ولا رفاتا ولا عظما، فكيف يستحيل عليه أن يعيد الناس بعد الموت كما كانوا؟ إن الذى أنكروه بديهة من بدائه العقول. ولكن الذين كفروا - فعلا - لا يعقلون.

لذلك قال الله لرسوله: إن كنت تريد أن تعجب من شىء فلا أدْعى للعجب من جهل وحماقة الذين قالوا: ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؟! وهى عبارة - كما ترى - فيها صورتان استفهاميتان.

* ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا..﴾.

* ﴿أَإِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ . .﴾.

وهما صورتان جديدتان لم نتعرض لمثلهمـا من قبل. وإن كانت لهما نظائر ستأتى إذا شاء الله. وقد تناول المفسرون الحديث عنهما على النحو الآتى:

* لم يكترث الإمام الزمخشرى ببيان المراد منهما بلاغيا[1].

* أما الإمام أبو السـعود فقد أوضح أن الاستفـهام فيهما للإنكار، وأن الثـانى توكيد للأول[2].

* وذهب مذهبه الإمام الألوسى، ونقل كثيرًا من عباراته[3].

* والإمام أبو حيان أشار إلى معنى الإنكار فيهما ولم يتوسع[4].

وقال الإمام الطاهر: «والاسـتفهام فى (أإذا) إنكارى. . عن مجمـوع أمرين: وهما كونهم ترابا؛ وتجديد خلقهم»[5].

والخلاصة: أن هذا الموضع اجتـمع فيه اسـتفهامـان على قراءة الجمـهور. وبعض القراءات تسقط همزة الاستفهام من أحدهما وتقرؤه على «آلخبر»، ولا يتعلق لنا بذلك غرض.

ومن عرضنا لهم من الأئمة مـجمعون على أن الاستفـهام هنا لإنكار البعث بالنظر إلى مجموع الاسـتفهامين، وإن كان المقصود بالإنكار هو مـا وقع فى حيز الثانى وهو الخلق الجديد. أما الأول فقد جعلوه توطئة أو سببا فى إنكار الثانى.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ. . .﴾ الخطاب للـنبى ﷺ بطريق الأولـى، ثم لكل من يصلح للتخاطب.

وإيثار المضارع (**تعجب**) لأن المراد بالتعـجيب ما يقع منه حـال الخطاب أو بعده أو هما معًا.

---

(1) الكشاف: (٢/ ٣٤٩).

(2) تفسير أبى السعود: (٥/ ٦).

(3) روح المعانى (١٣/ ١٠٤).

(4) البحر المحيط (٥/ ٣٦٤).

(5) التحرير والتنوير (١٣/ ٩٠).

والمعجَّبُ منه قولهم المنطوى على إنكار البعث مع ما فى الكون من آيات باهرات، وبراهين ساطعات على كمال قدرة الله.

* وفى ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا. .﴾ كناية عن الموت وما يترتب عليه من بلىً، وهذا لا ينكره منكرو البعث لأنه واقع مشاهد، وإنما الذى ينكرونه هو الخلق الجديد فى قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ. .﴾ وهو كناية عن البعث بعد الموت، وتنكير (خلق) لأن المقام - عندهم - مقام إنكار، فجاء التنكير معه لأنه أنسب بمقام الإنكار من التعريف، وسر التوكيد فى ﴿أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ لأن الله بيَّن على لسان رسله ضرورة ذلك البعث، وأنه لا محالة كائن. فاستفهموا عنه استفهام إنكار مصورين له بصورته التى خاطبهم الدعاة بها.

ولهذا - كما قلنا - نظائر ستأتى تباعا، وإذا أراد الله فإننا سنجمل الحديث عنها فى مبحث خاص بها عند آخر موضع من مواضعها فى القرآن الحكيم.

* وقولهم: ﴿لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أدخلوا حرف الجر (فى) للإشعار بأن المعنى - والله أعلم - لكائنين فى خلق جديد.

هذه هى مقولة الكافرين ساقها القرآن كما قالوها، ولم يذكر الرد عليها كما حدث فى سورة (يس)[1] مثلا لأن ما ورد فى صدر السورة فى الآيات الأربع كاف لو كانوا تأملوه فى الرد عليهم. ولذلك لم يقم للرد عليهم وزنا هنا وإنما رتَّب على هذا القول بيان حالهم فى الدنيا، ومآلهم فى الآخرة.

* ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ هذا هو حالهم فى الحياة الدنيا.

وفصلت جملة **(أولئك)** عما قبلها الأظهر أنه للاستئناف البيانى، لأن قولهم الذى حكاه الله عنهم يستدعى تطلع النفوس إلى ماذا يقول الله فيهم، وقد أعلنوا هذا الكفر البواح.

وعبِّر عنهم باسم الاشارة الموضوع للبعيد لغرضين بلاغيين أولهما: للإيذان بأنهم باعتبار ما ذكر قبل اسم الاشارة من أوصاف لاصقة بهم كانوا جديرين بأن يوصفوا بما

---

(١) وهو قوله تعالى: «قل يحييها الذى أنشأها أول مرة، وهو بكل خلق عليم» [يس: ٧٩].

بعد اسم الاشارة، وهو - هنا - الكفر. ويمكن التعبير عن هذا بعبارة أخرى أوجز هي: الإيذان بسببية ما قبل اسم الاشارة فيما بعده.

أما الغرض الثانى: فالإيذان ببعدهم عن الحق تنزيلا لبُعْد المكانة منزلة بُعْد المكان.

* ﴿وَأُولَئِكَ ٱلْأَغْلَالُ فِى أَعْنَاقِهِمْ﴾ وهذا بعض مآلهم فى الآخرة وعطف هذه الجملة على ما قبلها للتوسط بين الكمالين لاتفاقهما فى الخبرية لفظا ومعنى.

وإيثار النظم على ما هو عليه بتقديم (الأغلال) على الجار والمجرور (**فى أعناقهم**) ليُخيل للسامع أن (**أولئك**) من كثرة إحاطة تلك الأغلال بهم صاروا كأنهم مجموعة أغلال يلتف بعضها على بعض.

* ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وهذا هو كمال مآلهم فى الآخرة، وهو من عطف العام على الخاص للترقى فى بيان تهويل وتبشيع ما ينتظر أولئك الذين استخفوا بحقائق الإيمان بعد معاينة براهينها الفطرية.

* وفى (**هم فيها خالدون**) أسلوب قصر، أى فى النار لا فى غيرها يكون خلودهم.

* * *

٢ - ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ اللهُ، قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا، قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَى وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ، أَمْ جَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ، قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦].

الدراسة والتحليل

اشتملت هذه الآية - كما ترى - على خمسة استفهامات هى:

* ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟ * ﴿قُلِ اللهُ، قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾؟

* ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَى وَٱلْبَصِيرُ﴾؟ * ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾؟

* ﴿أَمْ جَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ﴾؟

وكلها استفهامات مجازية، والمعانى المرادة منها ليست على نهج واحد:

فالاستفهام الأول: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ استفهام تقرير واستدراج وإلزام، وقد نص الأئمة على هذا ما عدا الاستدراج فهو من إضافتنا. والمقام يقتضيه كما سيأتى فى أسرار النظم وبلاغياته.

أما الاستفهام الثانى: ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ فهو استفهام إنكار وتوبيخ. وزاد ابن عاشور التغليظ، والاستفهام الثالث والرابع والخامس للإنكار والتوبيخ والتسفيه، وأم فى الاستفهامين الرابع والخامس منقطعة بمعنى بل والهمزة.

وللأئمة إضافات متفاوتة أعرضنا عن ذكرها لعدم الاحتياج إليها[1].

والخلاصة: أن استفهاما واحداً من هذه الاستفهامات الخمسة المراد منه أصالة هو التقرير، وهو الاستفهام الأول. ومن المعانى التابعة له الاستدراج والإلزام.

أما الاستفهامات الأربعة الباقية: فهى للإنكار - أصالة - اثنان منها لإنكار الوقوع وهما الثالث والرابع ﴿هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾؟ - ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾؟ والإنكار فيهما متضمن للنفى.

والآخران وهما: الثانى والخامس لإنكار الواقع والتوبيخ عليه وهما: (**أَفَاتَّخَذْتُم**) - (أَمْ جَعَلُوا اللهِ شُرَكَاءَ)؟ والإنكار فيهما متضمن للنهى كما يدلُّ المقام.

أسرار النظم وبلاغياته:

هذه الآية التى تضمنت هذه الاستفهامات مسوقة لمحاجة المشركين وعبدة الأصنام، وإثبات عجزها وخيبة رجاء عابديها كما ورد فى الآية الرابعة عشرة من السورة نفسها:

﴿لَهُ دَعْوَةُ الحَقِّ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ من دُونه لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُو بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ﴾.

لذلك رُتبت هذه الاستفهامات ترتيبًا بديعا حكيما على النحو الذى عليه النظم. وهذه أسراره وبلاغياته نذكرها فى إيجاز:

---

(١) الكشاف (٢/ ٢٥٤) تفسير أبى السعود (٥/ ١٢) روح المعانى (١٣/ ١٢٧)، البحر المحيط (٥/ ٣٧٨) البيضاوى (١/ ١٠٤) التحرير والتنوير (١٣/ ١١٠).

* ﴿قُلْ من رَّبُّ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ، قُل اللهُ﴾ صدرت هذه الجملة الاستفهامية بفعل الأمر (قل) للإيذان بأهميتها البالغة كما تقدم ذلك مرات. وما قلناه هنا على القارىء أن يلاحظه فى الصورة الآتية المصدرة بـ (قل) وهذا الاستفهام ليس مقصوداً لذاته فحسب، بل هو أسلوب بديع فى تجريد الخصم من أوهامه، واستدراجه لإقامة الحجة عليه وإلزامه بها. فالمخاطبون - هنا - مشركون، يعنى أنهم يؤمنون بالله مع إشراك غيره معه، كما قال عز وجل فى غير هذا الموضع:

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

لذلك حسن تقريرهم بربوبية الله للسموات والأرض. وهم مقرون بأن الله رب السموات والأرض وخالقهما. وإنما يعبدون الأصنام لاعتقادهم الباطل أنها تقربهم من الله زلفى.

وقد حرص القرآن على ذكر الجواب فقال: **(قل الله)** ومن قبل قلنا إن الاستفهام المجازى الأصل فيه طى ذكر الجواب، ومنهج القرآن قائم على هذا النسق إلا فى مواضع فإنه يذكر ذلك الجواب. وكنا قد التمسنا لذلك سراً بلاغيا فظفرنا به، ونصصنا عليه، ولا بأس من إعادته - هنا - وهو: أن القرآن يحرص على ذكر جواب الاستفهام المجازى فى المواضع التى لا صلة للخيال بصوغ الإجابة عليها. وهذا الموضع واحد منها. فلنكن من ذلك على ذكر دائما.

وفى الجملة من إيجاز الحذف حذف الجار والمجرور بعد «قل» أى لهم.

* ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفَعًا وَلاَ ضَرًّا﴾ رُتِّب هذا الاستفهام على ما قبله بعد أن مهد ما قبله له. والفاء عاطفة على مقدر، والأصل: أبعد ما علمتم وأقررتم بربوبية الله للسموات والأرض، ووقفتم على كمال قدرته جهلتم ذلك فاتخذتم من دونه آلهة؟.

وزاد من قبح سلوكهم هذا أنهم سووا بين الله القادر على كل شىء وبين الأصنام العاجزة عن كل شىء وتنكير (أولياء) للتحقير، ونفى ملكية جلب النفع ودفع الضر **(لأنفسهم)** ولم يقل (ولكم) للمبالغة فى بيان عجزهم، ولتسفيه أحلام عابديها لأن

من لم يملك نفع نفسه ودفع الضر عنها كان عن نفع غيره ودفع الضر عنه أعجز.

وتنكير النفع والـضر للتقليل والتـحقيـر، أى لا يملكون أى نفع، ولا دفع أى ضر مهما ضؤل.

* ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ فصلت هذه الجملة عما قـبلها مع ما بينهما من التوسط بين الكمالين لأن هذه الجملة (قل) توكيد لجملة (قل) الأولى فبين هذه الجمل كمال الاتصال.

وإيثار أداة الاستـفهام (هل) لتحقـيق نفى المساواة بين الأعمى والبـصير. وفيـهما استعارتان أصليتان، حيث شبـه الكافر بالأعمى، بجامع عدم الاهتداء فى كل منهما، وشبه المؤمن بالبصير بجامع كمال الهداية فى كل منهما.

وتقديم النفع عـلى الضر لأن الفعل (يملكون) يسـتدعـيه وهو به أولى، ولأن دفع الضر ضرب من ضروب النفع.

أما تقديم الأعمى على البصير لأن المراد نفى مساواته بالبصر.

* ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ أم منقطعة على ما نص عليـه المفسرون، فهى بمعنى بل والهمزة. وبل للإضـراب الانتقالى من نفى المساواة بين الأعمى والبـصير إلى نفى المساواة بين الظلمـات، وهى مستعارة للكفـر والضلال، وبين النور، وهو مستعار للإيمان على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية فى كل منهما.

وتقديم (**الظلمات**) على (**النور**) لما سبق بيانه فى تقديم الأعمى على البصير.

والجمع بين النفع والـضر، والأعمى والبـصير، والظلمـات والنور ثلاث صور من الطباق الإيجابى الواقع موقعه من الأصالة وحسن البيان.

وجوز العلماء الجمع بين (أم) وهل وهمزة (أم) مع دلالة الجـميع على الاستفهام. ولنا فى المسـألة فـهم آخـر حـاصله أن (أم) هـنا لمجـرد العطف لا تتـضـمن همـزة للاستفهام، ولا هى مسـتعملة فى الاستفهام، لأن لها معنى آخر غـير الاستفهام وهو العطف. فإذا جامعتها (هل) وهى مقصورة على الاستفهام وجب أن يُقصر الاستفهام عليها، وأن تقصر (أم) على مجرد العطف لعدم احتياج المقام إليها فى إفادة الاستفهام

مع وجود أداة هى للاستفهام قطعا، وهى (هل) ونرجو أن يلقى هذا الفهم قبولاً عند أهل الذكر.

* ﴿أَمْ جَعَلُوا لله شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ وهذا انتقال من نفى المساواة بين الظلمات والنور إلى إنكار جعلهم لله شركاء.

وتقديم اسم الجلالة (لله) لأن جعل الشركاء له هو محط الإنكار، وتنكير الشركاء للتحقير، وجملة ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِه فَتَشَابَهَ الخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ للتهكم وقطع العذر عنهم، إذلا خلق لغير الله حتى يشبه خلق الله.

أى أن هؤلاء المشركين ليس لهم أدنى شبهة فى جعل شركاء لله. فهم مفترون وضالون.

* ﴿قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ﴾ أمر مراد به الإفحام والتبكيت وإبطال دعاوى المشركين. وتنكير (شىء) لإفادة الاستغراق والعموم الشامل لجميع المخلوقات، ومنها الأصنام التى يعبدونها.

* ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ القَهَّارُ﴾ تذييل مقرر للوحدانية وجلال الله وكماله وجماله.

* * *

٣ - ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩].

الدراسة والتحليل:

تعقد هذه الآية موازنة بين فريقين: أولهما فريق المؤمنين بما أنزل الله على رسوله. والثانى فريق المكذبين، وقد جاءت هذه المقارنة لنفى المساواة بينهما على طريق التشبيه السلبى، وهو ما كانت العلاقة بين الطرفين فيه مقطوعة. وقد تقدم نظيره فى مواضع متعددة فيما سبق لنا دراسته من أساليب الاستفهام.

وقد صدرت آيتنا هذه بهذا الاستفهام:

* ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ وقد أجمع الأئمة على أن هذه الصيغة الاستفهامية صيغة مجازية المراد منها نفى المساواة بين الطرفين أو إنكارها فى مواجهة من يدَّعيها. وهذه خلاصة ما يقال فيها، وفى أمثالها من

كل استفهام جاء مركبا من طرفين على غرار هذا التشبيه السلبى.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ فى(**يعلم**) استعارة تبعية؛ لأن المراد (يؤمن) فاستعير العلم للإيمان بجامع التمكن من الاعتقاد فى كل منهما. ويجوز حمله على المجاز المرسل بإطلاق السبب، وهو العلم، وإرادة المسبب، وهو الإيمان، وسر المجاز فيه على التقديرين الإشادة بقوة عن المتحدث عنه؛ لأنه إيمان مؤسس على علم راسخ، وليس عن محاكاة وتقليد. وفى بناء الفعل للمفعول (أنزل) إيجاز بالحذف لحذف الفاعل. والذى سوَّغ الحذف - هنا - العلم بالفاعل وهو الله عز وجل. وحسَّن هذا الحذف قوله (**من ربك**) وإضافة «رب» إلى ضميره ﷺ للتكريم والتشريف والتثبيت.

* ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ استعير لفظ (**أعمى**) للكافر بالحق المنزل من عند الله على محمد ﷺ. بجامع الضلال فى كل منهما. والجمع بين (العالم) و (الأعمى) من صور الطباق الإيجابى الدقيقة.

* ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ فصلت هذه الجملة عن الأولى (**أفمن**) لما بين الجملتين من كمال الانقطاع لأن الأولى إنشائية لفظا ومعنى وهذه خبرية لفظا ومعنى.

وهى تذييل فيه تعليل وتقرير لنفى المساواة بين الطرفين وإيثار (**أولوا**) على (**أصحاب**) لأن القرآن يفرق بين هاتين العبارتين فى مقام الإضافة دائما.

فيضيف (**أصحاب**) إلى ما هو منفصل عنه فى الواقع، مثل: (**أصحاب الكهف**) وو(**أصحاب الجنة**) و(**أصحاب النار**) أما (**أولوا**) فيلتزم إضافتها إلى ما هو متصل به، مثل (**الألباب**) هنا، والعزم فى (**أولوا العزم**) وهكذا فى جميع مواضع ورودهما فى الكتاب العزيز[1] وفيها قصر التذكر على العقلاء.

* * *

---

(١) انظر كتابنا «دراسات جديدة فى إعجاز القرآن: مناهج تطبيقية فى توظيف اللغة» مكتبة وهبه - القاهرة.

٤ - ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّـرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى، بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَـنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا، وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَـرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَـعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًـا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١].

الدراسة والتحليل:

لما حكى الله مقولة الكافرين قبيل هذه الآية، التى أعلنوا فيها عدم اكتفائهم بمعجزة القرآن كـما صـوَّر الله ذلك حاكيـا عنهم: ﴿وَيَقُولُ الَّـذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَـلَيْهِ آيَةٌ..﴾ وهذا القول لا يصدر إلاَّ عمَّن كفر بالمعجزة الخالدة، وهى القرآن العظيم، لما حكى الله عنهم هذا القـول شرع فى هذه الآية الكريمة ينوِّه بفـضل القرآن وعظمـته، ودلالاته الباهرة على صدق الرسالة والرسول.

والمعنى: لو كان قرآن ما تُسَيَّر به الجبال الرواسى، أو تقطع به الأرض قطعا قطعا، أو يخاطب به الموتى فى قبورهم فيسمعون ويعون لكان ذلك (القرآن) هو هذا (القرآن) الذى كفـروا به وأعرضوا جهـلا وضلالاً. ثم انتقل من التنويه بجـلال القرآن وعظيم شأنه إلى تقرير حقيـقة يجهلها هؤلاء الكفرة لما جحدوا معجزة القـرآن. تلك الحقيقة هى أن الأمر لله وحده لا شريك له. وكل شىء فـى الوجود خاضع لإرادته وقدرته، وبعد هذا يثـبت المؤمنين ويقرر لهم أن الله قـادر على هداية كل الناس. ولكنه - مع هذه القدرة - لا يتـدخل فى إرادات المكلفين فمن آثر الكفـر على الإيمان بإرادته الحرة أبقاه فى كـفره، ومن رغب بإرادته الحـرة فى الإيمان يسره له وأعانـه عليه. وفى هذا تثبيت لصاحب الرسالة والمؤمنين معه بأن لا يأسفوا على كفر كافر ولا ضلال ضال.

ثم عـزاهم عزاء جمـيلا بأن نقـمتـه وعذابه يلاحق الـذين كفروا بـسبب كفـرهم فتصيبهم القوارع العظام أو تقع قريبا منهم إن لـم تصيبهم مباشرة، وأنهم لن يفلتوا من عقاب الله. وسـيظل هذا حالهم حتى يقـوم الحساب. ولن يخلف الله معـهم وعيده المؤلم.

وقد ورد فى هذه الآية هذا الاستفهام:

﴿أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا . .﴾؟ وقد وقف الأئمة من هذا الاستفهام موقفين:

الأول: موقف السكوت عن المراد منه، وهذا الموقف وقفه الزمخشرى والبيضاوى[1].

الموقف الثاني: لغير الزمخشرى والبيضاوى. وهم الذين أفصحوا عن المراد من الاستفهام، وهم:

أبو السعود، والألوسى، وابن عاشور[2]. وهؤلاء صرحوا بأن الاستفهام فى الآية للإنكار، وقد تكلف بعضهم، وهو أبو السعود، وجوها لحمل هذا الاستفهام على الإنكار، وجاء كلامه مضطربا فيه. وكله مقدمات لا تؤدى إلى النتيجة التى أراده من هذه الوجوه، ومثله الألوسى.

ويعلم الله أننا لم نسترح لحمل هذا الاستفهام على الإنكار، وكنا قد عزمنا على إبداء رأى آخر فيه، ولو أجمع كل الأئمة عليه، ولكن الله شرح صدرنا وأثلجه لما رأينا الإمام أبا حيان يذهب فيه نفس المذهب الذى كنا قد عزمنا على إبدائه بعد الفراغ من عرض آراء الأئمة. والذى قاله الإمام أبو حيان هو أن الاستفهام فى الآية للتقرير. وهذا نصه:

«ويُحتمل عندى وجه آخر غير ما ذكروه، وهو أن الكلام تام عند قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا . .﴾ إذ هو تقرير: أى قد يئس المؤمنون من إيمان هؤلاء المعاندين[3]، أما الإنكار الذى ذهب إليه من ذهب فغير مستساغ. والمقام يأباه. إذ كيف يُنكر عن المؤمنين علمهم أن الله لو يشاء لهدى الناس جميعًا. والحق يقال إن من حمله على الإنكار تكلف له وجوها لا تثبت عند التحقيق، كراهة أن يسلط الإنكار على ما ذكرناه آنفا.

والخلاصة: أن الاستفهام فى الآية للتقرير بما وقع فى حيزه، وليس للإنكار.

---

(١) الكشاف (٢/ ٣٦٠) تفسير البيضاوى (١/ ٥٠٨).

(٢) تفسير أبى السعود (٥/ ٣١) روح المعانى (١٣/ ١٥٦) التحرير والتنوير (١٣/ ١٤٤).

(٣) البحر المحيط: (٥/ ٣٩٢)، ولنا عليه تعديل سنذكره فى مبحث الأسرار.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ هذه الجمل عامرة بإيجاز الحذف، حيث بنى الفعل للمفعول فى ثلاثة، مواضع: (سيرت - **قطعت** - كلم) ثم بحذف جواب (لو) لتذهب فيه النفس كل مذهب، وهذه الأساليب الخبرية فى الجمل الثلاث مسوقة لبيان عظم القرآن وجلالة شأنه، مع تضمنها الرد على الذين كفروا حيث أخرجوا - حسب زعمهم - القرآن من دائرة الآيات العظيمة الدالة على صدق الرسالة والرسول. مع الإشارة إلى أن وجوده بين يدى الناس مغن عن كل معجزة سواه.
* ﴿بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أسلوب قصر. الأمر فيه مقصور واسم الجلالة مقصور عليه.
* ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا..﴾ فى ييئس مجاز مرسل، حيث أطلق المسبب، وهو اليأس، وأريد السبب، وهو العلم. وسره البلاغى الإعلام بأن السبب، الذى هو العلم قد بلغ الغاية فى التثبت والتمكن، أى قد علم الذين آمنوا طلاقة قدرة الله فلو شاء لآمن الناس جميعاً.
* ﴿تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ كناية عن الداهية العظيمة التى تقرع الأسماع بما فيها من هول وفظاعة. وتنكيرها للتفظيع والتيشيع.
* ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ كناية عن القيامة. وفى إسناد الإتيان إلى (وعد) مجاز عقلى، وحقيقته حتى يأتى الله بوعده.
* ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ تذييل مقرر لمضمون الكلام قبله. وتأكيد الخبر فيه، لأن مضمون الخبر حقيقة عظيمة. ومن حق الحقائق العظيمة أن يعبر عنها بأسلوب فخم عظيم مثلها.

* * *

٥ - ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ، فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد: ٣٢].

الدراسة والتحليل:

فى الآية السابقة على هذه الآية مباشرة هدد الله الذين كفروا بالقوارع التى تصيبهم فى الدنيا بسبب كفرهم. وفى هذه الآية التفت إلى خطاب صاحب الرسالة ﷺ وسلاَّه بالإشارة إلى ما لقى الرسل من قبله من عناد أقوامهم، وأنه أمهلهم حينا، ثم باغتهم بالهلاك، وأى هلاك ألحق بهم. وذلك لئلا يغتر مشركو العرب بتأخير العذاب عنهم فيتمادوا فى العناد.

وقد جاء فى آيتنا هذه هذا الاستفهام:

* ﴿. . . فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

وقليل من المفسرين من نص على المراد من هذا الاستفهام ومنهم الإمامان أبو السعود والألوسى. فالأول أشار إلى أن المراد منه التفظيع(١).

والثانى قال إن هذا الاستفهام للتعجيب(٢). والمعنيان متقاربان لأن الخطب الفظيع مدعاة للتأمل والتعجب من شناعته. ونحا الإمام ابن عاشور منحى الألوسى(٣).

وما قدمناه عنهم خلاصة لما قيل أو يقال فى هذا الاستفهام يعنى أن الله - جلت قدرته - يدعو الناس ويعجبهم من فظاعة ما نزل بالذين كذبوا الرسل من قبل وتجاوزوا مجرد التكذيب إلى السخرية منهم، كقوم نوح وشعيب.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أسلوب خبرى مسوق لتسلية صاحب الرسالة ﷺ. وتوكيده باللام وقد للعناية بالتسلية. أى أن هذا الاستهزاء كان حقيقة مؤكدة، وتنكير **(رسل)** للتكثير والتعظيم.

وبناء الفعل **(استهزىء)** لما لم يسم فاعله إيجاز بالحذف. .

---

(١) الكشاف (٢/ ٣٩٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ١٤٦).

(٣) روح المعانى (٥/ ٣٢).

* ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ذكر صلة الموصول (كفروا) ولم يقل: فأمليت للمستهزئين ليجمع لهم بين الوصفين اللذين هما غاية فى الذم، وهما: الكفر والاستهزاء.

* ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ العطف بـ (ثم) واقع موقعه من البلاغة لمناسبته الرائعة للإملاء، الذى هو تأخير العقوبة عن وقوع الجريمة. فالتراخى المستفاد من (ثم) تراخٍ فى الزمن.

وفى (**أخذتهم**) كناية بليغة عن الإهلاك، أى أفنيتهم فلم يعد لهم أثر.

ويجوز أن يكون استعارة تبعية شبه فيها الإفناء بالأخذ بجامع اختفاء الأثر فى كل منهما.

* ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أسلوب إنشائى للحث على النظر والتأمل فى شناعة مصارع الكفر وأهله والتعجيب منها. وفيه وعيد شديد لمشركى العرب الذين سلكوا مسالك مكذبى الرسل، كقوم نوح وقوم هود، وقوم صالح. وقوم شعيب.

* * *

٦ - ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، وَجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ، أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِى الأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ، بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ، وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية واردة للاحتجاج على المشركين من العرب وقت نزول القرآن. وقد اضطربت أقوال المفسرين فى المراد منها، وأطالوا الخوض وراء معانيها، ومنهم من تابع بعضا منهم، ثم جاء الشيخ الطاهر بن عاشور وكاد يرفض كل أو جل ما قاله الأقدمون.

والذى حمله على هذا كثرة التقديرات والمماحكات اللفظية التى حفل بها كلامهم إلا من عصم الله، ولذلك فإننا آثرنا الحديث عن هذه الآية بما يجلى معناها فى يسر، بعيداً عن التكلف، ومن شاء فليرجع إلى ما قاله الأئمة حولها فى المواضع المشار إليها

فى الهامش[1]، وصفوة القول فى الآية:

يُنكر الله عليهم مساواة أصنامهم به عـز وجل فى الألوهية ويويخهم على اتخاذهم له شركاء، ويبكتهم فيأمرهم بتعيين وتحديد شركائهم وبيان أسمائهم لإرباكهم عساهم أن يرجعوا إلى أنفسهم ويتفكرو ليظهر لهم خطأ اعتقادهم وكأنه يقول لهم: أين هم؟ ليـوقعـهم فى الحـيرة والاضطراب ثـم ينتقل من توبـيخـهم على اتخـاذ شركـاء له ومسـاواتهم به - سبـحانه - إلى توبيـخهم بتنزيلهـم منزلة من يُعْلم الله بما لا يعلم، متخـذا من نفى علمه هذا وسيلة لنفى شركـائهم الموصوفين بالألوهية غبـاء وجهلا. ناسبا دعواهم هذه إلى مجرد قول لا حقيقة له.

ثم يُضرب عن هذا كله ليـبين حقيقـة حالهم، وأن الشيطان زين لهم قُـبح ما هم فيه، وصدهم عن سبيل الحق، فخـلاهم الله وشياطينهم ومنع عنهم ألطافه عقابا لهم على استسلامهم لغرور الشيطان.

هذا، وقد وردت فى الآية ثلاثة استفهامات:

* ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ﴾ * ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ﴾ * ﴿أَمْ بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾

وكلها مجازيات لصدورها عن علام الغيوب.

* والمراد من الأول نفى المسـاواة بين الله خـالق السـمـوات والأرض، وبين شـركـاء المشركين الذين أدعوا أنها آلهة ويتبع هذا الإنكار التسفيه والتوبيخ.
* والمراد من الثانى ﴿أم تنبئونه﴾ الزجر والتوبيخ وبطلان إدعائهم شركاء لله.
* أما الثالث فهو للترقى فى الإنكار والتسـفيه والتوبيخ أما (أم) فى الموضعين فالأظهر أنها منقطعة بمعنى بل والهمزة فـ (بل) للإضراب الانتقالى من حال إلى حال، ومن تسفيه وزجر وتوبيخ إلى أمثالها عقب ذكر ما يستحقون عليه ما أريد من الاستفهام.

وهذه خلاصة ما يقال فى هذه الاستفهامات الثلاثة جمعنا فيها بين ما ارتضيناه من توجيهات سادتنا المفسرين وما أضفناه من عندنا. وفوق كل ذى علم عليم.

---

(١) الكشـاف (٢/ ٣٦١) أبو السـعود (٥/ ٢٤) روح المعـانى (١٣/ ١٥٩) البـحر المحـيط (٥/ ٣٩٣) البيضاوى (١/ ٥٠٩) التحرير والتنوير (١٣/ ١٥٨).

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ عُبِّر عن اسم الجلالة - هنا - بالموصول وصلته (من هو قائم) لما فى الصلة (هو قائم) من الدلالة على توكيد إنكار المساواة المدعاة بين الله القادر على كل شىء. وبين الأصنام العاجزة عن كل شىء. وهذا التركيب يشبه الكناية فى قرن الدليل بالدعوى، وهو أبلغ مما لو قيل (الله) ووزانه قولنا أتنهر أباك؟ فإنه أبلغ من لو قلنا: أتنهر عليا، إذا كان أبو المخاطب اسمه على.

واستعير (قائم) لـ (مهيمن) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية استعارة محسوس لمعقول لتمثيل الهيمنة فى صورة القيام المفيد لتمكن القائم من المقوم عليه.

وفى هذه العبارة تشبيه سلبى. والمشبه به محذوف والتقدير: أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كمن هو عاجز كل العجز حتى عن أمور نفسه[1]؟.

والتشبيه السلبى - كما ذكرنا مرات من قبل يكون وجه الشبه فيه موجوداً خارج دائرة القرآن، والذى فى القرآن نفى ذلك الوجه.

* ﴿وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ﴾ الضمير فى (جعلوا) عائد على المشركين بدليل ذكر المفعول (شركاء) وتقديم اسم الجلالة (لله) وهو متعلق بمحذوف يعرب مفعولا ثانيا لـ(جَعل) للإعلام بتقبيح هذا «الجعل» من أول الأمر.

* ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ الأمر للإرباك والتعجيز والتوقيف على شناعة خطئهم وتبكيتهم عليه.

* ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِى الأَرْضِ﴾ كُنى بنفى العلم عن نفى المعلوم؛ لأن ما لا يعلمه الله موجوداً فهو - لا محالة - ليس له وجود قط.

وليس المراد نفى الشركاء بل نفى كونهم شركاء لله تضر وتنفع، فالإنكار مسلط على نفى الصفة لا على نفى الموصوف لأنه موجود كهبل واللات، ومناة على زعمهم.

* ﴿أَمْ بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾ هذا مصطلح قرآنى ينم عن الجهل أو حقارة المعلوم. ويفيد

---

(١) المفسرون يقدرون المحذوف (المشبه به) فى هذا ونظائره بقولهم: كمن ليس كذلك. وما آثبتناه أولى.

الذّم، لأنه كناية عن سطحيـة المعرفة وبعدها عن إدراك الحقـائق. ولم نر أحدًا من المفسرين تنبه إلى هذا مع وروده صريحا فى قوله تعالى:

* ﴿. . ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٦، ٧].

وعلى هذا فإن مـعنى النظم يكون هكذا: بل أينبـئونه بمجرد أقـوال لا مدلول له؛ لأنهم عن إدراك الحق بمعزل.

* ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا. . .﴾ انتقال لبيـان حقيقة أمرهم بعـد إبطال مدعياتهم، فهم مخدوعـون بباطلهم، صادون عن سبيل الرشـاد، وليس لهم هادٍ يهديهم إليه بعد أن منع الله عنهم ألطافه، وتركهم فى ضلالهم يعمهون.

وفى بناء الفعلين ﴿زُيِّن﴾ و (**صدوا**) إيجاز بالحذف حـيث بنى الفعلان لما لم يسم فاعله.

* ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَـمَالَهُ مِنْ هَادٍ﴾ تذييل مقرر لمضمـون الكلام قبله. وهو وعيد شديد للمشركين.

ودخول (من) على (**هاد**) فى سياق النفى (**فماله**) لاستغراق نفى الهداية لمن يرد الله إضلاله وفى العبارة من إيجاز الحذف:

حذف الضمير فى (**يضلل**) والأصل يضلله وحذف الهداية فى (هاد) أى فما له من هاد قط يهديه إلى سبيل الحق.

ومن الإخراج على خلاف الظاهر:

وضع المظهر (**للذين كفروا**) والأصل الإضمار: زين لهم، وإظـهار اسم الجلالة فى (**ومن يضلل الله**) والأصل: ومن أضله.

والسر البلاغى فى الأول: التسجيل عليهم بالكفر مع إرادة التشنيع.

وفى الثانى: توكيد عدم الهداية، لأن الله لا يرد له أمر، ولا يمنع ما أراده مانع.

وتقديم (له) على (**هاد**) لتعجيل المساءة من جهة ولتناسق الفواصل على روىٍّ واحد من جهة أخرى، وتنكير ٍمهاد لتأكيد النفى وتأبيده.

* * *

٧ - ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا، وَاللهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية من الآيات الواعظة. فبعد أن حاجَّ القرآن المشركين، وجَرَّد أصنامهم من كل حول وطول، جاءت آيتنا هذه لتلفت الأنظار إلى كمال قدرة الله فى الكون، وبعض آثارها فيه. وإلى سنة من سننه فى الحياة، وهى نفاذ قضائه وسرعة حسمه لشئون الخلق.

وجاء فيها هذا الاستفهام: **(أو لم يروا أنَّا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها)**؟.

ويرى المفسرون أن نقص الأرض فى الآية مجازى ليس واقعا على الأرض ذاتها، وإنما على أهلها. أى نقص أهلها، أو المراد تداول أجزائها بين الناس. بأن ينتصر فريق على فريق فى صراع ما فتضم أرض المهزوم إلى أرض المنتصر هذا حاصل قولهم.

ويبدو أنه غير المراد للحق عز وجل. فهو غير مقنع فيما نرى، والأولى أن يحمل على ما يحل بالأرض من عوامل التعرية كالعرض والمحو. ومن المعروف أن قارة بأكملها جُرِفَتْ قديما إلى قاع البحر الأبيض المتوسط. وأيًّا كان فإن الذى تطمئن إليه النفس أن حمل معنى الآية على التغيرات التى تطرأ على الأرض بسبب البراكين وغيرها هو الأليق. وفيما يلى إشارة سريعة إلى ما حدث بعد نزول هذه الآية من آيات كونية أثّرت على طبيعة الأرض:

* زلزال شيراز جنوب إيران ١٩٧٢م شمل مساحة قدرها ٤٠٠ كم٢. هلك بسببه ٢٥ ألف نسمة، واختفت قرى بأكملها ودمرت ٣٠٠ قرية كانت محيطة بالمدينة.
* زلزال بيرو ١٩٧٠م شمل ١٢٨ كم٢، وأصاب ٢٧٠ ألف نسمة، واختفى بسببه ١٢ مدينة كبيرة ومئات القرى.
* زلزال اسكوبيلى اليوغوسلافية يوليو ١٩٦٣م. حيث دمَّر المدينة كلها وقتل ١٢٠٠ ألف ومائتا شخص.

* زلزال اغادير بالمغرب ١٩٦٠م دمَّر المدينة وقتل خمسين ألف شخص.
* بركان كرا كانوا ١٨٨٣م. فقد صغر حجم المدينة بسبب هذا البركان من ٣٥,٥كم٢ إلى ١٠,٧كم٢[١].

هذا ما يجب فهم معنى الآية فى ضوئه، لا ما ذهب إليـه المفسرون لأنهم اجتهدوا فى حدود المعرفة التى كانت متاحة لهم فى عصورهم.

أما المراد من الاستفهام: **(أو لم يروا)** فلهم منه موقفان:

* موقف السكوت عند الزمخشرى والبيضاوى وأبى حيان.

موقـف البيـان عند أبى السعـود، والألوسى، وابن عاشـور فقـد اتفقـوا على أن الاستفهام فى الآية للإنكار؟ وهذا غير سديد. فالمقام يقضى - وكذلك التركيب- بأن الاستفهام للتقرير لا للإنكار. سواء كانت الرؤية بصرية أو علمية. والمعنى: قد رأوا؛ لأن النظم الحكيم يوقفهم ويلزمهم بما رأوا وعلموا زيادة فى إبطال مدعياتهم الكفرية.

والإنكار الذى ذهب إليه من أشـرنا إليهم[٢] لا يسـتقـيم أبدًا؛ لأن نفى الرؤية لا يترتب عليه - هنا - غرض بلاغى قط، وينافى المقـام منافاة ظاهرة. وهذه خلاصة ما ينبغى قوله فى هذا الاستفهام ونظائره.

أما دلالة التركيب على التقرير فـأبين وأظهر، لأن الهمزة للنفى، وقد دخلت على النفى فصار المعنى إثباتا. وهذا لا نزاع فيه كما لا نزاع فى إرادة التقرير فى نظائره من نحو قوله تعالى:

* ﴿أَلَم نَخْلُقكُم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠].
* ﴿أَلَمْ نُهْلِك الأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ١٦].
* ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعرا: ١٨] من كل استفهام دخلت فيه الهمزة على نفى.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿أَنَّا نَأْتِى الأَرْضَ..﴾ توكيد الخـبر بـ (أنَّ) لتقوية الدلالة الواقعـة عليها الرؤية.

---

(١) نقلنا هذه الوقائع من كتـاب «الزلزال الكونى العظيم» د/ عبد العليم عبد الرحـمن خضر: ص ١١٤ و١٢٤. الدار السعودية للنشر والتوزيع.

(٢) تفسير أبى السعود: (٥/ ٢٧)، روح المعانى (١٣/ ١٧٣) التحرير والتنوير (١٣/ ١٧٠).

وفى (**نأتى**) استعارة تبعية لـ (نصيب) لأن المراد من «الإتيان» الإصابة. وقد أفادت الاستعارة تقرير المعنى وإبرازه فى صورة المتفرغ له كقوله: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُوراً﴾ [الفرقان: ٢٣].

و (النون) فى(**نأتى**) و(**ننقصها**) للتفخيم، لأن الله واحد لا جماعة.

* و(**لا معقب لحكمه**) كناية عن تفرده بالتصرف المطلق فى كل الأمور إبرامًا وتنفيذًا، وأن جميع المخلوقات مقهورة له وحده ومجموع الجملتين ﴿وَاللهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ مستعمل فى تمجيد الله والثناء عليه، متضمنا تهديد المشركين ووعيدهم وأنهم لن يفلتوا من عقاب الله عز وجل.

* ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ تمجيد بعد تمجيد، ووعيد بعد وعيد، وهو تذييل مقرر لمضمون الكلام قبله، مع تضمنه تحذير المشركين من الاغترار بتأجيل مؤاخذتهم، وأن ذلك لا يعنى نجاتهم ولا إقرار ما هم عليه من شرك، فإن كل شىء عند الله له حكمة ومقدار. وأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

* * *

سورة إبراهيم

١ - ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ من قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ، وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ، لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِى أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾

[إبراهيم: ٩].

الدراسة والتحليل:

سورة إبراهيم عليه السلام ذات طابعين بارزين؛ الأول طابع قصصى سريع الإيقاع. والثانى: طابع وعظى إرشادى مفعم بالشواهد المؤثرة. ولفت الأنظار إلى بعض الدلائل الإلهية الداعمة للإيمان، الداعية إلى الإقبال على الله للفوز برضاه، والنجاة من سخطه.

وآيتنا هذه خطاب إلى مكذبى الرسالة الخاتمة من مشركى العرب، ساقه الله إليهم بعد إطلالة خاطفة على موقف بنى إسرائيل من رسالة موسى - عليه السلام - إليهم. وعنادهم له. وفى هذا الخطاب يذكر القرآن مشركى العرب بمصارع من كان قبلهم من المكذبين لرسالات الله من الأمم الغابرة وما أنزل الله بهم من انتقام، عساهم يرتدعون قبل فوات الأوان.

وصدِّرت الآية بهذا الاستفهام:

* ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؟

وقد وقف الأئمة من بيان المراد من هذا الاستفهام موقفين كذلك الذى مر فى (الرعد):

* موقف السكوت، وهو للزمخشرى والبيضاوى وأبى السعود والألوسى.
* وموقف البيان، وهو لأبى حيان والطاهر بن عاشور.

أما أبو حيان فقد حمله على التقرير، حيث قال: «والهمزة فى (ألم) للتقرير والتوبيخ[1].

(١) البحر المحيط (٥/ ٤٠٧).

وأما الطاهر فقال: «والاستفهام إنكارى، لأنهم قد بلغهم أخبارهم»[١].

وهذا سهو وقع فيه الشيخ الطاهر، والجملة الثانية التى علل بها القول بالإنكار، وهى: لأنهم قد بلغهم أخبارهم تنافى ما ادعاه من الإنكار كل المنافاة.

والخلاصة: أن هذا الاستفهام للتقرير والتوبيخ كما قال الإمام أبو حيان. ومن يضيف إليهما التذكير فقد أصاب.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ من قَبْلِكُمْ﴾ النبأ هو الخبر العظيم، لذلك أوثر على الخبر.

و﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ تفصيل للإجمال فى (**الذين من قبلكم**) وروعى فى ترتيب ذكرهم الترتيب الزمنى. وفى (عاد) و (ثمود) مجاز مرسل إذا أطلق كل منهما وأريد ذريتهما، وهم: قبيلتا عاد وثمود قوما هود وصالح.

* ﴿لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ﴾ كناية عن صفة هى الكثرة.

* ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِى أَفْوَاهِهِمْ﴾ تفصيل للإجمال الذى فى (نبأ) كتفصيل الإجمال فى (**الذين من قبلكم**) وهذا من الفن البديعى المسمى باللف والنشر غير المرتب[٢]. لأن التفصيل الأول كان للثانى والثانى للأول.

* ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِى أَفْوَاهِهِمْ﴾ أسهب المفسرون فى بيان هذه العبارة بلاغيا، وفى عود الضميرين (هم) فى الأيدى والأفواه. وكل ما قالوه اجتهادات لا تثبت، وبعضها يدفع بعضها الآخر، والذى أرجحه فى المراد من هذه العبارة بلاغيا أنها كناية عن التهويل لما سمعوا من دعوة الرسل؛ لأن من يفزعه هول يلطم وجهه وفمه ويعض على يده.

وقد ذكر الله ذلك معزوا إلى التحسر والتندم كما فى قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٢٧].

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ١٨٦).

(٢) لم نجار الاصطلاح البلاغى الذى يطلق على هذا «اللف والنشر المشوش» تأدبا مع كتاب الله، لذلك قلنا: غير المرتب.

* ﴿لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ توكيد الخبر بـ (إن) واللام لبيان الإصرار على الكفر.

وفى: (فى شك) استعارة بالكناية حيث شبه (الشك) بظرف محيط بما فيه، وهم المشركون. ثم حذف المشبه به ورمز له بلازم من لوازمه، وهو الحرف (فى) الدال على الظرفية ومرادهم المبالغة فى شأن الشك فى صدق الرسالات وفى (منه) كناية عن الوحى الداعى إلى التوحيد.

والفصل بين الموصوف (شك) والصفة (مريب) التناسب رؤوس الآى. ولإيقاع الشك على (الوحى) بلا فاصل، وتنكير (شك) و (مريب) للتهويل حسب اعتقادهم.

* * *

٢ - ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى، قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠].

الدراسة والتحليل:

فى هذه الآية بيان لما قالت الرسل رداً على كفريات المشركين، وقد بدأ الرسل بالرد على نكران المشركين لله، ثم أردفت بيان فضل الله عليهم بعد دلائل وجوده، ولكن المشركين تمادوا فى عنادهم فأنكروا الرسالات، واتهموا الرسل بأنهم مجرد مشاغبين يريدون صرف المشركين عن دين آبائهم وأنهم لم ولن يطيعوا الرسل، وتلكأؤا وتماطلوا وطالبوا الرسل أن يأتوهم ببرهان غير المعجزات التى أيدهم الله بها؟

وقد صدرت الآية بهذا الاستفهام بعد التمهيد له بقول الرسل لهم:

﴿أَفِى اللهِ شَكٌّ﴾؟

وأهل الذكر مجمعون على أنه استفهام إنكار، ونضيف إليه الإفحام والإلزام بإقامة الحجة عليهم، وهذه هى الخلاصة فى توجيه هذا الموضع.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ...﴾ فصلت هذه الجملة للاستئناف البيانى لأنها جواب تنتظره

النفوس بعد تطلعها إلى الوقوف على ما قاله الرسل.

وقول الرسل هـذا لم يقع دفعة واحـدة، بل قاله كل رسـول لقومـه وقت إرساله إليهم، وسر التمهـيد بقوله تعالى: (**قالت رسلهم**) بـ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ التشويق إلى المقول ليتمكن فى النفس كل التمكن.

* ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ إيجاز بالحذف، حيث حذف المضاف إلى (**الله**) والتقدير:

أفى وجود الله ووحدانيته شك؟ وتقـديم الجار والمجرور (**أفى الله**) وهو مسند على (**شك**) وهو المسند إليـه قصـر إضافى بـالنظر إلى الأصنام، أى: أفى الله شك لا فى أصنامكم، وفى هذا تعريض لهم بالـغباوة، لأن الأصنام هى الحرى أن يشك فـيها لا الله عز وجل.

* ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ نعـتان لله عـز وجل ذكـرهمـا الرسل لإبطال شك المشركين، لأن من كـان هذا شأنه من خلق السـمواتَ والأرض فمـحال فى حكم العقل أن يتطرق فيه شك.

* ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ﴾.

أُوثر اسم الفـاعل (**فاطر**) فى جانـب السموات والأرض لأن خـلقهمـا وقع وتم، فدلالة اسم الفاعل (**فاطر**) دلالة الماضى (**فطر**).

وأوثر المضارع فى (**يدعوكم**) لتجدد الدعوة على ألسنة الأنبـياء والدعاة من بعدهم إلى قيام الساعة.

والجملة استئناف ابتدائى مسوقة لتوكيد الإنكار تأكيداً إثر تأكيد، لأن من كان فضله غامـراً للعباد بمغـفرة آثامهم والنسأ فـى آجلهم تقتضى الحكمـة أن يشكر لا أن يكفر ويشك فيه.

ودخول (**من**) على (**ذنوبكم**) إشارة إلـى أن بعض الذنوب وهى المتعلقـة بحقـوق العباد لا تغفر إلا برضا مستحقيها أورد مظالمهم إليهم.

* ﴿قَالُوا...﴾ عطفت هذه الجملة على جملة (**فردوا أيديهم**).

* ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ جملة قصرية، المقصور فيها (**أنتم**) والمقصور عليه (**بشر**

مثلنا) قصر موصوف على صفة، وقد كنوا بهذا القصر عن نفى الرسالات، لأن الرسالة عندهم لا تجامع البشرية، وهى من الكنايات اللطيفة كما ترى وتحتاج إلى ذكاء.

* ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ كناية عن موصوف هو الأصنام وفى (**آباؤنا**) تغليب إذ المراد الأباء الأدنون والأجداد الأبعدون، والسر فى تغليب (الأبوة) على (الجدية) قرب الأباء من عهد الأبناء وقوة الصلة بينهم.
* ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ الفاء تفريعية على ما تقدم، والمراد من الأمر (**ائتونا**) فيما يظهر هو التلكؤ والإعذار والتسويف.

* * *

٣ - ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا، وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا، وعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

الدراسة والتحليل:

تمثل هذه الآية لقطة من الحوار الذى دار بين الرسل وأممهم وفيها يعلن الرسل ألا صارف لهم عن التوكل على الله.. وأظهروا عزمهم على الصبر مهما بالغت أممهم فى العناد والأذى، وأن الله وحده هو الذى يتوكلون عليه، وقد جاء فى صدر هذه الآية هذا الاستفهام:

* ﴿وَمَالَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ﴾، وهذا استفهام تقدمت لنا منه نظائر، ورصدنا من قبل مذاهب الأئمة فى المراد منه بلاغياً.

فهو استفهام إنكار لترك التوكل على الله، وطريق هذا الإنكار هو نفى الصارف عنه بطريق الكناية وهى أبلغ من التصريح.

أى لا صارف لنا عن التوكل عليه، وقد كنوا عن نفى الصارف بالسؤال عنه؛ لأن السؤال يستلزم نفى المسئول عنه وهذه خلاصة ما يقال فيه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿وَمَا لَنَا ألاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَىَ اللهِ﴾ كناية جدّ لطيفة عن إثبات التوكل على الله،

وإظهار اسم الجلالة (الله) لتفخيم التوكل، وكان الظاهر أن يقال (عليه) لتقدم الاسم الجليل قبيل هذه الآية مباشرة ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، وكذلك شدة تعلق الرغبة فى الله، والثقة فيه.

* ﴿وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ جملة تعليلية لإيجاب التوكل على الله وقبح الانصراف عنه.

* ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىَ مَا آذَيْتُمُونَا﴾ الظاهر أن اللام فى: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ﴾ موطئة للقسم، والمضارع جوابه لذلك أكد بالنون.

و(**ما**) مصدرية، والتقدير (على أذاكم إيَّانا).

وإيثار المصدر المؤول على الصريح لما فى الفعل الماضى من توكيد الوقوع وتحققه.

* ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ تقديم الجار والمجرور (**على الله**) على (**فليتوكل**) لإفادة القصر، أى قصر الإفراد، أى: على الله لا على غيره.

والأمر فى (**فليتوكل**) للإيجاب.

وفى (**المتوكلون**) مجاز مرسل باعتبار ما سيكون، أى فليتوكل المؤمنون، كما جاء فى الآية التى تقدمت هذه الآية مباشرة.

وسره هو شدة الرغبة فى التوكل على الله، وبه يكمل إيمان المؤمن، ويعز جانبه، ولأن التوكل على الله يستلزم الإيمان به، والعكس لا يستلزم.

* * *

٤ - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، إن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٩].

الدراسة والتحليل:

جاءت هذه الآية عقب الحديث عن الكافرين وما أعده الله لهم من سوء المصير، فلفتت الأنظار إلى آيات الله فى السموات والأرض، واتخذت من تقرير هذه الحقيقة إلى أن الله - إن شاء - ذهب بما خلق، وأحل مكانهم خلقاً آخر، وأن ذلك يسير بالنظر إلى خلق السموات والأرض.

والاستفهام الذى استهلت به الآية:

﴿أَلَمْ تَرَ . . .﴾ استفهام تقرير وإثبات لمفعول الرؤية، وهذه قاعدة مطردة فى هذا التركيب حيثما ورد، لأن نفى النفى إثبات وهذه خلاصة ما فى هذا الاستفهام.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ أُكِّد الخبر لأنه من الحقائق العظيمة، وقد مرَّ بنا ذلك كثيراً فى هذه الدراسة.

وتقديم السموات على الأرض لما فى خلقها ورفعها بلا عمد من آثار قدرة الله الباهرة.

* ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أسلوب خبرى مستعمل فى الوعيد، وفى الفعل **(يذهبكم)** كناية عن الإهلاك، وقد مُهِّد لتقرير هذه الحقيقة بخلق السموات والأرض، لأن خلقهما أعظم من خلق الناس وإهلاك الناس أيسر من خلقهم.

* * *

٥ - ﴿وَبَرَزُوا لله جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِن شَيْءٍ، قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ، سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

الدراسة والتحليل:

وَثَبَتْ بنا هذه الآية وثبةً سريعة إلى الأمام، وعرضت موقفاً من مواقف الغيب المختص بيوم القيامة، وكانت أول كلمة فيها بمثابة إزاحة الستار عن دور يؤدى أمامنا ننظر إليه ونسمع ما يجرى على ألسنة مؤديه، فها هم قد برزوا خاضعين لأمر الله يوم الحساب، وتستقطب الخصومة التى أطلَّتْ على الموقف بين التابعين فى الضلال والمتبوعين فيه، فقد قضى الله على التابع والمتبوع بالإلقاء فى نار جهنم، فيتوسل التابعون إلى المتبوعين بما كانت بينهم من علاقات فى الحياة الدنيا لكى يتحملوا عنهم شيئاً من عذاب الله، ويبادر المتبوعين بالاعتذار ثم بالقنوط واليأس من كشف ما بهم من عذاب، سواء جزعوا أو صبروا، فليس لهم من العذاب مخرج.

وفى الآية وردت هذه العبارات الاستفهامية:

* ﴿هَلْ أَنْتُم مُّغْنُونَ﴾ * ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا﴾.

وقد صرَّح الأئمة بأن الاستفهام الأول: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ للعتاب والتبكيت والتوبيخ[1]، وهذه خلاصة ما قيل عن هذا الموضع.

أما الاستفهام الثانى (**سواء علينا أجزعنا أم صبرنا**) فقد تقدم الحديث عنه فى سورة البقرة عند الحديث عن قوله تعالى فى الآية السادسة منها: (**سواء عليهم...**) فلا داعى للإطالة بتكرار ما قيل هناك[2].

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿وَبَرَزُوا للهِ جَمِيعًا﴾ البروز كناية عن المثول بين يدى الله بعد البعث من القبور، وتقييد البروز بـ(لله) لأنه دعاهم دعوة من الأرض للحساب وتوفية كل نفس ما عملت.

* ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ بين (الضعفاء) و(الذين استكبروا) طباق إيجاب وقع موقعه من البلاغة ومطابقة مقتضى الحال، لا تحسينا للمعنى بعد الوفاء به قبل الطباق.

وإيثار الفعل (**استكبروا**) على الكبراء المقابل للضعفاء للدلالة على أنهم ادعوا العظمة ولم يكونوا عظماء حقيقة.

ولا يقدح فى هذه النكتة البلاغية ورود (الكبراء) فى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ﴾ [الأحزاب: ٦٧]، لأن الأول من كلام الله الخالص، والثانى من كلام الضعفاء الذى حكاه الله تعالى عنهم، وهو لا يكسبهم شرفاً، بخلاف كلام الله غير المحكى عن غيره.

* ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً﴾ تقديم الجار والمجرور (**لكم**) على (**تبعاً**) لأنه الأنسب فى مقام التبكيت والتوبيخ والتقريع، وفيه معنى القصر: أى تبعاً لكم لا لغيركم.

* ﴿فَهَلْ أَنْتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أوثر الاستفهام بـ(هل) لتحقيق

---

(١) الكشاف (٢/ ٣٧٢)، أبو السعود (٥/ ٤١)، روح المعانى (١٣/ ٢٠٦).

(٢) انظر (١/ ٣) من هذه الدراسة.

الإنكار الذى جعلوه توطئة للعقاب والتبكيت والتوبيخ وإظهار عجز المخاطبين عن دفع الضرر.

وفى (**مغنون**) استعارة تبعية؛ لأن المراد: هل أنتم تدفعون أو تتحملون عنا شيئاً من العذاب، فاستعير الإغناء للدفع أو التحمل؛ لأن من حمل عن غيره مشقة، فقد أغناه عن معاناتها.

ودخول (من) على (**شئ**) فى (**من شئ**) للتقليل والتحقير أى: لا تملكون دفع شئ منه مهما كان يسيرا.

* ﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ فصلت جملة (قالوا) إما للاستئناف البيانى، وإما لأنها جواب هذا السؤال المذكور فى النظم.
* ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ تذييل مقرر لمضمون الكلام قبله وهو اليأس والقنوط.

ودخول (من) على (**محيص**) لاستغراق النفى.

أما تنكير (**محيص**) فللتحقير أو الإعلام بدلالة استغراق النفى المفاد من دخول (من) على (**محيص**) كما تقدم.

* * *

٦ - ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

الدراسة والتحليل:

الاستقامة والصلاح أعمال وأقوال، والقول الطيب صنو العمل الطيب، وكما مدح الله العمل الصالح فى كتابه العزيز ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ [الكهف: ١٠٧]، مدح القول الطيب وأمر به، ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ [البقرة: ٨٣]، ﴿وَهُدُوا إِلى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الحج: ٢٤].

وفى هذه الآية يمثل القرآن الحكيم الكلمة الطيبة تمثيلاً رائعاً ليرغب العباد فيها لما فيها من خير فى الدنيا وفى الآخرة.

وقد تصدر هذا التمثيل الرائع استفهام تشويقى هكذا:

* ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً . .﴾ .

ولم يكترث الأقدمون بالمراد من الاستفهام، أما ابن عاشور فقد تردد فيه بين الإنكار والتقرير، وحين حمله على الإنكار ارتبك كلامه فى تبريره[1] .

والخلاصة: أن هذا الاستفهام للحث والتعجيب، ولابد من ملاحظة التقرير قبلهما مع التشويق.

أما الإنكار الذى جوَّزه ابن عاشور فلا سند له من الصحة وما أبعد المقام عنه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً . . .﴾ فصلت هذه الجملة عما قبلها لما بين الجملتين من كمال الانقطاع لأن الأولى خبرية لفظاً ومعنى، وهذه إنشائية لفظاً ومعنى.

* أما جملة الاستفهام فتحمل مع التقرير شحنة هائلة من التشويق والتأمل والتعجب من كيفية هذا المثل المضروب وتنكير **(مثلاً)** للتعظيم والتفخيم.

وفى **(ضرب)** استعارة تبعية، حيث استعير الضرب للذكر، أى ذكر مثلاً، وسره كمال العناية بقوة هذا المثل المذكور القوى التأثير الشبيه تأثيره بتأثير الضرب فى المضروب أى قوة الإحساس.

* ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ والتنكير فى (كلمة) للتعظيم والتفخيم، وهى تبدأ من القمة العليا هى كلمة التوحيد إلى أدنى كلمة فيها خير، وقد شبهت الكلمة الطيبة تشبيهاً تمثيلياً بالشجرة الطيبة فى ثباتها وامتداد نفعها ودوام خيرها، وأوثرت الشجرة الطيبة مشبهاً بها لما فيها من الثبات وعميم المنافع، ووجه الشبه محذوف - وهذا هو شأن تشبيهات القرآن كلها - وقد أشرنا إليه بالهيئة الحاصلة من الثبات والامتداد مع كثرة المنافع ودوامها.

* ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ﴾ أوثر وصف أصل الشجرة، وهو جذورها

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٢٣).

الضاربة فى الأرض، بالثبات دون الشجرة نفسها، لأن العرف جرى على إطلاق لفظ شجرة على ما ظهر منها فوق الأرض، ولو وصفت بالثبات دون أصلها لفاتت لطيفة رائعة، لم يلتفت إليها أحد من المفسرين لأن كل شئ فيه ثقل إذا طرح على الأرض كان ثابتاً قاراً عليها، سواء كان كائناً حياً مما لا إرادة له، أو شجرة قطعت وألقيت على الأرض وجفت، لذلك - والله أعلم - أوثر وصف أصل الشجرة بالثبات دون الشجرة للإعلام بدوام حياتها وإثمارها لبقاء جذورها ضاربة فى الأرض، متمكنة من أسباب الحياة والبقاء.

ولما لم يدرك ساداتنا المفسرون هذا المعنى فسروا النظم الحكيم بأن الوصف إذا كان جملة (**أصلها ثابت**) كان أبلغ من الوصف المفرد (**ثابت أصلها**).

وهذا الذى ذكروه لا يمنع من إرادته الوجه الجديد الذى هدانا الله إليه فى فهم النظم الحكيم.

أما الجمع بين (**أصلها ثابت**) وبين (**وفرعها فى السماء**) ففوق ما فيهما من طباق مكين فإنه كناية عن علو شأن هذه الشجرة بداية ونهاية، مع الإيماء إلى رفع الكلم الطيب إلى الله ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠].

* * *

٧ - ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم ٢٨].

الدراسة والتحليل:

يوجه الله نظر المخاطب- هنا- إلى مصير الذين كذَّبوا الرسل وكفروا بالله واحداً، وقد ورد هذا الاستفهام فى صدر الآية:

﴿أَلَمْ تَرَ . .﴾ وهو استفهام تقرير وتعجيب، والرؤية الغالب أنها رؤية علمية من خلال ما قصَّ الله فى كتابه العزيز من أخبار الأمم الغابرة. وهذه هى الخلاصة فى هذا الموضع.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ كناية عن ذمهم غاية الذم والجمع بين **(نعمة الله)** و**(كفراً)** من دقيق الطباق فى النظم الجميل، لأن التقابل ملحوظ بين النعمة، والنقمة. ولما كان الكفران هو سبب النقمة أقيم مقام المسبب للإشعار بأنهم ظلموا أنفسهم فاستحقوا العذاب بكفرهم.

* ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ فى إسناد (أحل) إلى ضمير (الذين) وهو: واو الجماعة مجاز عقلى علاقته السببية فهم سبب فى إدخال قومهم النار.

أما ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ فهى كناية عن موصوف هو جهنم بدليل قوله عقبه: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾.

* * *

٨ - ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ، أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَالَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

الدراسة والتحليل:

بعد تطواف سريع حول عظات التاريخ وعبره، وإجالة النظر فى بعض الآيات الكونية التفت النظم الحكيم إلى صاحب الرسالة، وجدد له الأمر بإنذار الناس أهوال المحشر. ونقل لنا مشهداً من مشاهده العامة، إذ سرعان مايفزع الظالمون الذين كذبّوا الرسل من أهوال الحشر راجين أن يعيدهم الله إلى الحياة ليسيروا سيرة صالحة ويطيعوا ماعصوه من أمر الرسل فى الدنيا فيخيب الله رجاءهم ويذكرهم بعنادهم الذى دأبوا عليه فى الدنيا وعدم انتفاعهم بالآيات والعِبر.

والاستفهام الذى ورد فى هذه الآية، وهو: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَالَكُم مِّن زَوَالٍ﴾[١] هذا الاستفهام للتقرير والتبكيت والتوبيخ، وهذه خلاصة ماذكره الأئمة فى هذا الموضع[٢]

---

(١) الزوال له معان منها المحو والانتقال من مكان إلى مكان والمراد هنا: البعث من القبور

(٢) انظر مثلا: أبو السعود (٥/٥٦) والتنوير والتحرير (١٣/٢٤٨)

أسرار النظم وبلاغياته

* ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ فى هذا التعبير مجاز عقلى وكناية، فالمجاز العقلى فى إسناد الإتيان إلى العذاب، وحقيقته يوم يأتيهم الله بالعذاب. وسره تهويل العذاب وتفظيعه حتى لكأنه يتحرك نحوهم بنفسه.

والكناية فى ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ عن موصوف هو يوم القيامة

* ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ إيجاز قِصَر فى (الذين ظلموا) لانتظام جميع الطوائف والأمم التى عصت الرسل وكفرت بالله.

* ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ نداء استعطاف وتودد، وفى (أخرنا) كناية عن الإعادة إلى الحياة الدنيا.

ووصف **(أجل)** بـ **(قريب)** تليين فى الخطاب جعلوه وسيلة لاستجابة الله لهم.

* ﴿ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ قدَّموا وعدهم بإجابة دعوة الله، وأخروا طاعة الرسل، لأن المقدم هو الأصل والمؤخر فرع. وهو من عطف الخاص على العام والنكتة فى ذكر الخاص لاستدراك مابدر منهم من تكذيب الرسل والسخرية منهم.

* ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾؟

الواو للعطف على مقدر، أى أتقولون هذا الآن وكنتم أقسمتم فى الحياة الدنيا أنكم لن تبعثوا من قبوركم للقاء يومكم هذا.

ودخول **(من)** على **(زوال)** فى **(من زوال)** لاستغراق النفى وتوكيده.

* * *

سورة الحجر

١ - ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَالَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر ٣٢].

الدراسة والتحليل

سورة الحجر شبيهة، بسورة إبراهيم عليه السلام، فقد مزجت بين الحديث عن مشركى العرب، وبين الإشارات الخاطفة لقصص الماضين، وعرض بعض آيات الله فى الكون، ثم انفردت بذكر لمحة من قصة آدم عليه السلام وطاعة الملائكة وعصيان إبليس حين أمرهم الله بالسجود لآدم، وآيتنا هذه مقصورة على نداء الله لإبليس وسؤاله - وهو أعلم- عن تخلفه عن السجود لآدم.

﴿مَالَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾؟

والاستفهام- هنا- كما نص كثير من الآئمة[١] للإنكار أصلاً ثم ينشأ عنه التوبيخ.

ومبنى الإنكار أن الله تعالى استفهم -وهو العليم- عن السبب الذى منع ابليس من السجود، وجُعِل هذا الاستفهام كناية عن نفى المسبب الذى ترتب على توهمه عند اللعين ترك السجود، وهى من الكناية اللطيفة كما مر فى مثيلاتها، والكناية كما نعلم- أبلغ لقرن الدليل فيها بالدعوى.

والمعنى: لاعذر لك فى الامتناع عن السجود الذى أمرتك به.

و**(مالك)**: أى أىُّ شىء استقر لك وثبت فعصيت أمرى ولم تسجد لآدم كما سجدتْ الملائكة وهم خير منك

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿قَالَ يَاإِبْلِيسُ﴾ فصلت جملة **(قال)** عما قبلها لأنها جواب عن سؤال مقدر نشأ عن الإخبار عن إبليس بامتناعه عن السجود، تقديره: ماذا قال الله لَمَّا لم يسجد؟ فبين الجملتين شبه كمال الاتصال.

---

(١)انظر: تفسير أبى السعود (٥/ ٧٤) روح المعانى (١٤/ ٤٦) التحرير والتنوير: (١٤/ ٤٦)

والغرض من التصريح بنداء اسم اللعين : (يا إبليس) للتسجيل عليه بامتناعه عن السجود، وكان ممكنا أن يقال: (قال مالك ألا تكون مع الساجدين) بدون نداء لاسمه الصريح لعنه الله.

* ﴿أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ أى مالك فى ألا تكون فحذفت للايجاز.

وأوثر لفظ (**الساجدين**) على الملائكة، لأن عدم السجود هو محط الإنكار.

وفى العبارة إيجاز بالحذف باعتبار آخر، إذْ التقدير مالك فى ألا تكون ساجدا مع الساجدين وقت سجودهم، لذلك أوثرت (مع) على (فى) لما فى (مع) من معنى المصاحبة فى السجود.

* * *

٢ - ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر ٥٤].

الدراسة والتحليل

لما جاءت الملائكة، إبراهيم عليه السلام ووجل منهم طمأنوه قائلين: ﴿لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ﴾ فقال إبراهيم وكان قد شاخ وهرم:

﴿أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ فثبتته الملائكة مرة أخرى:

﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ فثاب إلى رشده، ثم قال:

٣ - ﴿.. وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ ثم التفت إلى الملائكة بعد أن عرف حقيقتهم وسألهم:

٤ - ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾؟

هذا وقد ورد فى هذه الآيات ثلاثة استفهامات. اثنان فى الآية الأولى موضوع الدراسة وهما:

﴿أَبَشَّرْتُمُونِى﴾..؟ * ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾؟

والثالث : (**فما خطبكم**)؟ وهو استفهام حقيقى ليس لنا فيه بحث، لأن المراد منه هو مادخلت عليه أداة الاستفهام ولاخلاف فى هذا.

أما: (**أبشرتمونى**) - (**فبم تبشرون**) فهما مجازيان والمراد منهـما الإنكار والاستبعاد لأن الإنجاب مع كبر السن مستبعد عـادة، وهما مع الإنكار والاستبعاد يفيدان لونا من التعجب والدهشة، وهذه خلاصة ما يقال فى هذين الاستفهامين.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (قَالَ) فصلت جملة (**قال**) عما قبلها لأنها جواب عن سـؤال نشأ عما قبلها، فبين الجملتـين شبه كـمال الاتصـال، وإيثار الماضى فى (أبشـرتمونى) إشارة إلى تحـقيق البشارة التى سلط عليها الاستبعاد، لأن الشيء غير المعهود يحسن إنكاره إذا أخرج مخرج المتيقن

* ﴿عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ المس فى لغة القرآن مـستعار حيث ورد لشـدة الإحساس .. ومراد الخليل عليـه السلام المبالغـة فى تصوير المانع من الإنجاب حـسب العادة وإسناد المس - أيا كان معناه - إلى (الكبر) مجاز عقلى سره -كذلك- تهويل شأن الكبر الذى بلغه إبراهيم.

* ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ تاكيد للاستبعاد المفهوم من قوله: (**أبشرتمونى**)

وعدل عن الماضى (بشَّر) إلى المضارع (تبشِّر) إشارة إلى أن هذه البشارة تتعلق بأمر سيأتى لا بأمرأتى، وتطبيقاً على قول الملائكة من قبل : ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾.

والذى سوَّغ لإبراهيم - عليه السلام- استبعاد بشـارة الملائكة عدم علمه بحقيقتهم قبل أن يفصحوا له عنها مع قيام المانع من الإنجاب عنده وعند امرأته.

* * *

٥ - ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [الحجر ٧٠].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية جـزء من الحوار الذى دار بين لوط علـيه السـلام وبين قومـه حين زارته الملائكة، وجاءه قومه يهرعون إليه لعمل الفاحشة فيهم، وقد تصدى لهم ورجاهم ألا يخزوه فى ضيفه فقال فيما قال:

﴿.. إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ * وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ فقالوا له:

﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾؟ يعنى ألم نحذرك من حماية الناس منا والحيلولة بيننا وبين من نريد اللواط معه؟ وهذا الاستفهام مجازى، المراد منه التقرير والتذكير والزجر. وهذه خلاصة مايقال فيه.

لأنهم ذكروه بسبق نهيهم إياه عن الدفاع عن الناس ضدهم ثم زجروه وجددُّوا له التحذير مرة أخرى.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿قَالُوا. . .﴾ فصلت هذه الجملة عما قبلها للاستئناف البيانى

* ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ إيجاز بالحذف؛ لأن التقدير: ألم ننهك يا لوط عن حماية الناس منا؟ وآثروا لفظ (**العالمين**) هنا على (الناس) لإدخال جنس الملائكة فى حيز النهى لأنهم لم يكونوا معروفين لهم. بدليل أن لوطا نكرهم ولم يعرفهم، وكذلك إبراهيم من قبل صلى الله عليهما وسلم.

* * *

سورة النحل

١ - ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ، أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل ١٧].

الدراسة والتحليل:

سورة النحل سميت بهذا الاسم لأن لفظ (النحل) لم يرد إلا فيها، وهى السورة الثانية والسبعون فى ترتيب نزول القرآن، وجمع نزولها بين العهدين المكى والمدنى، وتنوعت أغراضها تنوعا ملحوظاً:

من التذكير بالنعم، والانتصار لعقيدة التوحيد وإثبات الرسالة وإبطال عقيدة الشرك، والحديث عن الحياة الآخرة، ثم لفت نظر الناس إلى بعض آيات الله فى الكون، والعبر التى فى حياة الإنسان، والدفاع عن مصدر القرآن الآلهى وبعض الرخص فى التكليف، والدعوة إلى الإحسان والاعتدال فى استيفاء الحقوق الخ. . . الخ

والآية التى معنا خاتمة احتجاج بدأت به السورة عقب طائفة من الآيات أشارت إلى نعم الله فى الحياة، فجاءت هذه الآية تنعى على مَنْ يسوون الله الخالق المدبر بمن لا خَلْق له ولاتدبير.

والاستفهام فيها إنكارى توبيخى إلزامى إفحامى.

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ﴾

أما الاستفهام فى فاصلة الآية ﴿أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ فهو للنفى والتوبيخ مع الحث والتذكير يعنى أن الله يُنكر عليهم عدم التذكر ويوبخهم عليه مع الحث على تحصيل مافاتهم تحصيله.

وكلام الآئمة يدور حول هذه المعانى التى أشرنا إليها لخلاصة ما قيل فى هذين الاستفهامين(١).

---

(١) الكشاف (٢/ ٤٠٥) ابو السعود (٥/ ١٠٤) روح المعانى (١٤/ ١١٧) والتحرير والتنوير (١٤/ ١٢٣).

وتقـدير الكلام فى الاسـتفـهام الثـانى: أتعلمـون ماذكـر من الآيات والنعم فـلا تذكرون.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ﴾ هذا الـتركيب من صور التشبـيه السلبى الذى أشرنا إليه كثـيرا فى هذه الدراسة، وضابطه كمـا تقدم أن وجه الشبه بين الطرفين مـعقود على سبيل التـوهم أو الادعاء خارج نطاق القرآن، فجـاء القرآن لنفى أن يكون بين الطرفين صلة، وقـد لحظنـا أن القرآن يـنفى هذه الصلة المتـوهمـة أو المدعـاة بأداة الاستفهام لا بأداة نفى صريحة.

وذلك لأن النفى الصريح أشبـه مايكون بالتلقين. أما النفى المستفاد من الاسـتفهام الإنكارى فيحـتاج إلى إعمال فكر وتكون النفوس هى التى تدرك هذا النفى فـيتمكن فيها كل التمكن.

أما التلقين فيهجم على النفس هجوما من الخارج تقبله أو ترفضه.

أماما تستنتجه النفوس بعملهـا وفكرها فلا سبيل لرفضه عندها، فإنكار المساواة بين الله وبين الاصنام- هنا- حكم عـقلى قبل ان يكـون شرعيـا، لأن العقل يفـرق بين الطرفين هنا تفريقا بدهيا

* (**أفلاتذكرون**) ايجاز بالحـذف حيث حـذف المعطوف عليه بالفـاء كمـا قدرناه فى مبحث الدراسة والتحليل.

* * *

٢ - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾(١) [النحل ٢٤].

الدراسة والتحليل.

هذه الآية استطراد حـديث بدأه النظم عن الذين لايؤمنون بالآخرة، وقد ورد فـيها هذا الاستفهام:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّـاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ وهذا الاسـتـفهام اختـلف المراد منه عند الأئمة باختلاف القائل:

---

(١) قبل هذا الاستفهام ورد قوله تعالى: «ومايشعرون أيان يبعثون» وصورته صورة استفهام، أما معناه فلا استفهام فيه: لأن معنى الآية: ومايشعرون الوقت الذى سيبعثون فيه أى لا يعلمونه.

فإن كان القائل هم وفود الحجيج القادمين إلى مكة، فيسألون أهلها من المشركين عما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم، كان الاستفهام حقيقيا لامجازيا، والمراد منه حينئذ الوقوف على حقيقة المسئول عنه.

وإذا كان القائل هم المشركين بعضهم لبعض تندراً وتفكهاً كان الاستفهام مجازيا والمراد منه حينئذ التهكم والسخرية.

وإذا كان القائل هم المسلمين والمقول لهم هم المشركين، كان الاستفهام كذلك حقيقيا والمراد منه معرفة مايقوله المشركون عن القرآن، وكيف يرونه.

هذا خلاصة ما حام حوله كلام المفسرين لخصناه توخيا للإيجاز.

ولم نقف عند حد التلخيص، بل أضفنا إليه مالم يتعرض له أحد منهم من ذكر المراد من الاستفهام ونوعية الاستفهام نفسه حقيقى أو مجازى، ومن شاء فليرجع إلى ماقالوه حسب إشارات الهامش(١).

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾؟ إيجاز حذف، حيث بنى الفعل **(قيل)** لما لم يسم فاعله، وقد أدَّى هذا الحذف إلى تكثير المعنى على النحو الذى مر فى مبحث الدراسة والتحليل. وإيثار أداة الاستفهام **(ماذا)** لتفخيم شأن المستفهم عنه، كما أشرنا إلى ذلك مرات فى هذه الدراسة و﴿أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ كناية عن موصوف هو القرآن الكريم.

* ﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ فصلت جملة القول إما لأنها استئناف بيانى على ماتقدم، وإما لأنها جواب الاستفهام المذكور : ﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾؟ و﴿ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ كناية عن الحكايات الخرافية حسب مدعاهم.

وفى العبارة إيجاز بالحذف؛ لأن تقدير الكلام: أنزل أساطير الأولين.

ولم يصرحوا فى جوابهم بالإنزال مسندا إلى (رب) لموافقة دعواهم أن القرآن غير منزل من عند الله بل هو حكايات القدماء جمعها محمد صلى الله عليه وسلم؟!

* * *

---

(١) الكشاف (٢/ ١٠٦) أبو السعود (٦/ ١٠٧) روح المعانى (٦/ ١٢٢) البحر المحيط (٥/ ٤٨٣) البيضاوى (١/ ٥٤١) ابن عاشور (١٤/ ١٣١)

٣ - ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ، قَالُوا خَيْراً، لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ، وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل ٣٠].

الدراسة والتحليل

هذه الآية بداية فصل تنظيرى بين حالى المشركين والمؤمنين المسئولين من الوفود إلى مكة للاستفسار عن حقيقة الدعوة التى جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم.

ففى حال المشركين كان الجواب أن القرآن أساطير الأولين وليس وحيا من عند الله؟!

وفى حال المؤمنين بيَّن النظم الآمين أنهم كانوا يقولون لسائليهم عن حقيقة القرآن أنه خير. وفى ذكر الحالين دليل على أن القادمين إلى مكة كانوا يجمعون بين سؤال المشركين وسؤال المؤمنين بالرسالة الخاتمة. وهذه محمدة تحمد لهم؛ لأنهم أرادوا التثبت من حقيقة الرسالة، فجمعوا بين سؤال الجاحد بها والمؤمن الخاضع لها.

والاستفهام على هذا حقيقى هدف إلى التبين والكشف عما يجهله السائل المتردد بين طرفى الخصومة، ولم نر للسادة المفسرين آية إشارة إلى النص على نوعية هذا الاستفهام هل هو مجازى أم حقيقى، وإن كنا نفهم من سكوتهم أنهم يرونه استفهاما حقيقيا أخذا بدلالة المقام الوارد فيه. وهذه خلاصة ما يمكن قوله فى هذا الاستفهام.

أسرار النظم وبلاغياته:

* أول مايستلفت أنظارنا فى هذه الآية ترك تقييد (قيل) فيها بالشرط الذى ورد قيداً فى (قيل) فى الحديث عن المشركين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ أما هنا فجاء النظم خاليا من هذا القيد: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾؟ وهذا يملى علينا أن نطرح هذا السؤال. لماذا قيد الأول بالشرط، وخلا الثانى منه؟ والجواب: لم نر أحدا من القدماء لحظ هذا الملحظ ثم حاول الإجابة عليه، بيد أن الشيخ الطاهر بن عاشور لفت نظره هذا الاختلاف بين الموضعين. ثم حاول الإجابة عليه بأن الشرط يؤذن بتكرار السؤال، والخلو من الشرط لايؤذن بالتكرار[1]، ومع تقديرنا

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/١٤٦)

لما قال فإننا ظهر لنا فى المسألة ملمح بلاغى آخر نثبته هنا كما بدا لنا فنقول:

إن خلو النظم من التقييد بالشرط فى الحديث عن المؤمنين دليل على أن من قدموا إلى مكة للاستفسار عن الرسالة الخاتمة كانوا يسألون المؤمنين قصدا، ويعولون على سؤالهم أصالة. أما سؤالهم للمشركين فلم يكن مقصوداً لهم من قدومهم ولا معولاً عليه عندهم بل كانوا يسألونهم إذا بدا لهم أن يسألوهم.. وعلى هذا فإن التحقق المفاد من (إذا) متعلق بالجواب ﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ لا بالسؤال: ﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ هذا ما بدا لنا، ولانخاله إلا صواباً وفوق كل ذى علم عليم.

* ﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ إيثار الفعل (**اتقوا**) على (**آمنوا**) لأن التقوى تستلزم الإيمان فى أعلى مراتبه، أما الإيمان فلا يستلزم التقوى. وحذف مفعول (**اتقوا**) للعلم به، وهو إيجاز بالحذف
* ﴿قَالُوا خَيْرًا﴾ ورد (خيرا) هنا منصوبا فى مقام الحديث عن المؤمنين، بينما ورد مقابله (**أساطيرُ**) مرفوعا فى مقام الحديث عن المشركين

وقد بيَّن سادتنا المفسرون السر البلاغى فى هذا فقالوا إن الرفع فى (**أساطيرُ**) للكشف عما كان يضمره المشركون من أن القرآن ليس وحيا منزلاً من عند الله بل هو ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وهذا مطابق لاعتقادهم فى قطع الصلة بين القرآن وبين الإنزال.

ولو نصبوا (**أساطير**) لكان منصوبا بفعل محذوف هو (أنزل) ولكنهم رفعوه ليكون خبراً عن مبتدأ محذوف أى : هو أساطير الأولين.

أما الذين اتقوا فإن نصب (خيراً) فى جوابهم جاء على إضمار الفعل (أنزل) وهذا الذى فطن إليه المفسرون فى غاية الحسن والجمال.

* ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ، وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ أجمع المفسرون على أن هذا من كلام الله لا من كلام المؤمنين، فهو على هذا استئناف ابتدائى من تمام التنظير بين الفريقين؛ فأولئك لهم جهنم وسوء المصير. وهؤلاء لهم الجنة، وحسنت مرتفقاً.

* * *

٤ - ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلاَئِكَةُ أَوْيَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣].

الدراسة والتحليل:

هذا استطراد فى الحديث عن مشركى العرب، وتهديد لهم بأنهم بعد تكذيبهم النبى ﷺ ليس لهم عند الله إلا أحد أمرين:

إما مجىء الملائكة لقبض أرواحهم وهم على حالتهم من العناد والتكذيب.

وإما مجىء أمر الله، وهو عذاب الاستئصال. ثم ساق لهم شاهداً من أحوال الأمم الماضية، سلكوا مسلكهم فأهلكهم الله، ولم يظلمهم بهذا الإهلاك، بل هم الذين ظلموا أنفسهم.

وقد صُدرت الآية بهذا الاستفهام:

(هَلْ يَنظُرُونَ)؟ وقد تقدم لنا نظائر له، ونقلنا بيان الأئمة للمراد منه، وهو النفى أو الإنكار، فلا نطيل بتكراره هنا. وخلاصة ما فيه ما ذكرناه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ إيثار (**هل**) لتحقق الوعيد المذكور بعد (يَنظُرُونَ) وإنما قيل ينظرون ولم يُقَل: (ينتظرون) لبيان أن ما هُدِّدوا به آت لا محالة وكأنهم ينظرون إليه نظر العين وفى (**يَنظُرُونَ**) استعارة أحرى بأن تسمى تهكمية. لأنهم لا ينظرون فعلا، بل هم رهناء الوعيد والتهديد. فشبه بقاؤهم حتى يحل بهم ما هددهم الله به لا محالة بنظر من حُبس لحتفه وهلاكه.
* ﴿إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ﴾ كناية عن تعاقب قبض أرواحهم (أَمْرُ رَبِّكَ) كناية عن عذاب الاستئصال. وقد رفعه تكرما وتكريما لصاحب الرسالة ﷺ.
* ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ صورة تشبيهية مسوقة لتعليل الوعيد الذى قبلها.

أى مثل فعلهم من الكفر والتكذيب فعل الذين من قبلهم فكذبوا الرسل وكفروا بالله. ووجه الشبه هو المساواة فى الكفر والتكذيب.

وإيثار (**ذلك**) للإعلام ببعد فعلهم عن الصواب. والغرض من التشبيه هو التعليل والوعيد.

* ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ﴾ الواو عاطفة على محذوف والتقدير «كذلك فعل الذين من قبلهم فأهلكهم الله، وما ظلمهم الله» فالمعطوف عليه هو (فأهلكهم الله) ودليل الحذف هو: (وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ) فنفى الظلم عن الله -هنا- دليل على ذلك الإهلاك.

* ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ تذييل مؤكد لنفى الظلم عن الله ببيان مصدر الظلم الذى أحل بهم العذاب، وهو هم أنفسهم. وتقديم المفعول (أنفسهم) على العامل فيه (**يظلمون**) لتأدية غرضين بلاغيين:

الأول: القصر، وهو قصر صفة الظلم الذى أصيبوا بسببه على موصوف هو هم. وفيه تشنيع عليهم، وتسفيه لهم؛ لأن العاقل لا يظلم نفسه.

الثانى: تناسب رءوس الآى بحرف المد (الواو) ثم: (النون).

* * *

٥- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية تعرض علينا شبهة للمشركين يستندون إليها فى تبرير كفرهم وتشريعهم الناشىء عن هوى أنفسهم. فهم قد أشركوا بالله وادعوا أن هذا الإشراك وقع منهم بإذن الله ورضاه؟

ثم حرَّموا أشياء لم يحرمها الله وادعوا أن حصول هذا التحريم منهم تم بموافقة من الله. وأن الله لو لم يأذن بهذا الشرك وهذا التحريم لمنعهم قسراً عنهما.

هذا هو اعتذارهم عن أنفسهم وعن آبائهم وسلفهم. وكنا قد عرضنا لإبطال هذه الشبهة بكل وضوح فى آيات تقدمت فى سورة الأنعام، فلا نطيل بتكراره هنا.

أما الاستفهام الذى ورد فى هذه الآية: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ فهو استفهام نفى وإنكار.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا . . .﴾ عطف قصة على قصة. والمراد من الذين أشركوا كفار مكة، وإيثار (لو) لتأييد نفى المشيئة بعدها دعما للاحتجاج لشبهتهم.

وفى (وَلاَ آبَاؤُنَا) إيجاز بالحذف يعنى: (ولاعبد آباؤنا).

* ﴿وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ إيجاز بالحذف، والتقدير: ولو شاء هذا التحريم ما حرمنا من دونه من شىء. و(من) الثانية لاستغراق النفى وتحقير (شىء).

* ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ صورة تشبيهية: أى مثل فعلهم هذا فعل المشركون من قبلهم. ووجه الشبه هو المساواة فى الكفر والضلال.

* ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ الفاء للتفريع على ما تقدم، وأوثرت (هل) لتحقق النفى: أى ما على الرسل إكراه الناس على شىء قط. بل عليهم تبليغ الناس ما أنزله الله إليهم، والذى اقتضى ذكر هذه الجملة - بلاغة - الرد على شبهة المشركين وإبطالها.

وكأن الله يقول لهم: لو كان الله يُكره الناس على ترك معاصيهم وكفرهم لوكل ذلك إلى رسله. ولكنه لم يفعل ولم يكلف الرسل إلا بالبلاغ الواضح. وليس معنى ذلك أن الله يقر المشرك على شركه. والمفترى على افترائه كما ادعى هؤلاء، فالدنيا دار بلاغ والآخرة دار عقاب.

وهذا الرد دُلَّ عليه بالأسلوب الكنائى وهو فى غاية الحكمة والبلاغة.

وفى التركيب أسلوب قصر: أى ما على الرسل عبء إلا عبء التبليغ.

وإيثار جمع **(الرسل)** على الإفراد (الرسول) لأن هذه الشبهة- رددها مخالفو كل الرسل. وليس مشركو العرب وحدهم، ولأن قصرالرسالة على البلاغ مهمة كل الرسل.

ووصف **(البلاغ)** بـ **(المبين)** لأن الوضوح فى التبليغ من تمام كل رسالة سماوية.

* * *

٦ - ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِيـنَ مَكَرُوا السَّيِّئَـاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَـأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَيَشْعُرُونَ﴾[١] [النحل: ٤٥].

الدراسة والتحليل:

جاءت هذه الآية تحذيراً لأهل المعـاصى بعد ذكر نماذج من معاصيـهم فى الاعتقاد والسلوك والتطاول بغـير علم. فحـذرهم الله شدة بطشه، وأن انـتقامـه قد يحل بهم فجأة وهم لاهون لاعبون. ودُلَّ على هذا بهذا الاستفهام:

* ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ..﴾؟

ومن الأئمة من ضرب صفحا عن بيان المراد من الاستفهام هنا بلاغيا.

كالإمـام الزمخشـرى وأبى حيان والبيـضاوى، فهـؤلاء اهتموا بشـرح المعنى العام للآية، وهل المراد منها الحديث عن مشركى مكة أم غيرهم؟

أمـا الإمامـان الألوسىِ وأبو السعـود فقـد أشارا إلى أن الاسـتفـهام فى «أفَـأمِنَ» للإنكار[٢].

وقال الإمام الطاهر إنـه للتعجب[٣]، ولم يصرح بالإنكار، ومعـروف أن التعجب يصاحب كلا من التقرير والإنكار.

وهذه خلاصة مـا قيل فى هذا الاستفـهام. وإن كنا نضيف إلى ما قـالوه: التهديد والزجر.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ لما كان الاستفـهام إنكاريا حسن إيثار الماضى على المضارع فى (أمن) ليتوجه الإنكار إلى ثقتهم المحققة فى أمن لا حظ له فيه.

وفى **(مكروا السيئات)** استعير المكر، وهو التـدبير السىء سراً، للعمل: أى عملوا

---

(١) قبل هذه بآيات كـان قوله تعالى: ﴿فانظـروا كيف كان عاقـبة المكذبين﴾ وهى آية (٣٦) وكيف فيـها ليست استـفهـامية بل هى بمعنى الكيـفية: أى انظروا كـيفية عـاقبة المكذبين. والأمـر مثلها للتـعجب والتهويل.

(٢) تفسير أبى السعود (٥/ ١١٧)، روح المعانى (١٤/ ١٥١).

(٣) التحرير والتنوير: (١٤/ ١٦٤).

السيئـات. وسرها البلاغى الدلالة على «إصرارهم» على عمل السيـئات، لا أنها تقع منهم عفوا.

وبعضهم يجعل (مكر) متضمنا لـ (عمل) ولم يصرح بالاستعارة.

* ﴿أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ﴾ الخسف غور الأرض تحت أقدامهم، وإيثار المصدر المؤول على الصريح فى المضارع من الدلالة على الاستقبال الصالح لحدوث الخسف بهم. وأل فى الأرض للعهد، وهى التى يقيم عليها المهددون.

* ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِن حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ فى إسناد الإتيان إلى العـذاب مجاز عقلى كـما تقـدم مرات، وأو فى ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ﴾ من عطف العـام على الخاص، تهويلاً للوعيد، ومبالغة فى التحذير لعلهم يثوبون إلى رشدهم.

والشعور هو أدنى درجات الإحساس والعلم. وقد أُكد نفى علمهم بمفاجأة العذاب لهم بالإسناد إليهم مرتين: مرة من حيث إسناد الفعل المنفى إلى ضميرهم (لايشعرون) ومرة من حـيث إسناد جملة (لايشعـرون) إلى (هم) العائد عليهم لأنـه مبتدأ خـبره الجملة بعده.

* * *

٧ - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل:٤٨].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية من الآيات اللافتـة إلى العظات والعبر الكونية، وكلهـا من دلائل عظمة الله عز وجل، وقد تضـمن هذا اللفت التأمل فى حركة الظـل الناشىء عن الأجسام المادية تبعا لحـركة الشمس السابحة فى الآفاق، أو حـركة الأرض حول الشمس، وأن تلك الظلال تسجـد لله تعظيما وإجلالا كـما يسجد له العـقلاء المخبتـون فى خضوع وتذلل.

وصدرت الآية بهذا الاستفهام: (أولم يروا).

ومن العجـيب أن الأئمة، الذين عُنوا ببـيان المراد من الاستـفهام هنـا حملوه على

الإنكار. وهو استفهام تقرير، ما عدا أبا حيان فقد قال: إن الاستفهام للتوبيخ، ولم يفصح عن هذا هل مردوف على التقرير أو على الإنكار[1].

أما أبو السعود والألوسى وابن عاشور فقد جزموا بأنه للإنكار[2].

والإنكار الذى ذهبوا إليه يأباه المقام ولايساعد عليه، ويأباه التركيب:

أما التركيب فلأن نفى النفى إثبات، والهمزة مقدمة من تأخير على مذهب الجمهور.

وأما المقام فإن الله تعالى أراد أن يلزمهم بهذه الرؤية التى لم يتعظوا بها لا أن ينفيها عنهم؛ لأن فى نفى الرؤية هذه. إعذاراً لهم، ومحاماة عنهم.

ومما يدعو إلى الدهشة أن الطاهر بن عاشور قال بالإنكار ثم فسر الاستفهام تفسير التقرير فقال:

«أى قد رأوا» وهذا نص فى التقرير كما ترى. لأن التقرير هو الإثبات.

والخلاصة: أن هذا الاستفهام للتقرير، ويردف عليه الإلزام بالحجة، والتوبيخ على عدم الإذعان لها.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ تذكير بآيات الله العجيبة فى كل مخلوقاته العلوية والسفلية. وتنكير **(شىء)** لإفادة الاستغراق والشمول.

* **(يتفيؤ ظلاله)** إيثار المضارع للتجدد والحدوث مرات إثر مرات. وهو محط الرؤية والاعتبار، وجمع **(ظلال)** نظرا لتعدد معنى **(شىء)** وإفراد الضمير المضاف إليه «**ظلال**» نظرا للفظ **(شىء)** فهو مفرد فى اللفظ عام فى المعنى.

* ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ كناية عن استغراق جميع الجهات، ولعل فى جمع **(الشمائل)** وإفراد **(اليمين)** ما يصلح أن يكون رمزاً إلى وحدة مصدر الحق، وتعدد مصادر غير الحق، لمحا إلى أصل المعنى فى **(اليمين)** وأصل المعنى فى **(الشمال)**.

---

(١) البحر المحيط: (٥/ ٤٩٥).

(٢) أبو السعود: (٥/ ١١٨) وروح المعانى (١٤/ ١٥٣) التحرير والتنوير (١٤/ ١٦٨).

* ﴿سُجَّداً لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ أسلوب قصر فى الجملة الأولى أى سجداً لله وحده إن كان قصر إفراد. أولا لغيره إن كان قصر قلب وتذييل مقرر لمضمون الكلام فى (وهم داخرون) إجراء لغير العاقل مجرى العاقل لاتصافه بوصفه.

* * *

٨ - ﴿ولَهُ مَافِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ولَهُ الدِّينُ وَاصِباً، أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ [النحل: ٥٢].

الدراسة والتحليل:

بعد أن قال الله ناهيا عباده: ﴿لاَ تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّاىَ فَارْهَبُونِ﴾ عطف عليه قوله ﴿وَلَهُ مَافِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً﴾ - أى خالصا - ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ رتب على وحدانيته وخلقه السموات والأرض وملكيته لمن وما فيهما، واستحقاقه التفرد بالخضوع والعباده، رتب على هذه المحامد الجليلة نهى العباد عن اتقاء غيره، موبخا لهم عليه، حاثا على اتقائه هو وحده؛ لأنه الخالق المصور المنعم القائم على كل نفس بما كسبت.

وهذا الاستفهام ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ أطبق الأئمة، من قبل فى نظائره أنه - أصالة - للإنكار، ويتوسعون أحياناً فيضيفون إليه معانى أخرى تناسب المقام كالتوبيخ والتسفيه، وهما واردان هنا. والذى نراه أن الاستفهام - هنا - للنهى، لا لمجرد النفى أو الإنكار تغليظا على من يتقى غير الله، والله هو الخالق المنعم الذى بيده مقاليد كل شىء. منه المبدأ وإليه المصير.

ومما يؤيد قولنا بالنهى ما ذكره الله تعالى فى هذه الآية، وقبلها وبعدها من آياته فى الكون، وإنعامه على عباده وسعة سلطانه. وجلال شأنه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿وَلَهُ مَافِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أسلوب قصر. أى له لا لغيره ما فى السموات والأرض.

* ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً﴾ جملة قصرية: أى له الدين الخالص لا لغيره.

والأول قصر إفراد. أما الثانى فيحتمل مع الإفراد بنفى الشريك أن يكون قصر قلب إذا كان المخاطب يؤمن بألوهية الأصنام، ويكفر بالله.

* ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ الهمزة مقدمة من تأخير على مذهب الجمهور، والفاء عاطفة، والأصل أن يقال: فأغير الله تتقون.

وغير مقدمة على مذهب الزمخشرى ومن تابعه، ومدخولها محذوف والفاء عاطفة عليه، وقدره أبو السعود فقال: أى عُقيب تقرر الشئون المذكورة من تخصيص جميع الموجودات للسجود له تعالى وكون ذلك كله له، ونهيه عن اتخاذ الأنداد وكون الدين له واصبا المستدعى تخصيص التقوى به سبحانه غير الله الذى شأنه ما ذكر تتقون فتطيعون»[1].

وتقديم (غير) على عامله (تتقون) لأنه محط الإنكار لأن المنكر أن يكون غير الله هو المتَّقى، لا مجرد التقوى كما تقرر من قبل.

* * *

٩ - ﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ، أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ، أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٩].

الدراسة والتحليل:

كان العرب فى الجاهلية يتشاءمون من إنجابهم البنات وتضيق الأرض بما رحبت على من تولد له أنثى، بل كان الرجل إذا رزق أنثى يرى ذلك عاراً وفضحاً ينبغى الاستتار عن الناس منه.

وقد قص القرآن هذا عنهم فقال:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ وبعدها وردت آيتنا:

﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾، وفيها ورد هذا الاستفهام:

---

(١) تفسير أبى السعود (٥/ ١٢٠) وقد أسرف فى تقدير المحذوف.

﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

وهذا الاستفهام من فرائد القرآن، وهو تصوير لحالة نفسية اعترتها الحيرة والتردد بين أمرين متقابلين لايُدرى أيهما يكون.

وأصل الاستفهام أن يكون بين طرفين: مستفهم (اسم فاعل) ومستفهم منه (اسم مفعول) وليس ما فى الآية من هذا القبيل بل هو تصوير لحالة نفسية اعتراها مكروه فتحيرت ماذا تفعل، ولذلك أشار بعض الأئمة (لا كلهم) إلى أن معنى هذا الاستفهام هو التردد، وقد أصابوا فيما قالوا. وهذه هى خلاصة ما يقال فى هذا الاستفهام.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ أوثر المضارع (يتوارى) للدلالة على تكرار الحدث وتجدده بتجدد دواعيه وهو استعارة عن (يتخفى)، لأن ما كان وراءً كان خافيا، وهى استعارة تبعية، سرها المبالغة فى تصوير التخفى.

* وفى بناء الفعل (بُشِّر) لما لم يسم فاعله إيجاز بالحذف لأن الغرض البلاغى لم يتعلق بذكر الفاعل بل بالفعل نفسه.

وفى (بُشِّر) استعارة تهكمية، حسب اعتقادهم شَرِّيَّة إنجاب الإناث. وأل فى (الأنثى) لتعريف الجنس فتفيد العموم.

* ﴿مُسْوَداًّ وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ فى اسوداد الوجه استعارة لما يعلو الوجه عند المكروه من تجهم وانقباض. وأوثر (كظيم) وهو صفة مشبهة على (كاظم) لما فى الصفة المشبهة من التأصل والدوام.

* ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ قُدِّم الإمساك على هون، وهو الشعور بالهوان مع حياة الأنثى؛ لأن الحياة هى الأصل، ولأن عاطفة الأبوة تميل إليها. والعبارة كناية عن إبقاء حياة الأنثى مع عدم الرغبة فيها.

* ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ يدسه كناية عن الدفن حيًّا. وتذكير الضمير مراعاة للفظ (ما) وهذا استفهام صورى وسيأتى له توضيح إن شاء الله.

* ﴿أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ استئناف مسوق لبيان قبح سلوكهم والنعى عليهم بالسفاهة

والحماقة، إذ لو فكروا قليلا لعلموا أنه لولا (الأنثى) لانقرضت الحياة.

* * *

١٠ - ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِى الرِّزْقِ، فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ، أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[النحل: ٧١].

الدراسة والتحليل:

فى هذه الآية يسوق الله مثلا حكيما رائعا فى حجاج عبدة الأصنام يكشف لهم فيه عن بطلان هذه العقيدة بمثل مضروب لهم من واقع حياتهم.

فمن المعروف أن نظام الرق، وهو المعبر عنه بـ(مَامَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ) فى الآية كان فاشيا فى حياة العرب فى الجاهلية وفى صدر الإسلام، وأن سادة العبيد لم يكونوا يشركون عبيدهم وإماءهم معهم فى أموالهم، ولايستشيرونهم فى شىء من شئونهم، ويرونهم عبيداً وإماء لا وزن لهم.

استثمر القرآن هذه الظاهرة فواجه بها من أشركوا الأصنام فى النفع والضر والألوهية مع الله. فقال لهم:

أنتم لاترضون لعبيدكم وإمائكم أن يكونوا شركاء لكم فيما تملكون مع أنكم جميعا من سلالة واحدة؛ أبوكم آدم وأمكم حواء. وتشتركون فى خصائص البشرية، فإذا كنتم لاترضون ذلك لأنفسكم مع ما ملكت أيمانكم، فكيف تشركون أصناما مصنوعة من جماد مع الله فى الألوهية مع عدم التماثل بينها وبين الله. فالله هو الخالق، والأصنام من أعجز مخلوقات الله.

وفى ختام هذه الآية جاء هذا الاستفهام: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾؟

وخلاصة ما يقال فى هذا الاستفهام أنه استفهام إنكار وتوبيخ.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِى الرِّزْقِ﴾ خبر أريد به التمهيد لما بعده، والمراد بالتفضيل تفاوت الأرزاق فى الزيادة. أى زاد بعضكم على بعض فصرتم

طبقـات فيما تملكون، ومنكم من لايمـلك أصلاً كالرقيق أو ملك اليـمين، ثم فرَّع على هذا التمهيد قوله تعالى:

* ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾.

وفى هذا تقرير لحقـيقة واقعـة لاينكرها المخاطبون؛ لأنهم يمارسونهـا فى حياتهم. فليس منهم من يشرك عـبده أو عبـيده معه فى مـاله، يتصرفـون فيه بكل حرية كـما يتصرف هو، ولا يرى لهم من الـفضل ما يراه لنفسه أو لغـيرهم من الأحرار. وهذه كناية لطيـفة عن إبطال عـقيدة الشـرك. أى أن الله يعلو سلطانه فـوق كل شىء فلا يشبـهه أحد من خلقه، كـما تعلون أنتم بالحرية على أرقـائكم ومملوكيكم. وفى هذا إلزام لهم بالتسليم ببطلان عقيدة الشرك.

فهذا الأسلوب الخبرى مسوق لإلزامـهم ببطلان اعتقادهم بطريق الكناية التى اقترن فيها الدليل بالدعوى.

* ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ التفـات من الخطاب إلى الغيبة، وسـره الإعراض عنهم بعد إلزامهم بالحجة.

* * *

١١ - ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُـمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢].

الدراسة والتحليل:

فى هذه الآية يمتن الله على عـباده جمـيعا بنعـمه الجليلة، بادئًا بنعـمة (الأزواج) ونعمة (الإنجاب) ثم الرزق من الطيبات، ثم يوبخ من يؤمن منهم بالباطل ويكفر بنعم الله.

والاستـفهام فى قـوله تعالى: ﴿أَفَبِـالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِـعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَـكْفُرُونَ﴾ للإنكار والتوبيخ، وهذه خلاصة ما يقال فيه

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾ العطف على ما تقدم ومجيء الخبر جملة فعلية لتوكيد نسبة الجعل إلى الله مرتين، أولاهما إسناد الفعل **(جعل)** إلى الضمير العائد عليه، والثانية إسناد الجملة إلى اسم الجلالة **(الله)** لأنها خبر عنه. وتنكير أزواجاً للتكثير.

* ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ أخرت هذه الجملة عما قبلها لأنها مسبب والأولى سبب، ورتبة المسبب التقديم على السبب، كما قدم **(بنين)** على **(حفدة)** لنفس العلة فى تقديم **(أزواج)** على **(بنين وحفدة)** لأن الأبناء سبب فى الحفدة. وتنكير (بنين) و**(حفدة)** للتكثير. وكذلك بناؤهما على (فعيل وفعله) لا أفعال كأبناء وأحفاد. والكثرة - هنا - مراعى فيها عموم المخاطبين.

* ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة بعد الإعراض عنهم لإيمانهم بالباطل، وكفرهم بالحق، والإنكار موجه إلى قبح الإيمان بالباطل وقبح الكفر بالحق. أى مجموع الأمرين.

* * *

١٢ - ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً، هَلْ يَسْتَوُونَ، الْحَمْدُ لِلَّهِ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥].

الدراسة والتحليل:

وهذا مثل مضروب لعجز الأصنام التى اتخذها المشركون آلهة من دون الله، ولما كانت الأصنام فى غاية العقم والعجز وقد ساووها - جهلا - بالله القدير على كل شىء، عمد النظم القرآنى إلى هذا التمثيل بين حالين مختلفتين:

حال عبد مملوك عاجز عن كل شىء. وحال رجل حر منَّ الله عليه بمال كثير حلال طيب، ينفق منه ليلاً ونهاراً، فهل يرقى ذلك العبد المملوك الشبيه بالعدم إلى درجة ذلك الحر الغنى السخى؟

ضرب الله هذا المثل الحكيم البليغ بعد قوله عن المشركين:
﴿ويَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مالاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِّن السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئاً وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ﴾.

فجاء هذا المثل فى أعقاب بيان ضلالهم ليكشف لهم عن خطئهم من خلال الموازنة بين حالى العبد المملوك العاجز، والحر الغنى السخى، ولما كانت المماثلة بين هاتين الحالين مستحيلة فكذلك ادعاء المماثلة، بين الأصنام والله مستحيلة فى حكم العقل.

والاستفهام فى قوله تعالى: (**هل يستوون**) للإنكار الشديد والتسفيه والتقريع. وقد تقدمت أمثلة من هذا النوع من الاستفهام الذى يراد به نفى المماثلة بين طرفين بينهما كل التباين. وهذه خلاصة ما قيل فى هذا الاستفهام بلا أدنى نزاع.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّيَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ المقام يقتضى أن يقال: (يضرب الله مثلا) بالمضارع، لأن هذا المقام مقام إنشاء لهذا المثل. لا مقام إخبار ووضع الماضى موضع المضارع له دواع بلاغية، منها التحقق. وليس هذا المعنى بممتنع هنا. وهذا ما يسمى عند الفقهاء بمجاز المشارفة - أى مجاز (القرب) وضابطه التعبير بالماضى فى موضع المضارع إذا قرب وقت التلبُّس بالفعل. ومن أمثلته عند الفقهاء: (قد قامت الصلاة) وهى ما قامت حين يقال هذا القول بل ستقوم بعد الفراغ مباشرة.

ومنها قولهم (حضرته الوفاة) لمن كان يعانى سكرات الموت. وهو لم تتم وفاته حين يقال هذا القول.

وكذلك (**ضرب**) فى الآية، فقد نُزِّل الشروعُ فى ذكر المثل منزلة الفراغ من ذكره.

وقد تقدم أن: ضَرْبَ المثل هو اعتماده وذكره. والتعبير عن ذكره بالضرب للإعلان بقوة تأثيره فى النفوس كتأثير الضرب فى المضروب.

ووصف (**عبدا**) بـ (**مملوكا**) احتراس بليغ، لأن العبد فى العرف اللغوى العام يطلق على كل الناس. لذلك أوثر وصف (عبداً) بـ (**مملوكا**) لبيان أن هذا العبد رقيق مملوك

لغيره، لأن المملوك لايملك من أمر نفسه شيئاً وكذلك وصفه بـ ﴿لاَيَقْدِرُ عَلَى شَىءٍ﴾ تمثيلا له بكل صفات النقص والعقم المناسب لبيان حال الأصنام.

* ﴿وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْراً﴾ ما تقدم كان تمثيلا للأصنام فى شدة عجزها وعقمها وحقارتها، وهذا المثل مضروب لله - سبحانه وتعالى - فى كماله وجلاله وجماله.

قوبل فيه العبد المملوك بالغنى الحر الذى ينفق ويتصرف فى ماله من غير سلطان لأحد عليه.

و(سِرًّا وَجَهْراً) مع ما فيهما من طباق إيجابى واقع موقعه من البلاغة. فهما كناية عن تجدد الإنفاق فى كل وقت تدعو فيه الحاجة إلى الإنفاق ليلا: سرا، ونهاراً: جهراً- وهذا هو الأصل. وإلا فالسر قد يكون نهاراً والجهر قد يكون ليلاً.

* ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ الجمع - هنا - بعد الإفراد فى طرفى التمثيل مراعى فيه - والله أعلم - معنى كل من الطرفين، لا لفظه. فالعبد المملوك نوع تحته أفراد، ومن رزقه الله رزقا حسنا. . نوع تحته أفراد.

* ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ جملة اعتراضية بين نفى المماثلة المذكورة والتنبيه على جهل أكثرية المشركين. وفى هذا الاعتراض تذكير للناس باستحقاق الله وحده للحمد لأنه الخالق المنعم، وتعريض بالمشركين الذين يعبدون غير الله ويكفرون بالله ونعمائه.

* ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَيَعْلَمُونَ﴾ الضمير عائد على المشركين المذكورين فى ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَالاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِّن السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئاً. .﴾ و(بل) للانتقال من إبطال عقيدتهم إلى ذمهم إما بالجهل الذى هو صفة أكثرهم، وإما بالعناد الذى يبديه من يعلم منهم، وهم القليل؛ فلا خير فى عالمهم ولا فى جاهلهم لإطباق جميعهم على الإشراك.

* * *

١٣ - ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَيَقْدرُ عَلَى شىء وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ، هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦].

الدراسة والتحليل :

وهذا مثل آخر ضربه الله لنفى التماثل بين المتفاوتين. وطرفاه هما الرجلان المذكوران فى قوله تعالى: (رجلين) ثم فرَّق بينهما:

فأحدهما عبد مملوك، دل على ذلك قوله: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ﴾ والمملوكية نقص تفقد من قامت به أهلية التصرف.

ثم هو أبكم لا يتكلم ولا يفهم. وعديم الجدوى لا يحسن عمل شىء قط وهو عبءٌ على مولاه (مالكه أو ولى أمره إن كان حرا).

وإذا تأملنا هذه الصفات وجدناها تسلب عمن قامت به كل مقومات الحياة، وتحيله إلى كتلة، مادية صماء. وهذا هو حال الأصنام التى يتخذها المشركون آلهة.

أما ثانى الرجلين فهو الذى متعه الله بأصول النعم وثمارها: فهو طليق اللسان يأمر بالعدل بين الناس، ويستمد هذا الأمر من علم صحيح. عمله هو الإصلاح بين الناس والدعوة إلى الحق والهدى والنور. فهو ملائكى الطباع.

وهذا مثل مضروب لكمال الله عز وجل بإزاء حقارة الأصنام وعجزها الكامل.

فإذا قيل بعد هذا إن الرجلين غير متماثلين سارع العقل إلى اعتماد هذه (النتيجة) التى نطقت بها المقدمتان البدهيتان الصادقتان كل الصدق. وقامت الحجة على المشركين كالصخرة الضخمة التى تهوى فوق الرءوس فتدكها.

أسرار النظم وبلاغياته :

* ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً﴾ أسند ضرب المثل إلى اسم الجلالة فى هذه الآية والتى قبلها لتفخيم هذين المثلين المضروبين، وهذا التفخيم ملحوظ فى بنائهما اللغوى، وفى معناهما، وفى إقامة الحجة وبطلان عقيدة الشرك لهما، والإشارة إلى أنها قضية من قضايا العقل يسارع هو فيها بتبطيل الباطل وتحقيق الحق.

* ﴿رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ. . .﴾ هذا من الفن البديعى المسمى بـ (الجمع والتفريق).

فقد جمع بينهما فى صفة (الرجولة) ثم عاد ففرق بينهما بالأوصاف التى تختص بكل منهما.

موازنة بين المثلين :

المثل الأول: سيق لتفاوت الأفعال بين الطرفين المترتب على تفاوت الأحوال. فالرقية تقابلها الحرية، وشلل اليد يقابله الإنفاق فى المثل الأول.

والمثل الثانى: مضروب لتفاوت الأقوال. فالخرس فى الرجل الأول يقابله طلاقة اللسان فى الرجل الثانى. وما يترتب على الخرس من عقم فى الرجل الأول يقابله الأمر بالعدل فى الرجل الثانى.

والجهل فى الرجل الأول يقابله السير على الصراط المستقيم فى الرجل الثانى.

وأوثرت (هل) فى هذا المثل كما أوثرت فى المثل الأول لتحقق نفى المماثلة بين الطرفين.

* * *

١٤ - ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِى جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللهُ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩].

الدراسة والتحليل :

هذه الآية مسوقة للفت نظر الناس إلى آية من آيات الله فى غير أنفسهم، بعد أن وقَّفهم على آيات فى أنفسهم فى قوله تعالى قبل هذه الآية: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وقد ورد فى آيتنا هذه هذا الاستفهام :

* ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِى جَوِّ السَّمَاءِ. .﴾.

وقد أغفل الأئمة الحديث عن بيان المراد من هذا الاستفهام إلا اثنين هما أبو السعود وابن عاشور، وصرحا أنه للإنكار، وتطوع ابن عاشور فقال لإنكار عدم الرؤية.

وأشار أبو حيان إلى إرادة التعجيب[1].

ونعود فنقول - كما قلنا من قبل - إن هذا سهو وقع فيه كل من أبى السعود وابن عاشور؛ لأن الاستفهام هنا للتقرير أصالة ويضاف إليه التوقيف على آثار قدرة الله والتعجيب منها، وقد مرَّ قريبا الرد على مثل هذا السهو، وقلنا إن المقام والتركيب اللغوى يأبيان ما ذهب إليه الإمامان. فالله تعالى يقرر المخاطبين بهذه الرؤية (البصرية) ولا ينكر عليهم انتفاءها كما قالا. وهذه خلاصة ما يمكن قوله هنا.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿أَلَمْ يَرَوْا..﴾ فصلت هذه الجملة عما قبلها لأن بين الجملتين كمال الانقطاع. فالأولى ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تعْلَمُونَ شَيْئًا...﴾ خبرية لفظا ومعنى. وهذه (**ألم يروا**) انشائية لفظا ومعنى.

* ﴿إِلَى الطَّيْرِ﴾ الرؤية تعدى بنفسها. وعديت - هنا - وفى مواضع كثيرة من النظم الحكيم بـ (إلى) لزيادة التقرير والتوكيد.

* ﴿مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ...﴾ هذا هو محط التقرير والتوقيف والتعجيب. والجو الفضاء المتصل بالأرض، وفى إسناد الإمساك إلى (الله) لأنه زودها بآلات الطيران والقبض والبسط والارتفاع والهبوط والنزول، والجملة قصرية: أى ما يمسكهن ماسك إلا الله عز وجل، وهى قصر صفة الإمساك على موصوف (الله) قصرًا حقيقيًا.

* ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أكد الخبر بـ (إن) واللام، واسمية الجملة؛ لأن مضمونه من الحقائق العظيمة التى حقها أن يعبر عنها بأسلوب عظيم مثلها. والتعبير باسم الإشارة (ذلك) لتفخيم المعنى، وتنكير (**آيات**) للتعظيم.

وفى تقديم الخبر (**إن فى ذلك**) على المبتدأ (**الآيات**) قصر إضافى. ولتناسق رءوس الآيات بتأخير (يؤمنون) مع تضمن الخبر الحث على الاعتبار بهذه الآيات.

* * *

---

(١) تفسير أبى السعود: (٥/ ١٣٢) والتحرير والتنوير (١٤/ ٢٣٥) والبحر المحيط (٥/ ٥٢٣).

سورة الإسراء

١ - ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا، إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠].

الدراسة والتحليل :

أساليب الاستفهام فى سورة الإسراء عزيزة، وبعض أدواته لم يُرد منها استفهام مثل (كم) كما فى الآية (١٧) ومثل (كيف) كما فى الآية (٤٨)، وأول استفهام فيها ورد فى الآية رقم (٤٠) التى أثبتناها فى أعلى الصفحة هنا، وهى واحدة من آيات الاحتجاج مع المشركين، الذين جعلوا لأنفسهم «البنين» وجعلوا لله - سبحانه - الإناث وسموا الملائكة إناثا بغير علم.

شنَّع الله عليهم فى هذه الآية، وكذَّب دعواهم أن الله اختار لهم البنين، ورضى هو بالإناث.

لذلك صدرت الآية بهذا الاستفهام: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ. . .﴾؟

وهو استفهام تكذيب وإنكار.

أسرار النظم وبلاغياته :

* ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا﴾ الإنكار والتكذيب موجهان إلى مجموع الأمرين:

* دعواهم أن الله خصهم بالبنين.

* دعواهم أن الله خص نفسه بالإناث.

وقدّم نفى اختصاصهم بالبنين على نفى دعوى اختصاصه بالإناث لأنه المهم عندهم. فبدأ النظم الحكيم بتجريدهم مما ادعوه، ونفى هذه الدعوى يقتضى نفى الدعوى الثانية؛ لأن المقام مقام تكذيب وإنكار. وعلى هذا يكون نفى الدعوى الثانية ملحوظا مرتين:

مرة من تكذيبهم فيما ادعوه لأنفسهم، ومرة فى عطف الثانية على الأولى. وأل فى (البنين) وفى (**الملائكة**) لتعريف الجنس، ومن جهل المشركين أنهم كانوا يسمون الملائكة بنات الله.

وقد تصدى القرآن لهذه الفرية فى مواضع أخرى، كما فى قوله تعالى: (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى* تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى) [النجم ٢١ ، ٢٢] وقوله تعالى: (فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ* أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ) [الصافات ١٤٩، ١٥٠].

* ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا﴾ تذييل مقرر لتأكيد الإنكار فى صدر الآية. وتوكيد الخبر لثبوت هذا الجرم عليهم بأوكد الطرق.

وإيثار المضارع للإعلام بتكرار هذا القول عنهم، وفى تسميته قولاً إشارة إلى أنه مجرد ألفاظ لا مضمون لها فى الواقع. والمراد به الكذب الفاحش والبهتان المبين ووصفه بـ(**عظيما**) للمبالغة فى تصوير شناعته وقبحه بقرينة إنكاره وتكذيبه.

* * *

٢ - ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾؟

[الإسراء: ٤٩].

الدراسة والتحليل:

ما يزال الحديث متصلا عن المشركين ومنكرى البعث. وهذه الآية تسجيل لإحدى مقولاتهم، وقد سبقت الإشارة إليها فى سورة الرعد فى الآية رقم (٥) وآيتنا هذه حكت عنهم قولهم هذا:

﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾؟ وهو استفهام للإنكار والاستبعاد فى أقوى صورهما اللفظية. إنهم ينكرون ويستبعدون البعث بعد الموت، وصيرورة الأجساد عظاما ورفاتا (فتات) لما بين هذه الحالة التى وصفوها وبين الحياة من تنافٍ.

وقد تكرر الاستفهام لفظا مرتين: * ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا. . ﴾؟
* ﴿أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾؟ ولكن المراد واحد لأن تكرار الهمزة فى **(أإنا)** بعد قولهم: **(أئذا)** لتأكيد الأول.

وكان الأصل أن يقال: أئذا كنا عظاما ورفاتا نبعث أحياء من جديد؟ ولكنهم لم يكتفوا بالاستفهام الأول فأكدوه مرة أخرى بالثانى.

وقد لحظنا فى الاستفهام الثانى لطيفة بلاغية لم يتنبه إليها أحد ممن نستتبع آراءهم فى هذه الدراسة، وهى لماذا أصر منكرو البعث على ذكر (ان) فى الاستفهام الثانى؟

ودخول (إن) هذه تنافى مقصودهم الذى هو الإنكار، فكان الأولى بهم، وهم أرباب البيان، أن لا يذكروها. فما السر فى ذكرها إذاً؟

من قبل عند نظير هذه الآية من سورة الرعد بدت لنا هذه اللطيفة. وأجبنا على هذا السؤال، ونعيد الإجابة هنا لأهمية هذه الملاحظة.

والإجابة فى إيجاز: أن الدعاة -وفى مقدمتهم محمد ﷺ حين أخبروا بالبعث بعد الموت أخبروا به مؤكداً ولم يخبروا به مرسلاً.

فمثلاً ورد فى سورة (الحج: الآية ٧): (أَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن فِى الْقُبُورِ) وفى سورة [التغابن : ٧]: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا، قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾.

فلما كان التبليغ بالبعث مؤكدا أنكروه مؤكداً فأدخلوا (إن) على المبتدأ لتوكيد جملة الخبر. ولو كانوا قد أنكروه غير مؤكد لكان ذلك قصوراً منهم فى حق أنفسهم حسب زعمهم.

وهذا أولى وأقرب إلى طبيعة البيان من محاولات أوردها أبو السعود فى تحليل هذا الاستفهام جملة[1].

والخلاصة: أن هذا الاستفهام بصورته أطبق الأئمة على أنه استفهام إنكار واستبعاد للإحياء بعد الإماته مع مبالغتهم - لفظا - فى شدة الإنكار.

---

(١) انظر تفسيره: (٥/ ١٧٧).

أسرار النظم وبلاغياته:

* (وَقَالُوا) عطفت هذه الجملة على ما حكاه الله عنهم قبل هذه الآية مباشرة (انُظرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ ٱلأَمْثَالَ فَضَلُّوا) أى ضربوا، وقالوا:

* (أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا) أى أوقت نكون عظاما ورفاتا، وهذه كناية عن (البلى) وتقديم العظام على الرفات لأن صيرورة الموتى **(عظاما)** أسبق من صيرورتهم (رفاتا) وتنكير **(عظاما ورفاتا)** للتحقير وشدة الفناء.

* (أ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا) آثروا اسم المفعول **(لمبعوثون)** لئلا يصرحوا بالفاعل **(الله)** لو عبروا بالفعل، لإن أنفسهم لا تساعدهم على ذكر اسم الله -هنا- صريحا.

* * *

٣ - ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً* أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا، قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ، قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾؟ [الإسراء: ٥١].

الدراسة والتحليل:

أثبتنا الآية رقم (٥٠) وهى لا استفهام فيها، لأن لها صلة بالاستفهام الذى قبلها **(وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقا جديداً)** وصلة بالاستفهام الذى بعدها فى آيتنا هذه.

وصلتها بما قبلها لأنها جزء من الجواب على الاستفهام السابق عليها، وصلتها بما بعدها أنه معطوف عليها.

بدأ الرد على ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ بقوله عز وجل:

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً* أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ يعنى: أنتم تستبعدون البعث بعد الموت، وحجتكم أن الحياة إذا زالت من (الحى) ومات، وبلى جسده ولم يبق منه إلا العظام والرفات المتفتت محال عندكم عودة الحياة إليه لمغايرة حاله بعد الموت لحاله قبل الموت. هذه هى حجتكم.

ونحن نقول لكم فاتكم شيء مهم هُولنا عليكم وليس لكم علينا، فأنتم اعترفتم أن لكم عظاما بالية، ورفاتا متفتتة من آثار الحياة الماضية. يعنى أن لكم صلة ما بحياة قد مضت. وهذا ييسر علينا إعادة الحياة إليكم. فإنكاركم للبعث بعد الموت غير تام، وحجتكم ناقصة، يقدح فيها -كما قلنا لكم- وجود العظام والرفات التى اعترفتم بها. وهى من آثار الحياة الماضية ونحن نقول لكم: مسألة العظام والرفات هذه، والتى بيَّنا لكم أنها قادحة فى سلامة استدلالكم على إنكار البعث. هذه المسألة مع أنها لنا عليكم، فنحن متنازلون عن التمسك بها ضدكم. بل مستغنون عن حياتكم التى تسبق موتكم، نحن مستغنون عنها، وكأنكم -عندنا- لم تكونوا أحياء فى يوم ما من الأيام، ولذلك نقول لكم:

كونوا حجارة، أو كونوا حديداً، أو كونوا أى مخلوق آخر لا صلة له بحياة ما، أى حياة، أو كونوا حتى عدما محضا أو كونوا أى شيء يُبعد عندكم بعث حياة فيه، وسنريكم أننا قادرون على بعث الحياة فيه.

إلى هذا الحد يستدرج النظم الحكيم منكرى البعث، فيطوى الأرض من تحت أقدامهم، ليلزمهم بالحجة القاطعة كالصاعقة تهوى فوق رءوسهم من جو السماء.

ثم يوجه إليهم سهما قاتلا وهم يجادلون الداعى بعد تسليمهم لا محالة بخطوات الاستدراج الذى شرحناه. فهم يقولون للداعى: سلمنا بما تقول. واخترنا أن نكون حجارة أو حديداً، أو مخلوقا آخر لا صلة له بحياة سابقة. فيا ترى من سيعيدنا إلى الحياة؟ ويهوى عليهم الجواب كالجبل الضخم:

﴿الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فتسد عليهم الطرق، ولا يسعهم إلا التسليم قسرا وإلجاء، لا اختياراً، ولكنهم ما تزال لديهم طلقة أخرى «طائشة» يقذفون بها فى كبرياء المهزوم وفى هزيمة المتكبر: متى هو؟

ولكن سؤالهم هذا لن يكون جوابه محدداً بكل وضوح، لأنه مما استأثر الله

بعلمه، ولن يكشف عنه لأحد ما، لذلك كـان الجواب الذى أذن الله فيه: ﴿قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾.

والواقع أن هذه الردود التى وردت فى آيتى سورة الإسـراء هذه، وهى ردود قاطعة عقلا ونقلا لشبهات منكرى البعث، هذه الردود حاصرت شبهات منكرى البعث حينما وردت وكيفمـا وردت فى أقوالهم التى حكاها عنهم القرآن فى سور متـفرقة. هنا فى الإسراء، وفى غيـر الإسراء. وهى ردود أعدمت شبهات المنكرين إعـداما لا بعث لها بعده. فسبحان الذى أحاط بكل شىء علما.

وقد ورد فى هذه الآية استفهامان: * ﴿مَن يُعِيدُنَا﴾؟ * ﴿مَتَى هُوَ﴾؟

الإمام الزمـخشرى لم يبين المراد من الاسـتفهـام فى الآية. ولكنه شرحهـا بمثل ما شرحناها به فقال:

«..كـأنه قيل: كـونوا حـجـارة أو حديداً، ولا تكونـوا عظاما فـإنه يقـدر على إحيائكم. والمعنى: أنكم تستبعدون أن يجدد الله خلقكم ويرده إلى حال الحياة، وإلى رطوبة الحى وغضاضته بعدما كنتم عظاما يابسة، مع أن العظام بعض أجزاء الحى، بل هى عمود خلقـه الذى يبنى عليه سائره، فليس ببدع أن يردها الله بقـدرته إلى حالها الأولى، ولكن لو كنتم أبعـد شىء من الحياة ورطوبة الحى، ومن جـنس ما ركب منه البشر، وهو أن تكونوا حجارة أو حديداً مع أن طباعها الجساوة والصلابة، لكان قادراً على أن يردكم إلى حال الحياة»(1).

هذا ما قاله الإمام الزمخشرى رحمه الله، وهو خال -كما ترى- من النص صراحة على المراد من الاستفهام.

أما الإمام أبو السعود فقد أومأ إلى المراد من الاستفهام على النحو الآتى:

﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ مع ما بيـننا وبين الإعادة من مـثل هذه المباعدة والمـباينة **(قل)** لهم تحقيقـا للحق وإزاحة للاستبعاد، وإرشـاداً لهم إلى طريق الاستدلال **(الَّذِى)**

---

(1) الكشاف: (٢/ ٤٥٢).

أى يعيدكم القادر العظيم الذى (**فطركم**) أى: أخترعكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ من غير مثال يحتذيه ولا أسلوب ينتحيه، وكنتم ترابا ما شم رائحة الحياة، أليس الذى يقدر على ذلك بقادر على أن يعيد العظام البالية إلى حالتها المعهودة، بل إنه على كل شىء قدير: ﴿**فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ**﴾ أى سيحركونها تعجبا وإنكاراً (**ويقولون**) استهزاء (**متى هو**) أى ما ذكرته من الإعادة (**قل**) أى لهم: ﴿**عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا**﴾[1].

ظاهر من كلامه هذا أن الاستفهام الأول للإنكار والاستبعاد، وأن الثانى للإنكار والتعجب.

ونحا الإمام الألوسى منحى أبى السعود واختصر كلامه[2].

أما الإمام ابن عاشور فإن الاستفهام عنده بصورتيه للتهكم[3].

والخلاصة: أن الاستفهام الأول للإنكار والاستبعاد أو الاستحالة، ولا يفهم منه معنى التهكم الذى جزم به الطاهر، أما الاستفهام الثانى فهو للسخرية مع إضمار الإنكار وعدم الإقرار به.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (**قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا**)؟ ظاهر أن الأمر وارد فى مقام الجدل وإفحام الخصم، لذلك فإننا نميل إلى أن معناه: الفرض والتقدير -كما ذهب بعض الأئمة، ومنهم ابن عطية، أى أفرضوا وقدروا أنكم كنتم حجارة أو حديداً فإن الله قادر على بعثكم مرة أخرى.

* (**الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**) عُدِل عن اسم الجلالة (**الله**) إلى هذا الموصوف وصفته لما يتضمنه من الإلزام بالحجة بالدليل البرهانى الذى يسلم به العقل؛ لأن من أوجد شيئاً من العدم قادر -عقلاً- على إعادته إذا انهدم.

و(**أول مرة**) كناية عن الحياة الحاضرة فى هذه الدنيا.

* ﴿**فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ**﴾ كناية عن التكبر والاستهزاء، وإنغاض الرأس تحريكه

---

(١) تفسير أبى السعود: (٥/١٧٦).
(٢) روح المعانى: (١٥/٩٢).
(٣) التحرير والتنوير: (١٤/١٢٨).

علوا وسفلا. وقد صوَّر هذا الفعل حالهم أبرع تصوير، ولولا ذكره لاحتمل استفهامهم: (متى هو) أن يكون حقيقيا بريئا.

* ﴿قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ صُدِّر هذا الرد بفعل الأمر «قل» لما مر مراراً من أنه للإيذان بعظمة المقول وأهميته والاعتناء به ومواجهة الخصم وسرعة تبليغه.

وذُكِّر الضمير فيه (هو) ولم يؤنث ليطابق الإعادة لأن المراد منها البعث. فعاد عليه الضمير مذكرا.

وفى العبارة من إيجاز الحذف: حذف متعلق (قل) أى لهم. وموصوف (قريبا) أى عسى أن يكون وقوعه وقوعا قريبا.

* * *

٤ - ﴿وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً* قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لإِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٦١-٦٢].

الدراسة والتحليل:

الأمر بالسجود لغير الله غير مألوف فى التكاليف الإلهية، فإذا كان الآمر به هو الله كان السجود له لا للمأمور به من أجله، فالذى نهى عن السجود لغير الله هو الله عز وجل ﴿وَمِن آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ، وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

فإذا أمر الله بالسجود لغيره عاد السجود له لا لذلك الغير، لأن المعول عليه هو الطاعة لا الفعل نفسه.

وعلى هذا أمر الله الملائكة أن تسجد لآدم فأطاعت وسارعت بامتثال الأمر؛ لأنها أدركت أن المراد هو طاعة الأمر مهما كان متعلقه، وامتنع إبليس لجهل مركب فيه، حيث فهم أن السجود لآدم حقيقة، والمسجود له يكون أعظم من الساجد، وهو يرى نفسه أعظم وأفضل من آدم لأنه مخلوق من نار، وآدم مخلوق من طين، فعلم

الملائكة بمعنى الأمر أسرع بهم إلى الطاعة والامتثال، وجهل إبليس بمعنى الأمر حمله على المعصية، فأورده المهالك. وقد عبَّر إبليس عن جهله هذا، أو عبَّر عنه جهله هذا بهذا الاستفهام:

* ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾؟
* ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ؟﴾

والاستفهام الأول للإنكار والاستبعاد، وليس فى هذا خلاف بين أهل العلم.

أما الاستفهام الثانى ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ فقد مضى تلخيص مهم فى توجيه هذا الضرب من الاستفهام ونقل - هنا - فى عجالة رأى الأئمة فيه:

فالزمخشرى يقول: (**أرأيتك**) الكاف للخطاب و(هذا) مفعول به، والمعنى: أخبرنى عن هذا الذى كرمت علىَّ، أى: فضلته لم كرمته علىَّ وأنا خير منه»[1].

ويقول أبو السعود: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾: الكاف لتأكيد الخطاب لا محل لها من الإعراب... أى أخبرنى عن هذا الذى كرمته علىَّ بأن أمرتنى بالسجود له لم كرمته علىَّ... وقيل: هذا مبتدأ حذف عنه حرف الاستفهام والموصول مع صلته خبره ومقصوده الاستصغار والاستحقار أى: أهذا مَن كرمته علىَّ.

وقيل: معنى أرأيتك أتأملت؟ كأن المتكلم ينبه المخاطب عن استحضار ما يخاطبه به[2].

أورد الإمام أبو السعود ثلاثة آراء فى المراد من الاستفهام هنا، بينما اقتصر الزمخشرى على واحد، هو ما ذكره أبو السعود أولاً.

وساق الإمام الآلوسى كلاما جمع فيه خلاصة ما فى الموضوع لغة وبلاغة. ونستأذن القراء الكرام، وبخاصة أهل العلم، فى ذكره بطوله لنفاسته، قال بعد أن ذكر موضع الشاهد من الآية: «الكاف حرف خطاب مؤكد لمعنى التاء قبله، وهو من التأكيد اللغوى فلا محل له من الإعراب، ورأى علمية فتتعدى إلى مفعولين، وهذا

---

(١) الكشاف (٢/ ٤٥٦) وكلامه هذا قابل للمناقشة كما سيأتى فى الخلاصة.

(٢) تفسير أبى السعود (٥/ ١٨٣).

مفعولهـا الأول، والموصول صفة والمفعول الثانى مـحذوف لدلالة الصلة عليه، وهذا الإنشاء مجاز عن إنشاء آخر، ومن هنا تسمعهم يقولون: المعنى أخبرنى عن هذا الذى كرمته علىَّ لم كرمته علىَّ. والعلاقة بين العلم والإخبار من السببية والمسببية واللازمية والملزومية، وجملة: لم كرمته واقعة على ما نص أبو حيان عليه موقع المفعول الثانى.

وذهب بعض النـحـاة إلى أن (رأى) بصرية فـتتعدى إلى مـفعول واحد واخـتاره الرضى، ويجعلون الجملة الاستفهامية مـستأنفة، وقال الفراء: الكاف ضمير فى محل نصب، أى: أرأيت نفسك. . . و﴿هَذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ مبتدأ وخبر، وقد حذف منه الاستفهام أى: أهذا. . .

وقال ابن عطية: الكاف حرف خطاب - كـما قيل - لكن معنى أرأيتك: أتأملت، كأن المتكلم ينبه المخاطب إلى استحضار ما يخاطبه به عقيبه. وكونه بمعنى أخبرنى قول سيبويه والزجاج وتبعهما الحوفى، والزمخشرى وغيرهما.

. . وأنت تعلم أن المقرر فى (أرأيت) بمعنـى أخبرنى أن تدخل على جملة ابتـدائية يكون الخبر فيها استفهاما مذكوراً أو مقدراً، فمجرد عدم وجوده لايأبى ذلك[1]. وأيا ما كان فاسم الإشارة للتحقير والمراد من التكريم: التفضيل[2]».

جمع الألوسى فـأوعى فى كلامه الذى نقلناه مع حذف اليـسير من الفضـول فيه. وقد أربى على ما ذكـره أبو السعود، وإن اتفق معه فى أمهـات المسائل. وعزا ما رواه أبوالسعود بصـيغة التمريض (قـيل) إلى الإمام بن عطية، وهو أن المراد من: **(أرأيت)** سواء اقـترن به الكاف أو خـلا هو منه - هو استحـضار صورة المخـاطَب به فى ذهن المخاطَب.

وهذا ما كنا قـد رجحناه فى تلخيـصنا السابق فى توظيف هذه الصيـغة **(أرأيت - أرأيتك - أرأيتكم)** وكنا قد أبدينا تحفظا على رأى الجمهور أن المراد من هذه الصياغات هو أخـبرنى؛ لأنه غـير مطرد فى بعض المواضع، أمـا ما قـاله ابن عطية، وكنـا قد اعتمدناه قـبل الاطلاع عليه عنده - فهو مطرد، وقد أثلج صدرنا أن سـبقنا ابن عطية

---

(١) أى عدم وجود الاستفهام فى اللفظ لايمنع من تقديره.

(٢) روح المعانى (١٥/١٠٩).

بهذا الرأى، وحمدنا الله كثيراً عـلى هذا التوفيق، وأننا لم نكن بدعا من الباحثين فى هذا الرأى.

واقتصر الإمام فخر الدين الرازى على بعض ما ذكره الإمام الألوسى.

وهو مثل الجـمهور يرى أن (**أرأيتك**) بمعنى أخبرنى وعـزاه إلى الزجاج، ولم يعزه إلى سيبويه كما عزاه إليه غيره، وسيبويه هو أول من ذهب هذا المذهب.

ثم مزج بين قولين تقدم ذكرهما عند أبى السعود والألوسى فقال:

«يمكن أن يقال: هذا مبتـدأ - يعنى فى قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا. . .﴾ محذوف منه حرف الاستفهام، والذى مع صلته خبر، تقديره: أخبرنى أهذا الذى كرمته علىّ؟ وذلك على وجه الاستصغار والاستحقار»[1].

أما الإمام الطاهر فيقول:

«و(**أرأيتك**) تركيب يفتتح به الكلام الذى يراد تحقيـقه والاهتمام به، ومعناه أخبرنى عما رأيت، وهو مـركب من همزة الاستفهـام، ورأى التى بمعنى علم، وتاء المخاطب المفـرد المرفوع، ثم يزاد على ضـميـر الخطاب كـاف خطاب تشبـه ضمـير المخـاطب المنصوب بحـسب المخاطب واحـداً أو متعـدداً. يقال: (**أرأيتك، وأرأيـتكم ...**) وهذه الكاف عند البصريين تأكيد لمعنى الخطاب الذى تفيده تاء الخطاب التى فى محل رفع. وهو يشبه التوكيد اللفظى.

وقال الفراء: الكاف ضمير فى محل نصب: أى أرأيت نفسك[2].

والخلاصة: أن استعـمال (**أرأيت - أرأيـتك - أرأيـتكـم**) وكلهـا واردة فى القـرآن الحكيم، وأرأيتكما، وأرأيتك للمفـرد المؤنث وأرأيتكن، لجمع الإناث. هذه الصيغ - جميعا - عند الجمهور مستعملة بمعـنى أخبرنى مجازاً. أعنى أن صيغة الاستفهام هذه مستعملة مجازا فى معنى الأمر. وهذا ما أشار إليه الألوسى من قبل بقوله:

«وهذا الإنشاء مجاز عن إنشاء آخر».

---

(١) التفسير الكبير (٢١/٣).

(٢) التحرير والتنوير: (١٤/ ١٥٠) وفى آخر كلام الطاهر اضطراب أصلحناه بما ورد فى روح المعانى نقلا عن الفراء ولم نذكر كلام الطاهر، وهو: «والتركيب أرأيت نفسك».

ومنشأ هذا المذهب هم النحاة كما تقدم. ولهذا قدَّر الإمام الزمخشرى محذوفا يتم به الكلام هو: لِمَ كرمته علىَّ، وهو فهم لا دليل عليه؛ لأن المعنى تام بدونه. كما تقدم عن ابن عطية من أن المراد هو استحضار صورة المستفهم عنه فى الذهن. وكنا قد أضفنا إلى هذا عند توجيه الاستفهام فى سورة الأنعام الآية رقم (٤٠) كنا قد أضفنا إلى استدعاء صورة المستفهم عنه فى الذهن قولنا: ليُحكم عليه أو يُتحدث عنه وهو حاضر.

وعلى رأى الجمهور من أن (أرأيتك) بمعنى أخبرنى يكون الكلام أمراً ويكون الاستفهام فيه صوريا. ولذلك فإننا نحرص كل الحرص على تبنِّى مذهب الإمام بن عطية فى جميع هذه الصيغ.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا﴾.

الأمر فى (**اسجدوا**) للوجوب، والسجود وإن عُلِّق بآدم عليه السلام فى قوله عز وجل (لآدم) فهو لله فى حقيقة الأمر لأن المقصود هو امتثال الأمر لا حقيقة السجود، وهذا يغنينا عن صرف السجود إلى معنى آخر يخالف الظاهر.

وإلفاء فى (**فسجدوا**) لإفادة الترتيب والفورية، وبيان كمال طاعة الملائكة لله عز وجل.

* ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾ جملة: (**أأسجد لمن خلقت طينا**) كناية عن الامتناع، وأوثرت لما تنطوى عليه من بيان كبريائه. وفى حذف المفعول - مفعول (**خلقت**) والأصل: خلقته إيجاز بالحذف.

* (**قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَيَّ**) فصلت جملة القول - هنا - لأنها بدل اشتمال من الأولى. فبينهما كمال الاتصال[1].

واسم الإشارة (هذا) فى كلام اللعين للسخرية والتحقير، وحذف المفعول من (**كرَّمت**) لأن نفس اللعين لاتساعده على ذكره، لئلا يقع التكريم على الضمير العائد على آدم لفظا، واللعين ينفيه معنىً.

---

(١) ذهب إلى هذا ابن عاشور وهو أدل من الاستئناف البيانى الذى ذهب إليه بعض المفسرين.

وفى هذا الحذف ما فيه من التناسق بين الحذف وبين الإنكار الذى أعلنه إبليس.

* وجملة ﴿هَذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ كناية عن موصوف هو آدم عليه السلام.

والمقام يقضى بأن لجوء اللعين إلى هذه الكناية كان سببه كراهة ذكر اسم آدم على لسانه، من حقده عليه وحسده له.

* ﴿لإِنْ أَخرَّتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ اللام موطئة للقسم و(إن) شرطية. و(لأحتنكنَّ) جواب القسم سد مسدَّ جواب الشرط. فهو إيجاز بالحذف، سره استثمار أقل ما يمكن من الألفاظ، فى أكثر ما يمكن من المعانى وهو من شجاعة العربية كما يقول ابن جنى فى الخصائص.

وفى (أحتنكن) استعارة بالكناية، حيث شبه اللعين ضعاف الإيمان فى استيلائه عليهم وإغرائه إياهم على الكفر والمعاصى بالمطايا يسيطر عليها راكبوها ويوجهونها كيفما شاءوا. ثم حُذِف المشبه به ورُمِز له بخاصة من خواصه. وهى وضع اللُّجُم فى أحناكها للتمكن من السيطرة عليها وسلبها حرية الحركة.

* وفى ﴿لإن أخرَّتَنِ﴾ إيجاز بالحذف. لأن التقدير: أخرت موتى إلى يوم القيامة.

* * *

٥ - ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً * أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَتَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾ [الإسراء: ٦٨-٦٩].

الدراسة والتحليل:

فى سورة الإسراء آيات واعظة زاجرة، والوعظ والزجر منهج من مناهج الدعوة فى القرآن، مثل الوعد والبشارة لأن من النفوس من لايثمر فيها الوعد الحسن، ولا البشارة الباسمة، ومنها ما يثمر فيها حسن الجزاء، وتكون إليه أسرع.

وكثيرا - جدا - ما يجمع القرآن بين المنهجين فى مقام واحد ولا يقتصر على أحدهما لحكمة يعلمها رب العالمين، ولايخفى على المتأمل إدراك طرف من تلك الحكمة.

فالاقتصار على الزجر والتخويف يدمر النفوس، وقد يفقدها الأمل، ويُسلمها إلى اليأس والقنوط.

والاقتصار على البشارة وحسن الجزاء يدعوها إلى التواكل ويفسد حاسة الحذر فيها.

فكان من الحكمة أن يجمع الله فى كتابه بين الخوف والرجاء ليحفظ على النفوس توازنها فلا تغتر ولا تيأس، ولهذا فإنه سرعان ما ذكر تكريمه لبنى آدم وإنعامه عليهم بعد هاتين الآيتين الزاجرتين، فقال - وقوله الصدق ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠].

وهذا التهديد فى الآيتين ورد بعد بيان طبيعة الغدر وكفران النعمة عند البشر، كما بينت الآية (٦٧) قبلهما فجاء هذا التهديد باعتباره وسيلة من وسائل الإصلاح والتهذيب والعودة إلى جادة الطريق.

وهذان الاستفهامان: * ﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾؟ * ﴿أَمْ أَمِنتُمْ﴾؟

معناهما النفى والإنكار والتهديد الشديد، وتنبيه المخاطبين إلى أن الله لا غالب له، ولا يأمن بطشه إلا القوم الخاسرون.

يقول الإمام الزمخشرى: **(أفأمنتم)** الهمزة للإنكار، والفاء للعطف على محذوف تقديره: أنجوتم فأمنتم فحملكم ذلكم على الإعراض(١).

وتابع الإمام الزمخشرى كل من أبى السعود والألوسى ونقلا ما قاله فى شىء من التغيير(٢).

وكذلك قال الطاهر بن عاشور، إلا أنه أكثر توضيحا منهم فالأولون اكتفوا ببيان الاستفهام الأول **(أفأمنتم)** واغفلوا الحديث عن الثانى. أما ابن عاشور فبين أن الثانى للإنكار التوبيخى مثل الأول، وأن (أم) منقطعة، بمعنى (بل) والهمزة.

---

(١) الكشاف (٢/ ٤٥٧) وما بعدها.

(٢) تفسير أبى السعود: (٥/ ١٨٤) وروح المعانى (١٥/ ١١٦).

والخلاصة: أن الاستفهام فى الموضعين للإنكار والتهديد، ويزيد الثانى الإضراب الانتقالى من تهديدهم والإنكار عليهم حالا بعد حال.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ الفاء للعطف على ما تقدمها مباشرة من الإعراض عن ذكر الله بعد كشف الضر عنهم. هذا على مذهب الجمهور الذى يقضى بأن الهمزة مقدمة من تأخير لما للاستفهام من وجوب الصدارة.

أما على مذهب الزمخشرى ومن تابعه القاضى بأن الهمزة قارة فى مقرها فالعطف على مقدر كما بينه الزمخشرى وتابعه عليه كل من أبى السعود والألوسى فقالوا إن أصل الكلام:

«أنجوتكم فأمنتم فحملكم ذلك على الإعراض»؟

وإيثار الماضى فى الموضعين **(أمنتم)** لتوكيد الإنكار ووقوعه على محقق؛ لأنه ما كان ينبغى أن يكون منهم أمن وقد جحدوا نعمة الله عليهم جحداً محققا.

* ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ . . أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً﴾ هذان هما المهدد بهما: سقوط الأرض تحت أقدامهم وهُوِيُّهم فيها. أو إرسال ريح شديدة تقذفهم بالحصباء، وهى الحجارة، وفى العدول عن الاسم الصريح **(ريحاً)** إلى الوصف الطارئ **(حاصبا)** مجاز مرسل علاقته المسببية، حيث أطلق المسبب (الحصباء) وأراد السبب **(ريحا)** وسر هذا المجاز تخييل أن المرسل عليهم هو الحجارة لا الريح. وأوثر **(عليكم)** دون: إليكم لإفادة تسلطه وتهاويه عليهم؛ لأنه عقاب وبلاء.
* ﴿ثُمَّ لاَتَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً﴾ كناية عن عدم النصير والمحامى.
* ﴿أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى﴾ فى إسناد الإعادة إلى ضمير اسم الجلالة مجاز حكمى لأنه يخلق فيهم البواعث التى ترغبهم فى ركوب البحر مرة أخرى، وإن كانت العودة باختيارهم. فالإسناد هنا للسبب المؤثر.

وأوثر حرف الجر (فى) فى (فيه) أى فى البحر، دون (إلى) حيث لم يقل (إليه)

وهو الأصل فى تعدية (العَوْد) للإشارة إلى تمكن البحر منهم، حتى لكأنهم غائصون فى لجته.

* ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِّنَ الرِّيحِ﴾ الأصل أن يقال: ريحا قاصفا . . فَعُدِل عن هذا إلى ما عليه التركيب اعتناء بالوصف **(قاصفا)** دون الموصوف **(الريح)** للتنبيه على بلوغ الوصف **(القصف)** مبلغا من القوة والتدمير ما لاقبل لهم بها. لهذا أقيم الوصف مقام الموصوف وجُعِلَ الموصوف بيانا له.

* ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ تعليل للإغراق، وفيه إيجاز حذف حيث حذف المضاف والتقدير «بسبب كفركم. وأن الله ليس بظلام للعبيد».

* ﴿ثُمَّ لاَتَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾ التبيع الناصر، والمراد هنا: ليس لكم من يطالبنا بعد الانتقام منكم بتبعة أو ثأر، وقد روعى فى ترتيب هذه **(التوابع)** النظام الآتى:

* **(لكم)** ليلى حرف النفى وفعله. مسارعة إلى تيئيسهم.

* **(علينا)** مسارعة إلى تبرئة ساحة الحول والقوة الإلهية من الإدانة والتعقب.

* **(به)** وقدم الجار والمجرور (به) لتعلق **(الحكم)** و**(علينا)** به تعلقا مختلف الاعتبار.

وتنكير «**تبيعا**» للتحقير، أو - إن شئت فقل - للإعدام.

* * *

٦ - ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً﴾ [الإسراء: ٩٤].

الدراسة والتحليل:

بعد أن ذكر الحق عز وجل مقترحات مشركى العرب التى قدموها لصاحب الرسالة ﷺ جاعلين تحققها شرطا للإيمان بالرسالة، ثم تلقينه ﷺ الإجابة على مقترحاتهم **(قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولاً)**.

وكان مشركو العرب قد توجهوا للنبى بمقترحاتهم ليحققها هو بنفسه كما يبدو من حديثهم:

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

تأمل الأفعال التى خاطبوا بها صاحب الرسالة ﷺ تجدها مسندة إلى ضميره المستتر، فهو فاعلها، مع أن الذى اقترحوه معجزات. ولا فاعل للمعجزات إلا الله عز وجل ولم يقف جهلهم عند هذا الحد، بل جعلوا الله وملائكته مأمورين له ﷺ وهذا ظاهر من قولهم الذى حكاه عنهم القرآن الأمين:

* ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً﴾ أى مصفوفين أمامنا نراهم بأعيننا؟

والاستفهام فى قولهم: ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً﴾ للإنكار والاستبعاد والتكذيب، لأنهم - من جهلهم - اعتقدوا أن البشرية تنافى الرسالة. وهذا الاعتقاد الباطل أو قل الوهم، أطبق عليه مكذبو الرسل قبل كفرة العرب وقد حكاه عنهم القرآن الأمين فى مواضع كثيرة، منها قوله تعالى عن قوم نوح:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

فهذا الإنكار والاستبعاد والتكذيب أملاه عليهم جهلهم وزينه لهم الشيطان.

وهذه خلاصة لما قيل فى هذا الاستفهام، وهو شديد الوضوح فى الدلالة على المراد فيه مجازيا. لذلك فإن كثيرا من المفسرين لايقفون أمامه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى﴾

(الناس) هنا لفظه لفظ العام، والمراد به الخاص لأن المقصود بهم مكذبو الرسل من جميع الأمم.

وهو مجاز مرسل علاقته الكلية. وسره البلاغى الإيماء إلى أن أكثر الناس هم بهذه الصفة. كما قال عز وجل:

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣].

وإيثار المصدر المؤوَّل (**أن يؤمنوا**) إخراج على خلاف الظاهر بالنظر إلى الماضى (**مَا مَنَعَ النَّاسَ**) لتشمل دلالة النفى المنع من الإيمان فى جميع الأزمنة، ولايؤدى هذا الفرض إلا المضارع. (**أن يؤمنوا**) وفيه إيجاز بالحذف لأن التقدير: أن يؤمنوا برسالات الرسل المبعوثين إليهم.

* و﴿إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى﴾ الظاهر أن المراد من (**الهدى**) هو الرسول الهادى، فيكون من إقامة المصدر مقام اسم الفاعل مبالغة فى تصوير المعنى وتوكيده.

* ﴿إِلاَّ أَن قَالُوا﴾ استثناء مفرغ من جميع (الموانع) إلا مانع هذا القول المخصوص.

والمصدر المؤول (**أن قالوا**) فاعل (منع) وليس المراد القول باعتباره لفظا، بل المراد الاعتقاد فهو مجاز مرسل علاقته المسببية؛ لأن الاعتقاد سبب فى القول، والقول مسبب عنه، فأطلق السبب وأريد السبب.

والجملة قصرية قصر فيها المنع من الإيمان على هذا القول (الاعتقاد) المخصوص. قصر صفة على موصوف.

والتنكير فى (بَشَراً رَّسُولاً) للتحقير حسب زعمهم الخاطئ (الآثم) المخطىء (غير المصيب).

* * *

٧ - ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾ [الإسراء:٩٨].

الدراسة والتحليل:

الآية التى معنا فيها شقان: شق جديد، وآخر إعادة لمعنى سبق ذكره فى هذه السورة نفسها.

والجديد هو قوله تعالى: (**ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا**) واسم الإشارة عائد على ما ذكره عز وجل فى الآية السابقة على هذه مباشرة، وهى:

﴿ومَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى، وَمَن يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ من دُونِهِ

وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً، مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً﴾.

أما المعاد فهو: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾.

فقد مرَّ هذا القول فى الآية رقم (٤٩) من هذه السورة. فحللناه هناك ودرسناه وبينا المراد من الاستفهام فيه بيانا رجونا أن يكون وافيا.

وأيا كان فالاستفهام فيه للاستبعاد والإنكار والتكذيب بناء على شبهات زينها الشيطان لهم، وقد دحض النظم الحكيم هذه الشبهات ببراهين يقطع العقل بصحتها - بله النقل - وألزمهم الحجة فى أسلوب برهانى واضح كل الوضوح. فلا داعى بعد هذه الإشارة لإعادة كل ما قيل من قبل. ومن شاء فليعد إليه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ﴾ فذلكة، لما تقدم فى الآية قبلها.. **(ومن يضلل)** وفيها إيجاز (قصر) لأنها من جوامع الكلم، وإيثار اسم الإشارة (ذلك) الموضوع للمشار إليه البعيد لتهويل شأن الجزاء المرصود لهم وتبشيعه بتنزيل بُعْد المكانة منزلة بُعْد المكان.
* ﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ الباء داخلة على محذوف، تقديره: بسبب كفرهم المتعلق بآياتنا، وأوثر الفعل الماضى **(كفروا)** للإيذان برسوخ كفرهم وتحققه.

والآيات من جوامع الكلم، لاشتمالها على إنكار المعجزات والرسالات والبراهين الكونية والقولية.

وإضافة **(آيات)** إلى ضمير اسم الجلالة للإعلام بقبح كفرهم وشناعته، وإيثار ضمير الجمع المضاف إليه (نا) للتعظيم والإجلال.

وتوكيد الخبر **(بأنهم كفروا)** بـ (أن) واسمية الجملة للدلالة على أن الكفر وقع منهم وقوعا محققا، وأنهم جزموا به مع وضوح الدلائل على بطلانه وحقية الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

* ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾ العطف - هنا - عطف خاص على عام لأن الكفر يشمل هذا القول. وسره التنبيه على شناعة هذا الخاص لقيام البراهين القاطعة على رده وبطلانه.

* * *

٨ - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّرَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً﴾ [الإسراء: ٩٩].

الدراسة والتحليل:

هذا شروع فى رد جديد على شبهتهم فى إنكار البعث، وكان النظم الحكيم قد دحضها من قبل فى الآية رقم (٥٠) من هذه السورة. ولكن لما اقتضى المقام إعادة تلك المقولة لأنها من أسباب استحقاقهم ذلك الجزاء الوفاق، لما حصل هذا كرٌّ على مقولتهم بالتكذيب مرة أخري.

فقد وقَّفهم على حقيقة لايمكن التمارى فيها، وهى خلق السموات والأرض، وهو أكبر من خلق الناس، وقد وظَّف القرآن هذه المقدمة الصادقة - يقينا - وقاس عليها إعادة خلق الإنسان، فأخرجه من الاستحالة التى توهمها منكرو البعث إلى الإمكان العقلى، وبارت شبهة منكريه:

فقد رأوه مستحيلا عقليا بناء على مقدمة وهمية، وأظهره القرآن الحكيم فى قائمة الممكن العقلى. فأبطل شبهتهم ثم أبرزه من حيث حكم الشرع واجبا خبريا، لأن الخبر الصادق تواتر به، لا على لسان محمد ﷺ - وحده - بل على ألسنة الرسل جميعا.

ثم دعم هذا الاستدلال (القاطع) باستدلال ثان مؤكد لمعناه لا مؤسس له:

* ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّرَيْبَ فِيهِ﴾ ومن معانى هذا «الجعل» عند المفسرين آجال الأفراد فى الحياة الدنيا، إيلاداً وإماتة.

والمعنى: أيعجز من قدر على خلق السموات والأرض، وعلى بعث الحياة فى كل فرد ثم تقدير أجل حياته قبل الموت عن إعادة الحياة فيها مرة أخرى؟ وهذه دلائل قدرته ناطقة بأنه لايعجز عن شىء.

أما الاستفهام الذى ورد فى هذه الآية الحكيمة:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾.

هذا الاستفهام قد مرَّت بنا نظائر كثيرة له، وعرفنا مذاهب العلماء فى بيان المراد - مجازيا - منها، ولا بـأس من الاستئناس بما قاله بعضهم - هنا - فى هذا الاسـتفهام فى إيجاز:

للإمام الزمخشرى عبارة وجيزة تبين المراد من الاستفهام عنده، وهو التقرير.

قال، وهو يُعيِّن المعطوف عليه فى ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّرَيْبَ فِيهِ﴾:

فـإن قلت: علام عطف قـوله ﴿وَجَعَلَ لَـهُمْ أَجَلاً﴾؟ قلت علـى قـوله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾؛ لأن المعنى: قد علموا بدليل العقل أن من قدُر على خلق السموات والأرض، فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس؛ لأنهم ليسوا أشد خلقا منهن»[1].

فقوله: «لأن المعنى: قد علموا» معناه التقرير.

وقد احتذى الإمام أبو السعود حذو الإمام الزمخشرى ونقل عبارته «قد علموا» ولم يصرح بالتقرير[2].

وكذلك فعل الإمام الألوسى وعزا عبـارة «قد علموا» إلى صاحب الكشف وغيره، ولعله أراد بغيره الزمخشرى[3].

أما الإمامان أبا حيان وابن عاشور فقد صرحا بأن هذا الاستفهام للإنكار.

قال الأول: (**أو لم يروا**) هو استفهام إنكار وتوبيخ لهم على ما كانوا يستبعدونه من الإعادة واحـتجاج عليهم بأنهم قـد رأوا قدرة الله على خلق هذه الأجرام العظيـمة، التى بعض ما تحويه البشـر فكيف يقرون بخلق هذا المخلوق العظيم، ثم ينكرون إعادة بعض مما خلقه مما لايحيله - أى يراه محالا - العقل»[4].

أما الطاهر فلم يطل كما أطال أبو حيان، وصرح مرتين بأن هذا الاستفهام للإنكار والتوبيخ وعلله بأنهم: قد علموا؟[5].

وهذا قول لا يجاريهم عليه محقق؛ لأن الإنكار - إذا كان فى الاستفهام إنكار فلا يكون مسلطا إلا على نفى الرؤية، وهذا غيـر سديد، وكلامهما يناقضه. فـقد أجمعا

---

(١) الكشاف (٢/ ٤٦٧) .
(٢) تفسير أبى السعود: (٥/ ١٩٧)
(٣) روح المعانى (١٥/ ١٧٩).
(٤) البحر المحيط (٦/ ٨٢).
(٥) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٢٠ - ٢٢٢).

على أن منكرى البعث قد رأوا وعلموا دلائل قدرة الله فى الكون. فكيف يكون ذلك مُنكراً من قبل الله عليهم؟ ولو كانت الرؤية منكرة لكان ذلك الإنكار عذراً لهم.

والخلاصة: أن هذا الاستفهام للتقرير والإلزام وليس للإنكار مهما كان الأمر.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ إن كانت الهمزة مقدمة من تأخير كما هو مذهب الجمهور فالمعطوف عليه ما قبلها.

وإن كانت قارة فى مكانها كما هو مذهب الإمام جار الله يكون المعطوف عليه مقدرا هكذا:

«أى ألم يتفكروا ولم يروا» وهذه عبارة الإمام أبى السعود والرؤيا علمية دليلها العقل والنقل.

وإيثار المضارع، وإن كان ماضيا فى المعنى، للإيذان بتجدد الرؤيا كلما دعت مقتضياتها مع الإشارة إلى ثبوتها فى الماضى لوقوع المضارع فى حيز (لم) كثبوتها فى المستقبل، بالنظر إلى لفظ المضارع.

* ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ. .﴾

توكيد الخبر لتنزيل منكرى البعث منزلة من لم ير، فأكد لهم الخبر، ولأن مضمون الخبر حقيقة عظيمة فحقها أن يعبر عنها بأسلوب عظيم فخيم مثلها.

ووصف اسم الجلالة بالموصول وصلته: ﴿الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ لأنه دليل التوقيف والإلزام، وإيثار اسم الفاعل (**قادر**) على الفعل (**يقدر**) لما فى دلالة الأسماء من الثبوت والدوام.

* ﴿عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ متعلق القدرة. وجىء بالمضارع (**يخلق**) لأن إنكار المشركين منصب على الخلق فى المستقبل (البعث) وقد أكد (يخلق) بإسناده إلى الله مرتين:

مرة إلى ضميره المستتر؛ لأنه فاعل يخلق. ومرة من حيث إن الجملة الفعلية خبر عن اسم الجلالة (**الله**) والمعنى الراجح أن (**أمثالهم**) كناية عن منكرى البعث. أى

أمثالهم وهيئاتهم وصورهم التى كانوا عليها فى الحياة الدنيا؛ لأن مدار الحديث عليهم باعتبار إنكارهم إعادة الحياة إليهم.

* ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّرَيْبَ فِيهِ﴾ أوثر الماضى (**جعل**) لأن هذا الجعل كائن مستقر فى الماضى مع استمراره فى الحال والاستقبال.

* و﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ كناية عن رسوخه وتحققه، وليس المراد نفى وقوع الريب فيه من منكريه؛ لأنه واقع منهم، ولو أحسنوا التدبر لظهر لهم بطلانه.

والمراد نفى جنس الريب فيه كلية، المتضمن لأفراد ذلك الجنس.

* ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً﴾ الفاء للتفريع على ما تقدم.

و(**الظالمون**) كناية عن منكرى البعث.

و(**إلا كفورا**) استثناء من جميع الأحوال: أى أبوا كل حال نافعة إلا كفور النعم والهداية، فقد اختاروه مذهبا ودينا لهم. وأحلوا أنفسهم دار البوار، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

* * *

سورة الكهف

١ - ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَ الرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩].

الدراسة والتحليل:

بدأت سورة الكهف بالثناء على الله عز وجل؛ لأنه أنزل القرآن فى غاية الكمال.

ثم أردفت على الثناء إيجازاً لمهمة الرسالة والرسول -ﷺ- وهى الإنذار والتبشير، ثم مواجهة الذين زعموا أن لله ولداً رجما بالغيب، مع التشنيع عليهم.

ثم بخطاب إلى صاحب الرسالة ليخفف على نفسه الأعباء فى سبيل الدعوة إلى الله، وأن لا يحمل نفسه ما لا يطيق. ولا يحزن على كفر من كفر.

ثم بيَّن له حقيقة الحياة الدنيا، وأنها صائرة إلى الزوال ليجزى الله كلا بما صنع فيها.

وفى الآية التاسعة التى أعقبت الآيات الثمانى الأولى خاطب الله رسوله قائلا:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَ الرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾(١)

وقد صدِّرت بهذا الاستفهام:

(أم حسبت): وفى توجيه هذا الاستفهام ومعنى الآية عموما قال المفسرون ما يأتى:

فالإمام الزمخشرى يشير إلى أن آثار قدرة الله الظاهرة فى إحياء الأرض بألوان الزينات من الأشجار والنباتات والزروع، ثم إفناءها وصيرورتها كأن لم تكن، هذا كله من آيات الله الباهرات فهى أعجب من إنامة أصحاب الكهف تلك المدة ثم إيقاظهم على النحو المقصوص فى الآيات التالية للآية التاسعة(٢).

---

(١) لهذه الآية -وما بعدها- سبب نزول يراجع فى مواطنه من كتب التفسير. أما الكهف والرقيم فقيل إن معناهما مختلف. فأصحاب الكهف غير أصحاب الرقيم. وقيل إن الرقيم هو الجبل الذى به الكهف.

(٢) الكشاف (٢/ ٤٧٣).

هذه خلاصة أمينة لما قاله الزمخشرى. وهو -وإن لم لم يصرح بمعنى الاستفهام- فإن كلامه يدل على أنه استفهام إنكار عنده إذ يقول معقبا على كلامه السابق:

(يعنى أن ذلك أعظم من قصة أصحاب الكهف، وإبقاء حياتهم مدة طويلة)[1].

وخطا الإمام أبو السعود خطوات أخرى فى بيان المراد من الاستفهام فقال:

(أم حسبت): الخطاب لرسول الله ﷺ، والمراد إنكار حسبان أمته. وأم منقطعة، مقررة ببل التى هى للانتقال من حديث إلى حديث، لا للإبطال. وبهمزة الاستفهام عند الجمهور، وببل وحدها عند غيرهم، أى: (بل أحسبت)[2].

لم يبين الإمام أبو السعود مَنْ الذين قصروا (أم) هنا على معنى (بل).

وقوله (والمراد إنكار حسبان أمته) إنما ذهب إليه تأدبا مع صاحب الرسالة ﷺ، ونرى أنه لا داعى له، ولا حرج فيه. وسيأتى بعد قليل ما يؤكد ما نراه من رفع الحرج فيما ذكره أبو السعود من إيقاع (الإنكار) على ضمير صاحب الرسالة ﷺ.

وردد الإمام الألوسى ما قاله الإمام أبو السعود من قبل. ثم زاد وجها ثالثا فى (أم) على ما ذكره أبو السعود، وهما:

* أن (أم) بمعنى بل والهمزة، وهو رأى الجمهور.

* وأن (أم) بمعنى بل فحسب، وهو رأى غير الجمهور.

والوجه الثالث الذى أضافه الألوسى هو قال فيه: (وقيل هى -هنا- بمعنى الهمزة)[3] ثم رجَّح مذهب الجمهور.

* واكتفى الإمام البيضاوى بقوله فى (أم حسبت): (بل أحسبت)[4].

والإمام الشهاب بعد مجاراته لما تقدم ذكره من كون (أم) منقطعة، بمعنى بل والهمزة عقب على قول الإمام البيضاوى فقال: (وقوله ليس بعجيب إشارة إلى أن الاستفهام المقدَّر إنكارى فى معنى النفى[5]).

(١) الدر المصون: (١/ ٤٥٥).

(٢) تفسير أبى السعود: (٥/ ٢٠٥) وقوله: أى بل أحسبت (بيان لمذهب الجمهور). أما من يرى (أم) بمعنى (بل) فقط فلا استفهام فيها، بل هى لمجرد العطف.

(٣) روح المعانى (١٥/ ٢٠٨).

(٤) تفسير البيضاوى (٢/ ٤).

(٥) (٦/ ٧٧).

* ونقل الإمـام ابن عطية حشـدا من الآراء فى (أم حسـبت) بادئا برأى شيخ الـنحاة سيبويه، قال:

(مذهب سيبويه فى (أم) إذا جاءت دون أن يتقدمها ألف استفهام -يعنى لم يتقدمها كلام صُدِّر بالهمزة الاستفهاميـة، لا أن ألف الاستفهام داخل على (أم) مباشرة- أنها بمعنى (بل) وألف الاسـتفهـام. كأنه قال: (بل أحـسبت) إضـرابا عن الحديث الأول واستفهاما عن الثانى. وقال بعض النحويين: هى بمنزلة ألف الاستفهام[1]).

يعنى إضرابا انتـقاليا لا إبطاليا من الحـديث عن آيات الله فى الأرض وتزيينها إلى الحديث عن قصة أصحاب الكهف.

وقد أشار إلى المذهب الحـامل لـ(أم) على معنى همزة الاستفهـام، أى: أحسبت؟ وكان الألوسى قد نقل هذا من قبل عن سابقيه، ومنهم ابن عطية.

هذا ما قاله صـاحب المحرر الوجيز عن مـعنى (أم) أما معنى الاستـفهام الذى فى همزتها فقد قال فيه:

وأما معنى الكلام فقال الطبرى:

(هو تقرير للنبـى ﷺ على حسبانه -حـسابه- أن أصحـاب الكهف كانوا عجـبا، بمعنى إنكار ذلك عليه، أى لا تعظم ذلك بحسب ما عظمه عليك السائلون من الكفرة فإن سائر آيات الله أعظم من قصتهم، وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة)[2].

تابع الإمام ابن عطية ما بدأه الزمخشرى ولا حقوه من أن قصة أصحاب الكهف إذا قورنت بغيرها من آيات الله الأخرى كان غيرها أدخل منها فى مجال الإعجاب.

ثم عاد فنقل رأيا آخر عن الزهراوى مخالفا لما تقدم فقال:

(وذكر الزهراوى أن الآية تحتمل معنى آخر، وهو أن تكون استفهاما له: هل (أن) أصحاب الكهف عجبا (عجب) بمعنى إثبات أنهم عجب[3]).

ثم قال: (وتكون فـائدة تقريره جـمع نفســه للأمر[4]، لأن جـوابه أن يقـول: لم

(١ : ٣) المحرر الوجيز (١٠/٣٦٦) ويراجع سبب نزول الآيات.

(٤) فى المطبوعة: (للأم) وهو تصحيف ظاهر.

أحسب ولا علمته. فيقال له وصفهم عند ذلك[1]).

الجديد عند ابن عطية جمعه بين التقرير والإنكار فى معنى الاستفهام. والبلاغة لا تأبى ذلك؛ لأن (الإنكار) يصلح وروده مع التقرير، على أن يكون تابعا للتقرير ومردوفا عليه.

كما أن ابن عطية يوجه الإنكار -هنا- توجيها جديداً فيجعله ناشئا عن تهويل السائلين واستعظامهم لما سألوه عنه، أى لا فى الواقع ونفس الأمر.

* ويجارى الإمام أبو حيان مذهب الجمهور من انقطاع (أم) وتقديرها ببل والهمزة، ويُرد رأى من قال أنها بمعنى الهمزة وحدها فيصفه بأنه زعم بعض النحويين ولم يصرِّح بمعنى الاستفهام فيها[2].

* والإمام فخر الدين الرازى يفهم من كلامه أن الاستفهام للنهى ولكن على معنى أن آيات الله كلها عجب، وليست قصة أصحاب الكهف وحدها[3].

والطريف عند الرازى أن قصة أصحاب الكهف عجب مثل غيرها من آيات الله الأخرى. وكان ما جرى عليه غيرُه أن آيات الله الأخرى أعجب من آية الله فى أصحاب الكهف وهذا رأى سديد.

* ويقول الإمام الطاهر:

(والاستفهام المقدر بعد (أم) تعجيبى)[4] ثم يجارى سابقيه فى المعنى العام للآية بأن من آيات الله تعالى ما هو أعجب من آيته فى أصحاب الكهف، موجها التوجيه الذى وجهوه.

والخلاصة: أن السادة المفسرين كادوا يجمعون على أن (أم) منقطعة، بمعنى بل والهمزة، وأن معنى الاستفهام هو الإنكار، وبعضهم يجعل الإنكار موجها إلى الأمة لا إلى النبى ﷺ تأدبا معه.

ويرى فريق منهم أن الاستفهام تقريرى نشأ عنه الإنكار.

---

(١) المحرر الوجيز (٣٦٦/١٠) ويراجع سبب نزول الآيات.

(٢) البحر المحيط والنهر الماد (٩٩/٦) وما بعدها.

(٣) التفسير الكبير (٨١/٢١).

(٤) التحرير والتنوير (٢٥٩/١٤).

أما الزهراوى -كما نقل عنه ابن عطية فالاستفهام عنده ليس للإنكار بل هو للتنبيه والتشويق وإثارة الذهن نحو المستفهم عنه. وهذا الرأى وإن انفرد به الزهراوى هو أوجه ما قيل فى هذا الموضع. ومن مرجحاته -فيما نرى- أن الرسول لم يكن يعلم شيئا عن قصة أصحاب الكهف قبل نزولها عليه فى القرآن بعد أن سأله المشركون[1] عنها بدليل أنه أرجأ الإجابة على هذا السؤال انتظاراً لما سينزل به الوحى. وهذا يُسْلِمُنَا إلى حقيقة مهمة، هى أن الرسول كان خالى الذهن من قصة أصحاب الكهف فهو -إذا- لم ير أنها أعجب من غيرها حتى يكون الاستفهام للإنكار عليه. فكيف يستقيم القول بأن الاستفهام فى (أم حسبت) لإنكار حسبان النبى أعجبية قصة أصحاب الكهف على ما عداها من آيات الله؟

ثم لو كان الأمر كذلك -لجاء (عجبا) على صيغة أفعل التفضيل (أعجب) وهذا لم يرد فى النظم الحكيم.

وكون (أم) بمعنى (هل) توجيه سائغ بلاغة، وسر إيثار (أم) على (هل) أن (أم) تفيد العطف مع تضمنها الاستفهام، وهذا العطف المفاد منها أدَّى معنى فخيما هو الربط بين ما قبل (أم) وما بعدها لذلك نرانا شديدى الميل إلى هذا الرأى وإن كان مخالفا لما ذهب إليه الجمهور؛ للأسباب الآتية:

* عدم تنافيه للواقع الذى شرحناه من حال النبى ﷺ من خلو ذهنه عن المستفهم عنه، الأمر الذى يُبْعد معنى الإنكار عليه.
* دفع الكراهة التى تصورها الإمام أبو السعود وغيره من إيقاع الإنكار على ضمير النبى وجعله لأمته.
* ما فى هذا الرأى من تشويق المخاطب إلى عقبى الكلام كيف تكون، واستشرافها إلى تلقى الحديث عن أصحاب الكهف والنفس فى أعلى درجات النشاط.
* أن له فى النظم القرآنى نظائرِ مستفيضة، مثل قوله تعالى:

---

(١) نكرر التوصية بالاطلاع على سبب النزول فى كتب التفسير أو كتب أسباب النزول للواحدى أو الجلال السيوطى.

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ. فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَـتِيمَ. وَلاَ يَحُضُّ عَلَىَ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [سورة الماعون: ١- ٣].

فقد اشترك الموضعان فى تنشيط الذهن، وتشويق النفس إلى المستفهم عنه قبل ذكر الجواب -كما ترى- وإن اختلفت إداة الاستفهام فيهما.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (**أم حسبت**)؟ أشرنا آنفا أننا نميل إلى حمل هذا الاستفهام على الإثارة والتشويق، ونظَّرنا بينه وبين الاستفهام فى صدر سورة (الماعون) وجىء -هنا- بـ(أم) دون (هل) أو (الهمزة) لما فى (أم) من خاصية الربط بين الكلامين. وهذا هو السر البلاغى فيها.

ولو جىء بـ(هل) أو (الهمزة) لحصلنا على غرض واحد هو الإثارة والتشويق. ولم نحصل على المعنى الثانى وهو الربط المحكم بين جزئى الكلام.

* مجىء الواو فى (**أصحاب الكهف والرقيم**) عاطفا الرقيم على الكهف -عطف مكان على مكان- يُومْىء بقوة إلى مغايرة المعطوف للمعطوف عليه. وأن أصحاب الكهف غير أصحاب الرقيم.

ويدل على ذلك قوله تعالى بعد: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ الْحِـزْبَيْنِ أَحْصَىَ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٢]، فسماهما القرآن حزبين، للدلالة على تغايرهما. وعلى هذا يكون فى العبارة إيجاز بحذف المضاف، والتقدير: وأصحاب الرقيم.

* كلمة (**أصحاب**) التى جاءت فى النظم الحكيم أبلغ من (أهل) الشائعة بين الناس؛ لأن (الصحبة) تقتضى الملازمة التامة. وهو المطابق للواقع فى قصة أصحاب الكهف حيث لم يفارقوا كهفهم خلال تلك المدة الطويلة.

* * *

٢ - ﴿هَؤُلاَءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِه آلِهَةً لَّوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٥].

الدراسة والتحليل:

بعد أن تبين للفتية الذين آمنوا وزادهم الله هدى، ضلال قومهم لإشراكهم مع الله معبودات من خلقه دَعَوْهم آلهة، ويئسوا من إيمانهم بوحدانية الله أجمعوا على اعتزالهم والبعد عنهم فارين إلى الله بدينهم، معلنين براءتهم من عقيدتهم كما حكى القرآن عنهم:

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ السَّموات وَالأَرْضِ، لَن نَدْعُوا مِن دونِه إِلَهًا، لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤]

وبعد هذه الآية وردت آيتنا هذه: **(هؤلاء قومنا)** مشتملة على هذا الاستفهام: **(فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا)**.

وهذه الصيغة وردت فى القرآن ست عشرة مرة، وقد جمعناها من قبل ووقفنا أمامها فى مواضعها الستة عشر وقفة جامعة. وأوضحنا بالأدلة القاطعة أن المراد من هذه الصيغة فى جميع مواضع ورودها وصف صنف واحد من الناس، هم الكافرون، وأثبتنا خلو هذه الصيغة حيث وردت فى النظم القرآنى الحكيم، أثبتنا خلوها من (الإشكال) الذى نص عليه السادة المفسرون، بعد الوقوف على آراء الأئمة فيها. ولا نريد أن نكرر ما قلناه تفصيلا فيها توخيا للإيجاز. ومن شاء فليرجع إلى ما أثبتناه قبلا(١).

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(هؤلاء قومنا)**: عبَّروا عنهم باسم الإشارة الموضوع للقريب تحقيرًا لهم، فنزَّلوا انحطاط المكانة منزلة قرب المكان. أما إضافة (قوم) إلى ضمير المتكلمين فنرى أنه للتسجيل عليهم بعد تعريفهم باسم الإشارة، ثم بإضافتهم إلى ضميرهم. ولو كان النظم قد خلا من هذه الإضافة فقيل: هؤلاء قوم، لفات معنيان بلاغيان، هما:

الأول: توهُّم حمل الكلام على غيرهم.

---

(١) ينظر (١/ ٢٨١) من هذه الدراسة.

والثانى: جواز الطعن فى حُكم الفتية عليهم بالإشراك، أما مع الإضافة فيكون الحكم خالصًا من كل شائبة لأن الفتية حكموا على قوم يعرفونهم تمام المعرفة، فحكمهم -بهذا الاعتبار- مؤسس على خبرة قوية.

* وتنكير (**آلهة**) للتجهيل والتحقير والتكثير والخبر بتمامه (**هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة**) مسوق مساق الإنكار والتوبيخ، على سبيل المجاز المرسل، حيث لم يريدوا منه لا فائدة الخبر ولا لازم الفائدة؛ لأن هذا الكلام قاله الفتية فيما بينهم. وهم جميعهم عالمون بأن قومهم مشركون ضالون.

* (**لولا يأتون عليهم بسلطان بيِّن**) تحضيض لقومهم المراد منه التعجيز والتنبيه على ضلالهم. فهو مجاز مرسل كذلك. وعلاقتهما معًا الإطلاق والتقييد كما مرَّ ذلك مرات من قبل.

وفى (**سلطان**) استعارة تصريحية أصلية. لأن المراد من (سلطان) البرهان فشبه البرهان بالسلطان بجامع قوة النفوذ فى كل منهما.

* * *

٣ - ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ، قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ، قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٩].

الدراسة والتحليل:

فى هذه الآية وصف دقيق لما دار بين أصحاب الكهف بعد أن أيقظهم **الله** من نومهم الطويل. وأن الذى شغلهم عقيب صحوهم من النوم أمران:

الأول: معرفة المدة التى ناموها.

والثانى: إحساسهم بالجوع وتوق أنفسهم للطعام.

أما الأمر الأول فلم يشغلهم طويلا، فقد أعلنوا عجزهم عن تحديد المدة التى لبثوها نائمين، وفوضوا الأمر فيها لله عالم الغيب والشهادة.

وأما الأمر الثانى فقد حسموه جيداً. إذ كلفوا واحداً منهم بالدخول فى المدينة، وزودوه بهذه النصائح الثلاث:

* أن يختار لهم أطيب الطعام.
* أن يحرص كل الحرص على التخفى عن أهل المدينة.
* أن لا يأتى بتصرف من شأنه أن يكشف للناس حقيقتهم.

وقد ورد فى هذه الآية هذا الاستفهام:

(كم لبثتم)؟ وهو استفهام حقيقى عن معرفة مقدار الزمن الذى لبثوه نائمين.

والاستفهام الحقيقى نادر الورود فى النظم القرآنى الحكيم، وهذا ما ستسفر عنه هذه الدراسة إذا أذن الله بأن نبلغ منتهاها بعونه وتسديده.

ولما كان هذا الاستفهام حقيقيا لا مجازيا لم تختلف فيه وجهات نظر الأئمة. بل لم يفردوه بكلام قط. ولذلك نكتفى بهذه الإشارة دون الرجوع إليهم كما هو منهجنا فى دراسة أساليب الاستفهام المجازية من قبل، ولم يبق لنا فيه إلا المبحث الآتى:

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(وكذلك بعثناهم)** هذه صورة تشبيهية كثيرة الورود فى النظم القرآنى. **وللمفسرين والبلاغيين فيها -عموما- ثلاثة مذاهب، نلخصها فيما يأتى:**

المذهب الأول:

وقبل بيان هذه المذاهب يحسن أن نشير إلى خصائص هذا التركيب كيفما ورد فى القرآن، لا بخصوص ما ورد فى هذه الآية.

وخصائص هذا التركيب هى:

* أن أداة التشبيه فيه هى (الكاف).
* أن مدخول (الكاف) فيه هو اسم الإشارة (ذلك).
* أن ما يأتى بعد اسم الإشارة (ذلك) هو الفعل ماضيا أو مضارعا.
* أن المشار إليه فيه باسم الإشارة (ذلك) غير محدد تحديداً يحسم الخلاف بين الباحثين.

وترتب على هذا خلاف مشهور عند الأئمة المفسرين حول تحديد طرفى التشبيه، أو المشبه به إذا أردنا الدقة وكان هذا الخلاف هو السبب فى وجود تلك المذاهب عند الأئمة.

وخلاصة المذهب الأول: أن يجعلوا اسم الإشارة عائداً على مذكور متقدم عليه. ويكون اسم الإشارة هو المشبه به باعتبار تضمنه حقيقة المشار إليه، فمثلا قوله تعالى فى شأن يونس عليه السلام:

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَ نَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

المشبه به هو إنجاء يونس، والمشبه هو إنجاء المؤمنين. والكاف أداة التشبيه.

وهذا المذهب هو مذهب الجمهور.

المذهب الثانى:

وفيه يكون اسم الإشارة عائداً على المصدر المفهوم من الفعل المذكور بعده، وقد طبَّق هذا المذهب فى بعض المواضع الإمام أبو السعود، ثم الإمام الألوسى، وأبو السعود أكثر تطبيقا له من الألوسى، ففى قوله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٤]، يقول أبو السعود:

(وكذلك) إشارة إلى مصدر الفعل المذكور بعده وما فيه -أى فى اسم الإشارة- من البُعْد للإيذان بعلو شأن المشار إليه وبعد منزلته[١] وتابعه الألوسى فى ذلك[٢].

وإنما يلجأ هذان الإمامان إلى هذا التوجيه فى المواضع التى لا يظهر فيها مشار إليه باسم الإشارة (ذلك) ويترتب على هذا المذهب محظور هو تشبيه الشىء بنفسه.

أما المذهب الثالث فقد عزوه إلى ابن الانبارى من أن (كذلك) بمعنى (هكذا) وقد ذُكر هذا القول عند تفسير قوله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧][٣].

---

(١) تفسير أبى السعود: (٣/ ٢٩١). (٢) روح المعانى: (٩/ ١٠٩).

(٣) الفتوحات الإلهية: (٢/ ٩٥).

وأيا كان الأمر فإن الأئمة يتفقون على طرفى التشبيه إن كان لاسم الإشارة مشار إليه ظاهر قبله فى الكلام فإذا غمض عليهم توسعوا فى الحمل والتوجيه، وقد رأينا الإمام الألوسى ينص فى مواضع أن المراد من (كذلك) هو تحقيق ما بعدها وليست للتشبيه.

* (**ليتساءَلوا بينهم**) صورة موحية بما دار بينهم من تساؤل متداخل بعضه فى بعض. وهذا هو شأن ما يحدث بين (الجماعة) إذا دهاهم أمر. وهذه العبارة أدق تصويراً مما لو قيل: ليسأل بعضهم بعضا؛ لأن الأولى تومىء إلى تداخل الحديث والثانية تخلو منه. أما الظرف (**بينهم**) فللدلالة على قصر ذلك التساؤل عليهم هم وحدهم، وهم فى عزلتهم عن قومهم.
* (**قال قائل منهم**) فصلت هذه الجملة عما قبلها (**بعثناهم**) لأنها استئناف بيانى؛ لأن النفس تتطلع بعد سماعها الجملة الأولى إلى ما دار بينهم من تساؤل. فجاءت جملة (**قال قائل منهم**) جوابا على ذلك التطلع.
* (**كم لبثتم**) كناية عن عدد وحدات الزمن الذى لبثوه فى كهفهم نائمين.
* (**قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم**) فصلت هذه الجملة إما لأنها جواب السؤال الصريح (**كم لبثتم**) ونرى أن ذلك هو الأصوب.

وإما جواب عن سؤال نشأ عن جملة السؤال نفسها، فتكون استئنافا بيانيا.

و(**يوما أو بعض يوم**) كناية عن قِصَر المدة حسب تصورهم وتنكير (يوما) إشارة إلى ذلك (القِصر) الذى تصوروه وفيه إيجاز بحذف (العامل) لأن التقدير: (لبثنا يوما).

* (**قالوا ربكم أعلم بما لبثتم**) استئناف بيانى؛ لأنها جواب عن سؤال حاصله: ماذا كان رأيهم فى هذا التحديد باليوم وبعض اليوم.

وفى إسناد القول إلى (جمعهم) والقائِل بعضهم من وضع العام موضع الخاص فهو مجاز مرسل علاقته الكلية. أو مجاز عقلى حيث أسند القول إلى (جمعهم) باعتبار رضاهم بهذا القول السديد، وهو تفرد الله بحقيقة الزمن الذى لبثوه نائمين. وهذا ما

جوَّز فيـه بعض البلاغيين الجمع بين الحـقيقة والمجاز، لأن منهم من قـال هذا فِعْلا، ومنهم من لم يقله ثم سلَّـم به فصـار قائلا له على سـبيل المجـاز العقلى وقـد نص الشهاب الخفـاجى على أن الجمع بين الحقيقة والمجـاز فى لفظ واحد لا يجوز إلا فى المجاز العقلى دون اللغوى.

* (**فلينظر أيها أزكى طعـاما فليأتكم برزق منه**) الأمر فى (فلينـظر) للإرشاد. والمراد من النظر حسن الاختيار، فهو مجاز مرسل من إطلاق السبب -النظر- وإرادة المسبب- حسن الاختيار.

وقالوا: (**أزكى طعاما**) ولم يقـولوا: ألذَّ لأنهم أرادوا طهـارة الطعـام ونقـاءه من المحظورات. ولو قالوا ألذ لكانوا من عبيد الشهوات.

* وتنكير (**رزق**) للتقليل، للدلالة على اعتدالهم فيما يأكلون ويشربون.

* (**وليتلطف ولا يُشعرن بكم أحداً**) وصلت جملة (وليتلطف) بما قبلها (فلينظر) لما بين الجملتين من التوسط بين الكمالين، لأنهما إنشائيتان لفظا ومعنى.

وكذلك (**ولا يُشعرنَّ**) وقد أكدت بنون التـوكيد الثقيلة حرصا منهـم على استمرار التخفى من قومهم عبدة الأوثان وفـراراً بدينهم خشية أن يفتنوهم فيه، أو يؤذوهم فى أنفسهم وأبدانهم.

* * *

٤ - ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ [الكهف: ٣٧].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية لقطة من الحوار الذى دار بين الرجلين اللّذين ضربهما الله مثلا لمشركى العرب فى قوله عز وجل: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ [الكهف: ٣٢]، وقد جاءت فى مطلع رد الرجل المؤمن (الفقير) على ما قاله الرجل الكافر (الغنى) وهما يتجاوران. فقد أغتر الكافر بازدهار جنته (حديقته) بما فيها من نظام الهى بديع، وبما وفَّره الله لها من أسباب النماء، وبما جادت به من ثمار: فاستبعد أولاً أن يصيبها هلاك؟ ثم استبعد ثانيا الحياة الآخرة؟

ثم عبث الشيطان بفكره وعقله فأوهمه بأنه سيكون فى الحياة الآخرة - إن كانت حقا - أسعد حظا منه فى الحياة الدنيا؟

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا* وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾

[الكهف: ٣٥ - ٣٦].

استجمعت هذه (الكفريات) فى ذهن المؤمن، ودهش من جهل صاحبه، ولم يسعه إلا أن يقول:

(أكفرت بالذى خلقك من تراب)؟

والأئمة مجمعون على أن هذا الاستفهام للإنكار وما يستتبعه من معان تردف عليه، ويستلزمها هو مراعاة للمقام الوارد فيه الكلام. وبعضهم لم يقل فيه شيئا لوضوح المراد منه، مثل الإمام جار الله الزمخشرى[1].

وقد أو مأ الإمام أبو السعود أن المراد منه الإنكار[2] وهو لإنكار الواقع لا إنكار الوقوع؛ لأن صاحب الجنتين كفر كفرًا حقيقيا بالبعث، وترجم لسانه عما يعتقده فى

(١) الكشاف (٢/ ٤٨٤).

(٢) تفسير أبى السعود (٥/ ٢٢٢).

قلبه، لأن الأمر كما قال الشاعر:

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما ... جُعِل اللسان على الفؤاد دليلا

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(قال له صاحبه وهو يحاوره)** فُصِلتْ جملة (قال) عما قبلها لأنها استئناف بيانى، لأن ما قاله الكافر يولد فى نفس السامع سؤالاً: ماذا قال صاحبه المؤمن. فبين الجملتين شبه كمال الاتصال.

وجملة **(وهو يحاوره)** اعتراض بين القول والمقول ودلالته البلاغية أن المؤمن سارع بتوجيه هذا القول إلى الكافر فور سماعه ما قال، وفى المجلس نفسه، لأن ما قاله الكافر منكر ينبغى إنكاره حال وقوعه.

وأوثر الماضى فى قوله:

* **﴿أكفرت﴾** للدلالة على تحقق وقوع الكفر من صاحب الجنتين.

أما سر التعبير بالموصول وصلته (بالذى خلقك. . .) والعدول عن الاسم الصريح (الله) لما فى الموصول وصلته من موجبات الإنكار وبشاعة حصول الكفر.

وإفراد الخطاب (خلقك) مع إيقاع الفعل (خلق) على ضمير المخاطب للإلزام والتبكيت على ما بدر من صاحب الجنتين وإيثار التعبير بـ (صاحب) مضافا إلى ضمير الرجل المؤمن للدلالة على أن هذين الرجلين كانا جارين متلاصقين فى الإقامة.

* **(من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا)** قدمت المرحلة الترابية لأنها الأصل، وقدمت المرحلة النطفية على التسوية رجلا لأنها التالية للمرحلة الترابية فى الوجود.

وتنسبق هذه المراحل على ما عليه النظم تدرج حكيم من الأدنى إلى الأعلى فى التذكير بالنعم وبيان كمال قدرة الله فى الخلق والتكوين.

وجملة التعبير كله كناية عن اسم الجلالة (الله) وهو أبلغ فى هذا المقام من التصريح؛ لاشتمالها على قرن الدعوى بالدليل المفحم.

وسر العطف بـ (ثم) فى المراحل المذكورة إشارة إلى التراخى الزمنى (الواقعى) بين

كل مرحلة والتى تليها. مع قصد الترتيب الوقوعى فى الوجود.

* * *

٥ - ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا، وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا، وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

الدراسة والتحليل:

هذه الأية تصور مشهدًا خطيرًا من مشاهد يوم القيامة، حين يتلقى كل أهل الموقف سجلات أعمالهم التى قدموها فى الحياة الدنيا، وينادى منادٍ يسمعه كل الخلق من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة، والناس فريقان: فريق يؤتى كتابه بيمينه، وفريق يؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره[١]. والمنادى يرفع صوته الرهيب بهذا النداء:

﴿أقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

موقف رهيب. ويوم عصيب. يسير على المؤمنين، عسير على الكافرين.

وقد ورد فى هذه الآية هذا الاستفهام المحكى عن المجرمين:

(مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها).

وفيما يأتى أقوال المفسرين فى المعنى المراد منه:

تجاوزه الزمخشرى[٢]، وأوجز فيه أبو السعود فأفاد أن الاستفهام فى هذه الآية للتعجب[٣]. ونحا الألوسى منحى أبى السعود فقال: (الاستفهام مجاز عن التعجب[٤]).

وجارى الشهاب البيضاوى فقال كما تقدم عن الألوسى: (يعنى أن ما استفهامية والاستفهام مجاز عن التعجب»[٥] ولم يشذ عن حمل هذا الاستفهام على التعجب

---

(١) هكذا قال المفسرون جمعا بين الآيتين: ﴿وأما من أوتى كتابه بشماله﴾ [الحاقة: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وأما من أوتى كتابه وراء ظهره﴾ [الانشقاق: ١٠].

(٢) الكشاف (٢/ ٤٨٧). (٣) تفسير أبى السعود (٥/ ٢٢٧). (٤) روح المعانى (١٥/ ٢٩١).

(٥) حاشية الشهاب (٦/ ١٠٨)، وتفسير البيضاوى (٢/ ١٤).

أحد من الأئمة الذين نتـابع أراءهم حول الاستفهـام فى هذه الدراسة لأن دلالته على التعجب ناطقة بكل وضوح. فلنكتف بهذه الإشارة توخيا للإيجاز.

وهذه خلاصة ما قيل فى توجيه الاستفهام فى هذا الموضع.

ومن البديه أن هذا التـعجب المجمع عليه قـد نشأ عن دهشتهم وتحـيرهم من هذه الإحاطة والدقة التى لم يعرفوا لها سبـبا، لأن فراغ قلوبهم من الإيمان بالله فى الحياة الدنيا أورثهم هذا الجهل الشنيع.

أسرار النظم وبلاغياته :

* **(ووضع الكتاب)** فى (وضع) استعـارة تصريحية تبعيـة فى زمن الفعل، حيث أوثر الماضى (وُضع) على المضارع (يوضع) لأن الآية تتحدث عن مـشهد من مشاهد يوم القيامة. وسرها البلاغى تحقق الوقوع.

وقد مُهِّد لوضع الماضى موضع المضارع بالآيات التى تقدمت عليها، وهى:

(ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة، وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدًا. وعرضوا على ربك صفـا لقد جئتـمونا كما خلقناكم أول مـرة، بل زعمتم ألن نجعل لكم مـوعدا. ووضع الكتاب..).

فهذه الآيات نقلت الأذهان بكل قوة إلى أهوال القيامة حتى لكأن السامعين يعيشون أحداثها ساعة يسمعون هذا الكلام.

فلما تمت هذه (النقلة) هُجر المضارع، وكان قد عُبِّر به فى الآية الأولى مرتين: (نسير) - **(وترى الأرض..)** ثم عُـدِل إلـى الماضى فى **(وحشرناهم)** ثم **(ووضع الكتاب)** - **(لقد جئتمونا)** الخ أما العـودة إلى المضارع فى **(فترى المجرمين)** و**(ويقولون)** ثم **(لا يغادر)** فنكاته البلاغـية منصوص عليها عند علـماء البلاغة، وهى: استـحضار صورة الحدث، وكأنها تقع الآن.

* أما بـناء الفعل لما لم يسم فـاعله فى **(عرضوا)** و**(وضع)** فهو إيجـاز بالحذف؛ لأن الغرض يتعلق بـ (الحدث) فى نفسه دون الافتقار إلى تعيين الفاعل.

* (**يا ويلتنا**) فى هذه العبارة استعارة مكنية عند الجمهور. شبهت فيها (الويلة) - أى الهلاك - بمن يعقل وحذف المشبه به ودُلَّ عليه بلازمه، وهو النداء؛ لأن النداء من خواص العقلاء.

ويرى أبو حيان أن هذا النداء - وكل ما كان مثله من مخاطبة غير العقلاء - مراد به من بحضرة المنادى من العقلاء، قال:

(نادوا هلكتهم التى هلكوا - هلكوها - خاصة من بين الهلكات، فقالوا: يا ويلنا والمراد من بحضرتهم، كأنهم قالوا: يا من بحضرتنا انظروا هلكتنا، وكذا ما جاء من نداء ما لا يعقل...)(1).

ومذهب الجمهور أبلغ وأصح لما فيه من المبالغة والتهويل حيث نُزِّل فيه ما لا يعقل منزلة من يعقل. وكان أول من أشار ومهَّد لمذهب الجمهور هو سيبويه رحمه الله.

* (**صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها**) السر البلاغى فى تقديم (صغيرة) على (كبيرة) هو مناط التعجب الذى دل عليه الاستفهام؛ لأن المقام مقام إحاطة وإحصاء. ومن شأن الشىء الحقير (الصغير) أن يخفى على (المحصى) ولما رأوا صحائف أعمالهم مسطورا فيها صغائر أعمالهم وكبائرها استولى عليهم العجب لجهلهم بكمال قدرة الله، وسعة علمه والتنكير فى (صغيرة)، و(كبيرة) لإفادة العموم؛ أى كل صغيرة، وكل كبيرة من كسوباتهم فى الحياة الدنيا والجمع بينهما طباق إيجاب اقتضاه المقام.

* وفى إسناد (**أحصى**) إلى ضمير الكتاب مجاز عقلى علاقته المكانية؛ لأن الكتاب مكان الإحصاء. والله هو فاعل الإحصاء الحقيقى.

* وفى ﴿**ووجدوا ما عملوا حاضراً**﴾ استعارة فى زمن الفعل كما تقدم فى (**وحشرنا**) و(**عرضوا**) وغيرهما من الأفعال الماضية التى لن تقع إلا يوم القيامة.

* وأوثر الفعل المضارع فى ﴿**ولا يظلم ربك أحدا**﴾ ليعم نفى الظلم عنه - سبحانه - جميع الأزمنة.

---

(1) البحر المحيط (٦/ ١٣٤) والنهر الماد (٦/ ١٣٣).

وإيثـار (رب) على ما عـداه من أسمـاء الله الحـسنى لإمكان إضافـته إلى (كـاف الخطاب) الموجه إلى صاحب الرسالة ﷺ لأن المقـام - هنا - مقام تسلية له وعزاء مما لقيـه من عناد قومه، ومـا سيقت هذه المشـاهد إلا تطييـبًا لنفسـه، وبيان أن الله لهم بالمرصاد. وأن الحق منصور على الباطل فى النهاية.

* وتنكير (**أحدًا**) لاستغراق نفى الظلم عن جميع الناس.

* وعطفت الجمل الخبرية بالواو بعضها على بعض للتوسط بين الكمالين:

(وحشرناهم) - (وعرضوا) - (ووضع) - (ووجدوا) - (ولا يظلم).

* * *

٦ - ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَـلاَئِكَةِ أسْجُدُوا لآدَمَ فَـسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيـسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَـسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ، أَفَـتَتَّخِـذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِى وَهُـم لَكُمْ عَدوٌّ، بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٠].

الدراسة والتحليل:

سورة الكهف آخر السور المكية الست التى تحـدثت عن قصة آدم وعصيان إبليس، بعد أن تحدثت عنها:

الأعراف، والحـجر، والإسـراء، وطه، و(ص) لأن هذه السور نزلت بمكـة، قبل نزول سورة (الكهف) فجاء حديث (الكهف) عن تلك القصة إجمالاً بديعا كما ترى، فقد تضمن (أصول القصة) ثم أضاف إليها جديدًا، وهو نسبة (إبليس) إلى (الجن) ثم إنكار اتخاذه وذريته أولياء من دون الله مع ذم هذا المسلك.

وقد ورد فى نظم الآية هذا الاستفهام:

(أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو)؟

والأئمة مجمعون على أن هذا الاستفهام للإنكار أصالة مع تضمنه معانى أخرى.

فهذا جار الله يقول:

(الهمزة) للإنكار والتعجيب. كأنه قيـل: أعقب ما وجد منه تتخذونه وذريته أولياء

من دونى وتستبدلونهم بى؟) بئس البدل من الله إبليس لمن استبدله فاطاعه بدل طاعته)[1].

وتابعه أبو السعود فقال: «الهمزة للإنكار والتعجيب والفاء التعقيب، أى: أعقب علمكم بصدور تلك القبائح عنه (تتخذونه وذريته) أى أولاده وأتباعه جُعلوا ذريته مجازًا. . . فتستبدلونهم فتطيعونهم بدل طاعتى»[2].

توسع الإمام أبو السعود فى معنى (ذريته) فأدخل فيهم أتباع إبليس من الإنس، ونص على أن ذلك مجاز وهذا بعيد - فيما نرى - إذ لا ضرورة تقتضيه، ولأنه يلزم عليه استعمال اللفظ فى حقيقته ومجازه دفعة واحدة. والصواب منع ذلك الجمع إلا فى المجاز العقلى .كما قال الشهاب الخفاجى من قبل.

بل إن ما ذهب إليه الإمام أبو السعود ظاهر الفساد إذا دققنا النظر؛ لأن (أتباع إبليس) مخاطبون بهذا الإنكار، بل هم أولى من غيرهم بتوجيه هذا الإنكار عليهم ممن لم يتخذوا إبليس وذريته أولياء فالصواب إبقاء المعنى على ظاهره. أما هذا التأويل الذى صرَّح به أبو السعود فباطل.

والإمام الألوسى بعد النص على أن المراد من الاستفهام الإنكار والتعجيب أفاض فى أن المراد من (ذريته) هم أولاده الذين نسلهم، وعزا هذا القول إلى جماعة من السلف والتابعين، وكأنه - بذلك - يُنكر ما ذهب إليه أبو السعود من قبل[3].

ويرى الشهاب ما رآه الأئمة من أن الاستفهام للإنكار والتعجيب، بيد أنه لم يرض أن يكون «الفاء» للتعقيب وقال إن الإمام البيضاوى تابع فيه الزمخشرى، وحجة الشهاب أن اتخاذ الناس إبليس وذريته أولياء لم يكن عقيب رفض إبليس السجود، بل كان بعده بزمن طويل وهذا استدراك طيب من الشهاب، ولذلك يرى أن الفاء لمجرد الاستبعاد.

---

(١) الكشاف (٢/ ٤٨٨).

(٢) تفسير أبى السعود (٥/ ٢٢٦ - ٢٢٧).

(٣) روح المعانى (١٥/ ٢٩٤).

كما لم يرتض الشهاب تفسير البيضاوى (ذريته) بأتباعه كما تقدم عند أبى السعود. قال: (وما ذكره من تأويل ليس فى الكلام ما يدل عليه)[1].

ويضيف أبو حيان معنى جديدًا للاستفهام فيقول. . «والهمزة للتوبيخ والإنكار والتعجب)[2].

وهذا ما كنا قد لحظناه تقصيرا من الأئمة الذين قد وقفوا عند الإنكار والتعجب؛ لأن التوبيخ الذى زاده أبو حيان من أظهر المعانى المرادة من هذا الاستفهام واقتصر ابن عطية على التوبيخ[3].

أما الشيخ الطاهر بن عاشور فقد قصر الإنكار والتوبيخ المراد من الاستفهام على الكفار الذين اتخذوا من دون الله شركاء[4].

والأولى حملة على جميع المعاصى الكبيرة المتعمدة.

أسرار النظم وبلاغياته :

* **(فسجدوا)** العطف بالفاء إشارة إلى سرعة امتثال الملائكة أمر ربهم. أماالفاء الثانية فى **(ففسق عن أمر ربه)** فتشير إلى سرعة حصول الفسق من إبليس اللعين وفى فسق استعارة تصريحية تبعية شبه فيها عصيان إبليس بالخروج الحسى من مكان إلى مكان. وزاد ذلك الخروج قبحا وشناعة قوله عزَّ وجل **(عن أمر ربه)**.

ويجوز اعتبار الكلام من الأستعارة المكنية حيث شبه (أمر ربه) بالمقر الآمن، وحذف المشبه به ورمز له بلازم من لوازمه هو الفسق بمعنى الخروج.

* **(وهم لكم عدو)** جملة حالية مؤكدة لقبح اتخاذهم أولياء وإنكاره. فقد اجتمعت فى إبليس وذريته خستان الأولى: عصيانه لله عز وجل، الثانية: عداوته لبنى آدم. وهاتان الخستان هما منشأ الإنكار.

* **(بئس للظالمين بدلا)** تذييل مؤكد لمضمون الكلام قبله.

---

(١) حاشية الشهاب (٦/ ١١٠) وتفسير البيضاوى (٢/ ١٤).

(٢) البحر المحيط (٦/ ١٣٦).

(٣) المحرر الوجيز (١٠/ ٤١٢).

(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٤١).

وتوسط الجار والمجرور (للظالمين) بين فعل الذم (بئس) وبين التمييز (بدلاً) للإيذان بأن الظلم هو منشأ الذم.

* * *

٧ - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ. إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا، وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

الدراسة والتحليل:

الاستفهام الذى فى هذه الآية بهذه الصيغة **(ومن أظلم ممن)** تكرر فى الذكر الحكيم ست عشرة مرة، وقد فصلنا فيه القول تفصيلا وافيا فى موضع سابق بعد أن جمعنا مواضعه فى مكان واحد، لذلك لم نكرر ما قيل فيه مرة أخرى دفعا للتكرار وتوخيا للإيجاز وليرجع إليه القارئ - إذا شاء - فى موضع تفصيل القول فيه[1]. وقد جاءت هذه الآية بعد آيات تحدثت عن المجرمين ومعاندى الرسل. كان آخرها قوله تعالى:

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ، وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا﴾ [الكهف: ٥٦].

فجاءت الآية - موضوع الدراسة - تعقيبا على تلك المواقف التى وقفها المعاندون من رسل الله، والوحى المنزل عليهم.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(ذكر بآيات ربه)** فى (ذكر) استعارة تصريحية تبعية، استعير التذكير للتبليغ، ثم اشتق من التذكير (ذُكر) بمعنى بُلِّغ. وسرها البلاغى أن هذا التبليغ لوضوحه وقوة ظهوره كان ينبغى أن يكون حاضراً فى الأذهان لوجوب الإيمان والعمل به.
* وفى **(آيات ربه)** كناية عن وحى الله وما اشتمل عليه من أوامر ونواه وإرشادات، وإضافة (آيات) إلى (رب) دون غيره من الأسماء الحسنى، ثم إضافة (رب) إلى

(١) انظر: (١/ ٢٨١) من هذه الدراسة.

ضمير المتحدث عنه إشارة إلى قبح الإعراض المذكور لما فى (رب) من معانى الإنعام والإحسان وفى حـذف الفاعل وبناء الفعل لما لم يسم فاعله (ذُكِّـر) إيجاز بالحذف، لأن الغرض حاصل بالحدث نفسه (التذكير) دون الاحتياج إلى النص على الفاعل، وهم الرسل. وعلى ما فى هذا الحذف من فـخامة فإن فيه تكثـيراً للمعنى؛ لأنه لو ذكر الفـاعل لكان قبح الإعراض مقـصوراً على تذكير الرسل. ولما حـذف الفاعل سرى قبح الإعراض على من أعرض عن تذكير الدعاة بعد الرسل.

* **(فأعرض عنها)** هذه كناية عن عدم الإيمان وترك العـمل بها. وفيها من الأبلغـية ما فى كل كناية لقرنها الدعوى بدليل صدقها. والعطف بالفاء المفيد للترتيب والتعقيب للإيذان بأن هؤلاء المعرضين اسـرعوا بهذا الإعراض دون أن يمنحوا أنفسـهم فرصة للتروى والفهم.

* **(ونسى ما قـدمت يداه)** عطفت هذه الجـملة بالواو على جملة صلة الموصـول (ذكر بآيات ربه) لما بين الجملتين من التوسط بين الكمالين؛ لأنهـما خبريتان لفظا ومعنى وكلتاهما لا محل لهما من الإعراب.

هذا من حيث الوصل. أما من حيث التصوير البلاغى فإن جملة: **(ونسى ما قدمت يداه)** كناية عن الكسب وما اقتـرفوه من آثام فى الحياة الدنيا، وفى مقدمـتها الكفر بالله والاستهزاء بآياته؛ لأن اليدين هما آلة الكسب والعمل فى الغالب.

* **(إنَّا جعـلنا على قلوبهم أكنة أن يفقـهوه وفى آذانهـم وقرا)** جملة **(إنَّا جعلنا)** استئناف بيانى كما نص كـثير من الأئمة[1]. وقعت جـوابا عن سؤال عن سبب إعـراضهم وعنادهم، فبين الجملتين شـبه كمال الاتصال، ،وتوكيد الخبر فيـها بـ (ان) واسمية الجملة؛ لأن مضمون الخـبر من الحقائق الراسخة فحقـه أن يعبر عنه بأسلوب فخم مثله.

وفى أكنة ووقراً استعارتان تصريحيتان أصليتان حيث شبه الموانع الشعورية بالأغطية الحاجبـة لقلوبهم عن التأثر، والثقل المانع لأسماعـهم من السمع. استعارة مـحسوس

---

(١) انظر تفسير هذه الآية عند الأئمة: الزمخشرى وأبى السعود والألوسى والطاهر بن عاشور، وغيرهم.

لمعقـول تفظيعًا لذلك المعقـول وتقبيحًـا. أما تنكيرهمـا: (أكنة - وقرا) فللدلالة على التكثير والتكثيف.

* **(وإن تدعهم إلى الهدى فـلن يهتدوا إذًا أبدا)** تذييل مقرر لمضـمون الكلام قبله. وفى (أبدًا) توكيد لنفى الإيمان والاهتداء المدلول عليه بـ (فلن).

* * *

٨ - ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْـرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَـا أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: ٦٣].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية تحكى صـورة من صور الحـوار الذى دار بين مـوسى عليه السـلام وبين فتاه، قبيل لقـائه بالعبد الصالح (الخضر) فقد طلب موسى من فـتاه أن يحضر الغداء الذى حملاه معهما فإذا بالفتى يقول لموسى:

إن الحوت الـذى حمـلاه للغداء قـفز إلى الماء حـين أويا - موسى والفـتى - إلى الصخرة، فاتخذ الحوت طريقا فى الماء واختـفى. فسعد موسـى بهذا النبأ؛ لأنه أمارة أن يلتقى مـع العبد الصـالح. أى عند مجـمع البحرين كـما جاء فـى الآية قبل هذا الحوار.

كان جواب الفتى على طلب موسى الغداء قد مهَّد له بهذا الاستفهام:

(أرأيت إذا أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت..).

وهذه الصيغة الاستفهامية وردت كثيرا فى النظم القرآنى الحكيم. وقد تقدم الحديث عنها فى هذه الدراسـة مرات، وذكرنا أن مـعناها عند جمـهور أهل العلم: مفـسرين ونحاة وبلاغيين هو: أخبرنى.

وقد نازعناهم فى هذا المعنـى. وقلنا إن هذا المعنى ليس بلازم فيهـا. بل أنه يمتنع فى بعض مواضع ورودها. وقد ذكرنا دليل ذلك فيما تقدم.

ونعود - هنا - فنقول:

إن المفسرين قالوا إن معنى (أرأيت) هنا هو كذلك: أخبرني[1]، هذا قول الزمخشري. أما أبو السعود فلم يصرح به وحمل الاستفهام على تعجيب موسى مما حدث اعتذارًا من الفتى لموسى عليه السلام[2].

وقد رأينا الإمام الألوسى يذكر هذا التأويل بصيغة التمريض فيقول:

(أرأيت): قيل بمعنى أخبرنى[3].

وهذا حكاية منه لمذهب الجمهور الذى أشرنا إليه من قبل ثم عزا إلى أبى حيان كلاما يصرح فيه بعدم إرادة هذا المعنى من (أرأيت) فيقول:

وتعقبه أبو حيان بأنها إذا كانت كذلك - أى كانت : أرأيت بمعنى أخبرنى - فلابد لها من أمرين:

* كون الاسم المستخبر عنه معها. يعنى يكون مذكورًا معها.

* لزوم الجملة التى بعدها الاستفهام.

ثم قال: وهما مفقودان هنا: أى الاسم المستفهم عنه والجملة التى بعدها الاستفهام.

ومما أورده الإمام الألوسى ما عزاه إلى أبى الحسن الأخفش أن أرأيت إذا لم يرد بعدها منصوب ولا استفهام بل جملة مصدرة بالفاء - كما هنا - فإنها تكون بمعنى: أمَّا أو بمعنى تنبَّه[4].

والمعنى: أما إذ أوينا، أو تنبه إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت[5].

كما نرى الشهاب الخفاجى يطنب فى التوجيه ثم يورد رأيا آخر بعد تفسير (أرأيت) بمعنى أخبرنى. قال: (والمعنى: أأبصرت حالنا إذ أوينا. .)[6].

يعنى أن الرؤية بصرية لا علمية. وكان من قبل قد ضعّف رأى أبى الحسن الأخفش الذى ذكرناه آنفا.

والخلاصة: أن الشائع عند الجمهور أن هذه الصيغة (أرأيت) وما كان على شاكلتها

---

(١) ينظر الكشاف (٢/٤٨٩). (٢) تفسير أبى السعود (٥/ ٢٣٢).

(٣ : ٥) روح المعانى (١٥/٣١٦) والبحر المحيط (٦/٣١٦). (٦) حاشية الشهاب (٦/١١٨).

أن المراد من الاستفهام فيها هو: أخبرنى.

والذى أبديناه من قبل، ونعيده هنا، أن هذا المعنى غير لازم فيها بدليل ما ذكرناه قبلا من مقامات يمتنع فيها إرادة هذا المعنى كقوله تعالى:

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ. فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾.

فإرادة (أخبرنى) هنا مستحيلة، لأن جواب الاستفهام مذكور، وهو: **(فذلك الذى يدعُّ اليتيم)**.

وهذه الآية - موضوع الدراسة - دليل آخر على امتناع إرادة أخبرنى من (أرأيت) والمعنى المناسب لهذه الصيغ أن يكون المراد من الاستفهام فيها: هو إثارة الذهن وتحريك المشاعر نحو المستفهم عنه واستحضار صورته فى الذهن ليُساق عليه الحديث وهو حاضر ماثل فى الوجدان وهذا المعنى جائز إطراده فى جميع المواضع التى وردت فيها هذه الصيغ فى نظم القرآن الحكيم.

وفى هذه الآية أراد فتى موسى عليه السلام أن يستحضر موس لحظة لجوئهما إلى الصخرة ونومهما عندها؛ لأنها مكان وزمان نسيانهما حوتهما وعودته إلى البحر. أما التعجب المشار إليه من قبل فإنه تعجب من حال نسيان الحوت لا من صيغة الاستفهام، وإلا للزم وروده معهما حيثما وردت وهذا المعنى الذى نميل إليه سائغ على كلا التقديرين: أى على تقدير أن الرؤية بصرية أو علمية. لذلك فإننا لا نرى دلالة **(أرأيت)** على: أخبرنى لازمة ولا مطردة والفاصل فى ذلك هو المقام ومقاصد البلغاء من كلامهم، وليس فوق بلاغة القرآن بلاغة.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(قال أرأيت..)** فُصلت هذه الجملة عما قبلها لوقوعها جوابا عن سؤال مقدر نشأ عما قبلها، حاصله: ماذا قال الفتى لموسى عليه السلام. فبين الجملتين شبه كمال الاتصال.

* **(فإنى نسيت الحوت)** أكد الخبر هنا بـ (إن) واسمية الجملة لأن المخاطب قد يسارع بالإنكار لاستبعاد صدور النسيان من المتكلم - يوشع - ولأن الواقعة نفسها، وهى

(نسيــان الحوت) تتأبىَّ على النسـيان؛ لأن الحوت كــان غداءهما الوحـيد فى ذلك السفر.

* **(وما أنسانيه إلا الشيطان)** الجملة: استئناف نحوى مؤكد لمضمون الجملة قبلها، وهو استثناء مفرغ من عموم الفاعلين.

وفى الجملة أسلوب قصـر طريقه النفى والاستثناء قُـصِرت فيه صفـة النسيان على عمل الشيطان، قصر صفة على موصوف، وهو قصر حقيقى لصدوره عن ثقة.

* **(أن أذكره)** بدل اشتـمال من الحـوت. أى أنسانى الشيطان ذكـر نسيــانه لك حين علمت بذلك.

وهذه الجملة الخبرية **(وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره)** مراد منها إبداء العذر لموسى عليه السلام وإسناد النسيان إلى «الشيطان» مجاز عقلى من الإسناد إلى السبب.

* **(واتخذ سبيله فى البحر عجبا)** تذييل مقرر لمضمـون الكلام قبله. وفى وضع المصدر (عجبـا) موضع اسم الفاعل (عاجب) تفخـيم للمعنى، ومبالغـة فى إثباته وبلوغه المدى، كرجل عَدْل، مكان: رجل عادل.

* * *

٩ - ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾

[الكهف: ٦٦].

الدراسة والتحليل:

وهذه الآية تحكى أول صـورة من صور الحوار الذى دار بـين موسى عليـه السلام وبين العبد الصالح، الذى وصفه الله فأكرم وصفه فى قوله عز وجل:

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾

[الكهف: ٦٥].

ومعـروف أن من أجل هذا اللقاء بين مـوسى والعبـد الصالح كانـت رحلة موسى وفتاه.

وسبب الرحلة كـما وردت فى كتب التفسـير وغيرها أن موسـى - عليه السلام - سئل: هل فى الأرض من هو أعلم منك؟ فقال: (لا) فأمـره الله بلقاء عبد صالح من

عباده علَّمه الله ما لم يعلم موسى. وهذا تأديب رفيع من الله لعباده المكرمين.

وقد ورد فى مخاطبة موسى للعبد الصالح - فى أول اللقاء - . **هذا الاستفهام:**

(**هل أتبعك على أن تُعلمن مماعلمت رشدا**). وفى المراد من هذا الاستفهام يقول المفسرون:

الزمخشرى لم يتعرض له. وغيره من الأئمة قال إنه يستعمل فى معنى الاستئذان. أو هو للعرض والطلب كماجاء فى بعض أقوالهم.

هذه هى خلاصة ما قالوه فى هذا الموضع. يعنى أن هذا الاستفهام حقيقى لا مجازى. كان الغرض منه استكشاف ما عند العبد الصالح أيوافق على استصحابه أم لا يوافق وهذا حق وصواب.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (**قال له موسى**) فصلت هذه الجملة عما قبلها لما بين الجملتين من شبه كمال الاتصال، لأن النفس تتطلع إلى ماذا قال موسى للعبد الصالح الذى ما خرج فى هذه الرحلة إلا من أجل أن يلتقى به، ويزداد منه علما.

* (**هل أتبعك**) تقدم أن هذا الاستفهام حقيقى لا مجازى؛ لأن المستفهم لا يعلم يقينا إن كان العبد الصالح يأذن له فى الاتباع أم لا يأذن، مع رغبته الشديدة فى الاذن له بما يريد. لذلك كان من الأنسب أن تكون أداة الاستفهام هى: هل؛ دون الهمزة مثلا؛ لأن (هل) معناها التصديق. والهمزة معناها التصور وفى التحقيق كان يرغب موسى.

* (**على أن تعلمن مما علمت رشدا**) استعملت (على) هنا استعمال أدوات الشرط. فكان معنى الكلام معها: هل أتبعك بشرط أن تعلمنى. فإن لم تعلمنى لا أتبعك. ووجَّه دلالة على هنا على الشرط بعض الأئمة بأن معناها العام هو الإلزام. ومعنى الشرط الإلزام. فبين المعنيين تناسب من هذه الجهة وهل دلالة (على) على الشرط حقيقة أم مجاز؟ خلاف غير متكافئ والأصح أنه مجاز.

* * *

١٠ - ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٨].

الدراسة والتحليل :

لما سأل موسى عليه السلام العبد الصالح أن يأذن له فى الاتباع والتعلم منه. قال العبد الصالح لموسى: (.. **إنك لن تستطيع معى صبرًا**). ثم بين له لماذا لن يستطيع معه صبرًا فقال: (**وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرًا**) مُعْلنا له أن علمه مختلف عن علمه، وأن موسى يعلم ظاهر الأمور، أما العبد الصالح فيعلم - بإذن من الله - بواطن الأمور وأسرارها.

والاستفهام الذى فى الآية (**وكيف تصبر..**) لم يوله المفسرون عناية لظهور المراد منه. ولأنهم عالجوا نظائره فى ما تقدم.

وخلاصة ما قالوه فى نظائره أن المراد منها هو النفى عن طريق الكناية؛ لأن (كيف) للاستفهام عن الحال إذا كان الاستفهام حقيقيا. فإذا كان مجازيا أفاد نفى الحال المستفهم عنها. والمعنى - هنا - أن المخاطب ليست له حال يمكن معها الصبر على ما سيرى. ونفى الحال يستلزم نفى ما يترتب عليها.

وهذا النفى يردف عليه هنا معنى التعجب. لأن موسى عليه السلام لو كان قد رأى ما رأى من أعمال العبد. ثم سكت، لكان سكوته مدعاة للتعجب.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (**وكيف تصبر**) هذه الجملة توكيد لمعنى النفى فى الآية السابقة: (إنك لن تستطيع معى صبرًا) فقد نفى العبد الصالح صبر موسى على ما سيرى نفيا مؤكدًا بـ (ان) واسمية الجملة، ولن التى لتوكيد النفى فى المستقبل. فجاءت هذه الجملة (**وكيف تصبر..**) توكيدًا للنفى بعد توكيد.

* (**على ما لم تُحط به خبرا**) وهذه الجملة كناية عن الأمور الغريبة عن موسى عليه السلام. وغرابتها تتفاوت، فمنها ما جاء موسى بتحريمه والنهى عنه، وهو خرق السفينة وقتل الغلام. ومنها ما هو خارج عن مبدأ: المعاملة بالمثل. وهو إقامة

الجدار فى قرية أبى أهلها أن يطعما موسى وصاحبه.

وفى العبارة إيجاز بالحذف. فقد حذف المضاف فى ﴿**على ما لم تحط به**﴾ والتقدير: على قبح ما لم تحط به وأوثر لفظ (خبرًا) على : (خَبَرًا) لدلاله الأول على التمكن من العلم بالشىء. بخلاف الثانى. ولذلك يقال: الخُبْر هو المكاشفة والعيان. والخَبَر هو ما كان عن طريق السمع.

وبين فواصل الآيات: (صبرًا - خبرًا - أمرًا) سجع بليغ لبناء الفواصل على حرف الراء. وهو سَجْعَ تطلبه المعنى، ثم بنى اللفظ عليه.

* * *

١١، ١٢ - ﴿فَأنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِى السَّفِينَةِ خَرَقَها، قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾

[الكهف: ٧١ - ٧٢].

الدراسة والتحليل :

فى هاتين الآيتين حكاية لما دار بين موسى والعبد الصالح حول أول حادثة تقع بعد لقائهما مما لا يعلم موسى الحكمة فيه، بل ينهى عنه باعتباره رسولاً يُجرى أحكامه على ظواهر الأمور.

فالعبد الصالح يخرق السفينة ويدرك لماذا يخرقها. وموسى نظر إلى هذا الصنع على أنه إفساد للسفينة لا تكون عاقبته إلا إغراقها بمن فيها. فسارع إلى إنكاره مشيرًا إلى سوء المغبة فيه. وقد أنساه هول الأمر ما كان قد عاهده عليه العبد الصالح من عدم الاعتراض على أى شىء يبدو منه، إلا إذا أذن له بالحديث عنه. فما كان من موسى إلا أن يقول:

(**أخرقتها لتغرق أهلها**)؟ وكان الرد من العبد الصالح (**ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرًا**)؟

وهذان الاستفهامان لوضوح المراد منهما تجاوزهما المفسرون، اللهم إلاَّ إشارات أتت ضمن كلام ليس فيه قصد مباشر للمراد من الاستفهام.

وكان حاصل تلك الإشارات أن الاستفهام الأول: **(أخرقتها لتغرق أهلها)** المراد منه الإنكار.

أما الاستفهام الثانى: **(ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرًا)** فالمراد منه التذكير[1].

ولا تعليق لنا على ما قالوه فى الاستفهام الأول. أما الثانى فالأحرى أن يكون للتقرير أصالة ويردف عليه التذكير.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها)** العطف بالفاء إشارة إلى سرعة البدء فى الانطلاق بعد الاتفاق الذى تم بينهما وإيثار الإنطلاق على المشى للدلالة على أنهما جدًّا فى السير ولم يتراخيا فيه.

ومجئ (حتى) يشير إلى وجود مسافة ذات بال بين الموضع الذى تم فيه الاتفاق وموضع رسو السفينة، والفعل ركب عُدِّى بنفسه فى قوله تعالى: **(لتركبوها)** وعُدِّى هنا بحرف الجر (فى) لأن ركوب السفينة يكون فى ساحاتها من داخلها. أما ركوب الدواب فيكون فوق ظهورها.

* **(قال أخرقتها لتغرق أهلها)** فصلت هذه الجملة عما قبلها؛ لوقوعها جوابا عن سؤال تولَّد بكل وضوح عن الأولى، إذ أن النفوس تتشوق إلى موقف موسى عليه السلام من هذا الصنع المثير الذى صدر من العبد الصالح فبين الجملتين شبه كمال الاتصال. وهو كثير الورود فى لغة القرآن أما قوله تعالى حكاية عن موسى **(لتغرق أهلها)**؟ فهو محط الإنكار فى هذا الاستفهام. واللام فى **(لتغرق)** لام العاقبة عند جمهور المفسرين. وبعضهم يحملها على ظاهرها ويرى أنها لام التعليل.

والفرق بين اللامين أن لام التعليل تجعل ما بعدها - وهو هنا الإغراق - سببا فى

---

(١) بحثهما فى الكشاف (٢/ ٤٩٣) وفى أبى السعود (٥/ ٢٣٥) وفى روح المعانى (١٥/ ٣٣٦) وحاشية الشهاب (٦/ ١٢١).

حصول ما قبلها، وهذا يلزم عليه أن العبد الصالح كان يقصد من الخرق إغراق أهل السفينة.

وهذا باطل لا يصدر عن العبد الصالح، وقد نفى القرآن هذا القصد حين شرح الخضر لموسى سبب خرق السفينة فى قوله عز وجل:

(أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر، فأردت أن أعيبها، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) [الكهف :٧٩].

فبين أن الخرق كان بقصد إنجاء السفينة من سطو الملك عليها، لأنه كان لايسطو على السفن المعيبة. وبهذا يتعين أن تكون اللام للعاقبة: أى خرقتها خرقا بترتب عليه ويعقبه إغراق أهلها.

* **(لقد جئْت شيئاً إمرا)** استئناف مؤكد للإنكار والإمر: العظيم الخطورة، وتنكيره لنكارته وغرابته وشدة وقعه.
* **(قال ألم أقل..)** فصلت هذه الجملة للسبب الذى فصلت من أجله جملة **(قال أخرقتها)** -فبين الجملتين فى الموضعين شبه كمال الاتصال.
* **(إنك لن تستطيع معى صبراً)** أكد الخبر بـ (ان) واسمية الجملة لتنزيل المخاطب منزلة المنكر، لما بدا عليه من علامات الإنكار، وهو اعتراضه على خرق السفينة مع قرب العهد المبرم بينه وبين العبد الصالح بعدم هذا الاعتراض.
* ومجىء (معى) وكان يمكن أن يقال: لن تستطيع صبرا، له سر بلاغى وقع موقعه من الحكمة وروعة الكلام.

وذلك لأن (معى) هنا جاءت قيدا لنفى الصبر، فحصرته فى صحبة، موسى للعبد الصالح. ولو خلا منه النظم لعم نفى الصبر كل أوقات موسى وأحواله وكيف يكون ذلك وهو رسول كريم، والرسل من أظهر صفاتهم الصبر.

لذلك فإن لفظ (معى) فى كلام الخضر من أجمل الاحتراسات البلاغية. ولهذا كرره الخضر فى الحادثة الثانية التى سنعرض لها عقب هذا المبحث.

ويعضد هذا الفهم الذى قدمناه مجىء «صبراً» مُنكراً، للدلالة على نوعيته وندرته،

أى لا تستطيع بعضا من الصبر، فيكون النفى مقصوراً على هذا النوع المقيد، لا جنس الصبر ولا الصبر كله. وهذا من فطانة الرسل. والخضر نبى فى أكثر أقوال أهل العلم والمفسرين.

* * *

١٣، ١٤ - ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾

[الكهف: ٧٤ -٧٥].

الدراسة والتحليل:

وفى هاتين الآيتين يحكى القرآن الأمين مادار بين الرجلين حول الحادثة الثانية، وفيها يقدم العبد الصالح على قتل شاب يافع بدون ذنب ظاهر يستوجب قتله. فيخرج موسى عن صمته للمرة الثانية، ويعلن هذا الاعتراض فى وجه الخضر:

(**أقتلت نفسا زكية، بغير نفس؟ لقد جئت شيئا نكرا**) ويرد العبد الصالح:

(**الم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً**).

وخلاصة المراد من هذين الاستفهامين أن موسى عليه السلام استفهم مُنْكِراً وأن العبد الصالح استفهم مقرراً ومذكرا.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (**نفسا زكية بغير نفس**) هذان القيدان أو الوصفان هما محط الانكار فى (**أقتلت**)- والمراد بالزكاوة الطهارة من الآثام التى توجب القتل. وفى (**بغير نفس**) البراءة من القتل العمد الذى يوجب القصاص.

* (**لقد جئت شيئاً نكرا**) خولف بين الفاصلة هنا، وبين الفاصلة فى الحادثة، الأولى. كانت الفاصلة هناك (إمراً) وهى هنا (نكراً) فهل لهذا التخالف داع بلاغى يمكن رصده؟

نعم. أن الحادثة الأولى كانت مجرد خرق للسفينة قد يترتب عليه إغراق،

فالإغراق مجرد احتمال، وكانت الحادثة الثانية قتل نفس ليس له سبب ظاهر.

أى أن الجريمة فى الأولى كانت متوقعة، مجرد توقع ولكنها فى الثانية وقعت فعْلا. وكان الانكار فى الأولى أخف وطأ منه فى الثانية.

لذلك اقتضت البلاغة أن يكون الوصف فى الأولى (إمرا) أى أمر عظيم الخطورة.

أما فى الثانية فكان الوصف (نكرا) أى أمر منكر لاتحتمل نكارته أى جدل.

* **(قال ألم أقل لك . .)** إذا وازنا بين نظير هذا القول فى رد العبد الصالح على موسى فى الاعتراض الأول وبين قوله هنا نجد القول الأول قد خلا من الجار والمجرور (لك) مع وروده فى هذا القول. فما سر ذلك بلاغياً؟ الذى لاح لنا- ولله الحمد والمنة- أن تقرير الخضر لموسى فى القول الأول خلا من لفظ (لك) لأن المخالفة وقعت من موسى لأول مرة. أما فى القول الثانى فقد وقعت المخالفة للمرة الثانية، فزاد له الخضر فى توكيد التقرير والتذكير.

* * *

١٥ - ﴿ قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً﴾ [الكهف: ٩٤].

الدراسة والتحليل:

ذو القرنين رجل رحَّالة ذائع الصيت، وردت قصته فى الكتب السماوية قبل القرآن وفى القرآن، وكان كفَّار مكه، قد سألوا النبى ﷺ - بتوجيه من اليهود - عن قصة أصحاب الكهف، وقصة الرجل الطواف - الرحالة - الذى بلغ مشارق الأرض ومغاربها. وكان قصدهم من هذه الأسئلة، الاختبار والتعجيز، ولكن الله أوحى إليه فى هذه السورة - سورة الكهف - قاصاً عليه نبأ أصحاب الكهب، ونبأ ذى القرنين الرجل الطواف.

وكان من الوقائع التى تُنسبُ إليه هذه القصة التى تحكى آيتنا هذه جانباً منها:

فقد وجد ذو القرنين بين سدين (حاجزين جغرافيين) قوما وأن هؤلاء القوم طلبوا إلى ذى القرنين أن يبنى لهم سداً يحول بينهم وبين شرور يأجوج ومأجوج على أن يجعلوا له أجراً من المال مكافأة له. وقد ورد فى هذه الآية هذا الاستفهام:

(فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا)؟

وهو استفهام حقيقى لامجازى، أرادوا منه الوقوف على موقف ذى القرنين أيتفق معهم ويستجيب أم يُعرض عنهم؟ومعنى هذا أن الأئمة ليس لهم إختلاف نظر حول المراد منه، لأن كل استفهام حقيقى محدد الدلالة وضعا باتفاق أهل اللغة.

ومعنى هذا الاستفهام العرض والطلب(١).

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(قالوا ياذا القرنين)** هذه الجملة مفصولة عما قبلها، لأن بين الجملتين شبة كمال الاتصال كما تقدم مراراً، لأن النفس إذا سمعت قوله تعالى:

(حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لايكادون يفقهون قولاً) تشوفت إلى مادار بينهم وبين ذى القرنين هل قال هو لهم شيئاً أم هل قالوا هم له شيئاً؟

فجاءت جملة **(قالوا ياذا القرنين)** جوابا عن ذلك التساؤل:

* **(إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض)** تأكيد الخبر فى هذه الجملة بـ(إن) واسمية الجملة لايجوز أن يكون لإزالة شك أو إنكار عند المخاطب- ذى القرنين- لأنه خالى الذهن عنهم وليس فى النظم مايدل على علمه بحالهم، لذلك فإننا نرجح أن يكون هذا التوكيد ترجمة، عما استقر عند هؤلاء القوم من استشراء فساد يأجوج ومأجوج، فكان هذا التوكيد تعبيرا صادقا عن مايجول فى نفوس المتكلمين.

ويدل على هذا تعبيرهم عن فساد وإفساد يأجوج ومأجوج بالجملة الاسمية **(مفسدون فى الأرض)** دون الفعلية: يفسدون فى الأرض ودلالة الأسماء هى الثبوت والدوام.

---

(١) روح المعانى (١٦/ ٣٩).

* **(فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا)** استفهموا بـ (هل) دون (الهمزة) لرغبتهم الشديدة فى استجابة ذى القرنين لهم. لذا استعملوا (هل) لأنها للتصديق والتحقيق، دون الهمزة التى هى للتصور وشتان بينهما.

أما تنكير **(خرجا)** فالظاهر أنه للتعظيم والتكثير والمقام الذى ورد فيه، وهو شدة الرغبة عند القوم، يدل دلالة قوية على هذا المعنى.

* **(على أن تجعل بيننا وبينهم سدا)** هذا شرط وضعوه بينهم وبين ذى القرنين واستعمل فيه حرف الجر (على) وقد أشرنا من قبل إلى ما سوَّغ استعمال (على) فى الشرط.

وهو معنى الالـزام الذى هو أصل معناها فى اللغة. فإن لم يكن استعمالها فى الشرط حقيقة، فهو مجاز علاقته ذلك الإلزام، وقرينته معنى التركيب الذى ترد فيه، لأن دلالته على الشرط لاتقبل جدلاً.

والذى نقوله ونميل إليه أن استعمال (على) فى أسلوب الشرط استعمال مجازى، من الاستعارة فى الحرف على ما هو معروف عند البلاغيين.

ومن اللطائف أن هذا الاستعمال ورد فى سورة الكهف مرتين.

* * *

١٦ - ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِى مِن دُونِى أَوْلِيَاءَ، إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً﴾ [الكهف: ١٠٢].

الدراسة والتحليل:

بعد أن فرغت سورة الكهف من سرد القصص الثلاث: قصة أصحاب الكهف، وصاحب الجنتين، وذى القرنين مع فصول أخرى واعظة زاجرة تخللت نظم القصص الثلاث، تلطفت فى الانتقال إلى ذكر بعض من مشاهد القيامة. وفى إطار هذه المشاهد جاءت الآية موضوع الدراسة مصدرة بهذا الاستفهام:

(أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء) وقد وجهه الإمام الزمخشرى فى كلام يتضمن أن هذا الاستفهام مراد منه النفى، ففسر (عبادى) بالملائكة؛ ثم قال:

(يعنى أنهم لا يكونون لهم أولياء)[1]. أما أبو السعود فيفصح عن المراد صراحة، حين قال:

(والهمزة للإنكار والتوبيخ على معنى إنكار الواقع واستقباحه... والفاء للعطف على مقدر.. لتوجيه الإنكار والتوبيخ إلى المعطوفين جميعا... والمعنى اكفروا بى مع جلالة شأنى فحسبوا (**أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء**)[2].

يعنى أن الإنكار والتوبيخ منصب على المعطوف والمعطوف عليه وهما الكفر بالله، ثم اتخاذ بعض من عباده أولياء من دون الله عز وجل.

ونحا الإمام الألوسى منحى الإمام أبى السعود، ونقل كلامه لفظا ومعنى[3].

وتابع الإمام الشهاب الإمام البيضاوى فى حمل الاستفهام على الإنكار، وخالفا أبا السعود والألوسى فى تقدير المعطوف عليه المقدر، فقدراه هكذا:

(ألم ينظروا لآياتى فظنوا)[4] على تفسير الحسبان بالظن.

وقال الإمام أبو حيان: (وهو استفهام فيه معنى الإنكار والتوبيخ. والمعنى أنهم ليس لهم من ولاية هؤلاء شيء، ولا يجدون عندهم منتفعاً)[5].

وعلى هذا فإن الأولى أن يقال: إن الاستفهام للنفى لأن معنى كلام أبى حيان أن الإنكار مسلط على انتفاء هذه الولاية المدعاة، وليس مسلطا على (الاتخاذ) فإذا كان المآل كذلك فهى نفى لا إنكار.

والخلاصة أن الأئمة اتفقوا أن المراد من الاستفهام -هنا- الإنكار، سواء منهم من ذكرنا رأيه ومن لم نذكر رأيه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(أفحسب)** فُسِّر هذا الفعل بـ(أفظَنَّ) فإذا كان معنى الحسبان هو معنى الظن فَلِمَ عدل النظم القرآنى الحكيم عن لفظ الظن إلى لفظ الحسبان؟ إن إعجاز القرآن فى أجمع مذاهبه هو فى ملاءمة ألفاظه وتراكيبه للمعانى المرادة، بحيث لو أريد وضع

---

(١) الكشاف: (٢/ ٥٠٠).
(٢) تفسير أبى السعود: (٥/ ٢٤٨).
(٣) روح المعانى: (١٦/ ٤٥).
(٤) حاشية الشهاب: (٦/ ١٣٨)، وتفسير البيضاوى: (٢/ ٢٤).
(٥) البحر المحيط: (٦/ ١٦٥).

كلمة موضع كلمة فيه، أو وضع تركيب موضع تركيب فيه، على أن تقوم الكلمة البديلة أو التركيب البديل بدلالة الكلمة القرآنية أو التركيب القرآنى لكان ذلك مستحيلا.

فإذا طبقنا هذا (المعيار) على وضع كلمة (أفظن) موضع كلمة (أفحسب) لم نحصل على المعنى الذى تصوره وتؤديه كلمة (أفحسب) لماذا؟

لأن (الظن) هو مجرد خاطر يرد فى الذهن. أما (الحسبان) فهو (ظن) أخص من مجرد الظن هو (ظن) يعوِّل عليه (الظان) ويضعه فى حسابه راجيا منه جلب منفعة، أو دفع مضرة. والقرآن فى هذه الآية يتحدث عن قوم حسبوا أن لهم منافع فى اتخاذ بعض عباد الله أولياء من دون الله. فهذا عندهم ليس مجرد ظن (مهمل) أو (عارٍ) من الأمل بل هو ظن معقود عليه أملهم، لذلك هجر النظم الحكيم لفظ (ظن) إلى لفظ (حسب) لأن للفظ (حسب) خاصية معنى لا توجد فى مجرد (الظن).

* أما قوله تعالى: **(إنَّا اعتدنا جهنم للكافرين نزلا)** فهو خبر مراد منه الوعيد على سبيل المجاز المرسل الذى علاقته الإطلاق والتقييد. حيث أطلق الخبر من الدلالة على فائدة الخبر أو لازم فائدته ثم قيد فى الدلالة على الوعيد. وفى **(نزلاً)** استعارة تهكمية. لأن النزل فى الأصل هو ما يقدم للضيف من كرامة ولا كرامة لأصحاب النار.

* * *

١٧ - ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾ [الكهف: ١٠٣].

الدراسة والتحليل:

هذا خطاب من الله لرسوله ﷺ؛ لأنه هو المخاطب بقوله تعالى (قل) أما **(هل نُنبئُكم)** فالخطاب فيه للكفرة، ومخاطبهم هو الرسول. ففى الآية خطابان ومخاطبان:

فخطاب الله موجه إلى رسوله. وخطاب الرسول موجه إلى الكفار.

والاستفهام فى **(هل ننبئُكم)** سكت عن بيان المراد منه بعض الأئمة كالزمخشرى

والبيضاوى، وقال فيه أبو السعود: إنه للتوبيخ[1].

أما الألوسى فجوَّز أن يكون للاستئذان. يعنى بقصد التهكم والسخرية. قال: (وإذا حمل الاستفهام على الاستئذان كان فيه من التهكم ما فيه)[2].

وذهب ابن عطية مذهب أبى السعود، واكتفى بذكر عبارته ولم يزد[3].

والخلاصة: أن هذا الاستفهام -فيما نرى- مستعمل يقصد إثارة الذهن والالتفات إلى ما سيقال ليستقر فى أنفسهم. أما التوبيخ والاستئذان فلا نرى لهما سنداً قويا فى النظم ولا فى المقام الوارد فيه هذا الاستفهام، ولو قيل إن المراد منه التعريض بالمخاطب لكان حسنا فيما نرى.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(قل هل ننبئُكم)** اتفق الأئمة على أن المقول لهم هذا هم الكفرة. وهنا يرد سؤال حاصله: لماذا وسَّط الله رسوله الكريم فى خطاب الكافرين، ولم يخاطبهم مباشرة مثل مخاطبته المؤمنين التى لا تكاد تُحصر فى آيات الكتاب العزيز، فما أكثر ما خاطبهم الله بهذا النداء (يا أيها الذين آمنوا. . .)؟

إن السر البلاغى فى هذا الخطاب غير المباشر من الله للذين كفروا لا يخرج عن أن يكون احتقاراً للكفر وأهله، وخطاب الله رفعة وتكريم، فالمؤمنون هم أهل لتلك الرفعة، وذلك التكريم، أما الكفار فلاحظ لهم فى هذه اللطائف الإلهية.

وقد ورد خطابهم مباشرا من الله نادراً فى مثل قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ، إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم: ٧].

لأن هذا سيكون يوم القيامة، وقد انتهى أمر الرسالة والرسول بما كان فى الحياة الدنيا.

ولأن فى هذا الخطاب تيئيسًا لهم وإقناطا. وكفى بذلك إذلالاً وحسرة.

* * *

(١) تفسير أبى السعود: (٥/ ٢٤٩).
(٢) روح المعانى: (١٦/ ٤٧).
(٣) المحرر الوجيز: (٣٠/ ٤٥٥).

سورة مريم

١ - ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّـى يَكُونُ لِى غُلاَمٌ وَكَـانَتْ امْرَأَ تِى عَـاقِراً وَقَـدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِياًّ﴾ [مريم: ٨].

الدراسة والتحليل:

سورة مريم مكية النزول إلاّ آيتين (٥٨، ٧١) فهما مدنيتان[١].

وقد بدأت هذه السـورة بالحديث عن نبى الله زكـريا عليه السـلام، ودعائه ربه أن يهب له ولداً طيبا يكون قدوة حسنة لبنى إسـرائيل، ولما بشرته الملائكة بـ(يحيى) عليه السلام تسـاءل كيف يلد، وهو شيخ طاعن فى السن، وامرأته عـاقر لاتلد. وهذا هو الذى حكاه عنه القرآن فى الآية موضوع الدراسة.

ثم تكررت هذه القصـة مرة أخرى فى سورة آل عـمران المدنية. وقـد تقدم لنا فى السفر الأول مـن هذه الدراسة دراسة الاستفـهام الذى ورد هناك[٢] لذلك نكتفى هنا بمبحث:

أسرار النظم وبلاغياته[٢]:

* **(قال رب أنَّى يكـون لى غلام)** فصلت جملة (قال) عما قبلهـا للاستئناف البيانى كما تقدم ذلك مرات. وفى حذف (يا) النداء حـيث قال (رب) وكان الأصل أن يقول: يارب إيجاز بالحذف. ونداء (رب) مستفيض فى النظم القرآنى استفاضة فائقة، وقد روعى فى هذا النداء التـخـفـيف اللفظى فـحذف منـه (يا) النداء فى أوله، و«يا» المضاف إليـه فى آخره، وكـان الاصل أن يقال: ياربى. وهذا التخـفيف كـما نرى تيسير على الداعين لكثرة ندائهم ربهم. ولـم يذكر حرف النداء مع (رب) فى القرآن

(١) روح المعانى (١٦/٥٦) وتفسير ابى السعود (٥/٢٥٢)

(٢) للقارىء أن يرجع إلى الموضع المشار إليه إذا شاء، خشية التكرار.

إلا فى موضعين، بينا سر ذكره بلاغيا فى غير هذه الدراسة[1].

وسر التـصريح بالاسم (رب) مع أن الذى بشـر زكريا هو الملك لأن زكـريا رسول يعلم أن صاحب الأمـر كله هو الله فهـو من قبل قد دعـاه، وهو هنا يناديه ولاينادى الملك المبشر إذ هو مجرد مبلغ وليس له من الأمر شىء.

* و(أنَّى) اداة استفهـام بمعنى (كيف) فتكون استفهـاما عن الحال. أو بمعنى: من أين والاستفهام بها للاستبعاد من حيث انعدام أسباب الانجاب بالنظر إلى كبر سنه وعقم امرأته وهذا الاستـبعاد مشوب بالتطلع إلى كـيفية حصول الغـلام من حيث القدرة الآلهية.

* **(وكانت امرأتى عـاقراً، وقد بلغت من الكبر عـتيا)** عقر امرأته، وكـبر سنه هما محط الاستبعاد الذى دلت عليه (أنَّى) فإن كانت «أنى» بمعنى كيف كان السؤال عن الحال كناية عن عدم وجوده فـيترتب عليه عدم الانجـاب وان كانت بمعنى: من أين؟ كان السـؤال كناية عن انعـدام الانجـاب كذلك، لأن السـؤال عن الشىء يسـتلزم عـدم وجوده، وعدم وجـود الشىء يستلزم عدم مايصـدر عنه وقد مرَّت صور كـثيرة من هذه الكنايات فى السفرين الأول والثانى من هذه الدراسة.

* وتنكير **(غلام)** مع تسميتـه (يحيى) قبل هذه الآية لأن الاستبعـاد مسلط على إنجاب جنس الغلام لا على شخص بعينه.

* وعطفت جملة **(وقد بلغت من الكبر عـتيا)** على جملة **(كانت امرأتى عاقراً)** لأنهما خبريتان لفظا ومعنى فبينهما التوسط بين الكمالين.

* وتقديم حال امـرأته على حاله فى هذه السورة، لأن زكـريا أطنب فى وصف حاله فى مطلع السـورة مما يُعْرَف منه عـجزه عن الانجـاب، فكان حريا أن يقـدم وصف امرأته هنا على وصف نفسه، لأن وصفها مـجهول، ووصفه قد عُلِم من دعائه فى أول السورة.

* وعكس هذا النظم فى آل عمران حيث قدَّم حال نفسه على حال امرأته، لأن فى آل

---

(١) انظر كتابنا: دراسات جديدة فى إعجاز القرآن. مكتبة وهبة- القاهرة مبحث (رب).

عمران لم يتقدم شرح لحاله، كما حدث فى سورة مريم[1].

* وتقديم الجار والمجرور (لى) على (غلام) لأن (لى) من بواعث الاستبعاد، لأن المستبعد أن يكون له غلام لالغيره ممن هم صالحون للانجاب.

* * *

٢ - ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ، وَلَمْ أَكُ بَغِياًّ﴾

[مريم: ٢٠].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية مثل الآية التى حكت موقف زكريا عليه السلام حين بُشِّر بـ(يحيى) عليه السلام، والقائل هنا هى مريم البتول أم عيسى رسول الله عليه السلام فقد تمثل لها ملك كريم، وأخبرها بهبة الله لها غلاما زكيا.

ذهلت مريم من هذا النبأ، وظنت أن الملك الذى أرسله الله اليها طامع شرير من البشر، فقالت له:

﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِياًّ﴾ [مريم: ١٨].

ولكن حين علمت أنه ملك كريم استفهمت قائلة: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾؟

نفس العبارة التى قالها زكريا من قبل. وما أراده زكريا من الاستفهام أرادته هى.

بيد أن أسباب الاستبعاد عندها غير أسباب الاستبعاد عند زكريا:

- أسباب الاستبعاد عند زكريا: عقر امرأته ثم كبر سنه هو.
- وأسباب الاستبعاد عند مريم: عدم المسيس من ذكر ثم طهارتها وعفتها.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(قالت أنَّى يكون لى غلام)** فصلت هذه الجملة عما قبلها للاستئناف البيانى، وقُدِّم الجار والمجرور (لى) على غلام للسبب الذى قُدِّم من أجله فى كلام زكريا لأن الاستبعاد لم يكن مطلقاً، وإنما له ولها لعدم توفر أسباب الإنجاب عندهما.

---

(١) انظر الآية رقم (٤٠) من سورة آل عمران.

هو: لعقر امرأته وكبر سنه. وهى: لعدم اقترانها بزوج، ولأنها طاهرة عفيفة لا تبذل رحمها لغير زوج.

* **(ولم يمسسنى بشر)** فى (يمسسنى) استعارة تصريحية تبعية أو كناية عن (النكاح) وهو الأظهر، وقد آثرت (المس) فى سياق النفى مبالغة فى تأكيد عدم إنجابها غلاما، لأن المس أدنى وسائل الإنجاب فإذا أنتفى الأدنى انتفى الأعلى، وهو النكاح».

* **(ولم أك بغيا)** عطفت هذه الجملة على جملة (ولم يمسسنى بشر) لأنهما خبريتان لفظا ومعنى وكلتاهما لا محل لهما من الإعراب فبين الجملتين التوسط بين الكمالين.

* وفى **(بغيا)** كناية عن الزنا.

وفى هذه الآية وما قبلها وما بعدها سجع بحرف الياء المنصوبة.

وهو سجع بليغ تطلبه المعنى فبنى اللفظ عليه، وأحدث تناسقا صوتيا يشنف الآذان ويمتع المشاعر والوجدان

* * *

٣ - ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ، قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩].

الدراسة والتحليل:

بعد أن وضعت مريم البتول الغلام الزكى (عيسى عليه السلام) ورأت من آيات ربها ما يُذهب عنها مقال السوء، وأمرها ربها بالصمت فلا تكلم أحدا، عادت إلى أهلها وهى تحمل وليدها فهال قومها شأنها، وبادروا بتأنيبها، إذ كيف تحمل وتلد وهى عذراء ولازوج لها. وراحوا يذكرونها بطهارة أبيها وأمها، وسلامة سلوكهما، وكريم سجاياهما.

فما كان منها إلا أن تشير إلى «وليدها» وهم كانوا ينتظرون أن تتكلم هى. فأدهشتهم إشارتها إلى (الوليد) مثلما أدهشهم قدومها وهى تحمله واستفهموا متعجبين:

(قالوا: كيف نكلم من كان فى المهد صبيا)؟ ولكن الله ناصرٌ أولياءه فأنطق الوليد بالحكمة والسداد:

﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ الله آتَانِىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِياً * وَجَعَلَنِى مُبَارَكاً أَيْنَمَا كُنتُ، وَأَوْصَانِى بالصَّلَاة وَالزَّكَاة مَادُمْتُ حَياً * وَبراً بوَالِـدَتِى، ولَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّاراً شقياً * وَالسَّلَامُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلدتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعثُ حَياً﴾ [مريم: ٣٠ : ٣٣].

والأئمة مجمعون أن هذا الاستفهام (**كيف نكلم من كان فى المهد صبيا**) استفهام تعجب. والمقام ناطق بهذا، فلا ضرورة لنقل أقوالهم فيه توخيا للايجاز[١].

وهذا التعجب يردف عليه معنى آخر هو إفحام مريم رضى الله عنها حسب ما كان يلوح لهم.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (**فأشارت إليه**) العطف بالفاء دون غيرها من أدوات العطف للدلالة على سرعة حدوثها من مريم حين أنكر عليها قومها ما رأوا منها.
* (**قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا**) فصلت هذه الجملة عن جملة (**فأشارت إليه**) للاستئناف البيانى، لأن النفوس تتشوف بقوة إلى معرفة موقف قومها من إحالتهم إلى طفل حديث الولادة ليوجهوا إليه الكلام ويصرفوه عنها، وهم إنما ساءلوها ولم يساءلوا الطفل.

لذلك جاءت جملة (**قالوا..**) مفصولة عن الأولى كما يفصل الجواب عن السؤال الصريح.

* و(**كيف**) للسؤال عن الحال بقصد نفى ذلك الحال. وقد كنوا بنفى السؤال عن نفى المستفهم عنه، وهو تكليم الأطفال حديثى الولادة.

وتوجيه معنى الكناية- هنا- أن كل موجود لابد له من حال أو أحوال يكون عليها، فإذا أنتفت الأحوال لزم من انتفائها نفى صاحبها. وقد نص الأئمة، على هذا فى مواضع كثيرة سبقت فى هذه الدراسة وسيأتى نماذج لها فيما بقى لنا من صور.

* (**من كان فى المهد صبيا**) عدلوا إلى هذه العبارة، ولم يقولوا كيف نكلمه وهو حديث الولادة، لأنهم أخرجوا القضية مخرج العموم أى أن كل من كان حديث

---

(١) انظر مثلا: الكشاف (٢/٥٠٨) وتفسير أبى السعود (٥/٢٦٣)

الولادة (فى المهد) يمنع العقل والعادة كلام العقلاء معهم، لأنهم لايدركون شيئاً.

ويدخل فيهم وليد مريم دخولاً أولياً.

والتعبير- برمته- كناية عن «استحالة التكلم» ذكروها لأنها تقرن الدليل بالدعوى.

* * *

٤ - ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَالاَ يَسْمَعُ ولاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِى عَنكَ شَيَئاً﴾ [مريم: ٤٢].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية تحكى طرفا مما دار بين إبراهيم عليه السلام وبين أبيه قبل أن يتبين له إصراره على الكفر واجه إبراهيم- هنا- ضلال أبيه، كاشفا عن خطئه فى عقيدته، باذلاً له النصح عساه أن يكون من أهل الإيمان.

وقد استمر إبراهيم فى مواجهة ضلال أبيه فى أسلوب هادىء ينفذ إلى شغاف القلوب، داعما مايقول بالدليل القاطع، والسلطان الساطع:

﴿يَا أَبَت إِنِّى قَدْ جَاءَنى منْ الْعلْمِ مَا لَم يَأْتكَ فَاتَّبِعْنى أَهْدكَ صِرَاطاً سَوِياً * يَا أَبَت لاَ تعْبُد الشيَّطْاَنَ إِنَّ الشَّيْطانَ كَانَ للرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّى أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَاّبٌ مِّن الْرَّحْمَنِ فَتَكُونَ للشَّيْطَانِ وَلِياً﴾ [مريم: ٤٣-٤٥].

وقد بدأ إبراهيم عليه السلام مواجهته لضلال أبيه بهذا الاستفهام:

(يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولايبصر ولايغنى عنك شيئاً) وأداة الاستفهام فيه هى «ما» دخل عليها حرف الجر «لـ» فحذفت ألفها تخفيفا.

هذه الأداة مرَّت بنا فى السفرين الأولين صور منها، ورصدنا أقوال الأئمة فيها بما لايدع ضرورة لتكرارها هنا، وسنشير إلى خلاصة ما قالوه فيها وفى نظائرها فى المبحث التالى تجنبا للتكرار.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولايبصر)** نداء إبراهيم بـ (الياء) الموضوع لنداء البعيد إشارة إلى بعد المنادَى عن المنادِى فى المذهب والاتجاه.

فإبـراهيم -المنادِى- مؤمن مـوحد لله، وأبوه -المنادَى- كـافر بالله مـؤمن بالأصنام، فشتان بينهما.

* وفى ندائه بالأبوة مضافة إلى ضميره ترقيق وتليين فى الخطاب تودداً إليه وتقربا منه لعله يسمع لقوله ويستجيب لنصحه.

* (**لمَ تَعْبُد..**) -الاستفهام -هنا- إنكارى وهو لإنكار الواقع لأن أبا إبراهيم كان يعبد الأصنام فِعْلا حين وجَّه اليه إبراهيم هذا القول.

والاستفهام مسلط علـى نفى السبب، الذى دعا أبا إبراهيم لعبادة الأصنام.. وهذا تعبير كنائى لطيـف، لأن الاستفهام عن شىء، وهو هنا سبب العبـادة، يقتضى عدم وجود ذلك الشىء الذى يستفهم عنه، ونفى السـبب يستلزم نفى المسبب، وهو العبادة التى أنكرها إبراهيم على أبيـه، والمعنى: يا أبت ليس لديك سـبب صحيح يـحملك على هذه العبادة للأصنام.

* (**مالايسمع ولايبصر**) كناية عن الأصنام، وعـدوله عن اسمـها الصـريح إلى المعنى الكنائى بذكر بعض أوصافها أبلغ ممـا لو قال: لاتعبد الأصنام، لأن فى ذكر الكناية نصا على أسباب الانكار فما لايسمع ولايبـصر إنما هو جماد فكيف يُخَصُّ بالعبادة وعبَّر عنها بـ(ما) التى لغير العاقل تحقيرا لها وازدراء.

* (**ولايغنى عنك شيئاً**) من عطف العام على الخاص. وقُـدِّم عليه الخاص، وهو نفى السمع والإبصار، لأنه سبب فى حصول العام.

* * *

٥ - ﴿قَـالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَـتِى يَا إِبْرَاهِيـمُ، لَئِن لَّمْ تَنْتَـهِ لأَرْجُـمَنَّكَ، واَهْجُرْنِى مَلِياً﴾ [مريم: ٤٦].

الدراسة والتحليل:

استمع أبو إبـراهيم إلى قول إبراهيم، وبدلاً من أن يتعقل ويفـتح قلبه للحق الذى سمعه، اشتد غضبه على إبراهيم، وأنكر عليه -بشدة- سبَّه للأصنام وحطه من شأنها وتوعده بالـرجم إذا عاد لمثل ما قـال، ثم أمره أن يغـرب عن وجهـه. فمـا كان من

إبراهيم الا أن يهتف فى وجه أبيه فيقول:

﴿سَلاَمٌ عَلَيْكَ، سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى، إِنَّهُ كانَ بِى حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىَ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٧-٤٨].

استفهم أبو إبراهيم قائلاً:

(أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم)؟ وقد وجَّه الأئمة هذا الاستفهام فى الآتى:

«أقبل عليه الشيخ فى فظاظة الكفر وغلظة العناد فناداه باسمه، ولم يقابل: (يا أبت) بـ(يابُنى) وقَدَّم الخبر على المبتدأ فى قوله **(أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم)**، لأنه كان أهم عنده، وهو -عنده- أعنى، وفيه- يعنى فى الاستفهام- ضرب من التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته، وأن آلهته لاينبغى أن يرغب عنها أحد)[1]

ويقول أبو السعود: **(أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم)** آى أمعرض ومنصرف أنت عنها، بتوجيه الإنكار إلى نفس الرغبة، مع ضرب من التعجب، كأن الرغبة عنها مما لايصدر عن العاقل فضلا عن ترغيب الغير عنها)[2]

فالإمامان يريان أن هذا الاستفهام للانكار والتعجب ويبدو أن أبا السعود لايرى فى الكلام تقديما وتأخيراً كما رأى الزمخشرى، والنظم يحتمل الوجهين.

وجاراهما الألوسى فى حمل الاستفهام على الانكار، ثم أشار إلى مسألة التقديم والتأخير التى ذكر الإمام جار الله[3]

والإمامان البيضاوى والشهاب سارا فى نفس الاتجاه من الاستفهام فى **(أراغب)** للإنكار مع التعجب[4]

وقد رجَّح الشهاب تقديم الخبر على المبتدأ، وأن الأصل: أأنت راغب، فقدم الخبر لزيادة الإنكار.

ولم يخرج بقية الأئمة، عما قاله هؤلاء. فالاستفهام هنا للإنكار والتعجب، فقد

---

(١) الكشاف (٢/ ٥١١).

(٢) تفسير ابى السعود (٥/ ٢٦٨).

(٣) روح المعانى (١٦/ ٩٨).

(٤) البيضاوى (٢/ ٣٣) والشهاب (٦/ ١٦٧)

سوَّل الشيطان لأبى إبراهيم أن آلهته هى مقصد الآمال، ولديها تحط الرحال وأن ابنه إبراهيم قد أتى بالشطط كله حين حمل عليها تلك الحملة، ونعتها بنعوت الخسة والحقارة. وهذا ما كان قد حذَّر منه إبراهيم أباه، وخوفه عذاب الرحمن من ولايته للشيطان.

أسرار انظم وبلاغياته:

* من بديه القول أن نقول إن فصل جملة **(قال)** فى صدر هذه الآية للاستئناف البيانى، الذى مرَّ تفصيله مرات.

وفى البدء بـ**(أَراغب)** سواء كانت مقدمة من تأخبر أو كانت فى مكانها من أول الأمر، فإن البدء بها فى التركيب اللفظى لأنها محط الإنكار، وقد أفاد هذا البدء أن الإنكار والتعجب المفادين من الاستفهام عامَّان فى كل راغب عن آلهة أبى إبراهيم، وليس مقصوراً على إبراهيم وحده.

ولو بُدىء بـ**(أنت)** لكان النظم نصا على إبراهيم مع جوازه لغيره، أى جواز الرغبة عن آلهة أبيه.

* **(لئن لم تنته لأرجمنك)** خطاب تهديد شديد ووعيد وقد أكد بالتوكيد القسمى زيادة فى ترهيب المخاطب وتحذيره.
* **(واهجرنى مليا)** ليس فى النظم مايصلح عطف هذه الجملة عليه، لذلك قدَّر الأئمة، معطوفا عليه محذوفا، أى: احذرنى واهجرنى، والعطف فيهما للتوسط بين الكمالين. يعنى: أغرب عنى مدة طويلة لا أراك خلالها.

* * *

٦ - ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ، هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

الدراسة والتحليل:

بعد الإشارات التى وردت فى السورة، والملامح السريعة لبعض الرسل، والثناء عليهم من الله، ثم التنبيه على أن أولئك الرسل هم الذين أنعم الله عليهم من ذرية إبراهيم ويعقوب ومن ذرية غيرهما، وأنهم كانوا يسارعون إلى طاعة الله عز وجل، وجاء من بعدهم خَلَفٌ أضاعوا الطاعات وساروا وراء الشهوات..

بعد هذا خاطب الله رسوله محمداً ﷺ فقال: ﴿.. **وما كان ربك نسياً، رب السموات والأرض وما بينهما..**﴾.

ثم أمره بعبادته والصبر عليها فقال: ﴿**فاعبده واصطبر لعبادته**﴾ ثم قال: ﴿**هل تعلم له سمياً**﴾.

وهذا أسلوب استفهام الأداة فيه هل. فما المراد من هذا الاستفهام الصادر عن الله علام الغيوب؟ الإمام الزمخشرى ذكر عدة وجوه فى المراد من معنى: (.. **تعلم له سمياً**)، أما الاستفهام فقد أفهم كلامه أنه للنفى، ومن أقواله فيه:

(هل تعلم من سمى باسمه على الحق دون الباطل[١]).

ومنها: (أى لم يُسم شئ بالله قط[٢]). وهذه الأقوال معناها: النفى.

وكان الإمام أبو السعود أكثر إفصاحاً عن المراد من الاستفهام من الإمام جار الله، وإن كان قد وافقه فى بعض الوجوه، قال رحمه الله:

(السمى هو الشريك فى الاسم، والظاهر أن يراد به ههنا الشريك فى اسم خاص قد عُبِّر عنه تعالى بذلك، وهو: رب السموات والأرض وما بينهما، والمراد بإنكار العلم ونفيه إنكار المعلوم ونفيه على أبلغ وجه وآكده..[٣]).

يريد أن يقول:

(١، ٢) الكشاف: (٢/ ٥١٧).

(٣) تفسير أبى السعود (٥/ ٢٧٤).

إن الإنكار والنفى هنا مسلطان على أن يكون فى الوجود من سُمِّى باسم (رب السموات والأرض وما بينهما)، هذا الوجه انفرد به أبو السعود، وقدمه فى الذكر على الوجوه التى ذكرها الإمام جار الله.

وأطال الإمام الألوسى فى النقل عن السلف فى بيان المعنى العام للعبارة، واستظهر ما قاله أبو السعود من أن النفى مسلط على اسم خاص هو: رب السموات والأرض، أما المراد من الاستفهام فاكتفى فيه بعبارة أبى السعود، قال: (وأياً ما كان فالمراد بإنكار العلم ونفيه إنكار المعلوم ونفيه على أبلغ وجه وآكده[1]).

وسيأتى شرح هذه العبارة فى مبحث أسرار النظم وبلاغياته بإذن الله.

أما الشهاب فقد تابع الإمام البيضاوى، وكانت عبارة البيضاوى هكذا:

(**هل تعلم له سمياً**): مثْلا يستحق أن يسمى إلهاً، أو أحداً سُمِّىَ الله[2])؟

فقال الشهاب شارحاً لعبارة البيضاوى:

(يعنى أن أصل السمى المشارك فى الاسم، وذلك يقتضى المماثلة.. فأريد بنفى السمى نفى المثل على طريق الكناية، ونفى السَّمِىِّ حينئذ يجوز أن يراد به نفى المشاركة فيما يطلق عليه مطلقاً[3]).

فالاستفهام عند الإمامين البيضاوى والشهاب معناه النفى لا الإنكار، وهذا توجيه سديد، لأن المخاطب هنا هو رسول الله ﷺ، ومحال أن يتصور منه وجود المنفى، وهو جواز أن يكون لله سَمِىٌّ، والإنكار - كما نعلم - يخاطب به من يدعى ثبوت الأمر الذى سُلِّط عليه الإنكار. وهذا جائز إذا كان المقصود بالخطاب غير النبى.

ونحا أبو حيان منحى الشيخين البيضاوى والشهاب فحمل الاستفهام على النفى، قال:

(فالمعنى: أنه لم يسمَّ بلفظ الله شئ قط[4]).

والخلاصة: أن الأئمة رددوا هذا الاستفهام بين معنيين:

---

(1) روح المعانى (١٦/ ١١٦).
(2) تفسير البيضاوى (٢/ ٣٧).
(3) حاشية الشهاب (٦/ ١٧٨).
(4) البحر المحيط (٦/ ٢٠٥).

* أن يكون المراد منه الإنكار، وقد قال بهذا أبو السعود والألوسى.

* أن يكون المراد منه النفى، وهذا يفهم من كلام الزمخشرى والبيضاوى والشهاب وأبى حيان، وهذا ما نميل إليه، وقد بيَّنا وجاهته آنفاً.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(رب السموات والأرض وما بينهما)** هذه العبارة كناية عن ملكية الله للكون كله، والظاهر أن (رب) خبر لمبتدأ محذوف تقديره: (هو) ففيها إيجاز بالحذف.

* **(فاعبده واصطبر لعبادته)** الفاء أشبه ما تكون بالسببية؛ لأن ما قبلها سبب وعلة فيما بعدها، لأنه إذا استقر أن الله مالك الملك كله، فحرى أن يُعْبَدَ وحده، وقد عُدِّى الفعل: **(فاصطبر لعبادته)**، باللام دون على؛ لأنه ضمن - كما قال أهل العلم - معنى: الثبات وزيادة تاء الافتعال التى أبدلت (طاء) للدلالة على الاجتهاد فى الصبر، وسعة الصدر فى تحمل المشاق.

* **(هل تعلم له سمياً)** تقدم عن بعض الأئمة أن نفى العلم المراد منه نفى المعلوم على أبلغ طريق وآكده. . وبيان هذا أن فى هذه العبارة كناية، وهى أبلغ من التصريح، لاشتمالها على قرن الدعوى بالدليل لذلك لم يُقَلْ: ليس له سمى، بل عُدِل عنه إلى: **(هل تعلم له سمياً)** لأن نفى العلم الكلى يستلزم نفى المعلوم، ونفى العلم هو دليل صدق الدعوى، التى هى نفى المعلوم. وإيثار (هل) وهى للتصديق إشارة إلى تحقيق النفى وتقريره.

كما أن إيثار المضارع (تعلم) على الماضى، علمت ليعم النفى جميع الأزمان، كما هو الواقع ونفس الأمر لذلك فإن قول البلاغيين أن (هل) تخصص المضارع بالاستقبال قاعدة أغلبية لا طردية، بدليل هذه الآية.

* * *

٧، ٨ - ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٦، ٦٧].

الدراسة والتحليل:

فى هاتين الآيتين دعوى ورد داحض لها، أما الدعوى ففى قول الجاحد للبعث بعد الموت الذى حكاه الله عنه، وأما الرد الداحض لهذه الدعوى فهو قول الله عز وجل: (**أولاً يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً**)، وقد ورد فى كل آية منهما استفهام:

ففى الأولى ورد: (**أئذا. .**). وفى الثانية ورد: (**أوَ لا يذكر الإنسان. .**).

وقد أجمع الأئمة على أن الاستفهامين مجازيان، كما كادوا يجمعون على المعنى المجازى المراد من كل منهما، ونورد فيما يأتى بيان ذلك:

يقول الإمام جار الله:

(كأنهم قالوا: أحقاً أنا سنخرج أحياء حين يتمكن فينا الموت والهلاك؟ على وجه الإنكار والاستبعاد، والمراد الخروج من الأرض، أو من حال الفناء. . وتقديم الظرف - يعنى إذا - وإيلاؤه حرف الإنكار - يعنى الهمزة - من قِبَل أن ما بعد الموت هو وقت كون الحياة منكرة) يعنى مستحيلة[(١)].

هذا ما قاله فى الاستفهام الأول. وقال فى الثانى، وهو: (**أوَ لا يذكر الإنسان. .**).

(الواو عطفت (**أو لا يذكر**) على (يقول)، ووسطت همزة الإنكار بين المعطوف عليه وحرف العطف، يعنى: أيقول ذلك ولا يتذكر حال النشأة الأولى حتى لا ينكر الأخرى، فإن تلك أعجب وأقرب وأدل على قدرة الخالق، حيث أخرج الجواهر والأعراض من العدم إلى الوجود، من غير حذو على مثال واقتداء بمؤلف، ولكن اختراعاً وإبداعاً من عند قادر جلت قدرته ودقت حكمته. . وقوله تعالى: (**ولم يك**

---

(١) الكشاف (٢/ ٥١٧).

شيئاً) دليل على هذا المعنى)[1].

نقلنا هذا الكلام بطوله - مع حذف يسير - لنفاسته وعظم شأنه، وقد صرَّح الإمام - هنا - بأن هذا الاستفهام للإنكار كالذى قبله.

فالأول كان للإنكار المسلط على البعث من القبور بعد الموت، أما الثانى فكان لإنكار ذلك الإنكار، أو تلك الدعوى التى زعمها جاحد البعث.

والذى يفهم من كلامه فى (يعنى أيقول ذلك ولا يتذكر..).

أن هذا المعطوف عليه، وهو: أيقول ليس هو (يقول) الأول، بل هو بدل منه، وتكون الواو عاطفة على مقدر وإن كان كلامه حين قال: (الواو عطفت أو لا يذكر) على (يقول) لا يتفق مع تقديره الثانى الذى انتهى إليه لأنه يفهم من كلامه الأول أن (أوَ لا يذكر) معطوف على (يقول).

أما أبو السعود فيكاد أن يكون كلامه تلخيصاً لكلام صاحب الكشاف، فالاستفهامان عنده للإنكار، وقد أردف على الإنكار فى الاستفهام الثانى التوبيخ حيث قال:

(والهمزة للإنكار التوبيخى[2])، ثم نص على ما قدمناه من كلام الزمخشرى فى شأن الذى عُطِف عليه (أوَ لا يذكر) فقال:

(والواو لعطف الجملة المنفية - يعنى: (أوَلا يذكر..) على مقدر دل عليه (يقول): أى: أيقول ذلك ولا يذكر[3]).

وكان الألوسى طويل الباع فى درس الاستفهام فى هذا الموضع، وهو وإن نحا منحى الإمامين جار الله وأبى السعود، فله إضافات دقيقة سنرجئ بعضها إلى مبحث أسرار النظم وبلاغياته، ونعجل - هنا - بالآتى:

* الإخراج فى قوله: (**أُخرج حياً**)، إن كان المقصود منه الإخراج من الأرض فهو حقيقى، وإن كان المراد الإخراج من حالة الفناء، فهو مجازى، يعنى استعارة تصريحية تبعية شبه فيها الانتقال المعنوى من حال إلى حال بالانتقال الحسى.

---

(1) المصدر السابق (ص ٥١٨). (٢، ٣) تفسير أبى السعود (٥/ ٢٧٤).

* جواز تسليط الإنكار على الوقت المدلول عليه بـ(إذا)، أى لن يأتى وقت تكون فيه حياة ثانية بعد الموت، وعقب على هذا بأنه إنكار للحياة الأخرى بطريق برهانى، يعنى أن نفى وقت تلك الحياة يقتضى نفى الحياة نفسها، ومراده بالطريق البرهانى الكناية التى اقترن فيها الدليل بالدعوى[1]، وكذلك ذهب الإمام البيضاوى[2]، وشارحه الشهاب[3]، فحملا الاستفهامين على الإنكار، إنكار الحياة بعد الموت، أو إنكار وقت الحياة ليترتب عليه نفى الحياة نفسها.

وقد قال بقية الأئمة فى المراد من الاستفهام - هنا - فى الموضعين إنه للإنكار مع الاستبعاد والسخرية فى الأول، وللإنكار مع التوبيخ فى الموضع الثانى.

وقد جمعنا بين الحديث عنهما فى موضع واحد لشدة ارتباط الثانى بالأول.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(ويقول الإنسان)**: لم يقل الأئمة شيئاً عن (الواو) فى (ويقول) ولا عن إيثار المضارع (يقول) على الماضى: قال، والذى لاح لنا أن (الواو) هنا للاستئناف والانتقال من غرض إلى غرض والغرض المنتقل إليه هو ضلال بعض الخلق، وما أصابهم من هواجس الشيطان فكفروا بالله خالقاً ومعبوداً.

أما إيثار المضارع فهو - فيما نرى - للدلالة على أن الكفر بالحياة الأخرى لم يختص بوقت دون وقت، بل هو موجود ما وجدت الحياة، وهذا لا يصلح للدلالة عليه إلا المضارع.

أما مجئ (الإنسان) معرفاً تعريف الجنس، فقد ذكروا فيه وجهين:

* أن يكون القائل بعضهم فأسند إلى (كلهم) مجازاً.
* أن يكون القائل بعضهم، وهذا الإسناد مقصور عليه، ولم ينصوا على المجاز فى هذه الصورة.

وقد نقل الشهاب نزاعاً بين العلماء حول الوجه الأول:

---

(١) روح المعانى (١٦/١١٧) وقد نص الشهاب على أن هذا القول الذى ذكره الألوسى نص عليه الطيبى، انظر الحاشية (٦/ ١٧٢).

(٢) تفسير البيضاوى (٢/ ٣٦). (٣) حاشية الشهاب (٦/ ١٧٣).

حاصله: أن الإسناد إلى (الكل) والقائل هو (البعض) يقتضى وجود مسوغ للإسناد إلى (الكل)، كأن يكونوا راضين بصدور هذا القول ممن قاله، وهذا الرضا معدوم لأن المؤمنين لم يرضوا بمقولة منكرى البعث فكيف يشتركون معهم فى الحكم بالإخبار عنهم بقول لم يقولوه، ولا هم راضون عنه؟

ولا ريب أن هذه حجة قوية ينبغى أن تلاحظ فى هذا المقام، وذكر الشهاب أن بعضهم لم يشترط هذا الشرط، بل سوغ الإسناد مع انعدام هذا الرضا؟

ونقول: هذا لا يصح لا شرعاً ولا لغة؛ لأن الشرع حسم هذا بقوله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ولأن اللغة لا تجعل غير فاعل فعل فاعلاً لذلك الفعل إلا على ضرب من التأويل، ولا تأويل يصح هنا.

وأياً كان الأمر فإن فى الآية إخراجاً على غير الظاهر، سواء قيل: إن القائل البعض والإسناد إلى (الكل) أو قيل: إن القائل: (البعض)، وأن الإسناد مقصور عليه[1].

والذى نراه - ونرجو أن يكون صواباً - هو أن المراد من (الإنسان) هنا من قال فعلاً هذا القول، وجاء الإسناد مطلقاً من قيد التخصيص به اعتماداً على القرينة الصارفة عن إرادة المعنى الظاهر، وهو التعميم، وهذه القرينة حالية دليلها الواقع، فما أكثر المؤمنين بالحياة الأخرى، وإن كانوا أقل من المنكرين لها.

وسر الإسناد إلى (الكل) فى الظاهر إشارة إلى تلك الأكثرية، والله تعالى يقول فى كناية العزيز:

﴿وَمَآ أَكْثَرُ النَّاسِ - وَلَوْ حَرَصْتَ - بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

* ﴿لسوف أخرج حياً﴾ توارد على إنكار (الإخراج) هنا مؤكدان، وهما:

(ما) فى (ما مت) واللام فى (لسوف) يعنى أن هذا الكافر يحكى توكيد الوحى

---

(١) ولهم فى المسألة وجه ثالث قالوا فيه إن الإسناد إلى الكل باعتبار أن كل إنسان يمر بهذا الإنكار قبل التأمل والنظر، ونقول إن هذا الوجه أو هى من بيت العنكبوت.

للبعث والنشور ثم يسلط عليه الإنكار، والتركيب صالح للدلالة على أحد معنيين:

* **الأول:** أن يكون لتوكيد إنكار البعث.

* **الثانى:** أن يكون لإنكار البعث المؤكد.

والذى يفهم من بعض كلام الأئمة فى هذا الموضع وفى نظائره أن المراد هو الأول، أى: توكيد الإنكار، والذى يلوح لنا أن المراد هو الثانى لا الأول، ودليلنا على هذا هو الآتى:

أولاً: أن (ما) في (ما مت) توكيد لتحقيق الموت والفناء، أى: أبعد أن يتحقق موتنا وفناؤنا يكون كذا؟

الثانى: أن التوكيد المفاد من اللام فى **(لسوف)** المراد به توكيد الإخراج المفاد من **(أُخرج حياً)**، ومعنى هذا أن هذين التوكيدين لا صلة لهما بالإنكار المفاد من الهمزة في (أئذا) لأنهما - كما تقدم مؤكدان لمعنيين آخرين - وعلى هذا يكون مراد هذا الكافر أن يُنكر البعث المؤكد فى لسان الشرع بعد وقوع الموت المحقق، ويكون قد قصد مع الإنكار السخرية والاستهزاء بورود الخبر مؤكدا بالحياة بعد الموت.

ويعضد ذلك أنه حذف فاعل الإخراج وبنى فعله للمجهول، قاصداً من هذا الحذف أن فاعل ذلك الإخراج لا وجود له، فإذا انتفى فاعل الفعل انتفى الفعل نفسه من الأساس.

وهذا ما قاله الأئمة فى مثله إنه تأكيد للنفى بالطريق البُرْهانى، وهو الكناية التى اقترن فيها بالدعوى دليل صدقها.

لأن فاعل الفعل لازم لوجود ذلك الفعل، فإذا بطل اللازم بطل الملزوم.

* **﴿أوَ لا يذكر الإنسان﴾** المراد بالذكر هنا: التفكر والنظر وإيثار الذكر، حيث أُطلق وأريد منه التفكر فى ماضى المخلوقات قبل خلقها، وفى حاضرها بعد خلقها، إشارة إلى أن التفكر والنظر العقلى المطلوب إنما هو تفكر من نوع خاص، يتوصل به الإنسان إلى أن يصبح ذكر البعث عنده حقيقة لا تغيب عنه لحظة من حياته، بدل هذا الكفر (الفج) والعناد الجاهل.

* وأوثر إظهار (الإنسان) مرة أخرى، وكان مقتضى الظاهر أن يُكتفى بإعادة ضميره عليه فيقال: أوَ لا يذكر أنا خلقناه، لإقامة الحجة عليه وبيان جهله فى ما ادعاه من إنكار البعث.

* ﴿**أنا خلقناه من قبلُ ولم يك شيئاً**﴾ أكد الخبر فى قوله تعالى: ﴿**أنَّا خلقناه**﴾ لأن الكافر المنكر للبعث مُنَزَّل منزلة من ينكر خلق نفسه لأول مرة من غير مثال سابق فأُكد له الخبر بمؤكدين:

أن - ثم اسمية الجملة، وفى هذا إخلاص له فى النصح وإزالة للشبهات التى حملته على إنكار البعث، وفيها استدلال عقلى برهانى خلاصته:

نحن خلقناه من لا شئ أول مرة، ومن كان هذا شأنه فهو قادر على إعادته مرة ثانية.

وهذه من بدائه العقول يدركها حتى الأطفال، فما أشد جهل هذا الكافر.

* أما تنكير (شيئاً) فدلالته هنا - على العدم - فى أجلى صور الوضوح.

وجملة الاستفهام الثانية (**أوَ لا يذكر الإنسان**)، وإن قال الأئمة إنها للإنكار فهى للحث والتهييج على ذلك التذكر، بل إننا لنرجح أن الاستفهام فيها مسوق لهذين الأمرين:

الحث على التذكر، ثم إفحام الخصم ودحض دعواه، ولا ثالث لهما.

* * *

٩ - ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣].

الدراسة والتحليل:

حينما يفرغ القلب من الإيمان الصادق بالله، يلتاث العقل وتخيم على العين غشاوة، ويصاب المرء بالصمم، فلا يحس ولا يبصر، ولا يفقه شيئاً، ويصدِّق عليه إبليس ظنه، فيريه الحق باطلاً، والباطل حقاً، والنافع ضاراً، والضارَّ نافعاً، وهذا

ناتج عن تلك الآفات، والعلل التى قلبت موازين الأمور وأحالت الضياء إلى ظلام حالك.

وآيتنا هذه تسجل على المشركين حصائد غبائهم، ومضحكات جهلهم الذى هم فيه.

فتراهم إذا سمعوا آيات الله تتلى عليهم يضيقون بها زرعاً ثم يزين لهم الشيطان ما هم فيه من كفر وعناد، فيملى عليهم أنهم - هم - فى الدنيا أكثر أموالاً، وأرغد عيشاً وأقوى عشيرة من الذين آمنوا الذين يستمعون إلى هذه الآيات، ويؤمنون بها، لأنهم فقراء مشتتون محرومون من نعم الحياة، فلو كانوا فعلاً أولياء لله بإيمانهم لما تركهم الله هكذا فى الفقر والحرمان وشدة الضعف، بل اعتقد هؤلاء الكفرة أن ما هم فيه من نعيم وقوة دليل على كرامتهم عند الله، وصدق وصحة عقيدتهم؛ فواجهوا المؤمنين بهذا الاستفهام:

(أى الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً)؟

يعنى: هل أنتم أكرم منا وأسعد حالاً فى الحياة أم نحن؟ تاركين تعيين الفريق المستفهم عنه للذين آمنوا، ليرجعوا إلى أنفسهم، وليعلموا أن المشركين هم خير مقاماً وأحسن ندياً، ويعنون النَّدِىِّ النادى، يعنى كثرة العشيرة وقوة الشكيمة، وشدة البطش.

ويعنون بـ(المقام) رغد العيش، والتمكن فى الأرض بوفرة النعيم، وكثرة اللذائذ من مطعوم ومشروب، ومركوب ومأوى.

وقد تولى الله الرد عليهم، وانتصر منهم لعباده المؤمنين فبين لهم أنه أهلك من قبلهم أجيالاً وأمماً كانوا أسعد منهم حظاً فى الدنيا، وأكثر أموالاً وأولاداً وأبهى طلعة وأضخم أجساماً، لأنهم كفروا كما كفر هؤلاء، وعاثوا فى الأرض فساد كما عاثوا.

وبيَّن لهم أن من سننه فى خلقه أن يمهل أهل الكفر والظلم والطغيان، ويزيدهم ضلالاً فوق ضلالهم، ويستدرجهم من حيث لا يعلمون، فإذا قام الناس لرب العالمين

فسيعلم الذين ظلموا أنهم كانوا هم الأخسرين، وقد انتظمت الآيتان الآتيتان هذه المعانى:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا * قُلْ مَن كَانَ فِى الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا، حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ [مريم: ٧٤، ٧٥].

أمَّا الاستفهام فى قولهم للذين آمنوا: **(أى الفريقين خير مقاماً وأحسن نديا)** فلم يصرح الأئمة فيه بشئ، ويفهم من كلامهم عن المعنى العام للآية أنه للتقرير، أى الذين كفروا يقررون بهذا الاستفهام الذين آمنوا بأنهم - أى الكافرين - هم خير مقاماً من الذين آمنوا ، وهم الأحسن ندياً، ولو لم يفهم من كلامهم هذا المعنى لما وسعنا إلا القول به.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات)**: عطفت جملة **(إذا تُتْلى عليهم)** على جملة: **(نذر الظالمين)** لما بين الجملتين من التوسط بين الكمالين، لأنهما خبريتان لفظاً ومعنى.

وإيثار (إذا) على (إن) إيذان بأن تلاوة آيات الله عليهم أمر محقق لا محالة لأن تبليغهم واجب على صاحب الرسالة ﷺ.

وبناء الفعل المضارع **(تُتْلى)** لما له يسم فاعله ليشمل الفعل جميع الدعاة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لأن الغرض حصل بالحدث نفسه - التلاوة - دون توقفه على فاعل معين.

* وإضافة **(آيات)** إلى ضمير الجلالة والعظمة (نا) ثم وصف **(آيات)** بأنها بينات للمبالغة فى إلزامهم الحجة، وقطع كل الأعذار عنهم مع التشنيع عليهم، لأن المتلو هو آيات الله الواضحة الدلالة على المقصود منها.

وفى حذف فاعل (تُتْلى) إيجاز بحذف الفاعل له نكتتان بلاغيتان. إحداهما الإيجاز والأخرى الشمول لجميع الفاعلين.

* **(قال الذين كفروا للذين آمنوا. .)** إيثار الماضى (قال) للإيذان بتحقق وقوع هذا القول

منهم، وإيثار الموصول وصلته (**الذين كفروا**) على ضمير المتحدث عنهم، وكان الظاهر أن يقال: قالوا، لتقدم مرجع هذا الضمير وهو: الظالمين لما فى الموصول وصلته من النعى عليهم بـ(الكفر).

* وبين (**كفروا**) و(**آمنوا**) طباق إيجاب اقتضاه المقام ثم إن النص على أن الذين كفروا قالوا هذا القول للذين آمنوا للدلالة على بالغ جهلهم إذْ فضلوا أنفسهم، وهم كافرون أغبياء، على الذين آمنوا، وهم مهتدون فطناء.

* (**أى الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً**)؟ سلكوا فى مخاطبتهم للمؤمنين - هنا - مسلك تجاهل العارف حسب اعتقادهم، فردَّدوا الخيرية والأحسنية بينهم وبين المؤمنين وهم يعتقدون تفردهم هم بها، راجين أن يتفكر المؤمنون ثم يعترفوا لهم بالخيرية والأحسنية انخداعاً ونزولاً على مقاييسهم الفاسدة بأن من كان أسعد حظاً فى الدنيا كان أفضل، ومن كان أقل حظاً كان أحقر، وفى هذا الأسلوب إيجاز بالحذف تقديره: نحن أم أنتم؟

ولا يخفى أن فى هذا الخطاب الذى خاطبوا به المؤمنين تعريضاً بهم، بأنهم هم شر مقاماً، وأسوأ عشيرة؟ كما يسمى - بلاغة - بـ «الكلام النصف».

وهكذا سوَّل لهم الشيطان فأضلهم وطمس على قلوبهم.

* * *

١٠ ، ١١ - ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً * أَطَّلَعَ الغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾ [مريم: ٧٧، ٧٨].

الدراسة والتحليل:

الآية الأولى تسجيل لما خَرِفَ به كافر جاهد بآيات الله قيل هو الوليد بن المغيرة، وقيل - وهو المشهور - أن الآية نزلت فى العاصى بن وائل، قاله لخبَّاب بن الأرتِّ وكان له دين على العاصى هذا فطالبه به، فقال العاصى لخباب المؤمن:

إنكم تزعمون أنكم تبعثون، وأن فى الجنة ذهباً وفضة وحريراً، فأنا أعطيك هناك؟ هذا ما ذكروه سبباً فى النزول، والمتبادر إلى الذهن أن هذا الكافر بآيات الله أملى عليه

شيطانه أن حاله سيتبدل هنا فى الحياة الدنيا، وأنه سيصير غنياً ذا مال، وقوياً ذا عشيرة وولد.

يقوى هذا أن الله رد عليه فسفَّهه وجهَّلَهُ وأبطل زعمه، وعرَّى دعواه من كل دليل، لأن ما يُرْزَقُهُ العبد فى المستقبل لا يعلمه إلا الله، فمن أين ضمن هذا الكافر أنه سيكون له مال وولد؟

هل أطلع على الغيب فيعلمَ منه ما ادعى؟ أم بيده عهد من الله بهذا الذى ادعاه؟ ولما كان هذان الأمران منفيين لزمه الكذب والافتراء.

وقد ورد فى الآيتين ثلاث صور استفهامية:

الأولى: (أفرأيت الذى كفر بآياتنا..)؟

والثانية: (أطلع الغيب) والهمزة فيها مقدرة.

والثالثة: (أم اتخذ عند الرحمن عهداً)؟

ويقول الإمام جار الله فى الأولى:

(لما كانت مشاهدة الأشياء ورؤيتها طريقاً إلى الإحاطة بها علماً، وصحة الخبر عنها استعملوا: أرأيت فى معنى أخْبِر - يعنى فعل أمر - والفاء جاءت لإفادة معناها - يعنى الوصفى - الذى هو التعقيب، كأنه قال: أخبر أيضاً بقصة هذا الكافر، واذكر حديثه - يعنى قصته - عقيب حديث أولئك[1]).

هذا ما ذكره فى الصورة الأولى، أما الثانية فقد قال فيها: (.. وقد بلغ من عظمة شأنه أن ارتقى إلى علم الغيب الذى توحَّد به الواحد القهار، والمعنى: أن ما ادعى أن يؤتاه - يعنى يُعطاه - وتألى عليه - يعنى أقسم - لا يُتوصَّل إليه إلاَّ بأحد هذين الطريقين: إما علم الغيب وإما عهد من عالم الغيب، فبأيهما توصل إلى ذلك[2])، ومعنى هذا أن الاستفهامين فى الآية الثانية كلاهما للإنكار، ولم يبين إن كانت (أم) متصلة أو منقطعة.

وأدلى الإمام أبو السعود بدلوه فى بيان المراد من الاستفهام فى الآيتين، وكلامه

(١، ٢) الكشاف (٢/ ٥٢٢).

قريب من كلام الإمام جار الله، بيد أنه أضاف التعجيب إلى الإنكار، وبيَّن ما عطفت عليه الفاء فى (أفرأيت) قال:

(فالهمزة للتعجيب مـن حاله، والإيذان بأنها من الغرابة والشناعة بحيث يجب أن تُرى، ويقضى منها العجب[1])، وقال فى تقدير المعطوف عليه:

(والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أى: أنظرت فرأيت الذى كفر بآياتنا. . . أى انظر إليه وتعجب من حالته البديعة، وجرأته الشنيعة[2]).

وتابع الإمام الألوسى مـا قاله الإمام أبو السعـود، ونقله باللفظ والمعنى، وكان أبو السعـود قد جـوَّز دلالة (أرأيت) على غـيـر: أخبـرنى، من المعـانى الأخـرى التى تناسبها[3].

فجاء الإمام الألوسى وجزم بأن (أرأيت) هنا لا يصح حملها على: أخبرنى، قال: (وإرادة أخبرنى - هنا - مما لا يكاد يصح، كما لا يخفى)[4].

وكان الإمام جار الله قد استشعر هذا من قـبل، ثم احتال لتحاشيه، فقال إن المراد من **(أرأيت)** فى الآية هو: (أخْبِرْ) دون إيـقاع الفعل على ضميـر المتكلم وهو الله عز وجل[5].

وسنعود إلى هذه الأقوال فى مبحث بلاغيات النظم لأن لها - بالنسبة لنا - اعتباراً خاصاً.

ولخص الإمام البيضاوى كلام الزمخشرى فقال فى معنى (أرأيت):

ولما كانت الرؤية أقوى سند الإخبار، استعمل أرأيت بمعنى الإخبار.

وقال: إن معنـى (أم) هو معنى (أو) يعنى أنها لمجرد العطف والتنويـع، معراة عن الاستفهام[6].

واقتصر كلام الشهاب على بيان نوع المجاز فى استعمال: **(أرأيت)**، بمعنى أخبرنى، فقال إنه مجاز مرسل من إطلاق السبب، وهو الرؤية وإرادة المسبب وهو الإخبار[7].

(١ : ٣) تفسير أبى السعود: (٥/٢٧٩).
(٤) روح المعانى: (١٦/ ١٣٠).
(٥) الكشاف (٢/ ٥٢٢).
(٦) تفسير البيضاوى: (٢/ ٣٩).
(٧) حاشية الشهاب (٦/ ١٨٠).

والخلاصة: أن الأئمة متفقون على أن هذه الاستفهامات الثلاثة مجازية وأن الاستفهام الأول: (**أفرأيت**) معناه أخبرنى، أو أخبر وهو الذى شاع فى كلامهم وإن عارضه بعضهم كما تقدم.

أما الاستفهامان الثانى (**أطلع**) والثالث (**أم اتخذ**) فهما للإنكار والتعجيب.

ولم يتعرضوا لـ(أم) سوى الإمام البيضاوى الذى جعلها بمعنى (أو) كما تقدم.

والواقع أن (أم) متصلة، ومعناها مع معنى الهمزة فى (أطلع) أن أيًّا من الأمرين لم يحدث لا الإطلاع على الغيب، ولا اتخاذ عهد عند الرحمن، وحرى بأن يكون هذا الاستفهام فى الصورتين لما هو أشد من مجرد الإنكار، أعنى: التكذيب والإفحام.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (**أفرأيت**) جرت عادة المفسرين والبلاغيين ثم النحاة أن يفسروا: (**أرأيت**) كيفما جاءت بمعنى أخبرنى، فإذا لم تظهر وجاهة لهذا التفسير - كما حدث فى هذه الآية قطعوا الفعل عن المفعول، وصار المعنى عندهم: أخبرْ بدون المفعول الذى اطرد تقديره عندهم بـ(ياء) المتكلم، سواء كان الفاعل مفرداً، أو مجموعاً، أعنى: أخبرنى - أخبرونى، وكان أول من لجأ إلى هذا التفسير هنا هو الإمام جار الله الزمخشرى، ثم تابعه بعضهم، إلا البيضاوى جرى على التفسير الأول، وهو: أخبرنى.

ثم أشار أبو السعود إلى جواز تفسير: (أرأيت) بمعانٍ يقتضيها المقام غير أخبرنى.

أما الألوسى فقد ذهب إلى أن تفسير (أرأيت) هنا بمعنى أخبرنى لا يكاد يصح.

وهذه إلماحات جيدة من هؤلاء الأئمة الثلاثة، وفى هذا توكيد لما ذهبنا إليه مراراً فى هذه الدراسة، من أن معنى أخبرنى ليس بلازم فى هذا الاستفهام كيفما وحيثما ورد فى كلام الله العزيز، وفى غيره.

وأن الأولى أن يكون هذا الأسلوب الاستفهامى الكثير الورود فى النظم القرآنى الحكيم لإثارة النفوس، ولفت الأنظار نحو معمول الرؤية أو المستفهم عنه بها من أجل

أن تستحضر صورته فى الأذهان، ليُحكم عليه وهو ماثل فيها، فيتمكن المعنى فى النفس كل تمكن.

وتطبيق هذا المنهج على الآية التى هى موضوع الدراسة هنا يسير.

فإن النظم الحكيم بعد أن هيأ أسباب حضور الذى كفر بآيات الله وحضور دعواه التى ادعاها من توفر المال والولد لديه فى الآخرة أو فى مستقبل حياته، بعد هذا حكم على دعواه وأظهر بطلانها بأقطع دليل وأنصع برهان، وقد تقدم توضيح ذلك فى المبحث السابق.

وها هم ثلاثة من الأئمة يلمحون إلى هذا التوجيه بما يؤكد صحته وصدقه، وترشيحه للقبول.

والرؤية - هنا - علمية قلبية، وإطلاق الرؤية على العلم الذهنى مجاز مرسل من إطلاق السبب وإرادة المسبب، والسر فى إيثار الصلة والموصول (**الذى كفر بآياتنا**)، النعى والتشنيع على هذا الكافر، وقبح فعله.

* (**لأوتين مالاً وولداً**) زيادة تشنيع وتكذيب بسبب أنه أكد أوهامه بالقسم وما يلزم فى جوابه من مؤكدات، مدعياً تحقق مالا سبيل إلى العلم بوقوعه.
* وفى (**أطلع الغيب**) كناية عن الإحاطة بشئون الله، وما هو قاضٍ به فى المستقبل، وهذا توغل فى الدعوى مع خلو المدعى من هذه الإحاطة لبيان قبح زعمه وتطاوله.

وفى (**اطلع**) استعارة للاستشراف من عَلُ، حيث شبه حاله بحال من صعد جبلاً عالياً أمكنه من رؤية كل ما يحيط به وإن قدرت فى جملة الكلام استعارة مكنية شبه فيها الغيب بمكان عال جاز هذا التقدير، ويكون مغزى هذه الاستعارة هو التمكن والإحاطة.

* وفى الجمع بين الإطلاع واتخاذ عهد عند الرحمن حصر للأقسام التى هى طريقان لتحصيل العلوم لما يختص الله وحده بعلمه ولما نفيت هاتان الوسيلتان ظهر كذب الدعوى والمدعى معاً.

وفى إيثار ذكر (الرحمن) من بين الأسماء الحسنى لما فى (الرحمن) من معانى البر والإحسان حتى لمن لا عهد لهم عنده، فما بالك لو كان عند الرحمن عهد لأحد، أما يكون أجدر بالوفاء بالعهد.

وفى اتحاد الفاصلتين على حرف الدال: (ولداً - عهداً) سجع اقتضاه المعنى، مع تناسق النغم الصوتى، وهو من سمات الإعجاز النظمى فى كتاب الله.

* * *

١٢ - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية - مع قصرها - مسوقه هى وما بعدها تسلية لصاحب الرسالة ﷺ، حتى لا يشقيه كفر الكافرين ولا سخرية الساخرين، فهؤلاء قد سلط الله عليهم إخوانهم الشياطين، لأنهم أعرضوا عن الهدى، وألحقوا بالمهتدين الأذى، ومهما طالت بهم الحياة فلهم عند الله أجل لا ريب فيه وما الله بغافل عما يعملون:

﴿فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ، إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا * يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً* وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً﴾ [مريم: ٨٤ - ٨٦].

وقد صدرت الآية - موضوع الدراسة - بهذا الاستفهام: **(ألم تر...)** وهو - بصيغته هذه **(ألم تر)** - استفهام تقرير وتشويق، وإفادته للتقرير لا يكاد يُخْتَلَفُ فيها بين الأئمة والبلاغيين، اللهم إلا بعض المواضع شذ فيها بعضهم نادراً، وكنا قد تعقبنا هذا من قبل فى السفرين الأولين، وبينا الصواب فيه.

وفى هذا الموضع رأيناهم يحملون الاستفهام على التعجيب أى تعجيب رسول الله ﷺ وتعجيب المؤمنين من حال الكافرين، ثم لم يفرق بعضهم بين إن كان التعجيب من رؤيتهم مسلطاً عليهم الشياطين، وبين أن يكون من عدم رؤيته ﷺ تلك الحال، فهذا الطاهر بن عاشور يرى التعجيب مسلطاً على عدم تلك الرؤية فيقول: (والاستفهام فى **(ألم تر)** تعجيبى، ومثله شائع فى كلام العرب، يجعلون الاستفهام على نفى فعل والمراد حصول ضده بحث المخاطب على تحصيله، أى كيف لم تر[1])؟

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ١٦٥).

وقد وَهِـمَ فى كلامـه لأن الفعل هنا مـثبت لا منفى، حـيث دخلت عليه هـمزة الاستفهام فسلبت النفى الواقع على الفعل بـ«لم» وكان الإمام جار الله أسد نظراً حين جعل التعجيب لرسول الله من حال الكافرين الذى فُصِّل قبل هذه الآية، فى مثل قوله تعالى:

﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

لذلك قال الإمام الزمخشرى:

(والمراد تعجيب رسول الله ﷺ بعد الآيات التى ذكر فيها العتاة والمردة من الكفار، وأقاويلهم وملاحاتهم ومعاندتهم للرسل، واستهزاؤهم بالدين[١]).

والخلاصة: أن الاستفهام فى الآية للتقرير، أما التعجيب الذى ذكروه فهو ردف له.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿ألم تر..﴾** الرؤية هنا رؤيا علمية من خـلال الآيات التى نزلت تنبئ الرسول ﷺ بضلالات الذين كفروا ومعاداتهم للحق.

والاستـفهـام لتقـرير هذا العلم وتحقـيقه، وهو المراد أصـالة من الاستـفهـام، أما التعجيب والحث فهما معنيان ناشئان عنه، لا أنهما مقصودان أصلاً من الاستفهام.

* **﴿أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين﴾** أُكد الخبر بـ«أن» واسمية الجملة لتقرير مضمون الكلام، وأنه واقع فعلاً كما أخبر الله عنه، ومن أصدق من الله قيلاً؟

* وإيثار (**على**) بدلاً من (إلى) أو اللام، لتضمن (**أرسلنا**) معنى سلطناً، وللدلالة على سيطرة الـشياطين وتمكنهـم من إضلال الكفرة وتزيين الـباطل لهم وإغرائهـم عليه والكلام يصح حمله - هنا - على الاستـعارة المكنية، شبه فيـها (الكافرين) بالمطايا اعتلتهم الشياطين وتمكنت من قيادهم فأوردتهم المهالك، وكفى بذلك مهانة.

* **﴿تؤزهم أزًا﴾** أى تهيجهم وتغريهم وتزين لهم الكفـر والمعاصى، والأز هو التهييج والالهاب، وهو مأخـوذ من أزيز القدر إذا غلت فوق النار، شبه تحـريك الشياطين

---

(١) الكشاف (٢/ ٥٢٤).

لهم بغليان الماء بجامع شدة الاضطراب والتبديد، لأن الماء إذا غلى تبخر وتبدد، وكذلك الكافرين يعيشون فى قلق واضطراب، فإذا ماتوا خسروا الآخرة كما خسروا الدنيا، وذلك هو الخسران المبين.

وإيثار المضارع (**تؤُزهم**) للإيذان بأن ذلك الإغراء من الشياطين يتجدد حالاً بعد حال ولا يتوقف أبداً، وقد أكدا هذا الفعل بالمصدر (أزّا) للدلالة على شدة تأثير الشياطين فى أوليائهم الكافرين واستعمال (**الأز**) فى التهييج والتحريك والالهاب مجاز استعارى، شبه الميل النفسى نحو المعاصى والشرور بصورة حسية موحية، أخرجت مالا يُبْصر مُخرج ما يبصر تهويلاً له، وتنفيراً منه.

وجاء فى ترتيب القاموس المحيط، مادة: أزز:

(آزَّتْ القدر تئز وتؤُزُّ آزّا.. اشتد غليانها) والنار أوقدها.. والشئ حركه شديداً، وصبُّ الماء وإغلاؤه، وضربان العِرْق.. ووجع فى خُرَّاج ونحوه[1].

فأنت ترى أن المعانى اللغوية لمادة: أَزَزَ، يغلب عليها استعمالها فى المعانى التى لا تؤلف وينبو عنها الطبع، ومن أجل هذه الإيحاءات استعير الأز فى الآية لتأثير الشياطين فى أوليائهم.

* * *

١٣ - ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً﴾ [مريم: ٩٨].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية هى خاتمة سورة مريم، وقد اشتملت علَى وعْدٍ ووعيد.

فأما الوعد فهو لصاحب الدعوة ﷺ بانتقام الله من خصوم الدعوة إذا استمروا فى كفرهم وعنادهم.

وأما الوعيد فهو لأولئك الكفرة الذين تحرشوا بالدعوة وصاحبها وأتباعه من المؤمنين، فالله تعالى قد أهلك من قبلهم كثيراً من القرون، أى الأجيال أو الأمم الذين

---

(١) ترتيب القاموس على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة عمل الأستاذ الطاهر أحمد الزاوى.

عصوا الله ورسله، فإذا ظلوا علـى عنادهم وكفرهم واستهزائهم بالدين فـإن مصيرهم سيكون المصير الذى حلَّ بأسلافهم من العتـاة الفجرة وقد ورد فى الآية أداتا استفهام: الأولى (**كم**) وهى هنا خبرية معناها كثير، وليست استفهامية.

والثانيـة هى: (هل) ولا تأتى إلاَّ استفـهاميـة، وقد تجاوزها الأئمـة، فلم يبينوا - صراحة - المعنى المجازى المراد منها، إلا القليل منهم، كـالألوسى وابن عاشور، فقد أشار الإمام الألوسى إلى ذلك المعنى فقال:

(والاستـفهام فى مـعنى النفى، أى: ما تشعـر بأحدٍ منهم[1]) ونحا نحـوه الإمام الطاهر بن عاشور، فقد قال: (والاستفهام فى: (**هل تحس منهم من أحد**) إنكارى[2]).

هذا ما قالاه، ولكن عبارة الإمام الألوسى أصوب من عبارة الإمام الطاهر:

الأول قال: معناه النفى، والثانى قال معناه الإنكار، وقد فرقنا من قبل فى السفرين الأولين بين مصطـلحى النفى والإنكار اللذين يدل عليهـما الاستـفهـام المجازى، قلنا هناك ما معناه:

إن الإنكار يخاطب به من يدَّعى الإثبات، أو يقترف عملاً محظوراً.

والنفى يقرر الحقيقة من حيث هى دون أن يـكون فى الاعتبار أن للمخاطب موقف منها يخالف ما يقوله المتكلم.

والمخـاطب فى هذه الآية: (**هل تحس منهـم من أحـد**) هو صاحب الـرسالة ﷺ، ومحـال أن يكون فى ذهنه خلاف مـا يدل عليه الاسـتفهـام من قطع دابر الأمم التى أهلكها الله، فغير مقبول ما قـاله الإمام الطاهر من أن الاستفهام المخاطب هو به معناه الإنكار.

وحتى لو قلنا بتعميم الخطاب هنا ليشمل غير صاحب الرسالة ممن جاء بعده أو كان فى عصره فإن الإنكار غير بلاغى فى حقهم، لأنه لا يوجد أحد يدعى أن عاداً وثمود وأصحـاب الأيكة، وقوم لوط بقى لهم أثر ممتـد إلى عصر الرسـالة، وهذا الفرق بين الإنكار والنفى ينبـغى أن يكون ماثـلاً فى الذهن لمن ينظر فى كتـاب الله، أو يشتـغل

---

(1) روح المعانى: (١٦/ ١٤٤).

(2) التحرير والتنوير: (٦/ ١٦٨).

بدراسة النصوص، ويستشف دلالاتها البلاغية أياً كان مصدر تلك النصوص.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**وكم أهلكنا قبلهم من قرن**﴾: الواو للعطف على جملة (**وتنذر به قوماً لدا**)، وهو أولى من أن يكون المعطوف عليه (**فإنما يسرناه بلسانك**)، وذلك لسببين: الأول: مناسبة المعنى للمعنى، لأن (**كم أهلكنا**)، يناسب: (**تنذر قوماً لُداً**)، والثانى: قُرْبية الجملة المعطوفة من الجملة المعطوف عليها.

* ﴿**من قرن**﴾ للقرن معنيان، فإما أن يراد به مقدار من الزمان أو مقدار من الناس يقترن بعضهم ببعض فى الحياة.

فعلى الاعتبار الأول يكون فى (قرن) مجاز عقلى علاقته الزمانية حيث عُبِّر بالزمن وأريد من يعيشون فيه، والنسبة إيقاعية مثل: نوَّمت الليل وأنت تريد نوَّمت الناس ليلاً.

وعلى الاعتبار الثانى يكون فى الكلام كناية عن الأجيال التى اقترن أفرادها فى الوجود. كما أن فى (كم) كناية عن الكثرة.

ويراد بالقرون الكثيرة الذين أهلكهم الله: إما الأمم التى كذبت الرسل فعذبها الله عذاب الاستئصال كعادٍ وثمود أو جميع الأجيال بأن توفاهم الله جميعاً.

وهذه الجملة الخبرية (**وكم أهلكنا**) المراد من الخبر فيها الوعيد على سبيل المجاز المرسل، حيث أطلق الخبر من الدلالة على فائدة الإخبار ولازمها ثم قيد فى الدلالة على الوعيد والإنذار إما بالتلويح إلى انتقام الله من المجرمين أو إشارة إلى أن الخلق جميعاً صائرون إلى الله، وأن كل نفس بما كسبت رهينة، فريق فى الجنة وفريق فى السعير.

* ﴿**هل تحس منهم من أحد**﴾: هذا الاستفهام مجازى، مراد منه نفى الإحساس المستفهم عنه، أو تقرير نفى الإحساس، أى: أنت لا تحس منهم من أحد، و(من) فى (**من أحد**) معناها استغراق جميع الأفراد، وهى داخلة على المفعول لإفادة هذا المعنى، والأصل: هل تحس منهم أحداً؟ وليست (من) هنا بيانية كما قال الشيخ

الطاهر بن عاشور والجملة كناية عن صفة (الفناء) أو (الإفناء) الذى حل بهم.

* ﴿**أو تسمع لهم ركزاً**﴾: أى: **لا** تسمع.. والركز كما قال الأئمة الصوت الخافت الضعيف أياً كان مصدره ألسنتهم أو **أقدامهم** تمشى على الأرض.

والجملة كناية أخرى عن الفناء أو **الإفناء**، وقد دلت الكنايتان على نفى أمارات الوجود المدرك بالبصر فى (**هل تحس**) لتضمن الإحساس معنى الرؤية.

والمدرك بالسمع فى: (**أو تسمع لهم ركزاً**)، والعطف على (**هل تحس**)، استئناف غير بيانى مبالغة فى استغراق النفى من جميع الجهات؛ لأن الذى لا يُرى ولا يُسمع، وكان مرئياً مسموعاً، لا وجود له.

* وتنكير (**أحداً**) و(**ركزاً**) للتحقير، أى هل تحس أى أحد كان، أو تسمع لهم أى حركة، ونفى المفرد (**أحد**) يستلزم نفى ما هو أكثر منه، كما أن نفى (**الأدنى**) من شئ يقتضى نفى (الأعلى) من ذلك الشئ نفسه، وإيثار (**هل**) لتحقيق النفى.

* * *

سورة طه

سورة (طه) وضعها فى المصحف بعد سورة «مريم» وهما كذلك متعاقبتان فى النزول: مريم فطه. وهى سورة مكية كان ترتيب نزولها يحمل الرقم الخامس والأربعين. وبعدها نزلت سورة (الواقعة).

وقد ورد فيها صور استفهامية، كان أولها ما ورد فى قول الحق تبارك وتعالى:

* * *

١ - ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [طه: ٩].

وصلة هذه الآية بما تقدمها من آيات مطلع السورة، أن الله نادى رسوله فى أول آية فيها، ليخفف عن نفسه من الأعباء التى يعانيها فى سبيل إيمان قومه، ومواصلة الجهود الشاقة التى ألزم بها نفسه:

﴿طَهَ. مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى * تَنْزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلاَ * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى * وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه: ١ - ٨].

وهذا الاستطراد بعد تيسير الله على رسوله أمر الرسالة لبعث الطمأنينة فى نفسه، وأن الله عز وجل هو المهيمن على العباد، وبيده مقاليد الأمور، ولا يخفى عليه شَىء فى الوجود، ولما كان فى قَصَصِ الرسل الأولين ما يخفف على رسول الله وطأة المعاناة، شرع الله فى سوق قصة موسى عليه السلام وما فيها من مشاق، تثبيتًا لرسوله الكريم. وقد مهد النظم الحكيم لسوق هذه القصة بهذه الآية:

(**وهل أتاك حديث موسى**)؟ أى قصته وأخباره فى ظل رسالته إلى فرعون، ورسالته إلى بنى إسرائيل.

وهذا الاستفهام مجازى باتفاق لصدوره عن الله عز وجل والله لا يخفى عليه شىء

فى الأرض ولا فى السماء: (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى).

فما المراد إذًا من هذا الاستفهام؟

لم نظفر بجواب عند الأئمة، سوى أن الإمام الألوسى ذكر فيه هذه الجملة:

(والاستفهام تقريرى. وقيل: (هل) بمعنى (قد) وقيل الاستفهام إنكارى ومعناه النفى. أى ما أخبرناك قبل هذه السورة بقصة موسى»[1].

وللطاهر بن عاشور رأى آخر، فقد قال:

(والاستفهام مستعمل فى التشويق إلى الخبر مجازا. وليس مستعملا فى حقيقته، سواء كانت هذه القصة قد قُصَّتْ على النبى ﷺ من قبل، أو كان هذا أول قصصها عليه)[2]. وهذا أصح مما ذكره الإمام الألوسى من قبل.

والخلاصة: أن هذا الاستفهام مجازى المراد منه التشويق وإثارة الذهن نحو ما يعقب المستفهم عنه، وبخاصة أن ما ورد بعده قصة، وتوفر النشاط الذهنى والنفسى من وسائل حسن التلقى والمتابعة وتمكن المعانى فى الوجدان أما الإنكار الذى أشار إليه الألوسى ففيه تكلف، والمقام يأباه أو لا يساعد عليه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(وهل أتاك)**: الواو قبل (هل) لربط ما سيرد من عرض القصة بما تقدم من أول السورة إلى هذا الموضع. والمعطوف عليه هو جملة المعانى لا جملة بعينها، وهو ما يسميه المفسرون: عطف قصة على قصة. لذلك ساغ - هنا - عطف الإنشاء على الخبر، وهو - فى الأصل - ممتنع، أو خلاف الأولى.
* **(حديث موسى)**: حديث فاعل (أتاك) والحديث لا يأتى وإنما يؤتى به. ففى الكلام استعارة مكنية شبه فيها الحديث - لعلو شأنه - بالعاقل ذى الإرادة والقدرة على (الاتيان) اعتناء به. وإظهاراً لجلاله. وإسناد (أتى) إلى (حديث) هو قرينة المكنية. أو مجاز عقلى أسند فيه الفعل لمفعوله. وفيه من المبالغة ما فى الاستعارة المكنية.

---

(١) روح المعانى (١٦/ ١٦٥). (٢) التحرير والتنوير (١٦/ ١٩٣).

* وفى بناء الفاصلة على الألف المقصورة فى (الحسنى) و (**موسى**) سجع رصين، سيق لخدمة المعنى، وجمال النغم الصوتى، وللنغم الصوتى فى القرآن خاصية فريدة لم يشركه فيها كلام سواه لها مساس بتيسير تلاوته وحفظه وجذب السمع إليه حين يُتْلى.

* * *

٢ - ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ١٧].

الدراسة والتحليل:

كانت الآية السابقة: (**وهل أتاك حديث موسى**) مدخلا لطيفا لسوق قصة موسى عليه السلام على صاحب الرسالة الخاتمة ﷺ.

وجاءت هذه الآية مدخلا لعرض حديث الله مع موسى وحديث موسى مع الله. ثم عرض ما دار بين موسى - ومعه أخوه هارون - وبين فرعون فى شأن إنجاء بنى إسرائيل - قوم موسى - من سوء العذاب الذى يلحقه بهم فرعون وجنوده.

وصدرت الآية بأداة الاستفهام «ما» ولما كان هذا الاستفهام صادراً عن الله عز وجل، لزم أن يكون مجازيا له دلالة بلاغية ليست هى طلب الفهم. وللإمام الزمخشرى كلام نفيس فى الإبانة عن المعنى المجازى للاستفهام هنا، قال رحمه الله.

(إنما سأله ربه ليريه عظَمَ ما يخترعه عز وعلا فى الخشبة اليابسة من قلبها حية نضناضة، وليقرر فى نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه - أى العصى - والمقلوب إليه - أى الحية - وينبهه على قدرته الباهرة)[1].

ومعنى هذا الكلام أن الاستفهام فى الآية للتقرير أى تقرير موسى عليه السلام بأن الذى يُمسكه بيده اليمنى قطعة مستطيلة من الخشب، لا حياة فيها ولاسبب حياة (يابسة) وليستحضر هذا فى وجدانه ويقرُّ به حتى إذا ما حدثت المعجزة الإلهية، فصارت الخشبة حية تهتز اهتزازا شديداً، أدرك - عمليا - أن قدرة الله لا تعجز عن شىء أراده عز وجل.

---

(١) الكشاف: (٢/ ٥٣٣).

وهذا هو الذى حدث فقد أقرَّ موسى قائلاً:

﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾.

ثم خاطبه الله قائلا:

﴿. . أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾ فامتثل وألقاها: ﴿. . فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾.

وهكذا عاين موسى ببصره وقلبه وعقله ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وأبو السعود يختصر كلام الزمخشرى ثم يقول:

(وأيًّا ما كان فالاستفهام إيقاظ وتنبيه له - لموسى - عليه السلام على ما سيبدو له من التعاجيب)[1].

ومن البديه أن كلام الزمخشرى أبين وأشمل من كلام أبى السعود. لأن فى كلام أبى السعود قصورًا كما ترى.

أما الألوسى فأوجز قائلا: (والاستفهام تقريرى)[2].

كما أوجز الشهاب فقال معلقا على عبارة البيضاوى. (قوله: استفهام: أى تقريرى عن الجنس أو الصفة)[3]، الجديد فى كلام الإمام الشهاب هو ذكر جهة المستفهم عنه، وقد ردَّد هذا بين أن يكون المستفهم عنه جنس العصى أو صفتها، وعزا ذلك إلى شروح الكشاف وللإمام النسفى عبارة قصيرة لخص فيها ما تقدم، قال: (والسؤال للتنبيه لتقع المعجزة بها بعد التثبت، أو للتوطين لئلا يهوله انقلابها حية، أو للإيناس ورفع الهيبة للمكالمة)[4].

هذا ما تردد عند الأئمة عن المراد من الاستفهام فى الآية، وبعضهم لم يصرِّح فيه بشىء، مكتفيا بشرح المعنى العام للآية، وبعض خصائص نظمها وكان أكثرهم توجيها له الإمام النسفى، حيث ردده بين ثلاثة أوجه كما يفهم من كلامه، ولكن عند التحقيق يؤول كلامه إلى شىء واحد.

---

(١) تفسير أبى السعود (٦/ ١٠).
(٢) روح المعانى (١٦/ ١٧٤).
(٣) حاشية الشهاب (٦/ ١٩٥) وتفسير البيضاوى: (٢/ ٤٥).
(٤) تفسير النسفى: (٢/ ٥٠).

والخلاصة أن هذا الاستفـهام مجازى قطعًا لصـدوره عن الله عز وجل. والمراد منه كما قال الإمام الألوسى التقرير، وهو قد سبقه إليه الإمام الزمخشرى، وإن لم يصرح به، لكن كلامه لا معنى له سواه. وهذا التقرير لم يقصد لذاته، بل توطئة لبيان عظمة المعجزة وانقلاب الشىء إلى ضده فى لمحة البصر. وهذا ما وقع لموسى عليه السلام.

أسرار النظم وبلاغياته:

* واو العطف فى (**وما**) الظاهر أنها عطفت الجملة (**وما تلك**) على جملة (**فلا يصدنك**) وكلتاهمـا إنشاء وقـد أفاد هذا العطف ترابط الكلام بخـلاف ما لو قـيل (ما تلك) والتوسط بين الكمالين ظاهر فى نظم الجملتين وهو الذى اقتضى هذا العطف.
* وإيراد اسم الاشارة (**تلك**) لإزالة ما فى (ما) من إبهام؛ لأنهـا يُسْأل بها عن المذكر والمؤنث. فخصصته (تلك) بالمؤنث وزال الإبهام.
* (**بيمينك يا موسى**) الجار والمجرور (بيمين) متـعلق بمحذوف قدره بعض الأئمة باسم الفاعل المؤنث (قارَّة) ففى العبـارة إيجاز بالحذف. والذى نراه (أوفق) أن يقدر اسم الفاعل مـعرَّفًا - أى: القـارة لأن تلك اسم اشارة وأسمـاء الاشارة (معـارف) أما تقديره (نكرة) هكذا (قارة) فلا يخلو من قصور.
* وإيثار ذكر اسمه العَلَم (**يا موسى**) بعد التعبير عنه بالإضمار مرات من قبل، لتوطين نفسه والتلطـف معه بمخاطبة رب العـزة. وذلك لتثبيتـه أمام المفاجآت التى سـتبدو أمامـه بعد قليل من انقلاب عـصاه حية تسـعى. وليس له بهذا من عهـد قبل هذه اللحظة.

* * *

٣ - ﴿ إِذْ تَمْشِى أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ، فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنْ، وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا، فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِى أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾ [طه: ٤٠].

الدراسة والتحليل:

بعد أن ذهب عن موسى الروع من انقلاب عصاه حية تسعى وأذهب الله ما كان بيده من سوء، وعلم أنه مرسل إلى فرعون، توجَّه إلى الله بالدعاء، وما كاد يفرغ من دعاء ربه حتى أعلمه أنه قد استجاب له ومنَّ عليه، ثم ذكَّره بما منَّ به عليه من قبل وهو جنين فى رحم أُمه، ثم وهو وليد فى المهد، حيث أحاطه برعايته بين أمواج النهر (أليم) وسخَّر له من ينتشله منه، ثم مكن له فى بيت فرعون. ورقق له القلوب، وجمع شمل أمه به فى بيت الملك والسلطان، ولم يصرف عين الرعاية عنه، حتى استغلظ واستوى وبلغ أشدَّه. وآتاه علما وحكما.

والآية موضوع الدراسة تحكى مشهدا من مشاهد الألطاف الإلهية، التى صاحبت موسى فى طفولته حتى شب وقوى. وقد ورد فى هذه الآية هذا الاستفهام الذى حكاه الله عن أخت موسى:

(**هل أدلكم على من يكفله**)؟ وهو موجه منها إلى آل فرعون لما شغلهم أمر هذا (الطفل) بعد أن رفض كل المراضع فلم يقبل ثدى أية واحدة منهن. ولما كان هذا الاستفهام حقيقيًا لم يكترث الأئمة بالحديث عن المراد منه، لوضوحه، وهو، أى معناه المستعمل فيه: العرض والطلب، وقد نص عليه الإمام الطاهر بن عاشور[١].

أسرار النظم وبلاغياته:

* (**إذ تمشى أختك فتقول...**): شروع من الله عز وجل فى بيان النعم التى أنعم بها على موسى وهى نوعان:

نعم لم يدركها موسى حين أنعم الله عليه بها، وهى رعايته جنينًا ووليدًا لا يفقه ولا يعلم من أمور الوجود شيئًا، ومنها وحى الله إلى أمه بتدبير شأنه بعد الولادة،

---

(١) التحرير والتنوير: (١٦/ ٢١٩).

ومشى أخته لمراقبة مآله، ومحادثة آل فرعون فى شأن إرضاعه.

أما التى عايشها مدركًا إياها فقتله المصرى وعفو الله عنه وإبراء نفسه من العلل.

وإيثار الفعل المضارع (تمشى) فيه استحضار صورة الحدث (المشى) وكأنه كان يقع أمام عينى موسى حين حدثه الله به ليرى مكان النعمة منه وإيثار الوصف (أختك) على اسمها العلم: مريم أو كلثوم[1].

لما فى الوصف من معانى الألفة والحنان وحسن الرعاية ولو قيل: مريم أو كلثوم لخلا اللفظ من هذه الايحاءات، وإيثار (تمشى) على: تسعى أعون على تفقُّد حال موسى، بخلاف السعى لما فيه من سرعة.

* **(هل أدلكم على من يكفله)** آثرت أن تستفهم بـ (هل) ترجمة عما فى نفسها من شدة الرغبة فى قبول عرضها؛ لأن فيه إنقاذًا لأخيها من العناء ومشقة الجوع.

ولأن فيه تطييبًا لنفس أمها، وإثلاجا لصدرها.

* وإيثار الصلة والموصول **(من يكفله)** على ذكر الاسم الصريح لأم موسى أو كنايتها القريبة. هذا الايثار فيه نكتتان بلاغيتان:

الأولى: ترشيح عرضها للقبول، ملوِّحةً لهم بما فى معنى صلة الموصول (يكفله) من تسكين قلقهم بعد أن رفض موسى أن يلتقم ثُدِىَّ كل المرضعات اللاتى عُرِضن فى بيت (السلطان) على موسى فعزف عنهن جميعا حتى كاد اليأس يستبد بآل فرعون، لما وضع الله فى قلوبهم - وبخاصة امرأة فرعون.

الثانى: إخفاء سرٍّ أمومة أمها لموسى، وتجهيل آل فرعون بأسرة موسى (أما وأختا) حتى لا ينكشف الأمر الذى لا تحمد عقباه.

* **(فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن)**.

العطف بالفاء للدلالة على سرعة قبول آل فرعون عرض أخت موسى.

ومجىء الماضى (رجعناك) لتحقق ذلك الرجوع دون إبطاء.

* وفى **(تقر عينها)** كناية عن صفة السرور، وعطف (لا تحزن) على قرة العين من

---

(١) روح المعانى: (١٦/ ١٩٠).

عطف المسبب على السبب؛ لأن قرة العين سبب فى ذهاب الحزن، ودوام السرور والإحساس بالسعادة.

* وفى الجمل إيجاز بالحذف، والتقدير: فقبل آل فرعون عرض أخت موسى وأخبروا أمه وطلبوا قدومها فجاءت فرجعناه إليها.

* **(وقتلت نفسا فنجيناك من الغم)** صورة أخرى من صور امتنان الله على موسى. حيث نجاه من بطش فرعون بعد أن قتل منهم نفسا، ونجاه من جريرة الذنب لما تاب إلى الله على ما بدر منه بلا قصد.

وفى التعبير استعارة مكنية شبه فيها الغم بعدوٍّ مفتوس يكيد لموسى. وقرينة الاستعارة هى (نجيناك) والأصل أن يقال: (أذهبنا عنك الغم، أو شفيناك من الغم. لولا إرادة المجاز وتهويل أثر الغم).

* **(وفتناك فتونا)** يعنى: بلوناك ومحنّاك (وفى التعبير عن المحن بالفَتْن استعارة تصريحية تبعية. شبه فيها الابتلاء بإحماء الذهب على النار ليصقل ويذهب عنه ما ليس منه. وجىء بصيغة «فُعُول» = (فُتُون) مبالغة فى تصوير وتكثير الابتلاء والتمحيص.

* **(فلبثت سنين فى أهل مدين)** صورة أخرى من صور الامتنان وتذكير لموسى بما لقيه من رعاية الله فى أهل مدين. والتعبير بـ (فى) إشارة إلى أن موسى عاش فى أهل مدين واحداً منهم ملتحما بهم لا عيشة الغريب المكلوم.

* **(ثم جئت...)** العطف بـ (ثم) لما بين تلك الأحداث وبين عودة موسى من زمن طويل. وأن كل ما حدث كان قدراً لله مقدوراً.

* * *

٤ - ﴿ قَالَ فَـمَن ربُّكُمَا يَا مُوسَى* قَالَ ربُّنَـا الَّذى أَعْطَى كُلَّ شَىء خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى* قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى* قَالَ عِلْمُهَا عِنْد ربِّى فِى كِتَاب، لاَ يَضِلُّ ربِّى وَلاَ يَنْسَى ﴾ [طه: ٤٩ : ٥٢].

الدراسة والتحليل:

هذه أربع آيات من سورة (طه) الأولى والثـالثة فى كل منهما صـورة استفهـامية، والثانية والرابعة فى كل منهما جواب استفهام. الثانية جواب استفهام الأولى، والرابعة جواب استفهام الثالثة. والاستفهام فى الثالثة مرتبط بما فى الأولى، لذلك آثرنا دراسة الآيات الأربع لما بينها من علاقات نظمية خاصة. باعـتبار أن جواب الاستفهام عنصر عضوى فى الصورة الاستفهامية.

كما أن الآيات الأربع تصور ما دار بين مـوسى وهارون وبين فرعون من حوار فى أول لقاء وقع بينهـما وبين فرعون بعد أن أرسلهـما الله إليه بالنسبـة لورود القصة فى سورة (طه).

وكانت رسالة موسى وأخيه لفرعون تستهدف غرضين كبيرين:

الأول: دعوة فرعون للإيمان بالله وترك البغى فى الأرض.

الثانى: إطلاق سراح بنى إسـرائيل، والسمـاح لهم بالخروج من مـصر. وفى هذا الغرض الأخير أمر الله رسوليه مـوسى وهارون بالتوجه إلى فرعون وإعلان هذا الأمر له:

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ ربِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ، قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ من ربِّكَ، وَالسَّلاَمُ عَلَىَ مَنْ أَتْبع الْهُـدى* إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىَ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [طه: ٤٧ - ٤٨].

ثم استمر الحوار حتى شمل الآيات الأربع الأولى، وما بعد هاتين الآيتين.

ولم يفـصح أحد من الأئمة بـشىء عن هذين الاستـفهامين أهمـا حقـيقـيان. أم مجازيان؟ أم أحدهما حقيـقى والآخر مجازى. ولم يفصحوا عن المعنى المراد من كل منهما بل اكتفوا ببيان المعـنى العام للآيات، ومنهم من يُفْهَمُ من كلامه الإيماء من بعيد

إلى المعنى المراد من كل منهما: والذى يلوح لنا أن المراد من الاستفهام الأول هو: الإنكار والتهكم. فقول فرعون: **(فمن ربُّكما يا موسى)** إنكار لما قالاه له من قبل:

* **(إنا رسولا ربك)**.

* **(قد جئناك بآية من ربِّك)** بدليل أنه أضاف كلمة (رب) إليهما لا إلى نفسه فقال: **(فمن ربكما يا موسى)**؟ وكان الظاهر أن يقول: (فمن ربى يا موسى الذى أرسلكما إلىَّ. وقد تضمن هذا الإنكار السخرية من موسى وهارون.

أما الاستفهام الثانى **(فما بال القرون الأولى)**؟ فأن المراد منه - فيما يلوح لنا أخذا من كلامهم - أنه للتعجيز والإفحام، ومنشأ هذا أن فرعون كان جاهلاً بتاريخ الأمم الماضية، وحمله جهله هذا على أن يقول لموسى: إذا كان ربكما أرسلكما فما هو شأن القرون والأجيال الأولى، فَلِمَ لم يرسل إليها ربكما رسلا مثلما أرسلكما إلىَّ. هذا التوجيه يلوح لنا أنه أنسب ما يكون بالمقام.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿قال فمن ربكما يا موسى﴾**: هذه الجملة فُصِلت عما قبلها للاستئناف البيانى الذى عهدناه من قبل، وكذلك كل جملة وردت فى هذا الحوار عارية من ذكر عاطف والفاء للعطف على محذوف تقديره: إن كان الأمر كما تقولان فمن هو ربكما الذى أرسلكما إلىَّ؟.

* **﴿قال ربنا الذى أعطى كل شىء خَلْقَه ثم هدى﴾** عدل عن اسم الجلالة **(الله)** فلم يقل: ربنا **الله**، إلى الموصول وصلته **(الذى أعطى)** لما فى الصلة من الدليل على استحقاق المُرسِل أن يكون ربا. وفيه تعريض بفرعون وضعفه وحقارته بأنه مخلوق مربوب لرب السموات والأرض وما بينهما.

والمعنى المناسب للمقام - فيما نرى - ربنا الذى منح كل مخلوق خصائص تكوين تناسبه، ثم هداه إلى منافعه فى هذه الحياة الدنيا.

* وأوثر العطف بـ **(ثُمَّ)** لما فيها من ترتيب الهداية على الإعطاء والمنح وتراخيها بتراخى حياة كل مخلوق من ذوى الأرواح. وفى (هدى) إيجاز بحذف المفعول.

* **(قال فما بال القرون الأولى)** الفاء للعطف على محذوف قـدرناه فى مبحث الدراسة والتحليل. والآية من إيجاز القِصَـر. والمراد منها الافحام والتعجيـز كما تقدم، أو إرادة صرف مـوسى إلى غير قضـية التوحـيد التى أفحم فيـها موسى عليـه السلام فرعون.
* وفى إضافة فرعون كلمة **(رب)** إلى ضميرى موسى وهارون والعـدول عن إضافتها لنفسه - كما هو الظاهر - لأن نفسه لا تُساعده على أن يعترف بأن له ربا حتى ولو فرضنا فى مقام الاحتجاج والنظر.
* **(قال علمهـا عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى)** إفحام ثان من موسى - عليه السلام - لفـرعون، فقـد اختصـر له الكلام اختـصاراً بليغًـا. وعاد به إلى قضـية الألوهية والتوحيـد التى حاول الفرار منها، وإضافة كلـمة (رب) إلى موسى إظهاراً للاعتزاز بالعبودية لله، والتشريف بالانتماء إليه.
* وتنكير **(كتاب)** للتعظيم وتفخيم الشأن.
* وفى **(لا يضل ربى ولا يـنسى)** احتراس لطيف لدفع مـا يتوهم تصوره من أن رصد علم القرون فى كتـاب كان خشية الضـلال والنسيان. وإنما له حكمة غـير الضلال والنسيـان. وهى تخويف وتهديد لمن يظن أو يعتـقد أن أعماله غـير محصـاة عليه وإيثار الظاهر (ربى) فى **(لا يضل ربى)** على المضمـر (لا يضل) يعنى: هو: لدفع توهم أن هذه الجملة **(لا يضل)** وما عطف عليها **(ولا ينسى)** وصف لـ (كتاب) وفى حذف المتعلق بـ **(يضل)** أى عن أى شىء والمفـعول فى **(ولا ينسى)** أى شيئًا إيجاز بالحذف سره البلاغى شمول النفى لأفراد المنفى.

* * *

٥ - ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴾ [طه: ٥٧].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية استـمرار للحوار الذى بدأ بين موسى وأخـيه - عليهمـا السلام - وبين عدو الله فرعـون.. قابل فرعـون دعوتهما إياه إلى الإيمان بالله، والكف عن الفـساد والإفساد فى الأرض. قـابل هذه الدعوة بالعناد والفجور وبدلاً من أن يتـروى ليعرف

الحق الذى دُعى إليه خيل إليه جهله، وأملى عليه سلطانه وجبروته أن موسى ينازعه على تلك الفكرة التى غلبت على ذهنه، ينازعه على الرياسة وبسط النفوذ فى الأرض، فثارت ثائرته، فطفق يتوعد موسى، ويدعوه إلى المواجهة، مواجهة سحر موسى - حسب زعمه بسحره هو الذى سيفوق سحر موسى، ويظهر للناس أن موسى وأخاه هارون ما هما إلا ساحران. فواجه موسى بهذا القول الأحمق:

(.. **أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك**..).

وصدَّر قوله هذا بهذا الاستفهام الغاضب: (**أجئتنا لتخرجنا**..).

لم يشر الإمام الزمخشرى إلى المعنى المجازى المراد من هذا الاستفهام. وربما كان ذلك لوضوحه. أما الإمام أبو السعود فقد استوفى البيان فيه حين قال:

(**أجئتنا لتخرجنا**..) استئناف مبين لكيفية تكذيبه وإبائه. والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه، وإدعاء أنه أَمر محال)[1].

وحذا الألوسى حذو أبى السعود - كعادته - ولم يضف جديداً يذكر فيما يتصل بمعنى التشبيه[2].

وتابعهما الإمام الطاهر بن عاشور فنص على أن الاستفهام فى الآية إنكارى. وزاد أن مانعته فرعون بالسحر هو أن موسى أراه انقلاب العصى حية، كما آراه براءة يده من السوء وخروجها بيضاء، واستدل - وهو محق - بما ورد فى سورة الشعراء[3].

والخلاصة أن هذا الاستفهام حسب ما قصده فرعون منه للإنكار والتكذيب. أى: إنكار الواقع كما قال الإمام أبو السعود من قبل.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (**قال أجئتنا**..) فصلت هذه الجملة عما قبلها لما تقدم مراراً من أنها جواب عن سؤال مقدر نشأ عما قبلها، تقديره:

ماذا قال فرعون بعد أنّ سمع كلام موسى؟ وعرفنا أن هذا يسمى عند البلاغيين:

(١) تفسير أبى السعود: (٦/ ٢٣). (٢) روح المعانى (١٦/ ١٦).
(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٤٥) وانظر: الشعراء (٣٢، ٣٣).

شبه كمال الاتصال وإيثار الفعل الماضى (جئتنا) لتحقيق وقوع المجىء الذى سارع فرعون لإنكاره، فكأن فرعون - هنا - يتلمَّس مسوغا لإنكاره.

* **(لتخرجنا من أرضنا)** أوثر المضارع لتوقع حدوثه، وإضافة (أرض) إلى ضمير (نا) المكنى به عن أهل مصر لتقبيح إرادة الإخراج منها الذى زعم فرعون أن موسى ما جاء إلا لهذا الغرض. يعنى أن موسى ينازعهم فى أَمْرٍ هُمْ به أحقَّاء. وهو مجرد معتدٍ على حقوق غيره.

* **(بسحرك يا موسى)** السحر فى كلام فرعون - هنا - كناية عن الآيات التى جاء بها موسى، وهما: أية العصى وآية (اليد)، وإضافة السحر إلى ضمير موسى للتحقير والاستخفاف بالرسالة وصاحبها.

وفى **(جئتنا)** استعارة تصريحية تبعية إنْ حُمِل المجىء فى قول فرعون على الرسالة. وإن حمل على القدوم من أرض مدين فهو حقيقة لغوية.

* وتحدُّث فرعون بضمير الجماعة: **جئتنا - تخرجنا - أرضنا** لحمل أهل مصر جميعا على مقت موسى وما جاء به من الحق ولإشاعة الزعر عندهم حتى لا يصغوا له ولا تحدثهم أنفسهم باتباعه.

وهذه حيلة ماكرة من فرعون اللعين.

* **(يا موسى)** مناداة فرعون موسى باسمه هكذا ينبئ عن استخفافه واحتقاره.

* وإفراد الخطاب لموسى دون هارون؛ لأن عداوة فرعون لموسى أهول وأقوم من عداوة هارون، ولأن موسى كان أكثر تصديا لفرعون من هارون.

* * *

٦ - ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ، إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذى عَلَّمَكُمُ السِّحرَ، فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيكُمْ وأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ولأُصَلِّبَنَّكُم فِى جُذُوعِ النَّخْلِ ولَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وأَبْقَى﴾ [طه: ٧١].

الدراسة والتحليل:

بعد أن خدع فرعون نفسه، ووصف ما جاء به موسى من أمور الرسالة ومعجزاتها بأنه سحر، وزعم أن لديه سحرا أبرع من سحر موسى وطلب من موسى تحديد موعد زمانا ومكانا يغالبونه ويغالبهم بما زعم فرعون أنه سحر، وقد تم تحديد الموعد، وحشد فرعون مهرة سحرته وأغراهم بالتقريب منه وكريم المكافآت، ولما برزوا لموسى أذن لهم أن يأتوا هم بسحرهم أولاً فألقوا عصيهم وحبالهم فتحركت كأنها حيات. وحتى هذه اللحظة لم يكن لموسى خطة قد وضعها للمواجهة، ولكن أوكل الأمر إلى ربه. بيد أنه شعر بالخوف قليلا من الفشل لما رأى الساحة تموج بالحيات، وكانت من قبل عصيا وحبالاً. ولم يتركه الله ليفترسه الخوف، بل أنزل عليه هذا القول العظيم:

﴿قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى * وأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا، إنّما صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ، ولاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾.

ورد الله كيد فرعون فى نحره. وأخزاه شر الخزى، فقد سقط السيف من يده، حين خر السحرة سجداً لما علموا أن موسى على الحق.

﴿فَأُلْقِىَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه: ٧٠].

فجن جنون فرعون، وأصابته لوثة الباطل، فخاطب السحرة قائلاً:

(**آمنتم له قبل أن آذن لكم.....**) وعنّف لهم الوعيد بأن يمثل بهم أحياء وأمواتا. وازداد غيظا وحنقا حين رد عليه السحرة قائلين:

﴿قَالُو لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَات والَّذى فَطَرنَا، فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ، إِنَّمَا تَقْضِى هَذه الحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ، وَاللهُ خَيْرٌ وأَبْقَى * إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ

يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى* وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾.

درس ناضج وعظيم أسمعه السحرة لفرعون وهم حديثو عهدٍ بالإيمان، كأن لهم فى الإيمان والتفقه فى شئونه سنين طوالا.

لقد وضعوا فرعون فى حجمه. فهو إن ملك شيئا فلا يملك إلا حطاما من هذه الحياة، وهو مخلوق زائل، والله هو الدائم المالك المتصرف فى جميع الأمور.

لو كان فرعون من العقلاء للزمه ما لزم السحرة من الإيمان ولاهتدى كما اهتدوا، ولكنه أعرض ونأى بجانبه. وتوعد السحرة، واتهمهم بأنهم تلاميذ موسى، وهو الذى علمهم السحر مكرًا بأهل المدينة - مصر - ليخرجوا منها أهلها!

وقد صدَّر قوله بهذا الاستفهام:

(**آمنتم له قبل أن آذن لكم..**) وفيه يقول الأئمة: ردد الإمام أبو السعود الآية بين الخبر والاستفهام فقال على إرادة الاستفهام:

(وقرىء على الاستفهام التوبيخى)[1].

يعنى أن الفعل: (ءَامنتم) على رأى من قال إنه استفهام لا خبر فالاستفهام فيه للتوبيخ يشير بذلك إلى اختلاف القراء فى هذا الموضع:

فقد قرأه ابن كثير وحفص عن عاصم: (ءَامنتم) على أنه خبر لا استفهام. وكذلك قرأه ورش عن نافع على لفظ الخبر.

وقرأه أبو عمرو ونافع وابن عامر: (**ءَاامنتم**) على الاستفهام.

وقرأه حمزة والكسائى وأبو بكر عن عاصم - كذلك -: (**ءآمنتم**) على الاستفهام)[2].

أى أن أكثر القراء قرأوه على الاستفهام، والمقام يشهد لهم. لذلك آثرنا دراسة هذه الآية ضمن آيات الاستفهام.

---

(١) تفسير أبى السعود: (٦/ ٢٩).

(٢) كتاب السبعة فى القراءات (٤٢١) تحقيق د/ شوقى ضيف.

وقد أشار الإمام الألوسى إلى هذا فقال:

(.. وقرأ الأكثر (أآمنتم) - على الاستفهام التوبيخى.

والتوبيخ هو المراد من الجملة الأولى أيضا - يعنى إذا كانت هذه الجملة خبراً لا استفهامية)(1).

أى أن (ءآمنتم) لا يخلو على القراءتين من المجاز إما عن طريق الاستفهام، وإما عن طريق الخبر، لأنه استعمل فى غير معناه الوضعى، الذى هو: فائدة الخبر أو لازم فائدة الخبر.

والخلاصة: أن الأئمة منهم من لم يشر أن فى (ءآمنتم) استفهاما، وهم الأكثر، ومنهم من نص على ذلك، ثم حمل هذا الاستفهام على التوبيخ كما تقدمت الاشارة إلى ذلك والأولى أن يكون الاستفهام للإنكار المتولد عنه التوبيخ تم التهديد.

ففرعون - بدلالة المقام - يستنكر أن يقع من السحرة إيمان لموسى عليه السلام، سواء أراد توبيخهم مع هذا الاستنكار أو لم يرد. هذا ما يفصح عنه المقام.

كذلك فقد نص بعضهم، وهم: أبو حيان، والألوسى، والخفاجى والطاهر بن عاشور أن قوله تعالى حكاية عن فرعون:

(ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى) جملة استفهامية عن أحد مشتركين فى شدة العذاب. ومع هذا لم يذكروا ما المراد من الاستفهام(2).

والذى يلوح لنا أن هذا الاستفهام أريد منه أمران متلازمان:

أحدهما: التعريض بضعف موسى ومن آمن له، وهم السحرة.

والآخر: التهديد بالانتقام منهم. وكان فرعون واثقًا من نفسه - خداعا واغتراراً - حين توعد السحرة بهذا الوعيد الغاضب.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(قال ءآمنتم له..)** لما خر السحرة سُجَّدا وقالوا: آمنا برب هارون وموس فإن النفس

---

(1) روح المعانى (16/ 231).

(2) أنظر أقوالهم فى تفسير كل منهم للآية (71) من سورة طه.

تتطلع بشغفٍ عظيم إلـى معرفة مـوقف فرعون من هذا الحدث المفـاجىء الخطير، فجاءت هذه الجملة (**قال ءآمنتم..**) إجابة لما ثار فى النفى من تساؤل.

* وإيثار الماضى: (**آمنتم**) لتبرير شدة الإنكار وعنفه، وما يترتب عليه من عقاب وسوء انتقام.

* (**قبل أن آذن لكم**) مبرر ثان للإنكار. والمقصود من هذه الجملة زيادة قبح الخروج عن طاعـته لا المسـارعـة إلى الإيمان لموسى قـبل صدور الإذن لهم مـن فرعـون بذلك الإيمان. لأنه لا إذن لهم منه مطلقا. وهذا من صور نَفْى الشىء بإيجابه.

* (**إنه لكبيركم الذى عـلمكم السحر**) استئناف مـقرر لمضمون ما قـبله: وكأنه يقول: ءآمنتم به قـبل أن آذن لكم لأنه كبـيركم الذى تعلمـتم منه السحـر. وعدى الإيمان باللام لتضمنه معنى الأتباع والانقياد.

وتوكيد الخبـر بـ (إن) واسمية الجملة، ولام التـوكيد لتقرير صدق ما تـوهمه واقعا منهم، وتمهيدا منه لتبرير عنف الوعيد الذى توعدهم به فى:

* (**فـلأقطعن أيديكـم وأرجلكم من خـلاف**) والفـاء للتـفريع على مـا تقـدم. واللام للتوكيـد، وكذلك النون المثقلة، وبعض الأئمة جعل اللامات فى الأفـعال الثلاثة: (فـلأقطعنَ - ولأصلبنكم - ولتعـلمنَّ) - للقسم وأن المقـسم به هو الله، أى والله لأقطعن[1]. وهذا وهم ظاهر؛ لأن فرعون لم يكن مؤمنا بالله فكيف يقسم به؟.

وتقديم الأيدى على الأرجل لشرفها وأعظميتهـا. وصيغة التفعيل (التقطيع) للدلالة على الكثرة والمبالغة فى القطع.

* وفى (**لأصلبنكم فى جذوع النخل**) - استعارة تبعية فى معنى الحرف، حيث استعير معنى (فى) لمعنى (على) وسرها البلاغى أن التصليب سـيكون شديدًا محكما حتى ليخيل إلى الناظرين أنهم غُرِسُوا فى جذوع النخل غرسًا.

وهذا يكشف عن شدة الغـضب والتصمـيم على عنف الانتقام فى نفس فـرعون لما كان يشـعر به من خـزى وهزيمة قلبتـا أمره رأسـا على عقب فى سـرعة مـذهلة، ومفاجأة قاتلة.

---

(١) أنظر تفسير أبى السعود. الموضع السابق.

* (ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى) - تذييل مقرر لمضمون ما قبله، وقد سُلِكَ به مسلك الجملتين قبله من شدة التوكيد، والإصرار على سوء الانتقام وتقديم دعوى الأشدية على طول البقاء، لأن الأشدية هى محط الفائدة - على زعمه - وإيثار المضارع فى الجمل الثلاث: (**فلأقطعن - ولأصلبنكم - ولتعلمن**) لأن وقوع الوعيد يكون تاليا لإعلانه والنطق به.

* * *

٧ - ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴾ [طه: ٨٣].

الدراسة والتحليل:

كان الله قد واعد موسى ثلاثين ليلة للقائه وتكليمه ثم كملها أربعين ليلة، مع سبعين رجلا مختارين من قومه، فسبق موسى قومه إلى مكان اللقاء قبل الزمن المحدد له، فقال الله لموسى: (**وما أعجلك عن قومك يا موسى**)؟ فأجاب: ﴿هُمْ أُولاَءِ عَلَى أَثَرِى، وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾.

وهذا - وما أعجلك- استفهام صادر عن الله، والله لا يغيب عنه شىء فى الأرض ولا فى السماء، فهو استفهام مجازى قطعا له معنى خاص غير طلب الفهم.

وفى المراد منه ورد عند الأئمة ما يأتى:

يقول الإمام **جار الله الزمخشرى**:

(**وما أعجلك**): أى شىء عجل بك عنهم، على سبيل الإنكار، وكان قد مضى مع النقباء -القوم المختارين- إلى الطور على الموعد المضروب، ثم تقدمهم شوقا إلى كلام ربه، وتنجز ما وعد به بناء على اجتهاده وظنه أن ذلك أقرب إلى رضا الله تعالى، وزلَّ -أى غاب- عنه أنه عز وجل ما وقَّت افعاله إلا نظراً إلى دواعى الحكمة، وعلما بالمصالح المتعلقة بكل وقت[1].

يعنى أن السؤال هنا عن سبب العجلة لا عن العجلة نفسها.

---

(١) الكشاف: (٥٤٨/٢).

تابع الإمام أبو السعود ما قاله الإمام جار الله، مشيراً إلى سبب إنكار العجلة، فقال:

(وهذا كما ترى سؤال عن سبب تقدمه على النقباء مسوق لإنكار انفراده عنهم لما فى ذلك من مخايل إغفالهم وعدم الاعتداد بهم، مع كونه مأموراً باستصحابهم وإحضارهم معه لا لإنكار نفس العجلة)[1].

وتأثر الإمام الألوسى كثيراً بعبارات أبى السعود، ثم بالزمخشرى، والاستفهام -كما قالا- هو للإنكار عنده، أى إنكار سبب العجلة. وهذا ما قاله الشيخان من قبل.

بيد أنه خالف أبا السعود فى ما سُلِّط عليه الإنكار، فقد كان الإنكار عند أبى السعود مسلطا على سبب العجلة، لا على العجلة نفسها.

أما الألوسى فجعل الإنكار مسلطا على سبب العجلة، وعلى العجلة نفسها؛ لأنها تنافى الحزم. قال:

(.. وإنكار أصل الفعل؛ لأن العجلة نقيصة فى نفسها فكيف من أولى العزم اللائق بهم مزيد الحزم)[2].

وكان الإمام الزمخشرى قد مهَّد لما قاله الإمام الألوسى هنا.

ثم نقله الإمام البيضاوى فقال فى قوله تعالى: (**وما أعجلك..**) سؤال عن العجلة يتضمن إنكارها من حيث إنها نقيصة فى نفسها انضم إليها إغفال القوم، وايهام التعظم عليهم، فلذلك أجاب موسى عن الأمرين، وقدم جواب الإنكار لأنه أهم[3].

والخلاصة: أن الأئمة متفقون على أن الاستفهام فى (**وما أعجلك عن قومك يا موسى**) للإنكار، والغالب عندهم أن الإنكار مسلط على أمرين:

* سبب العجلة التى دفعت بموسى إلى سبق قومه إلى ميقات ربهم.
* العجلة نفسها، باعتبارها مما لا يليق -كما قالوا- بأولى العزم والحزم من الرسل خاصة، ومن غيرهم عامة.

---

(١) تفسير أبى السعود: (٦/ ٣٣).
(٢) روح المعانى: (١٦/ ٢٤١).
(٣) تفسير البيضاوى: (٢/ ٥٤).

ونضيف إلى ما قاله الأئمة أن فى الاستفهام مـدخلا لطيفا، وانتقالا حكيما إلى ما بعده من حديث، وهو انحـراف بنى إسرائيل إلى عبادة العـجل، وتمردهم على أخيه هارون.

وكأن الله يريد أن ينبه مـوسى إلى الالتزام بما يرسمه الله من منهـاج، ومنها تحديد موعد اللقاء الذى سبقه موسى، وأنه كان ينـبغى أن يكون بين قومه حتى لا يستخفوا بهارون ويسيئوا معاملته.

وهذه كلها معان ترتبط بالإنكار الذى هو الأصل من إيراد هذا الاستفهام.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(وما أعجلك..)** فى (أعجلك) التفات وانتقال من بيان عام **(وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى)** إلى الحديث عن واقعة الانتكاسة التى وقع فيها بنو إسرائيل ممهداً لها بهذا الاستفهـام. وقد قدَّر بعض الأئمة فعل القول قبل **(وما أعجلك)** ولا نرى لذلك ضرورة بيانية؛ لأن منهج القرآن يذكر الفعل (وقال) فى المحاورات وتردد الحديث بين طرفين فى الغالب الأعم ولا وجـود للحوار هنا. والواو -هنا- لعطف قصة على قصة. وقد أوثر الماضى **(أعجلك)** لتحقق وقوع العجلة والإنكار فى هذا الاستفهام يُتوصل إليه بطريق الكناية، لأن الاستفهام عن السبب يقتضى عدم وجود ذلك السبب، ونفى السبب يستلزم نفى المسبب وهو العجلة.

وأوثرت الكناية لاقتران الدعوى بدليل صدقها.

* **(عن قومك يا موسى)** إن كان المراد بالقوم هنا السبعين رجلاً كـان من استعمال العام وإرادة الخاص فهو مجاز مرسل علاقته الكلية: وسره البلاغى التنويه بعظم شأن هذا الخاص باعتبارهم مختارين للقاء الله عز وجل مع موسى عليه السلام.

* وإضافة قوم إلى ضمير موسى لتقوية الإنكار.

* وتقديم: **(أعجلك)** على مـا بعده لأنه أظهر دواعـى الإنكار، كما أن تـقديم (عن قومك) - على (موسى) لما فـيه من تقوية الإنكار، فهو أمس رحـما بالفعل المنكر (أعجلك).

ومجيء الفاصلة ألفاً مقصورة لتناسق رءوس الآيات. وهذا هو الغالب على فواصل سورة (طه) ولا بأس بتسميته سَجْعاً لخلوه من عيوب السجع فى كثير من كلام عامة البشر. واختلاف اللفظ مع اتحاد المعنى لا يغير من حقيقة المسمى شيئاً.

* * *

٨ - ﴿ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا، قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا، أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ [طه: ٨٦].

الدراسة والتحليل:

بعد أن قدم موسى عذره إلى ربه على سبقه قومه إلى مكان الوعد فقال:

﴿هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى﴾ [طه: ٨٤]، قال الله عز وجل له:

﴿. . فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥] فوقع هذا النبأ من نفسه موقع الصاعقة.

وكانت تعتريه حدَّة فى مثل هذه المواقف، فرجع إلى قومه وهو ممتلىء غضبا وحزنا، وخاطبهم مؤنبا لهم وزاجراً، وقد ورد فى خطابه لهم هذا الاستفهام:

* (ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا. .).
* (أفطال عليكم العهد. .).
* (أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم).

وللأئمة سبحات حول الاستفهام فى هذه الآية نذكرها فيما يأتى:

تعداه الإمام جار الله فلم يبين المراد منه، أما الإمام أبو السعود فبين أن الاستفهام الأول (**ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا**) هو استفهام تقرير، أو إنكار يؤول إلى التقرير. قال: والهمزة لإنكار عدم الوعد ونفيه، وتقرير وجوده[1].

يريد أن همزة الاستفهام نفت النفى المفاد من (لم) فعاد المعنى إلى الإثبات، وهو

---

(١) تفسير أبى السعود: (٦/ ٣٥).

التقرير. ويكفى فى هذا التركيب وأمثاله أن يقال ابتداء أنه للتقرير، دون ما ذكره الإمام هنا. والوعد الحسن هو إيتاءُ موسى التوراة لهداية بنى إسرائيل.

وكذلك قال فى الثانى، ولكنه أبقى الإنكار، قال:

(أفطال عليكم العهد) أى الزمان، والفاء للعطف على مقدر والهمزة لإنكار المعطوف ونفيه فقط، أى: أوعدكم ذلك فطال زمان الإنجاز فأخطأتم بسببه[١].

ولم يقل فى **(أم أردتم..)** شيئا.

وردد الإمام الألوسى كلام الإمام أبى السعود، ولم يضف شيئا إلى ما قاله سوى تجويز أن تكون الهمزة مقدمة من تأخير -لصدارتها- والعطف على **(ألم يعدكم)** وليس على المحذوف الذى قدَّره الإمام أبو السعود[٢].

أما الإمام أبو حيان فقد اكتفى فى الاستفهام الأول: **(ألم يعدكم)** بالقول أنه للتوبيخ. و**(أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم)** بأنه للتوقيف على أعذار لم تكن[٣].

ونعى الإمام الشهاب على ما ذكره الألوسى من جواز العطف فى **(أفطال)** على **(ألم يعدكم)** مع جواز العطف على المحذوف كما قدره الإمام أبو السعود من قبل[٤].

وجاء الشيخ الطاهر بن عاشور وجوز فى الاستفهام الأول: **(ألم يعدكم)** أن يكون إنكاريا أو تقريريا أما (أفطال) فهو للإنكار، وهذا قد تقدم عند غيره والجديد عنده أنه صرَّح بأن (أم) فى **(أم أردتم أن يحل عليكم غضب..)** منقطعة بمعنى بل والهمزة، وأن بل فيها إضرابية انتقالية، أما الهمزة المقدرة معها فهى للاستفهام الإنكارى[٥].

والخلاصة: أن مذاهب الأئمة فى الاستفهامات الثلاثة فى الآية الكريمة متقاربة. بيد أن الأصح فى الاستفهام الأول **(ألم يعدكم)** أنه للتقرير، ولاوجه بلاغة لحمله على الإنكار. وينشأ عن هذا التقرير التوبيخ فهو ملازم له فى هذا الموضع.

أما الثانى (أفطال) فهو للإنكار باتفاق. أى لم يطل عليكم العهد، ويترتب على

---

(١) المصدر السابق.

(٢) روح المعانى: (١٦/ ٢٤٥).

(٣) البحر المحيط: (٦/٢٦٨).

(٤) حاشية الشهاب: (٦/ ٢٢١).

(٥) التحرير والتنوير: (١٦/ ٢٨٢).

هذا الإنكار وعلى الإنكار فى **(أم أردتم)** التوقيف والإلزام بقطع الأعذار عنهم كما قال الإمام أبو حيان من قبل.

ولاح لنا هنا معنى لم يتطرق إليه الأئمة قط، وهو أن يكون الاستفهام الثالث: **(أمْ أردتم..)** بدلاً من الاستفهام الثانى **(أفطال)** وهذا سائغ عند النحاة. قال ابن مالك فى الألفية.

وبدل المضمن الهمزَيلى... همزا كمنذا أسعيد أم على

وعلى هذا يكون المعنى:

أن موسى عليه السلام تلمس لهم العذر فى النسيان لطول العهد، وظهر له انتفاؤه فاطرَّحه من الحسبان، ثم انتقل إلى الثانى لأنه لم يبق إلا هو، وهو إرادتهم حلول غضب الله عليهم ثم أنكره عليهم، بيد أن بين الإنكارين فرقا واضحا:

فالأول: **(أفطال)** لإنكار الوقوع؛ لأن العهد لم يطل بهم.

والثانى: **(بل أردتم)** لإنكار الواقع منهم فعلا؛ لأنهم لما باشروا أسباب حلول الغضب نزّلوا منزلةمن أراده وقصده.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا)** الفاء لترتيب الرجوع على الإخبار بأن قومه عبدوا العجل إلهاً من دون الله. أما معنى التعقيب والفورية فليست هى مستعملة فيه هنا؛ لأن موسى مكث حتى تلقى التوراة. وإن أريد فيه الفورية فهى الفورية النسبية أى عدم التباطؤ بعد تلقيه الألواح التى فيها التوراة كما ذكرت القصة فى سورة الأعراف[1].
* **(غضبان أسفا)** مراعاة نظير بالجمع بين الغضب والأسف لقرب معنييها، وقدم الغضب على الأسف -وهو الحزن- تقديم السبب على المسبب، لأن للغضب صلة فى حدوث الأسف.
* **(قال يا قوم..)** فصلت هذه الجملة عما قبلها لأنها نزلت منزلة جواب عن سؤال

(١) انظر الآية (١٥٠) من سورة الأعراف.

اقتضته الأولى حاصله: ماذا قال لقومه وقد امتلأ غضبا وأسفا منهم؟ فبين الجملتين شبه كمال الاتصال، وهو المسمى عند علماء المعانى: الاستئناف البيانى.

* (**ألم يعدكم ربكم وعداً حسنا**) أوثر ذكر (رب) مضافا إلى ضمير المخاطبين (كُمْ) للمبالغة فى تقبيح ما فعلوه وتوبيخهم عليه بعد إنكاره.

وفى وصف الوعد بالحسن مبالغة أخرى فى التقبيح، والتوبيخ.

* (**أفطال عليكم العهد**) فى (أفطال) إيجاز بالحذف إن قُدِّر المعطوف عليه محذوفا. وتعدية (طال) بـ(على) إشارة إلى ثِقَل الطول ووطأته كأنه حمل ثقيل ناءت به ظهورهم، على سبيل الاستعارة بالكناية وقرينتها الحرف (على).

* (**أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم**) شُبِّه انغماسهم فى أسباب العذاب بالإرادة والقصد الحاصلة منهم بجامع ما يترتب على كل منهما من حصول شىء إثر شىء ترتب المعلول على العلة فيه.

وفى إسناد الحلول إلى الغضب مجاز عقلى علاقته المفعولية لأن الفاعل الحقيقى هو الله، وسر العدول إلى الفاعل المجازى من الفاعل الحقيقى تهويل شأن الغضب وإرادته الانتقام منهم.

* وفى إضافة الموعد إلى ضمير موسى عليه السلام تهويل لإخلافه لأنهم أخلفوا موعد رسول كريم. لذلك لم يقل: موعدكم.

* * *

٩ - ﴿ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يملِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا ﴾ [طه: ٨٩].

الدراسة والتحليل:

فى هذه الآية تسفيه شنيع وإفحام بليغ لبنى إسرائيل وتجهيل وتفظيع لغبائهم الذى نزل بهم إلى دَرْك العجماوات فقد صنع لهم السامرى عجلا جسدا من ذهب، صنعه لهم وهم ينظرون، ثم دعاهم أن يتخذوه إلهًا من دون الله فاتخذوه، وعكفوا على عبادته رغم تحذير هارون لهم وقت كان موسى مشغولا بلقاء ربه. وقد ذكرهم هارون

بأن إلههم هو الله، فثاروا عليه من جهلهم حتى هموا بقتله.

وفى التعقيب على هذا الموقف المخزى ورد قول الحق عز وجل:

(أفلايرون ألاَّ يرجعُ إليهم قولاً، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعا).

وفى هذا الاستفهام (**أفلايرون..**) يقول الإمام أبو السعود:

(**أفلايرون..**): إنكار وتوبيخ من جهته تعالى لحال الضالين والمضلين جميعًا. وتسفيه لهم فيما أقدموا عليه من المنكر الذى لا يشتبه بطلانه واستحالته على أحد وهو اتخاذهم (العجل) إلهًا.. والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أى: (ألا يتفكرون فلا يعلمون)[1].

هذا رأيه. ودخول الهمزة على (لا) النافية للفعل (يرون) بعدها لا يساعد على ما قاله الإمام أبو السعود؛ لأن نفى النفى إثبات باتفاق أهل العلم وما ذكره الإمام الألوسى -وكذلك الأئمة الأقدمون- يكاد يجرى على نسق واحد مع ما ذكره الإمام أبو السعود ومنهم من لم يقل عن المراد شيئا، وذلك راجع إلى وضوح المراد منه مجازيا[2].

والشيخ الطاهر بن عاشور دار فى فلك الأئمة من قبل، فحمل الاستفهام على الإنكار، ثم فسره تفسير استفهام التقرير. وهذا قوله بالحرف الواحد:

(والاستفهام إنكارى. نُزِّلوا منزلة من لا يرى العجل لعدم جريهم على موجب البصر، فأنكر عليهم عدم رؤيتهم ذلك مع ظهوره، أى:

كيف يدَّعون الإلهية للعجل وهم يرون أنه لا يتكلم ولا يستطيع نفعا ولا ضرا؟[3].

إن التأمل الجيد فى كلام الإمام الطاهر يُبْدِى عدم الانسجام من حيث ذهابه إلى معنى الإنكار، ثم شرحه للاستفهام شرح التقرير.

والخلاصة: مع تقديرنا البالغ لما ذهب إليه الأئمة فى تحديد المعنى المجازى فى هذا

---

(١) تفسير أبى السعود: (٦/٣٦). (٢) روح المعانى: (١٦/٢٤٨).

(٣) التحرير والتنوير: (١٦/٢٨٨).

الاستفهام فإننا نكاد نجزم بأن الاستفهام -هنا- للتقرير لا للإنكار كما قالوا.

والتقرير فيه من أوضح دلالات المقام الواقع فيه الاستفهام فالله يقررهم بحصول الرؤية لهم سواء كانت الرؤية بصرية أو علمية، ومع هذه الرؤية المحققة ضلوا فعبدوا العجل إلهًا من دون الله.

ولو قالوا إن الله قررهم بالرؤية ثم أنكر عليهم اتخاذ العجل لكان هذا متجها بلاغة وذوقا.

فالأولى بلاغة أن يُحمل الاستفهام على التقرير، ويكون هذا التقرير مطية لإنكار اتخاذهم العجل معبوداً من دون الله، مَرْجُوًّا لدفع الضر وجلب المنافع.

والمعنى:

أيتخذون العجل إلهًا من دون الله وهم يرون أنه قطعة من جماد لا قدرة لها على الكلام ولا على دفع الأضرار، ولا على جلب المنافع.

ثم إن الإنكار يواجَهُ به من يدَّعى الضد أو النقيض ولم يرد عن القوم ادعاء بأنهم لم يروا العجل موصوفا بهذه الصفات المحقرة له، فكيف يُنْكر عليهم دعوى لم يدعوها.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(أفلايرون)** ردَّد الأئمة الرؤية هنا بين البصرية والعلمية. وكاد الطاهر بن عاشور أن يجزم أنها بصرية. وهذا سائغ فى فقد النطق والكلام فى العجل وليس بسائغ فى نفى الضر وجلب الخير؛ لأنهما ليسا مما يدرك بالبصر بل بالعقل. فالأولى تجاوز هذا الترديد وحمل الرؤية على العلم مطلقا على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية بجامع قوة الإدراك فى كل منهما.

* **(ألاَّ يرجعُ إليهم قولاً)**: (أن) فى (ألاَّ) مخففة من الثقيلة وأسمها ضمير الشأن محذوف. أى: والشأن أنه... وقد أكد الخبر بـ(أن) واسمية الجملة وتكرار الإسناد فى الخبر الجملة: **(لا يرجع)** لأن بنى إسرائيل نُزِّلوا منزلة من لا يعلم هذا عن

العجل المعبود؛ لجريانهم على خلاف ما يقتضيه علمهم. وكان هذا العلم يقتضى ألا يتخذوه إلهًا من دون الله.

ويتولد عن هذه الجملة (**ألا يرجع إليهم قولاً**) كناية عن (البكَم الخِلْقى).

وتنكير (**قولاً**) للتقليل والتحقير، أى: أى قول كان.

* (**ولا يملك لهم ضرا ولانفعًا**) تقديم (لهم) للأهمية باعتبار أنهم هم الذين عبدوه. وليس للقصر عليهم لأن الواقع يأباه. لأن العجل هكذا بالنظر إلى خاصة بنى إسرائيل وعامة إلى الناس جميعا. وهو أبلغ مما لو قيل: لا يملك ضرا، بحذف (لهم) لإفادة العموم، لأن حذف (لهم) وإن أفاد العموم، فإن ذكره يفيد تبكيت بنى إسرائيل وتحسيرهم بحسب اللفظ، ويفيد العموم بدلالة (العقل) فذكره أبلغ من حذفه. وبه نزل الوحى الأمين، أى: لا يملك لهم ولا لغيرهم ضرا ولا نفعا.

وتنكير (**ضرا- نفعًا**) للتحقير، أى لا يملك لهم أدنى ضر يوقعه عليهم إذا لم يعبدوه، ولا أدنى نفع يجلبه لهم إذا عبدوه. ضعف الطالب والمطلوب.

* * *

١٠ - ﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴾ [طه: ٩٢ - ٩٣].

الدراسة والتحليل:

هال موسى ﷺ ارتداد قومه فى غيبته وعبادتهم العجل، فلما رجع إلى قومه بدأ التحقيق فيما حدث فور وصوله. وكَمْ كان حكيما فى إجراء ذلك التحقيق حين وجه السؤال أولا لقومه عامة. وبعد ما سمع منهم ما قالوا توجه بالسؤال إلى خليفته هارون عليه السلام.

ثم توجه بالسؤال إلى السامرى الذى كان زعيم هذه الردة كما قال له قومه.

وقد فرغنا من سؤال قومه وما ردوا به عليه. وها نحن أولاء نقف أمام السؤال الذى وجهه إلى أخيه وخليفته هارون مدة غيبته:

وسؤال موسى الذى وجهه لهارون تضمن استفهامين هما:

* (ما منعك..). * (أفعصيت أمرى).

ترك الإمام الزمخشرى النص على المراد من الاستفهامين أما الإمام أبو السعود فقد سكت عن الأول، أما الثانى (.. **أفعصيت أمرى**) فقد قال فيه:

(والهمـزة للإنكار التوبيخى. والفـاء للعطف على مقدر يقـتضيـه المقام، أى: ألم تتبعنى أو أخالفتنى فعصيت أمرى)[1].

والإمام الألوسى حين عـرض للكلام عن الآيتين عُنِىَ بتفـسيرهمـا مقتـديا بما قاله الإمام أبو السعود، ولـكنه لم يحدد -صراحة- ما المراد منهمـا، سوى أن كلامه عن الثانى يشير إلى أنه للإنكار[2].

وللإمام الطاهر بن عاشور توجيه سديد لكل من الاستفهامين:

فقد نص على أن الاستفهام الأول (**ما منعك**) -للإنكار والتهديد: ويقوى هذا مارد به هارون فى الاعتذار، حيث قال:

(قال يبنؤمَّ لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى..) [طه: ٩٤].

يعنى إنكار أن يكون لهارون سبب يمنعه من اتبـاع موسى فى الغضب لله والتصدى لردة قومه، أو اللحاق بموسى بجبل الطور مفارقا للمرتدين.

كما قضى فى الاستفهام الثانى أنه إنكارى مفرع على الأول.

والخلاصة: أن هذين الاستفهامين عند الأئمة للإنكار ومنهم من أضاف إلى الانكار التهديد والتوبيخ وهذا توجيه سديد.

ومع هذا فإننا لانرى حرجا إذا حـملنا الاستفهام الأول على الحقـيقة دون المجاز، لأن موسى عليه السـلام لما استمع إلى قومه، وعرف منهم تفـاصيل ما حدث، ومنه موقف هارون من قومـه ونصحه وزجره لهم. وهذا يجعـل موسى يلتفت إلى هارون ويسأله عن السـبب الذى جعله يقف عند ذلك الحد من الإنكار القـولى دون أن يقاتل من كفر بمن آمن كـما قال بعض الأئمة. ولاريب أن موسى حين سمع اعـتذار أخيه،

---

(١) تفسير أبى السعود: (٦/ ٣٩).

(٢) روح المعانى: (١٦/ ٢٥٠).

وأن القوم كادوا يقتلونه، وأنه خشى أن يقول له موسى بعد عودته لو كان قاتل من كفر بمن آمن، خشى أن يقول له موسى:

﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤].

لما سمع هذا موسى عفا عن أخيه وقبل اعتذاره وهدأت نفسه، ثم توجه بالسؤال إلى السامرى آخر حلقات التحقيق وهذا يؤكد ما جوزناه من حمل الاستفهام الأول على الحقيقة لا المجاز وإذا صحَّ هذا فهو ليس معناه الإنكار، بل طلب الفهم، وهذا مما لايكاد ينازع فيه منصف.

أسرار النظم وبلاغياته

* **(قال يا هارون..)** فصلت هذه الجملة عما قبلها من جواب قوم موسى لموسى عليه السلام، لأنها جواب عن سؤال مقدر يثور فى النفس عقب سماع كلام قوم موسى لموسى. حاصل هذا السؤال:

فماذا قال موسى بعد أن سمع جواب قومه؟ فبين هذه الجملة وما قبلها شبه كمال الاتصال، وهو من دواعى الفصل بين الجمل.

* **(ما منعك إذ رأيتهم ضلوا)** فى هذه العبارات إيجاز بالحذف وكناية:

أما الايجاز بالحذف فتقديره: ما منعك إذ رأيت قومنا أطاعوا السامرى فعبدوا العجل الذى صنعه لهم آلها من دون الله؟

وأما الكناية ففى قوله (ضلوا) وهى كناية عن عبادة العجل.

وعلى ماذهب إليه الأئمة من مجازية هذا الاستفهام وأن المراد به الانكار ففى الكلام كناية أخرى، حيث كنى موسى عليه السلام بنفى السبب عن المسبب وهو عدم الاتباع.

* **(ألاَّ تتبعن أفعصيت)** كثير من الآئمة، نصوا على أن (لا) الواقعة بعد (أن) بإدغام النون فيها والأصل (أن لا): أن (لا) هذه زائدة وسماها الألوسى كما سمى أمثالها من قبل :سيف خطيب[1].

---

(١) سيف خطيب كناية عن الشىء الذى لا أصل له. وكان الخطباء قديما يعتلون المنابر ويحملون معهم سيوفا اعتقاداً منهم أن ذلك سنة نبوية، ثم هجرت هذه البدعة لمالم يجدوا لها سنداً.

والواقع أن القول بزيادة لفظ فى القرآن بأن لايكون له معنى أمر غير مقبول: لذلك فإننا نميل إلى رأى من ضمَّن (منع) هنا معنى حملك أو دعاك. لإن هذا التضمين يمنع من القول بزيادة (لا) وللشيخ الطاهر كلام نفيس فى هذا المقام يحسن الرجوع إليه حسب الاشارة السابقة فى الهامش.

* (تتبعن) إن أريد بالاتباع الحزم مع بنى إسرائيل وحملهم على الحق لما ضلوا ففى العبارة استعارة تصريحية تبعية، بجامع التوافق.

* * *

١١ - ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾ [طه: ٩٥].

الدراسة والتحليل:

بتوجيه هذا السؤال إلى السامرى تكتمل خطوات التحقيق التى بدأها موسى عليه السلام فى أضخم واقعة سوداء فى تاريخ بنى إسرائيل.

بدأ بسؤال الشعب كله، ثم انتقل إلى سؤال أخيه وخليفته هارون عليه السلام.

ثم ها هو ذا يلتفت إلى السامرى، منبع الافساد والتضليل فيقول، وقد علم أنه الضال المضل:

(فما خطبك يا سامرى)؟

والخطب فى اللغة: الشأن والأمر صغر أو كبر[1] أى ما شأنك وما حالك وما أمرك ففعلت ما فَعَلْتَ. يعنى: انك فعلت أمراً شنيعاً، وقلت قولا منكرا وما عهدتك بهذا الضلال، فما هى قصتك التى أنت عليها؟ وكيف صدر عنك مالم يخطر لأحد على بال؟

وأمام رهبة المقام أقر السامرى فقال:

﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا به فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا، وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه:٩٦]، وقد مسَّ الآئمة، هذا الاستفهام مسّاً خفيفاً وأشار

---

(١) ترتيب القاموس المحيط (مادة: خطب).

بعضهم إلى أن المراد منه هو التوبيخ ولم يضيفوا إليه شيئاً، وإذا وضعنا فى الاعتبار رد موسى - عليه السلام - على السامرى بعد أن سمع منه الجواب، فإن هذا التوبيخ يترتب عليه معنى آخر هو التهديد والوعيد. والسامرى قمين بهما، لأنه هو زعيم هذه الأنتكاسة التى سودت تاريخ بنى إسرائيل فى حياة موسى عليه السلام.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(قال..)** فصلت هذه الجملة عما قبلها لما فُصِلت من أجلها نظائرها من قبل، وهو شبه كمال الاتصال، أو ما يسميه البلاغيون: الاستئناف البيانى. وهو يطلق على كل جملتين لا محل لهما من الاعراب ينشأ عن الأولى منهما تساؤل فى النفس عن معنى لوحت هى به، فتأتى الثانية جوابا على ذلك التساؤل الذهنى غير المنطوق به.
* **(فما خطبك ياسامرى)** -الفاء للعطف على مقدر يقتضيه مقام الكلام تقديره قول موسى الذى أراده وإن لم ينطق به هذا شأن بنى إسرائيل وشأن هارون مما يتصل بما حدث فما هو شأنك أنت؟
* وإيثار كلمة، (خَطْب) والمراد الشأن لأن كلمة (الخطب) أكثر استعمالها يكون فى المكاره. أما الشأن فيكون فى المحامد، لذلك كانت كلمة (الخطب) أشد تناسبا للمقام من كلمة (الشأن) لما فى صُنْع السامرى من شناعات ومقابح وقد كثر فى كلام الشعراء استعمال الخطب فى الداهية والنائبة التى يبتلى الله بهما بعض الناس ومن ذلك قول المتنبى فى رثاء محمد بن حميد الطوسى:

كذا، فليجل الخطب وليقدح الأمر   فليس لعين لم يُفض ماؤها عذر

* * *

١٢ - ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى ﴾ [طه: ١٢٠].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية الحكيمة، تعرض أحرج لحظة دهمت أبانا آدم وأمنا حواء وهما يغدوان ويمسيان فى رغد العيش ونعيم الجنة الذى وصفه الله مخاطباً آدم فقال:

﴿ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى ﴾

[طه: ١١٨، ١١٩].

لكن الشيطان لحقده على آدم، وعداوته إياه، اتخذ من الوسوسة النفسية وسيلة لإغواء آدم وحواء، ليخرجهما من الجنة، فأخذ يغرى آدم حتى أنساه نهى الله إياه من قبل عن شجرة عينها له، بأن لا يقربها، فضلاً عن أن يتذوقها أو يأكل منها فقال:

﴿يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾.

بدأ حديثه المغرى بهذا الاستفهام: **﴿هل أدلك..﴾**، وهو استفهام مجازى بدلالة المقام الذى ورد فيه، وحال القائل - الشيطان - والمقول له - آدم - والاستفهام المجازى يأتى لأغراض تختلف - بحسب غرض المتكلم به - من مقام إلى مقام وصورة إلى صورة، فما المراد - إذا - منه هنا؟

لم يقل فيه أحد من الأئمة القدامى شيئاً، وقد أورد فيه الشيخ الطاهر بن عاشور جملة قال فيها:

و**﴿هل أدلك﴾** استفهام مستعمل فى العَرْض، وهو أنسب المعانى المجازية للاستفهام لقربه من حقيقته[1].

هذه خلاصة ما قيل فيه، والذى يبدو لنا أن المراد من الاستفهام هنا هو: الإغراء والتزيين، لا مجرد العرض الذى رجحه الإمام الطاهر بن عاشور.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿.. قال يا آدم..﴾** فصلت هذه الجملة عما قبلها وهى **﴿فوسوس إليه الشيطان﴾** لما

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٢٥).

بين الجملتين من كمال الاتصال لأن الجملة الثانية إما بدل كل من كل، لأن جملة القول هى جملة الوسوسة.

وإما عطف بيان عليها؛ لأن جملة القول كاشفة وموضحة لما فى جملة الوسوسة من إبهام، وكل جملتين كانت الثانية منهما بدلاً أو عطف بيان فإن الثانية تفصل عن الأولى ولا تعطف عليها بالواو خاصة لكمال اتصال الثانية بالأولى.

* ﴿**هل أدلك**. .﴾ رجحنا قبلا أن الاستفهام - هنا - للإغراء والتزيين، ونقول الآن إن إيثار ﴿**هل**﴾ من بين أدوات الاستفهام لأنها تفيد التحقيق، فإبليس اللعين كان يصر إصراراً عنيداً على خداع آدم وإيقاعه فى المحظور.

* وإفراد آدم بالخطاب دون إشراك حواء معه، لأنه محط الإغراء والأصل فيه، وحواء تابعة له لما له عليها من قوامة.

* ﴿**شجرة الخلد وملك لا يبلى**﴾ إضافة (**شجرة**) إلى الخلد من إضافة السبب إلى المسبب على إرادة المبالغة فى الإغراء والخداع.

وعطف (ملك) عليها من عطف العام على الخاص، بقصد التدرج فى الإغراء من الأخص إلى الأعم.

أما تنكير (**ملك**) فللدلالة على تفخيمه وتعظيمه بدلالة المقام.

* * *

١٣ - ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ﴾ [طه: ١٢٥].

الدراسة والتحليل:

فى هذه الآية مشهد نوعى من مشاهد القيامة، مهَّد له قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

فهذا الذى يحشره الله يوم القيامة أعمى، هو الذى يعرض عن ذكر الله فى هذه الحياة الدنيا، وهو نوع من البشر وليس فرداً واحداً، وقد ورد هذا العمى مصحوباً بالصمم والبكم للمعرضين عن ذكر الله، الرافضين لرسالاته، السائرين وراء نعيق الشيطان:

(ومن يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه، ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبُكماً وصماً، مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً)

[الإسراء: ٩٧].

هذا النوع من الناس مغضوب عليه من الله، يعذبون فى الموقف قبل إلقائِهم فى النار.

والآية موضوع الدراسة تصور لنا لجاجتهم على لسان فرد منهم - والمراد نوعهم - إذ يقول:

﴿رب لِمَ حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً﴾.

تجاوز الأئمة - قدامى ومحدثين - هذا الاستفهام، ولم يقولوا فيه شيئاً، اللهم إلا الإمام الألوسى فقد قال:

(والظاهر أن هذا سؤال عن السبب الذى استحق به الحشر أعمى؛ لأنه جهل أو ظن أنه لا ذنب له يستحق به ذلك[1]).

ومؤدى كلامه يفيد أن الاستفهام - هنا - حقيقى لا مجازى والذى لاح لنا ودلَّ عليه جملة **﴿وقد كنت بصيراً﴾**، أن هذا الاستفهام إنكارى فهو - إذاً - مجازى لا حقيقى؛ لأن المستفهم يرى أنه ليس له ذنب يستحق به هذا العمى، أو اعتقد أن كفره، ومعاصيه - إن كان غير كافر - لا يكون أو لا تكون سبباً فى إذهاب بصره فى هذا اليوم، هذا ما نرجحه، وكلام الألوسى - نفسه - يدل عليه، وهذه خلاصة ما يمكن أن يقال فيه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿قال رب لم حشرتنى أعمى﴾**: هذه الجملة مفصولة عما قبلها على الاستئناف اللغوى لبيان أن قوله هذا رُتِّبَ على وجدان نفسه أعمى، وقد عُدِل عن المضارع فى **﴿قال - حشرتنى﴾** إلى الماضى، ولم ينسق على نظيره السابق عليه مباشرة، وهو قوله تعالى: **﴿.. ونحشره يوم القيامة أعمى﴾** وسر هذا العدول - فيما نرى -

---

(١) روح المعانى (١٦/ ٢٧٨).

الإعلام بتحـقق هذا الوعيد، حـتى لكأنه واقع الآن، ولعلماء البيان توجـيه بلاغى لهذا العدول أطلقوا عليه مصطلح:

الاستـعارة فى زمن الفـعل، حيث نُزِّل الوقـوع فى المستـقبل بالوقـوع فى الماضى بجامع تحقق الحصـول فى كلٍ منهما، وقد خرَّجوا قـوله تعالى فى أول سورة النحل: ﴿**أتى أمر الله فلا تستعجلوه**..﴾ على هذا المنوال؛ لأن (**أمر الله**) هنا يوم القيامة وهو لم يأت بعد، ولكن لما ورد به الخـبر الصادق كان كـأنه أتى فعلا وإذا فسـر (أتى) بقرب كـانت الاستـعـارة في مـعنى الفعـل لا فى زمنه والقـرينة هى قوله تـعالى: ﴿فـلا تستعجلوه﴾.

وفى قوله (ربِّ) لون من التـودد والاستعطاف، ولكن لات حين مناص، فمـا بعد الموت من صـلاح ولا إصلاح، والعمى - هـنا - حقيـقى لا مجـازى، وليس بمعنى الضلال كمـا قد يتوهم؛ لأنه لو كان بمعنى الضلال لمـا ساغ له أن ينكره أو يسأل عن السبب فيه؛ لأنه كان فى الدنيا ضالاً ضلالاً لا سبيل لإنكاره، فهو عمىً حقيقى عقاباً على عمى مجازى، وهو ضلاله فى الدنيا، دليل هذا قوله تعالى فى الرد عليه وإبطال إنكاره:

﴿قال كـذلك أتتك آياتنا فنسيتـها، وكذلك اليوم تنسى * وكـذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى﴾ [طه: ١٢٦، ١٢٧].

* ﴿**وقد كنت بصيراً**﴾ تعليل للإنكار، أو سبب للسـؤال إن كان الاستفـهام حقيـقياً، والواو للاستئناف، وأكدت الجملة بـ(قد) لتقوية الإنكار، أو السؤال.

والعدول عن اسم الفاعل (مبصر) إلى الصفة المشـبهة باسم الفاعل (بصيراً) لتوكيد الحالة التى كان عليهـا فى الحياة الدنيا، لما فى الصفة المشبـهة باسم الفاعل من رسوخ الوصف بالموصوف، ودوام وجوده، وكأنه يشير بذلك إلى بقائه مبصراً إلى يوم موته.

* وفى العبارة إيجاز بالحـذف، والتقدير: قال يارب لما حشرتنى اليـوم أعمى البصر، وقد كنت فى الحياة الدنيا ذا بصر حتى الموت؟

* * *

١٤ - ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَاكِنِهِمْ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِى النُّهَى﴾ [طه: ١٢٨].

الدراسة والتحليل:

ما قبل هذه الآية كان إنذاراً وتحذيراً لمشركى العرب من استمرارهم على تكذيب صاحب الرسالة الخاتمة ﷺ، من أن مصيرهم الحتم إذا لم يهتدوا هو مصير كل من شاق الله ورسوله وعاث فى الأرض فساداً، وأنهم سيحشرون عمياً وبكماً وصماً ثم عاد القرآن يلفت أذهانهم ليعودوا إلى الوراء وينظروا إلى مصارع الأمم الذين عتوا عن أمر ربهم فخلت منهم الدنيا وورثت أجيال من بعدهم دورهم وأرضهم، إن النظر والاعتبار بهذه العظات البالغات زاد لأصحاب العقول، وهادٍ إلى سواء السبيل.

وقد تصدر هذه الآية هذا الاستفهام:

﴿أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون. . ﴾.

هذا الاستفهام تجاوزه الإمام جار الله، وهو عند الأئمة الثلاثة: أبى السعود، والألوسى، والطاهر بن عاشور استفهام إنكار، ونكتفى بكلام أبى السعود فيه للإيجاز، قال فى: (**أفلم يهد لهم. .**).

كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله من قوله تعالى: (**وكذلك نجزى. .**) والهمزة للإنكار التوبيخى، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام. . والمعنى: أغفلوا فلم يفعل الهداية، يعنى الله عز وجل على أنه فاعل (يهد) أو فلم يبين لهم مآل أمرهم كثرة إهلاكنا للقرون الأولى[(١)].

وتحرير معنى كلامه هذا: أن (يهد) يجوز أن يكون فاعله هو الله، ويجوز أن يكون الفاعل هو مضمون الجملة بعده وهى: كم أهلكنا، وكان الإمام جار الله الزمخشرى هو أول من جوَّز هذا الإعراب فى هذه الآية[(٢)]، ثم تابع الإمامان الألوسى والطاهر أبا السعود فى كون الاستفهام للإنكار[(٣)].

---

(١) تفسير أبى السعود (٦/٤٨، ٤٩). (٢) الكشاف: (٢/٥٨٨).

(٣) روح المعانى (١٦/٢٧٩) والتحرير والتنوير (١٦/ ٣٣٤).

والخلاصة: أن هذا الموضع أهمل الحديث عنه أكثر الأئـمة ومن عنى ببيان المراد منه حـمله على الإنكار والتوبيخ، ولا نـرى ذلك لازماً، لأن الذين حـملوه على الإنكار خرَّجوا الآية على مـذهب غير الجمهـور، بأن همزة الاستفهـام داخلة على محذوف مقدر، هو: أغفلوا، فجـعلوا الإنكار مسلطاً على الغفلة وصاحب هذا المذهب، وهو الزمخشرى، لم يطبقه أو يشر إليه فى هذا الموضع.

والذى لاح لنا بدلالة المقام أن الهمـزة مقدمه من تأخير، وهذا مـذهب الجمهور، لأن لها الصـدارة، وعلى هذا فإن الاسـتفهـام - هنا - مراد منه التـقرير لا الإنكار، والمقام ينادى بهذا المعنى، سـواء كان الفاعل لـ (يهد) هو الله أو الرسول أو مـضمون الجملة على نحو ما تقدم؛ لأن سياق الكلام يدل دلالة قوية على أن الله تعالى يلزمهم بالعلم بما حل بالأمم الغابرة - كعادٍ وثمود - من مصـارع السوء، وهذا يناسبه التقرير لا الإنكار فـهو - إذاً - اسـتفـهام تقـرير وإلزام وإفحـام وتهديد، ولا داعى بلاغـة للإسراف فى تقـدير محذوف الكلام غنى عنـه، بل إن ذلك التقدير مما يحط ببـلاغة البيان هنا.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**أفلم يهدلهم**..﴾ قال الأئمة - فـيما قالوا - إن (يهد) ضـمن معنى (يبيِّن) لذلك عُدِّى باللام فى (لهم) والذى يلوح لنا أن (يهد) هنا مستعار لـ(يصل) أى ألم يصل لهم عِلْمُ القرون الكثـيرة التى أهلكناها لما عـتت عن أمر ربها وظلمت بجـامع قوة التحقق فى كل من الهداية والوصول، و(كم) كناية عن الكثرة.
* ﴿**يمشون فى مساكنهم**﴾ جوَّز الأئمة عَودُ الضـمير على القرون بمعنى أن الله أهلكهم وهم آمنون فى مـساكـنهم، وهذا مدفـوع لأن (**يمشون**) يأباه وعوده على مـشركى العرب، وهذا أصوب والعظة فيه أقرب.

وإيثار حرف الظرفية (فى) للدلالة على أن مشركى العرب وصلهم علم ما حل بمن قـبلهم وصولاً جليـاً، وألموا بأسرارهم إلمام مـن عاين مـساكنهم ووقف على دقـائق

وتفاصيل حياتهم، ولذلك أوثر (فى) على (بين) فيما لاح لنا.

وإيثار الفعل المضارع (يمشون) لاستحضار الصورة ومثولها أمام الأنظار.

* ﴿**إن فى ذلك لآيات لأولى النهى**﴾ هذه الجملة الخبرية بتمامها استئناف مؤكد لمضمون الكلام قبله، وهو هنا التقرير والإلزام والتهديد.

وقد أكد الخبر بـ(إن) وإسمية الجملة واللام فى (لآيات) لإزالة الإنكار عند المتحدث عنهم، لأن حالهم جرى على غير مقتضى علمهم بأحْوال الأمم المصروعة فنُزِّلوا منزلة من ينكره.

* وإيثار اسم الإشارة (**ذلك**) لتفخيم شأن المشار إليه تنزيلاً لبُعْد المكانة منزلة بُعْد المكان، والمشار إليه هو انتقام الله من المجرمين.

* وتنكير (**آيات**) للتعظيم والتكثير: أى عظات عظيمة وكثيرة، وهذا التوكيد الإلزام والتهديد.

* (**لأولى النهى**) كناية عن أصحاب العقول المستنيرة و(**أولى**) بمعنى (**أصحاب**) وأوثرت هنا (أصحاب) لأن المضاف إليه - النهى - جزء من المضاف - أولى - وهذا منهج مطرد للنظم القرآنى، وهو إضافة أولى إلى ما هو جزء منه، وإضافة صاحب وأصحاب إلى ما هو منفصل عنه.

كأصحاب القبور، وأصحاب الجنة، وأصحاب الفيل، وأصحاب الجحيم، وأصحاب القرية[1].

* * *

---

(١) انظر كتابنا: دراسات جديدة فى إعجاز القرآن، مناهج تطبيقية فى (توظيف اللغة) مادة «أولى» مكتبة وهبة القاهرة.

١٥ - ﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ، أَوَ لَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ الأُولَى ﴾ [طه: ١٣٣].

الدراسة والتحليل:

بعد أن حكت سورة (طه) بعض مقابح المشركين وعنادهم كشف البيان القرآنى عن طبيعة ضالة من طباعهم، وهى إعراضهم عن كل هدىً يأتيهم من الله، ثم فى الوقت نفسه يدَّعون أنهم فى حاجة إلى هدىً جديد، وأنهم يصدون عن المعجزات الباهرة التى يؤيد الله بها الحق المنزَّل إليهم، ثم يطلبون - معاندة - معجزات أخرى غير التى بين أيديهم، هذا دأبهم مع جميع الرسل.

وها هى ذى سورة طه - وهى تقترب من الختام - تقص علينا هذا الموقف المعادى للحق، المعرض عن الآيات والمعجزات، فهذا قولهم:

﴿. . **لولا يأتينا بآية من ربه**﴾ قالوا هذا وقد شاهدوا قدراً هائلاً من المعجزات المادية الخارقة لكل معهود مألوف، وكأن محمداً ﷺ لم يُرِهم أية معجزة مادية من جنس معجزات الرسل السابقين، وكأن القرآن لم ينزل ولم يتل عليهم، ولما كان القرآن قد ردَّ عليهم مقولتهم هذه فى سورة الإسراء بعد أن قدَّموا مجموعة من المقترحات طالبوا رسول الله أن يختار ما يشاء منها، وقال لهم هناك فى الرد على هذا العبث.

﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِى وبَيْنَكُمْ إِنَّه كَانَ بعِبَادِه خَبِيراً بَصِيراً﴾

[الإسراء: ٩٦].

وبعد أن قال لهم فى سورة العنكبوت فى الرد على هذه المقولة: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ بعد هذا كله رد عليهم هنا فقال:

﴿أَوَلَمْ تأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ الأُولَى﴾

والبينة التى فى الصحف الأولى البشارات بالرسالة الخاتمة فى الوحى المنزل على الأنبياء السابقين، أو أخبار الأمم الغابرة[1].

وهذا الاستفهام حمله من عرض له من الأئمة، على الإنكار وهم: أبو السعود

---

(١) سيأتى توضيح لهذا فى مبحث أسرار النظم وبلاغياته بعد قليل.

والألوسى والطاهر، وهو عندهم لإنكار الوقوع[1].

وقد سبق لنا فى نظيره السابق (أفلم يهد لهم) أن بينا ما سوَّغ القول عندهم بالإنكار، ورددنا عليهم بما فيه الكفاية، ونعود هنا فنقول: إن هذا الاستفهام كنظيره الذى تقدم للتقرير والإلزام، وليس للإنكار وأدلتنا على هذا ما تقدم ذكره قبل هذا الاستفهام مباشرة، فمن شاء فليرجع إليه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه**﴾ كنوا بإدعائهم خلو دعوته ﷺ من المعجزات عن عدم الاعتداد بالقرآن وإسقاطه من البين، وإضافة (رب) إلى ضمير النبى ﷺ سخرية منهم بعقيدة التوحيد.

والبينة كما تقدم:

إما البشارات بالرسالة الخاتمة، أو أخبار الماضين، وأطلق وصف البينة لأنها برهان صدقه، ودليل نبوته ولا يقدح فى ذلك أن يقال: إن الخطاب مع مشركى مكة وهم لا كتاب لهم؛ لأن مشركى مكة كانوا دائمى الاتصال باليهود فى يثرب، يعرفون عنهم كل ما يخص رسول الإسلام، وإسناد الإتيان إلى (بينة) مجاز عقلى، لأن البينة مأتى بها لا آتية.

وتنكير (بينة) للتعظيم والتفخيم يعنى بينة عظيمة لا تُرد ولا يرتاب فيها.

و(**الصحف الأولى**) كناية عن الوحى القديم كالتوراة والإنجيل، وفى ردهم إلى ما فى (الصحف الأولى) محاصرة لهم من كل الجهات وقطع العذر عنهم، وسميت صحفاً معدولاً بها عن (الكتب) للإشادة بما فيها من دلائل الحق، لأن الصحف جمع صحيفة، أى أن تلك الصحائف كلها فيها من دلائل الحق ما يزيل كل ريب، ويمحو كل شبهة، فإذا لم يقنعهم القرآن فليطلبوا المعجزات فيما تقدم عليه، وسيجدوا ما فى تلك الصحف مؤازراً لما فى القرآن، مع هيمنة القرآن على كل ما عداه وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

* * *

---

(١) تفسير أبى السعود (٦/ ٥١) وروح المعانى (١٦/ ٢٨٦) والتحرير.. (١٦/ ٣٤٤).

١٦ - ﴿ قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴾ [طه: ١٣٥].

الدراسة والتحليل:

ختام بليغ ختم الله به سورة (طه) فبعد الجولات التى جالتها هذه السورة فى تصوير حلقات الصراع بين الحق والباطل، الإيمان والكفر، المؤمنين والكافرين، بعد هذا كله جاء هذا الختام الرائع الحكيم، إذ لا إكراه فى الدين، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، وما على الدعاة الهداة إلا قول الحق من ربهم، وتبليغ الناس ما نُزِّل إليهم منه، فإذا قامت القيامة فإذا الناس فريقان: فريق فى الجنة وفريق فى السعير.

(قل كل متربص) أهل الإيمان وأهل الكفر، وسيعلم الفريقان أيًّا منهم كان على الحق، وكان على الهدى.

وهذه العبارة: **(من أصحاب الصراط السوى، ومن اهتدى)** نص كثير من الأئمة على أن (من) الأولى فيها استفهامية، وجوزوا فى (من) الثانية الاستفهام والموصولية ولكنهم لم يقولوا: ما المراد من هذا الاستفهام؟

ولا نريد أن نطيل، بل نوجز ما يلوح لنا فيها فى الآتى:

أولاً: الظاهر أن (من) الأولى والثانية موصولتان وليستا استفهاميتين، والمعنى: سيعلمون من هم أصحاب الصراط السوى المهتدون، وهذا هو المعنى المتبادر إلى الفهم من مجرد سماع هذه العبارة، والواقع أن المراد من **(من)** فى الموضعين فريق واحد لا فريقان فأصحاب الصراط السَّوى هم المهتدون، والمهتدون هم أصحاب الصراط السَّوى.

وإذا جارينا القول بأنهما استفهاميتان فأظهر ما يراد منه التعريض والتهديد:

* التعريض بالذين كفروا بأنهم ليسوا على الحق. والتهديد للذين كفروا بسوء المصير.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(قل كل متربص فتربصوا)** فصلت هذه الجملة (قل) عما قبلها لما بين الجملتين من كمال الانقطاع؛ لأن ما قبلها خبر وهى إنشاء.

وفى (كل) إيجاز بحذف المضاف إليه، والتربص الانتظار والحذر والأمر فى **(تربصوا)** للتهديد.

* **(الصراط السوى)** كناية عن الحق الذى أنزله الله على رسوله، وفى (الصراط) استعارة تصريحية أصلية والمستعار له الدين القويم.

وفى **(أصحاب)** وإيثار التعبير به إعلام بملازمة أهل الحق للحق، وقوة تمسكهم به.

* **(ومن اهتدى)** تكرار بالوصف بالهداية، بعد ثبات الوصف بملازمة الصراط القويم، وسر هذا التكرار والمتحدث عنه فريق واحد المبالغة فى رفعة شأن هذا الفريق، وجمعه بين الفضيلتين.

أما المخاطب فى **(فتربصوا - فستعلمون)** فهم المشركون وأبهم عليهم تعيين هذا الفريق، ليتفكروا ويرجعوا إلى أنفسهم عساهم يهتدون.

* * *

سورة الأنبياء

١ - ﴿ لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ، وأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ، أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣].

الدراسة والتحليل:

سورة الأنبيــاء مكية، ولهذا أولت عقيــدة التوحيد عناية ملحــوظة، وفضحت أهل الشرك والوثنية، وتلت عليهم صوراً من حركات التاريخ النبوى ومصارع المعاندين لله ورسله وتحدثت عن زيغ طبائع البــشر إلا من هداه الله، وشرودهم من نداءات الحق، والسير وراء الأوهام.

وهذه الآية موضوع الدراسة هى الآية الثالثة من هذه السورة المسماة سورة (الأنبياء) وقد تقدم عليها هاتان الآيتان، بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿اقْتَــرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِــى غَفْلَةٍ مُّعْــرِضُونَ * مَا يَأْتِيــهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾، ثم أكملت الآية الثـالثة الوصف: **(لاهية قلوبهم)** وذكرت ما يدور بينهم عن صاحب الرسالة الخاتمة:

﴿هل هذا إلا بشر مثلكم﴾؟

﴿أفتأتون السحر وأنتم تبصرون﴾؟

وهما جملتــان استفهاميتــان الأداة فى الأولى (هل)، وفى الثانية الهمزة، وفــيهما يقول الأئمة:

بدأ الإمام الزمخشرى الحــديث عن هاتين الصورتين فقال: **(هل هذا إلا بشر مـثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون)**: هذا الكلام كله فى مــحل النصب بدلاً من النجــوى، أى: وأسروا هذا الحديث، ويجوز أن يتعلق بقالوا مضمراً، اعتقدوا أن رسول الله ﷺ لا يكون إلا مَلَكاً - يعنى أى رسول يرسله الله ينبغى أن يكون من الملائكة - وأن كل

من ادعى الرسالة من البشر، وجاء بالمعجزة هو ساحر، ومعجزته سحر، فلذلك قالوا على سبيل الإنكار:

(أفتحضرون السحر وأنتم تشاهدون وتعاينون أنه سحر[1]).

سكت عن الأول، وحمل الثانى على الإنكار.

وقال الإمام أبو السعود: و(هل) بمعنى النفى والهمزة فى قوله تعالى ﴿**أفتأتون السحر**﴾ للإنكار، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام، وقوله تعالى: ﴿**وأنتم تبصرون**﴾ حال من فاعل ﴿تبصرون﴾ مقررة للإنكار، ومؤكدة للاستبعاد والمعنى:

(ما هذا إلا بشر مثلكم، أى: من جنسكم، وما أتى به سحر، أتعلمون[2] ذلك وتحضرونه على وجه الإذعان والقبول، وأنتم تعاينون أنه سحر؟[3]).

يعنى أن الاستفهام الأول مجازى معناه النفى، وكان الزمخشرى قد سكت عنه، أما الثانى فقد قرر أنه للإنكار كما قال الزمخشرى من قبل.

والإمام لم يختلف ما قاله عن قول أبى السعود، فالاستفهام الأول للنفى، والثانى للإنكار[4].

ونقل الإمام النسفى كلام الزمخشرى، وسكت مثله عن الأول، وجاراه فى الثانى على الإنكار[5]. ونحا منحاه الإمام البيضاوى[6]. وحمل الإمام الطاهر بن عاشور الاستفهامين على الإنكار[7].

والخلاصة: وجهات نظر الأئمة فى الاستفهامين متقاربة، فهم مجمعون على أن الثانى ﴿**أفتأتون السحر وأنتم تبصرون**﴾ للإنكار، أما الأول فتردد عندهم على ثلاثة معان:

* أن يكون المراد منه النفى، وهو رأى أبى السعود والألوسى، وما يفهم من كلام الزمخشرى.

---

(١) الكشاف: (٢/ ٥٦٢).

(٢، ٣) تفسير أبى السعود (٦/ ٥٤)، والمعطوف عليه المقدر هو: (أتعلمون).

(٤) روح المعانى: (١٧/ ١٨).

(٥) تفسير النسفى (٣/ ٧٢).

(٦) تفسير البيضاوى (٢/ ٦٥).

(٧) التحرير والتنوير (١٧/ ١٠٠).

* أن يكون للإنكار، وهو رأى الطاهر بن عاشور.

* أن يكون للتعجب، عزا هذا الرأى الإمام الألوسى إلى أبى حيان ولم يرتضه.

بيد أن أبا حيان لم يحمله على التعجب ابتداء، وإنما حمله على الإنكار وجعل التعجب رديفاً له، كما جعل التوبيخ رديفاً للثانى، وهذا كلامه:

﴿هل هذا إلا بشر مثلكم﴾ استفهام معناه التعجب، أى كيف تخصونه بالنبوة دونكم مع مماثلته لكم فى البشرية، وإنكارهم وتعجبهم من حيث كانوا يرون أن الله لا يرسل إلا ملكاً، و﴿أفتأتون السحر﴾ استفهام معناه التوبيخ.. (أى أفتحضرون السحر وأنتم تبصرون أنه سحر[(1)]).

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿لاهية قلوبهم﴾ إسناد اللهو إلى القلوب مجاز عقلى علاقة السببية، لأن لهوهم كان ناشئاً عن انشغال قلوبهم إلى ملاذ الحياة الدنيا، وانصرافها إلى الباطل.

* ﴿وأسروا النجوى﴾ إيقاع الأسرار على النجوى - وهى لا تكون إلا سراً - إشارة إلى حرصهم الشديد على التخفى وهم يتناجون ويلغطون فى شأن الرسالة والرسول.

* ﴿الذين ظلموا﴾ بدل أو عطف بيان من الواو فى (أسروا) وسره البلاغى إعلان أنهم هم ظالمون، وليس هو على لغة: أكلونى البراغيت، كما ذكر بعضهم[(2)].

﴿هل هذا إلا بشرٌ مثلكم﴾ بدل من النجوى كما ذهب الزمخشرى من قبل، أو مقول لقول محذوف، تقديره: يقولون أو قائلين، فإذا كان كذلك ففى العبارة إيجاز بالحذف وهو أسلوب قصر إضافى قصروا فيه ذات النبى ﷺ على صفة البشرية، وطريقه النفى بناء على أن (هل) للنفى أو الإنكار ثم الاستثناء.

بيد أن هذا النفى أو الإنكار كناية عن تقرير بشريته ﷺ المستلزم لنفى الرسالة أو إنكارها فى زعمهم.

---

(١) البحر المحيط (٦/ ٢٩٧).

(٢) هذا اصطلاح نحوى يطلق على كل فعل فاعله ألف الإثنين أو واو الجماعة إذا فسِّر بالمظهر، ومثال المثنى أن تقول: اكرمانى الصديقان.

* ﴿**أفتأتون السحر**﴾ فى العبارة إيجاز بالحذف والتقدير أتعلمون ذلك وتشاهدون ما يقوله هذا البشر.

والسحر كناية عن القرآن أو المعجزات التى جاء بها النبى، وفى (**تأتون**) مجاز مرسل، حيث أُطلق المسبب وهو الإيتاء، وأريد السبب وهو المشاهدة والمعاينة.

وإيثار (**هل**) فى الأول ﴿**هل هذا إلا بشرٌ مثلكم**﴾ لتحقيق المستفهم عنه، وكونه أمراً لا نزاع فيه، أما إيثار الهمزة فى الثانى ﴿**أفتأتون السحر**﴾ فلإنها للتصور، وكأنهم أرادوا أن يقولوا لبعضهم أن تصور هذا الإتيان لا ينبغى أن يصدر عنكم، فضلاً عن وقوعه منكم.

* وفى ﴿**وأنتم تبصرون**﴾ تقرير وتوكيد - حسب زعمهم - أن المخاطبين يستيقنون أن ما جاء به محمد ﷺ سحر، وقد دلوّاً عليه باسمية الجملة (أنتم) وتكرار الإسنادين المسند إليه (**أنتم**) والمسند (**تبصرون**) فالجملة (**تبصرون**) مسنده إلى (**أنتم**) من حيث هى خبر عنه.

والفعل (**تبصرون**) مسند إلى ضميرهم، وهو واو الجماعة.

* وفى (**تبصرون**) استعير الإبصار للعلم، إيذاناً منهم بأن علمهم بسحرية الرسالة والرسول علم راسخ عندهم، لا يُشك فيه، وكأنه يُعايُن بالبصر المجرد لشدة ظهوره.

وهى استعارة تصريحية تبعية، استعارة محسوس مشاهد لمعنوى مدرك بالذهن.

* * *

٢ - ﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِّن قَرْيَةٍأَهْلَكْنَاهَا، أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦].

الدراسة والتحليل:

كل رسول بعثه الله إلى قوم أيده بمعجزات تثبت لهم - يقيناً - أنه رسول من عند الله، لكن دأب الذين كـذَّبوا الرسل أن يرفضوا الآيات والمعجزات التى وقعت، ثم يقترحوا على رسلهم أن يأتوا بمعجزات أخرى غير التى عاينوها، وأحياناً يقترحون على الرسل أشياء يطالبونهم بتحقيقها فى الواقع ليؤمنوا لهم ويصدقوهم.

والمشركون العرب نهجوا نهج أسلافهم فرفضوا معجزات النبوة واقترحوا على صاحب الرسالة أن يأتيهم بمعجزات أخرى، كما ورد فى سورة الإسراء.

وهنا تحكى عنهم سورة الأنبياء موقفاً مماثلاً:

﴿بل قالوا أضغاث أحلام، بل افتراه، بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾

[الأنبياء: ٥].

وصفوا القرآن بأوصاف تخرجه عن دائرة الإعجاز، واعتبروا محمداً ﷺ لم يأت بآية كما آتى المرسلون من قبله بالآيات.

فجاءت الآية موضوع الدراسة تفند باطلهم، وتكشف خباياهم، فهم لن يؤمنوا حتى إذا حققنا الآيات التى اقترحوها، كذلك فعل الذين من قبلهم من الأمم التى أهلكها الله، وهذا الاستفهام (**أفهم يؤمنون**) يستهل القول فيه الإمام أبو السعود بعد أن طوى ذكره الإمام الزمخشرى قال رحمه الله:

(الهمزة فى قوله تعالى **﴿أفهم يؤمنون﴾** لإنكار الوقوع. . . فأفادت إنكار وقوع إيمانهم عقيب عدم إيمان الأولين[(١)]).

أما الفاء فبعد أن قرر أنها للعطف على محذوف، جوَّز أن تكون عاطفة على **(ما آمنت)** ثم أشار إلى أن الأول جارٍ على مذهب الزمخشرى من كون الهمزة قارَّة فى مكانها، وتقدير الكلام حينئذ: أهم - يعنى الأولين - لم يؤمنوا فهؤلاء - يعنى مشركى العرب - يؤمنون؟

---

(١) تفسير أبى السعود: (٦/ ٥٦).

أما الثانى، وهو العطف على **(ما آمنت)** فقد صرَّح أنه جارٍ على مذهب الجمهور، الذى يقضى بأن الهمزة مقدمه من تأخير لأن للاستفهام الصدارة[1].

وليس لدى الألوسى جديد لم يذكره أبو السعود، لذلك آثرنا مجرد هذه الإشارة إليه[2].

وحمله الإمام الشهاب على الإنكار، قال: (والاستفهام الإنكارى الاستبعادى، يفهم منه بمقتضى السياق أن السابقين لم يؤمنوا لعنادهم فكيف بهؤلاء وهم أرسخ قدماً منهم فى العناد؛ لأنهم علموا إهلاك المقترحين ثم اقترحوا، فظهر زيادة عقوقهم[3]).

والخلاصة: أن الاستفهام - هنا - للإنكار إجماعاً.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿ما آمنت . .﴾** استئناف مسوق للتعقيب على قول الذين كفروا **(فليأتنا بآية كما أرسل الأولون)** وإبطال ما تعللوا به من البقاء على الشرك وعدم الاعتداد بما أنزل الله من آيات.

* **﴿من قرية أهلكناها﴾** حرف الجر (من) دخل على الفاعل (قرية) لإفادة الاستغراق، أى استغراق أفراد الفاعل من الأمم التى أهلكها الله لما جاءتهم الآيات التى لا تنكر فكفروا بها، وتنكير (قرية) لإفادة العموم كذلك.

وفيها مجاز عقلى ومجاز مرسل:

المجاز العقلى فى إسناد الإيمان - منفياً - إليها والمراد إسناده إلى أهلها، وفى إيقاع الإهلاك عليها والمراد أهلها، وعلاقتاهما المكانية، المجاز الأول فى النسبة الوقوعية (الفاعلية) والمجاز الثانى فى النسبة الإيقاعية - المفعولية - لأن القرية لا يصح منها إيمان ولا يقع عليها عذاب، أما المجاز المرسل ففى لفظ (قرية) وإرادة أهلها والعلاقة المكانية كذلك.

---

(١) المصدر نفسه ملخصاً. (٢) روح المعانى: (١٦/ ١٢).

(٣) حاشية الشهاب (٦/ ٢٤٣).

* وفى حذف المعطوف عليه بـ(**الفاء**) إيجاز بالحذف بناء على غير المذهب الذى ذهبه الجمهور، على ما ذكره الإمام أبو السعود.
* وفى حذف متعلقى (**آمنت**) و(**يؤمنون**) إيجاز فى الموضعين: ما آمنت ولا يؤمنون بالرسالات السماوية.

* * *

٣ - ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

الدراسة والتحليل:

بعد أن أشار الحق عز وجل إلى طبيعة العناد المتأصل فى نفوس الكفرة من قومه، لفت ذهنه إلى ما لقيه الرسل من قبله، تسلية له وتثبيتاً، وأن قومه ليسوا بدعاً من البشر، وأن الله صدق وعده فى الماضى، ويصدقه فى كل حين، يهلك المجرمين وينجى المؤمنين، ولا خالد ممن خلق أحد.

ثم أشار فى هذه الآية إلى عظم نعمته فى القرآن الذى أنزله إلينا وحثنا على تدبره والتعرف على كمال النعمة فيه فقال:

﴿لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم، أفلا تعقلون﴾.

وجملة الاستفهام التى فى فاصلة الآية (**أفلا تعقلون**)؟ قد مرّت نظائرها وأشباهها كثيراً فى هذه الدراسة، كان أول نظائرها فى سورة البقرة ﴿. . **أفلا تعقلون**﴾ [الأنبياء: ٤٤]، وكنا قد عرفنا مذاهب الأئمة وما قالوا فى مثل هذا الاستفهام فليرجع إليه من شاء، ولا نرى ضرورة لتكرار القول فيه كلما تكرر، توخياً للإيجاز، مع الإشارة إلى المراد منه فى مبحث أسرار النظم.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿لقد أنزلنا إليكم. .﴾** اللام فى (لقد) للتوكيد سواء روعى فيها معنى (القسم) أو لم يراع، و(قد) هنا لتحقيق الوقوع، وكان المنزل من القرآن حين نزول هذه السورة - الأنبياء - بعض القرآن لا كل القرآن، فنزّل البعض منزله (الكل) على سبيل المجاز المرسل، الذى علاقته الكلية تنويهاً بعظمة ذلك البعض، حتى لكأنه هو

الكتاب كله فى جلالة قدره، ووفائه فى مجال الهداية والاعتبار.

وعُدِّى الإنزال - هنا - بحرف الجر (إلى) وله نظائر كثيرة فى الكتاب العزيز، وفى غيره عُدِّى بحرف الجر (على) وله نظائر كثيرة كذلك.

وسر التعدية بالحرفين على سبيل التبادل أن للإنزال جهتين:

* **الأولى:** مبدأ ومكان إنزاله.

* **والثانية:** منتهى ومكان إنزاله.

فإذا روعى مبدأ الإنزال عُدِّ بـ(على) إيذاناً بعلو شأن منزلته.

وإذا روعى منتهى الإنزال والتلقى عُدِّى بـ(إلى) تقريراً لقربه واستقراره لدى مَنْ نزّل إليهم، لما فى (إلى) من معنى انتهاء الغاية، ولما فى (على) من معنى الهيمنة وقوة الإلزام.

* **﴿كتاباً فيه ذكركم﴾** تنكير (كتاباً) للتعظيم والتفخيم وقُدِّم الجار والمجرور **(فيه)** على **(ذكر)** لاشتماله على الضمير العائد على القرآن فقدم لأشرفيته.

وإضافة (ذكر) إلى ضمير خطاب المخاطبين للترغيب فيه والعمل به.

وفى الذكر مجاز مرسل لأن العمل بهداه يرفع ذكر العاملين به فى حياتهم وبعد موتهم فأطلق المسبب (الذكر) وأريد السبب الهداية للتى هى أقوم.

* والاستفهام لإنكار عدم التعقل، ثم الحث عليه.

والآية كلها مسوقة لبيان فضل القرآن المشار إليه فى صدر السورة وإبطالاً لمزاعم المشركين الذين وصفوه بالأحلام المختلطة، والشعر والإفتراء، مع تشنيع مقالتهم هذه ورميهم بالسفه والغفلة وسوء الفهم.

* * *

٤ - ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢١].

الدراسة والتحليل:

بعد أن ذكر الله عز وجل مقولاتهم الشنيعة فى الرسالة والرسول والكتاب المنزل عليه ﷺ، انتقل إلي تجهيلهم بإدعائهم آلهة من دون الله مادتها من الأرض التى يقضون فيها حاجاتهم القذرة، ويطأونها بأرجلهم المدنسة ليقارن العاقل بين الإله الحق الذى كذبوا رسالاته وبين الأوهام التى اتخذوها أرباباً قادرة على كل شئ وهى من العجز بمكان.

وقد صُدِّرت هذه الآية بهذا الاستفهام:

﴿**أم اتخذوا آلهة . .**﴾ وفيه للإمام الزمخشرى كلام نفيس قال:

هذه أم المنقطعة الكائنة بمعنى (بل) والهمزة قد آذنت بالإضراب عما قبلها، والإنكار لما بعدها، والمنكر هو اتخاذهم (**آلهة من الأرض هم ينشرون**) الموتى؟ ولعمرى إن من أعظم المنكرات أن ينشر الموتى بعضُ الموات[(١)]، أى الجمادات هذا كلام نفيس حقاً على وجازته، وهو كافٍ فى بيان المراد من الاستفهام على أبلغ وجه من البيان.

ويقتفى أثره الإمام أبو السعود فيقول: (**أم اتخذوا آلهة**): حكاية لجناية أخرى من جناياتهم بطريق الإضراب والانتقال من فن إلى فن آخر من التوبيخ. . ومعنى الهمزة فى أم المنقطعة إنكار الوقوع لا إنكار الواقع[(٢)].

وقول أبى السعود: لإنكار الوقوع معناه أنهم لم يتخذوا آلهة من الأرض، وهذا غير مُسَلَّم، لأن المشركين اتخذوا تلك الآلهة فعلاً، فالصواب أن الاستفهام - هنا - لإنكار الواقع لا إنكار الوقوع.

ثم جاء الإمام الألوسى وردد ما قاله الإمام أبو السعود من أن الاستفهام فى الهمزة - هنا - لإنكار الوقوع لا لإنكار الواقع، بيد أنه ألتمس حيلة تسوغ القول بأن الاستفهام لإنكار الوقوع وهى أن الإنكار مسلط على (**هم ينشرون**) أى على ادعاء أن تلك الآلهة ستخرج الموتى من قبورهم يوم البعث[(٣)].

---

(١) الكشاف (٢/ ٥٦٦). (٢) تفسير أبى السعود: (٦/ ٦١).

(٣) روح المعانى: (١٧/).

وهذا مردود كذلك لسببين:

الأول: أن الإمام الزمـخشرى، وهو أول من فتق أكـمام هذا الاستفـهام، قال: إن الإنكار مسلط عـلى اتخاذ تلك الآلهة، أى مـسلط على المقيـد، وهو الآلهة، وعلى القيد، وهو أن تلك الآلهة تنشر الموتى وهذا هو الصواب.

الثانى: إذا قلنا إن الإنكار مسلط على النشور فحسب كان معنى هذا أن الله لم ينكر على المشركين اتخاذهم آلهة من دونه، سواء أضافـوا إليها النشور أولم يضيفوه، وهذا ظاهر الفساد كما لا يخفى.

والمراد بإنكار الوقوع الذى قـصرنا دلالة الاستفـهام عليه أنه ما كـان ينبغى لهم أن يتخذوا من دون الله آلهة، وها هم قد اتخذوها فبئسـما ما صنعوا، وبهذا تسقط شبهة أخرى ذكـرها الألوسى لامتناع إنكار الواقع أن الاتخـاذ كائن لا ريب فـيه فلا سـبيل لإنكاره، أما النشور فغير واقع.

وهذا سهو من الإمام، لأن الذى يمتنع حـينئذ هو النفى لا الإنكار، والبون شاسع بين النفى والإنكار، أما الإمام الطاهر بن عاشور فكلامه طبق ما فهمناه من الاستفهام قبل أن نطـلع على ما قاله فـيه، وهذا قـوله: (وهو استـفهام إنكارى، انكر عـليهم اتخاذهم آلهة[1])، فهـا هو ذا يُقصر الإنكار على اتخـاذ الآلهة دون أن يجعله واقـعاً على النشور، ولا ريب أن إنكار هذا الاتخاذ فى نفسـه يتولد عنه إنكار ما يصفون به آلهتهم من صفات لاحقة.

والخلاصة: أن الاستفهام فى قوله تعالى: **﴿أم اتخذوا آلهـة من الأرض هم ينشرون﴾** لإنكار ذلك الاتخاذ مطلقاً مع التوبيخ والتسـفيه، وهو إنكار مسلط على الواقع مع ما يستلزمه من الصفات الزائدة بحسب المقام لأن دلائل العقول والنقول تشهد بأن الله عز وجل واحد لا شريك له، ومن يدعى غير ذلك فـيكفر بوجود الله، أويجعل له - مع الإيمان به - شريكاً كيفما كان فقد ادعى بهتاناً وزوراً.

---

(١) التحرير والتنوير: (٣٦/١٧).

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿ **أم اتخذوا. .** ﴾ مر بنا القول كثيراً أن (أم) هنا منقطعة، وأن معناها يؤول إلى بل والهمزة، والتقدير هنا: بل أأتخذوا، وأن الهمزة هذه تتوارد عليها معانٍ شتى، ومعنى هذا أن فى (أم) هذه إيجاز لا بالحذف ولكن إيجاز قِصَرٍ، وهو من الفضائل البيانية لأن المعنى فيه أكثر من اللفظ.

* ﴿ **آلهة. .** ﴾ التنكير هنا للتكثير والتحقير، وكلاهما منافٍ لمعنى (الألوهية) فكمال صفة الألوهية فى الوحدانية والجلالة لذلك كان هذا التنكير من أقطع البراهين على فساد وبطلان عقيدة الشرك القائمة على التعدد والخسة والضعف.

* (**من الأرض هم ينشرون**) الجار والمجرور (من الأرض) يجرى مع ما تقدم عليه فى نسق واحد من التناسب والانسجام، فالمشركون عبدوا ورجَوْا آلهة كثيرة، ولا يصلح للألوهية إلا إله واحد هو الله عز وجل.

ثم إن الخسة والضعف والحقارة صفات لازمة لذلك الحشد من الآلهة المدعاة.

ثم يجئ أصل ومنحدر تلك الآلهة: (**من الأرض**) وهو إشارة إلى إنحطاط آلهتهم التى عبدوها ورجوها، فصفة الألوهية الحقة هى السمو والتعالى، وأين تكون هذه الأوهام المدعاة آلهة من صفات الكمال والجلال والجمال التى هى صفات قدسية لرب الأرباب، ومالك الرقاب الكبير المتعال ﴿**كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً**﴾.

* * *

٥ - ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ، هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ، فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤].

الدراسة والتحليل:

فى هذه الآية الكريمة انتقال من غرض إلى غرض تدرجاً فى منافحة المشركين وتجهيلهم وإبطال مزاعمهم، ففى الآية الأولى التى صدرت بما صُدِّرت به هذه الآية من الاستفهام بـ(أم) المنقطعة أبطل الله عز وجل عقيدة تعدد الآلهة عند المشركين

ببرهان العقل، حيث قال معقباً على دعواهم التعدد:

﴿**لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون * لا يسأل عما يفعل، وهم يُسألون**﴾ [الأنبياء: ٢٢، ٢٣]، يعنى: لو كان فى السموات والأرض آلهة إلا الله لفسدت السموات والأرض ثمرة التنازع بين جماعة الآلهة المتساوين فى الدرجة ولكنهما لم تفسدا، فهذا دليل العقل على بطلان عقيدة تعدد الآلهة.

ثم جاءت آيتنا موضوع الدراسة وأبطلت التعدد عن طريق النقل، فالقرآن وجميع الكتب السماوية تخلو من إقرار هذا التعدد وتحاصره وتنفيه، وتقيم مقامه عقيدة التوحيد، وهذا معنى قوله تعالى الذى لقنَّه لرسوله الكريم ليواجه به المشركين.

﴿**هذا ذكر من معى، وذكر من قبلى**﴾.

وبهذا حاصرهم القرآن من جهتى العقل والنقل، وليس بعدهما مصدر يعتد به فى الاستدلال على حقائق الإيمان، أما الاستفهام بـ(أم) هنا فهو مثل نظيره فى الآية رقم (٢١) من هذه السورة، فما قاله الأئمة هناك كرره بعضهم هنا، وطوى ذكره آخرون، بيد أن الإمام النسفى، كان أكثرهم توضيحاً لبيان الصلة بين الاستفهام فى الآيتين فقال فى تكراره بـ(أم) فى الموضعين:

الإعادة لزيادة الإفادة، فالأول للإنكار من حيث العقل، والثانى من حيث النقل[1].

وكان الذى قد أجمع عليه الأئمة فى الاستفهام السابق وهو:

(**أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون**): أن أم منقطعة بمعنى بل والهمزة، وبل للإضراب الانتقالى من فن إلى فن آخر.. والهمزة للإنكار.

وهذا ما كرره بعضهم فى آيتنا موضوع الدراسة.

كما فرقوا بين الإنكارين بأن الأول لإنكار اتخاذ آلهة موصوفة بالقدرة على بعث الموتى، والثانى لإنكار آلهة مطلقة غير موصوفة بشئ[2].

---

(١) تفسير النسفى (٢/ ٧٦).

(٢) انظر على سبيل المثال: تفسير أبى السعود (٦/ ٦٢)، وروح المعانى (١٧/ ٣١).

أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿أم اتخذوا من دونه آلهة . .﴾**: بل التى تضمنتها (أم) للانتقال من إفحام المشركين وإبطال عقيدتهم الوثنية عن طريق البرهان العقلى إلى إفحامهم عن طريق البرهان النقلى وسر تقديم البرهان العقلى على البرهان النقلى لأن العقل أعم من النقل وأشمل إلزاماً للمؤمنين بالنقل ولغير المؤمنين بالنقل.

و**﴿من دونه﴾** إضافة جديدة لم ترد فى الاستفهام: **(أم اتخذوا آلهة . .)**، وهذا فرق ثالث بين الاستفهامين لم يتنبه إليه الأئمة، والفروق الثلاثة هى:

* الأول للإنكار من جهة العقل، والثانى من جهة النقل.
* الأول لإنكار آلهة موصوفين بالقدرة على بعث الموتى، أما الثانى فلإنكار آلهة مطلقة غير موصوفة بشئ.
* الثالث: الأول لإنكار آلهة مطلقة عن قيد **(من دون الله)**، والثانى لإنكار آلهة مقيدين بأنهم من دون الله وهو الفرق الذى لم ينص الأئمة عليه.
* تنكير **(آلهة)** هنا للكثرة والحقارة مثل الأول، وهما وصفان تبرأ منهما صفات الألوهية المقدسة.
* **﴿قل هاتوا برهانكم﴾** الأمر (قل) للإفحام والتعجيز.

وإضافة البرهان إلى ضمير المشركين للتهكم والسخرية منهم، بتخييل أن لهم برهاناً وليس لهم برهان، وقد أشرنا كثيراً فيما تقدم من هذه الدراسة إلى أن نظم القرآن الحكيم إذا ورد فيه فعل الأمر **(قل)** كان ذلك للإعلام بأهمية ما يرد بعده، وأنه رسالة خاصة يجب إبلاغها فور تلقيها لمن نزلت تلك الرسالة فى شأنهم من المؤمنين، أو من غير المؤمنين.

﴿هذا ذكر من معى وذكر من قبلى﴾ إشارة إلى دلائل التوحيد التى جاء بها الرسل على مدى التاريخ النبوى كله، و**(من معى)** كناية عن أمة خاتم النبيين، و**(من قبلى)** كناية عن الأمم السالفة.

* **﴿بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون﴾** هذه الجملة الخبرية استعملت فى إفادة

الذم والتجهيل على سبيل المجاز المرسل والفاء فى (فهم) مؤذنة بأن ما قبلها سبب فى حدوث ما بعدها وهو الإعراض المترتب على الجهل بالحق.

* * *

٦ - ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا، وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

الدراسة والتحليل:

عرض القرآن فى الآيات التى سبقت هذه الآية فى سورة الأنبياء لتفنيد مزاعم المشركين، وأبطل عقيدتهم الوثنية بأدلة واضحة يدركونها ويعاينون استقرارها بما ركب الله فى البشر - عموماً - من ملكات أقدرها سبحانه على سبر الحقائق والوصول إلى النتائج اليقينية أو القريبة من اليقين بعد النظر والفحص، وقد أشرنا قبل هذه الآية مباشرة إلى السر فى تقديم البرهان العقلى على النقلى حين تصدى القرآن لإبطال عقيدة تعدد الآلهة عند المشركين وقلنا إن العقل سلطانه عام عند جميع بنى آدم، أما النقل - أى الوحى الإلهى - فسلطانه وقف على المؤمنين به، لا ينازعون فيما يقرره، ويصدقونه بصدر رحب، حتى إذا لم يفهموا بعض ما جاء فيه فهماً واضحاً، فإنهم يؤمنون به إيماناً جازماً مع اتهام أنفسهم بالقصور عن الفهم، ومن ذلك المتشابه الذى حكى القرآن موقف المؤمنين منه، بعد أن حكى موقف غير المؤمنين، وذلك فى قوله تعالى:

﴿هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب، وأخر متشابهات، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون فى العلم يقولون آمنَّا به كل من عند ربنا، وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾

[آل عمران: ٧].

فتقديم الدليل العقلى هناك مهَّد لصدق الدليل النقلى عند الذين كانوا لا يؤمنون بالوحى.

ولما كان المشركون يدعَّون أن مع الله آلهة، وأبطل القرآن هذه الدعوى من طريقى

العقل والنقل، وأفحمهم إفحاماً عظيماً وبيَّن لهم عجز آلهتهم فى مواضع كثيرة فى القرآن زادهم قهراً على قهر، **فبين لهم فى هذه الآية أثرين عظيمى الشأن من آثار قدرته عز وجل، وهما:**

الأول: أن السموات والأرض كانتا ملتصقتين ففتقهما الله عز وجل، وفصل كل مجموعة منهما عن الأخرى.

الثانى: أن الله جلت قدرته خلق كل شئ من الماء، وكأنه يقول لهم: هذا عمل قدرة الله الواحد، الذى يدعوكم رسوله إلى الإيمان به واحداً لا شريك له، فما هو عمل آلهتكم المتعددة التى تعبدونها من دون الله؟

ويلاحظ أن ترتيب هذين البرهانين جاء على عكس ترتيب البرهانين السابقين: العقلى والنقلى.

العقلى: وهو الذى يشترك فى الانقياد له المشركون مع المؤمنين ذُكر أولاً.

والنقلى: الذى ينفرد بالانقياد له المؤمنون دون المشركين ذكر آخراً.

وكنا قد بيَّنا أن سر هذا التقديم ليكون العقلى العام مقدمة وتمهيداً للإلزام والتسليم للنقلى الخاص.

أما فى هذه الآية فإن المقدم هو ما يُنكره أو يستطيع أن ينكره المشركون، وهو التصاق السموات بالأرض ثم فصلهما بقدرة الله.

والمؤخر وهو خلق جميع الأحياء من الماء هو الذى يشترك فى الانقياد له المشركون مع المؤمنين؛ لأنه حقيقة ملموسة مع ملاحظة أن رتق السموات والأرض ثم فصلهما لم يشاهده أحد من المشركين أو من المؤمنين، وهو ما قلنا أن المشركين لهم أن ينازعوا فيه، وبخاصة أن الله تعالى قصدهم هم وحدهم برؤية هذه الحقيقة فقال: **﴿أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتْقاً ففتقناهما﴾**؟

فما السر - إذاً - فى عكس ذلك الترتيب الذى جُعِلَ فيه البرهان الأول مفضياً إلى التسليم بالثانى، وهنا جُعِلَ البرهان الثانى مفضياً إلى التسليم بالأول؟

إن السر البيانى الذى هدينا إليه، ووجدنا فيه ثلجاً لصدورنا، وراحة لعقولنا أن

القرآن بعد أن أزال كل الشبهات الداعية إلى الشرك، وأقام أقطع البراهين الدالة على صحة عقيدة التوحيد وصدقها، فاجأ فى آيتنا هذه ﴿**أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما..**﴾، فاجأ المشركين بحقيقة ضخمة فخمة من حقائق الإيمان، وسر مذهل من أسرار الغيب، هو أن السموات والأرض فى بدء الخليقة، حيث لم يكن فى الوجود شئ غير الله كانتا ملتصقتين متماسكتين ففصلهما الله ذو الجلال والكمال، ثم رفع السموات وبسط الأرض ولما كانت هذه الواقعة لم يشهدها إنس ولا ملائكة ولا جن، وكان فى استطاعة المشركين أن يكذِّبوها، فضلاً عن أن يقروا ويعترفوا برؤيتها، سارع النظم القرآنى المعجز فردف عليها حقيقة يؤمن بها كل ذى عقل، وهى وقف شئون الحياة والأحياء على الماء، فكان ذكر هذه الحقيقة دليلاً على الإلزام والتسليم بتلك الحقيقة الإيمانية الشامخة التى لم يرها يوم حدثت أحد.

فالبرهان الثانى هنا طريق قصير للإيمان بالحقيقة الأولى كما كان البرهان الأول - العقلى - فى الآيتين السابقتين طريقاً قصيراً للإيمان بالبرهان الثانى - النقلى - الذى ينازع فيه المشركون، فسبحان من نزَّل هذا الكتاب العظيم الذى لا تنقضى عجائبه، ولا يَخْلَقُ على تطاول الدهور والعصور والآماد.

هذا الذى هدانا الله إليه كان إسعافاً لنا فى ليلة مباركة من بعد صلاة (عشاها) إلى مطلع (فجرها) فقد وقفنا طويلاً أمام:

(**أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما**) وطالعنا أسفار المفسرين، وكتب البحث العلمى الحديث فى علوم الكون، فلم نظفر بطائِل، ووقع فى أنفسنا أن المخرج سيكون فى كتاب سماحة الشيخ الطاهر بن عاشور أو فى ظلال القرآن؛ لأنهما كتابان حديثان قد أتيحت لمؤلفيهما فرص بحث علمى حديث لم يكن موجوداً فى عصور المفسرين القدماء فزادنا ما طالعناه حيرة وضيقاً:

الشهيد سيد قطب مرَّ عليه مرور الكرام مع تفويض الأمر لله والإمام الطاهر أطال وأطال، ولكنه لم يذكر شيئاً يبل الرمق، فضلاً عن الإرواء، وكان بعد العسر يسر فهدينا فى لطف إلى ما سجلناه فى هذه السطور، والحمد والمنة لله، فإن كان ما

سجلناه صواباً فذلك الفضل من الله، وإن كانت الأخرى فحسبنا أننا مجتهدون حسنو النية مخلصوها، محبون لكتاب رب العزة باذلون ما نملك من جهد فى العيش معه والزود عنه والسبح فيه، والحرص عليه، والإخلاص لمن أنزله.

أسرار النظم وبلاغياته:

﴿**أولم ير الذين كفروا..**﴾ الاستفهام هنا للتقرير وليس للإنكار كما ذهب سادتنا المفسرون ولا يقدح فى هذا أن الذين كفروا لم يروا هذه الحقيقة لا علمياً ولا بصرياً قبل نزول هذه الآية؛ لأن الله يقول فيهم وفى جميع خلقه: ﴿**ما أشهدتهم خلق السموات والأرض، ولا خلق أنفسهم**﴾ [الكهف: ٥١].

نقول: هذا لا يقدح فى حمل الاستفهام على التقرير - هنا - لأن الله - جلت حكمته - أراد أن يفاجأهم بعد بيان عجز آلهتهم - بما لم يُحط به خبرهم، وبما يهز عقولهم هزا من آثار قدرته التى لا تعجز، ولا تحصر عجائب صنعها مما يدركه العقلاء، ومما لا لإدراكه من سبيل إلا الخبر الصادق من رب الأرباب ومالك الرقاب، علهم يراجعون أنفسهم فيهتدوا، أو يظلوا على عنادهم فتقوم عليهم الحجة ويكبلهم الإلزام.

﴿**أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما**﴾ توكيد للرؤية التى قرَّر الله الذين كفروا بها، مبالغة فى تبكيتهم ونكايتهم وفى الجمع بين السموات والأرض، والرتق والفتق طباقان إيجابيان وقعا موقعهما من البلاغة، ومطابقة مقتضى الحال.

ولتوكيد الخبر فى ﴿**أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما**﴾ سر بلاغى آخر غير تبكيت الذين كفروا، هو تقرير هذه الحقيقة الإيمانية الغيبية فى الواقع ونفس الأمر.

* ﴿**أفلا يؤمنون**﴾ فى هذا الاستفهام إنكار لعدم إيمانهم وتوبيخ عليه، ثم حث وترغيب على تحصيل ذلك الإيمان بالله الواحد القهار.

* * *

٧ - ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِن قَبْلِكَ الْخُلْدَ، أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾

[الأنبياء: ٣٤].

الدراسة والتحليل:

من الطباع البشرية الغيظ والحسد، ومبعث الحسد أن الحاسد يرى غيره ذا فضل ونعمة من الله هو منها محروم، وبها مغرم، فإذا به يزداد بُعْداً عن النعم، ويزداد غيره فضلاً بعد فضل، ونعمة فوق نعمة والحاسد - المريض النفسى - يقارن حاله المزرية وحظه التعس بما أوتى غيره من خيروفضل ومتاع، فتسود الدنيا فى عينيه، ويقلب من الحسرة كفيه، ولا يرى راحته إلا فى زوال نعمة المحسود، فهو يتمنى زوالها لتسلو نفسه، ويسكن هياجه.

وإذا كان بين الحاسد والمحسود نفور وعداوة اضطربت نار الحقد فى قلب الحاسد، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، ولا منقذ له مما يجد من عناء - وقد يئس من مساواة محسوده أو التفوق عليه فى الحظوظ، **لا منقذ له إلا أحد أمرين:**

الأول: أن تزول تلك النعم عن المحسود.

الثانى: أو يزول المحسود عن تلك النعم.

ومعنى الثانى هو أن يموت المحسود.

هذه المشاعر الخسيسة كان المشركون يضمرونها للنبى ﷺ وبخاصة أن ما كان من فضل وشرف لا يُنَالَ بالكسب والاجتهاد، وإنما هو هبة من الله، ولا حيلة لمخلوق فى تحصيل هبة عرَّاه الله منها، فلم يجدوا لزوال الفضل سبيلاً، فلجأوا إلي ترقُبِ موته، فلا ترى له العين ظلاً، ولا تسمع له الأذن صوتاً، وودوا لو سمعوا الناعى ينعاه بين عشية وضحاها، وإذا بالوحى الأمين ينزل بهذه الآية، التى أصابتهم غما فوق غم، وهمًّا فوق هم.

(وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد، أفإن مت فهم الخالدون)، أى: أيتمنون موتك لتخلو لهم الدنيا وتصفوا؟ ما أحمقهم؟ أما علموا أن الموت نهاية كل حى، فإن أمتناك فلن

يخلدوا فيها بعدك، كما لم يخلد فيها أحد قبلك، وقد تكون منيتهم قبل منيتك فلن يُذْهب كيدهم هذا ما يغيظهم منك.

وقد صيغ هذا المعنى فى هذا الاستفهام:

﴿أفإن مت فهم الخالدون﴾.

وقد مسَّه الإمام الزمخشرى مسًّا خفيفاً، فقال فى بيان معناه العام: (كانوا يقدرون أنه سيموت فيشمتون بموته، فنفى الله عنه تعالى الشماتة بهذا: (أى قضى الله أن لا يُخلِّدَ فى الدنيا بشراً، فلا أنت ولا هم إلا عرضة للموت، فإذا كان الأمر - كذلك - فإن مت أنت أيبقى هؤلاء؟[1].

وكلام الإمام جار الله - هنا - معناه أن هذا الاستفهام إنكارى تجهيلى وإن لم يصرِّح هو به.

أما الإمام أبو السعود فيقول: **﴿أفإن مت فهم الخالدون﴾** نزلت حين قالوا نتربص به ريب المنون - الموت - والفاء لتعليق الشرطية - يعنى الجملة - بما قبلها، والهمزة لإنكار مضمونها - أى مضمون الجملة الشرطية - بعد تقرير القاعدة الكلية النافية لذلك بالمرة، والمراد بإنكار خلودهم ونفيه إنكار ما هو مدار له وجوداً وعدماً من شماتتهم بموته ﷺ فإن الشماتة بما يعتريه أيضاً - يعنى يعترى الشامت - مما ينبغى ألا يصدر عن عاقل، فكأنه قيل: أفإن مت فهم الخالدون حتى يشمتوا بموتك[2]، هذا بيان رائعً جداً، وفحواه: أن العاقل لا يصح أن يصدر عنه شماتة فى أحد على ترقب أمر سينزل به قد ينزل ذلك الأمر بالشامت قبل المشموت فيه.

وحسبنا ما قاله هذان الإمامان فى هذا الموضع، فقد أصابا المحز بما قالاه، ولم يبقيا للناظر جديداً يظفر به فى هذا المقام يأتى به سواهما.

والخلاصة: أن هذا الاستفهام إنكارى تجهيلى قوى التأثير.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾**: الواو للعطف الجُملى، عطفت بياناً على بيان،

---

(١) الكشاف (٢/ ٥٧٢).   (٢) تفسير أبى السعود (٦/ ٦٦).

فما قبلها كان تعديداً لآيات الله فى الكون والحياة والأحياء، وما بعدها كان سنناً لله قضاها على عباده، وأنفذها وينفذها فيهم حتى يقوم الحساب.

وفى (**جعلنا**) استعارة تصريحية تبعية، فقد استعير (الجعل) للتقدير، واشتق منه (جعلنا) بمعنى: قدَّرنا، بجامع وقوع الإنجاز فى كلٍ، استعارة محسوس لمعقول.

وإيثار المظهر (**لبشر**) مكان المضمر: لهم، فلم يقل: وما جعلنا لهم الخلود ولك الموت لأن المظهر يفيد العموم واستغراق أفراد الجنس لبيان أن قضاء الله بالموت سنة فى جميع خلقه ليلفت أذهان الشامتين إلى إفناء الأمم والأجيال من لدن آدم - عليه السلام - إلي ساعة نزول هذه الآية، وهم داخلون فى هذا المصير دخولاً حتمياً، ولو كان قيل (لهم) لا نحصر السلب الكلى فى السلب الجزئى ولزم منه القصور فى البيان.

وتنكيره (**لبشرٍ**) لإفادة العموم والاستغراق توكيداً لما تقدم.

ودخول (**من**) على (**قبلك**) فى (**من قبلك**) لاستيعاب كل أجزاء الزمن الماضى، أى أن قضاء الله بالموت على جميع الأحياء صاحب البشرية منذ بدايتها؛ لأنه قضاء عام لله فيهم.

* **﴿أفإن مت فهم الخالدون﴾** كان موت النبى ﷺ كائناً لا محالة لما نزلت هذه الآية، فكان الظاهر أن يكون التعبير بـ(إذا) المؤذنه بتحقيق وقوع الشرط لا (**إن**) المؤذنة باحتمال الوقوع دون تحقيقه، والسر البيانى فى العدول عن (إذا) إلى (إن) فيما نرى هو الإيحاء بطول عمره عليه السلام، دفعاً لتلك الشماتة الحاقدة التى يضمرها نحوه المشركون، فأُخرج الكلام وكأن موته ﷺ مما لا يجزم بتحقيق وقوعه فى زمن قريب.

والاستفهام إنكارى فى (**فهم الخالدون**)، وتقديم الضمير (هم) على (**الخالدون**) لأنه محط الإنكار، وكان يمكن أن يقال: أيخلدون هم؟

* * *

٨ - ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً، أَهَذَا الَّذِى يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ، وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

الدراسة والتحليل:

كان الكشف عما يجرى فى صدور المشركين من تمنى الموت العاجل للنبى ﷺ مما أنبأ به القرآن، على نحو ما تقدم فى الآية السابقة. وها هو ذا القرآن يكشف عن سلوك آخر لهم، وكلام ساقط يرددونه بينهم إذا أبصروه، وفى كل ذلك فإن القرآن لايحوج النبى للرد عليهم، بل هو -القرآن- الذى قد رأينا رده الحكيم عليهم فى أمر الشماتة. وهنا لما قررَّ الله لرسوله استهزاء المشركين به، واستعظامهم أن ينال أصنامهم بسوء، رد القرآن عليهم مخزياً لهم، إذ يستعظمون أن يذكر الرسول أصنامهم، يصدر عنهم هذا الاستعظام وهم الغافلون الضالون، لأنهم كافرون بالرحمن. فأى الفريقين هو المجرم؟ أهو الرسول- حاشا لله- حامل مشعل التوحيد والهداية لكل الناس؟ أم هم الكافرون بالرحمن، المقدسون للأوثان؟

وقد حكت الآية قولهم إذا أبصروا الرسولﷺ:

(أهذا الذى يذكر آلهتكم)؟

وبدون أن نطيل بذكر ما قاله الآئمة فى بيان المراد من هذا الاستفهام، وهو عندهم للإنكار والاستقباح حسب زعم المشركين، نكتفى بذكر هذه الاشارة توخيا للإيجاز.

وهذا الانكار عندهم إنكار للواقع، لأن عقيدة التوحيد التى بعث الله بها كل الرسل لاتهادن عقيدة الوثنية وتعدد الآلهة وما من رسول الا هاجمها وسفه أحلام أصحابها. ومحمدﷺ ليس بدعا من الرسل. فكان هجومه على الأصنام يملأ السهل والوعر منذ بعث إلى أن لقى ربه راضيا مرضيا.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(وإذا رآك الذين كفروا..)** إيثار (إذا) هنا إشارة إلى تحقيق الجواب **(إن يتخذونك)** إثر وقوع الشرط وهو (رآك) يعنى أن الذين كفروا حريصون كل الحرص على أن يسخروا من النبى ﷺ كلما وقعت أبصارهم عليه

* وإيثار الصلة والموصول (**الذين كفروا**) بدل الضمير (رأوك) للتمكن من وصفهم بالكفر والتشنيع عليهم به لأنه محط الذم.

* (**إن يتخذونك إلا هزوا**) وإيثار المضارع (**يتخذونك**) بدل الماضى (**اتخذوك**) للدلالة على أن سخريتهم منه لاتنتهى بمجرد غيابهﷺ عن أبصارهم، بل يستمرون عليها من شدة حقدهم عليه، وغيظهم منه.

* وفى العبارة قصر حيث قصر اتخاذهم إياه على صفة الهزء منه، وهو استثناء مفرغ من جميع المفاعيل: أى ما أتخذوك شيئاً الا مهزوءاً بك.

* (**أهذا الذى يذكر آلهتكم**) الاستفهام إنكارى تحقيرى وأوثر اسم الاشارة الموضوع للمشار إليه القريب حطامن شأنه ﷺ بتنزيل قرب المكانة منزلة قرب المكان.

* (**يذكر آلهتكم**) كناية عن سبها والازدراء بها. وحذفُ معمول (يذكر) وهو : بسوء ادعاء منهم بأن آلهتهم مما ينبغى إلا توصف بسوء لا فى الواقع ولا فى مجرد النطق، أو اتخذوا الحذف اللفظى كناية عن براءة أصنامهم مما ينعتها به الموحدون، وفى مقدمتهم محمد ﷺ أو إظهاراً ومبالغة فى احترامها وعدم المساس بها.

* (**وهم بذكر الرحمن هم كافرون**) الواو للحال. أى يقولون مايقولون من قولة السوء عن محمد ﷺ، انتصاراً لأصنامهم جازمين أن القدح فيها لغو باطل وهم فى الوقت الذى يقولون فيه ذلك كافرون بالرحمن رب السموات والأرض. ولو أنهم تعقلوا لذموا أنفسهم وكفروا بآلهتهم.

وفى ذكر الرحمن كناية عن الايمان به، وفى عدم ذكره كناية عن الكفر به. والإيمان عمل القلب، والذكر عمل اللسان والجوارح فكنى بعدم الذكر عن عدم الإيمان. بدليل قوله تعالى: (**هم كافرون**).

* وتكرار الضمير (هم) مرتين توكيد وتقرير لثبات وصف الكفر بالرحمن فيهم، لما فى هذا من تكرار الإسناد مرة إلى المسند إليه (هم) الأولى، ومرة بإسناد الخبر كافرون، وهو اسم فاعل إلى ضميرهم.

وفى العبارة طباق خفى بين عدم الذكر والكفر بالرحمن وبين الذكر بمعنى الايمان.

وايثار اسم (**الرحمن**) وايقاع الكفر به مبالغة فى استقباح صنيعهم والتشنيع عليهم، لما يشع به لفظ الرحمن من معانى الرأفة والاحسان فكان حريا بهم أن يذكروه شاكرين، لا إن يكفروا به جاحدين وإيثار اسم الفاعل (**كافرون**) على المضارع (يكفرون) لما يدل عليه اسم الفاعل من تلبس الصفة بالذات حالاً واستمرارها مستقبلاً.

* * *

٩ - ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الأنبياء: ٣٨].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية قول حكاه القرآن عن الكفار باعتبار أنهم ينكرون البعث بعد الموت. وهذا يمثل وجهاً قبيحاً من وجوه كفرهم الكثيرة فمن قبل- وفى هذه السورة- كانوا يعادون الوحى الآلهى وينكرون رسالة الرسول الخاتم، وينكرون وحدانية الخالق. وهنا فى هذه الآية يرتابون فى الحياة الآخرة، وقد جاء قولهم هذا:

(**متى هذا الوعد**) تعقيبا على قول الله عز وجل:

﴿خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ، سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

فماذا أرادوا من هذا الاستفهام:

(**متى هذا الوعد**) وما هو الوعد الذى يشيرون إليه ويتساءلون عنه؟

الوعد المستفهم عنه هو قيام الموتى من قبورهم، أو العذاب الذى كان الله ينذرهم به على لسان رسوله إن تمادوا فى كفرهم وعنادهم.

أما المراد من الاستفهام فهو الاستبطاء والإنكار، فقد اتخذوا من إمساك الله العذاب عنهم على مقتضى حكمته، أن الانذار بهَ وْهمُ من الأوهام. وكانوا يستعجلون قيام الساعة فى حياتهم فلما لم تقم اتخذوا من إرجاتها إلى وقتها المعلوم عند الله دليلا على كذب الوعد بها وليس عند الأئمة أكثر مما قلناه لوضوح هذا الاستفهام على المراد منه وضوحاً لايحتاج إلى طويل كلام فلنكتف بهذه الخلاصة عنه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (**ويقـولون متى هذا الوعـد**)؟ الواو عطف قـولهم هذا على مـاقـالوه من قـبل فى الاستهزاء بالرسول الخاتم ﷺ.

او هى استئناف مسوق لبيان موقفهم من الإيمان بالآخرة بعد بيان موقفهم من شئون الرسالة والرسول فى الآيات المتقدمات.

و(**متى هذا الوعـد**) أرادوا بالسـؤال عن زمـن الوعد نفى ذلك الزمـن نفســه، وكنوا بنفى الزمن عن نفى الوعد لإن الوعد حدث، وكل حدث لابد له من زمان ومكان يقع فيهما، فإذا نفى أحدهما: الزمان أو المكان كان ذلك النفى مستلزما لنفى مايقع فيهما.

وفى هذه الكناية لطف وقوة استـدلال بحسب صورتها لابحسب المقـصود منها فى هذا الموضوع، لإن زمن قـيام السـاعة معلوم عند الله لامـعدوم كـما توهم هؤلاء الجاحدون، وفى النظم القرآنى صور أخرى كثيرة لهذه الكناية أشرنا إليها مرات من قبل.

وإيثار المضارع فى (**يقولون**) علي الماضى: قالوا، لما فـى المضارع من دلالة على أن هذا القول هو دأب الذين كفروا، لايكفون عن ترديده.

* (**إن كنتم صادقين**) أسلوب تهييج وإثارة وإلهاب يقصد به حـفز الخصم وحثه بشدة على تحقيق مراد المتكلم بهذا الأسلوب.

* * *

١٠ - ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ والنَّهارِ مِنَ الرَّحْـمَنِ، بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٢].

الدراسة والتحليل:

ما تزال سـورة الأنبيـاء تواجه عناد الذين كـفروا لعلهم يرعـوون، وفى هذه الآية خطاب من الله لرسوله ﷺ فيـه رسالة ذات شأن للذين كفروا، يقررهم فـيها بفضل الله عليهم فى هذه الحياة، ويذكرهم بأنه لاعاصم لهم من الله إن أراد بهم سوءاً.

وقد تصدر هذه الرسالة هذا الاستفهام: (**من يكلؤكم.. من الرحمن..**).

الكلاءة الحفظ و(**من الرحمن**) أى من عذابه وبأسه وكلام الأئمة، فى بيان المراد من هذا الاستفهام الآلهى هو النفى أو الانكار المتضمن لمعنى النفى، أى لا أحد يملك لكم نفعا ولاضرا، ولايرد عنكم بأساً إذا أراد الله إنزاله بكم.

وقد أضاف الإمام أبو السعود إلى معنى النفى والإنكار المفهوم من سياق الكلام، أضاف التقريع والتبكيت[١] وأضاف الامام الآلوسى التنديم[٢]

وكذلك ذهب الإمام الطاهر بن عاشور، فحمل الاستفهام على الانكار والتقريع[٣]

والخلاصة: أن هذا الاستفهام إنكارى مع ما أضيف اليه من معان أخرى تناسبه.

أسرار النظم وبلاغياته

* (**قل من يكلؤُكم بالليل والنهار من الرحمن**) فى هذا الاستفهام فوق ما تقدم تنبيه على الخطأ السائر فيه المشركون، حيث أتخذوا من دون الله آلهة عبدوها ورجوها فأمر الله رسوله أن يوجه اليهم هذا السؤال، ويحثهم على التآمل ليبين لهم جهلهم فى تقديس مالاينفع ولايضر.

وأوثر الاسم الجليل (**الرحمن**).. من بين أسماء الله الحسنى لفائدة جليلة أشبه ماتكون بالاحتراس البلاغى الذى يدفع معانى تخطر بالفكر من عُرْض الكلام، والمعنى المدفوع بذكر الرحمن- هنا- هو أن المشركين حين خوطبوا بهذا الكلام قد تخدعهم حالهم التى هم فيها من السلامة ورغد العيش وإرجاء العذاب عنهم إلي أنهم محفوظون رغم هذا التهديد المتكرر بالعذاب، وقد يرجعون سببه إلى آلهتهم. فدُفع هذا الخاطر بأن العذاب مدفوع برحمة الرحمن، وليس له سبب آخر يدفعه سوى رحمة الرحمن الرحيم.

* (**بالليل والنهار**) كناية عن استيعاب جميع الأزمنة وتقديم الليل على النهار لأن الليل مخوف ودواهيه شديدة الوقع.

---

(١) تفسير أبى السعود (٦/ ٦٩)   (٢) روح المعانى (١٧/ ٥١)

(٣) التحرير والتنوير: (١٧/ ٦٣)

* (بل هم عن ذكر ربهم معرضون) أفادت (بل) الاضراب عن سؤالهم بعد الزامهم الحجة، لئلا يأسف الرسولﷺ على إعراضهم عما يقول لهم، فبين له الله عز وجل أنهم - إن أعرضوا عنك - فلاتحزن عليهم ولا تعزو إعراضهم إلى قصور حصل منك فى التبليغ أو غموض فى البيان، لان الإعراض سجية متأصلة فيهم، فهم لايذكرون ربهم ولايعرفون فضله عليهم وسر العدول عن مخاطبتهم إلى الحديث بضمير الغيبة إيماء لطيف إلى أنهم أعرضوا عن الداعى كما فى الفاصلة (معرضون) والمعرض غائب عن العين.

* * *

١١ - ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمنَعُهُم مِّن دُونِنَا، لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلاَهُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٣].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية امتداد للآية السابقة، فى حجاج المشركين كانت الأولى قد وجهت سؤالاً للمشركين حاصله: هل لهم حماة يدفعون عنهم قدر الله الجارى فيهم؟

ثم نقلت هذه الآية الحجاج معهم خطوة أخرى تنكر عليهم أن يكون لهم آلهة يدفعون عنهم قدر الله. وهذا توكيد للإنكار الذى تقدم، ولكنه لم يقف عند حد التوكيد، بل مضى ينبههم إلى ضلال معتقدهم هذا، فوصف مايدعونه آلهة بالعجز عن نصرة أنفسهم، فكيف يتوقع هؤلاء المشركون آن ينصروهم؟ إن من لايملك أدنى قدرة على دفع شر نزل به لهو أبين عجزا عن دفع شر يراد بغيره. حوار عقلى وجدانى يجريه القرآن مع خصومه لو كانوا يعقلون.

وهذا الاستفهام: **(أم لهم آلهة)** مرَّ مثله فى هذه السورة -الأنبياء- ووقفنا على كلام الأئمة فيه. ولا بأس أن نشير إلى نبذ مما قاله بعضهم هنا:

فمما قاله الإمام أبو السعود:

(الهمزة لإنكار أن يكون لهم آلهة تقدر على ذلك[١]. . أى الحفظ وقد أضاف لمحة

---

(١) تفسير أبى السعود: (٦/ ٦٩)

طيبــة، حيث نص عــلى أن هذا النفى والأنكار مسلط على نــفس الآلهة الموصــوفة، بالقدرة علــى حفظهم ودفع عذاب الله عنهم، ولــيس مسلطا على نفس القــدرة عنها فحسب.

يريد أن يقول: إن النفى مسلط على المقيد والقيد، أى على الموصوف، وهو الآلهة المدعاة، والصفــة، وهى القدرة على الحماية والحفظ، لإن النفــى لو كان مسلطا على الصفة دون الموصــوف للزم من هذا أن القرآن يقر بأن لهم آلهة فعــلا، وهذا مدفوع، لإن الأصنام والأوثان ليست آلهة، بل كُتَل مادية مخلوقة لله.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(تمنعهم من دوننا)**- المنع كناية عن الحفظ والرعــاية، وإن الذى يتبادر إلى الذهن أن المنع هو الحرمان، لأن المقام هنا يأبى هذا المعنى.

وجاء في النظم **(من دوننا)** ولم يقل (منَّا) لأن المراد هنا أن الحـفظ إنما هو كائن من الله، والمعنى: ليس لهم آلهة تختص بحفظهم منفردين عن الله، بل الحامى والحافظ هو الله ولو قــيل: مِنَّا لكان المعنى: ليس لهم آلهــة تكف عنهم عذابنا وهذا مـعناه خلو النظم القرآنى من الإيماء إلى فضل الله عليــهم فى هذه الحياة الدنيا. وهذا من دقائق المعانى فى بلاغة القرآن المعجزة.

* **(لايستطيعون نصر أنفسهم)** كناية عن عجزهم، وإشارة إلى قيــاس عقلى خلاصته: هم لايستطيعون نصر أنفسهم، ومن كان لايستطيع نصر نفسه، فهو على نصر غيره أعجز. ويلزم من هذا أن آلهة المشركين المدعــاة لاتستطيع نصرهم، لأن فاقد الشىء لايعطيه.

* **(ولاهم منا يصحبون)** -توكيد للعجز المشار إليــه، ولما كان العاجز قد يُنصر إذا كان الله معه. نفى- هنا- معية الله لهم. فسلب عنهم كل أسباب النصر.

* * *

١٢ - ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ، أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا، أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤].

الدراسة والتحليل

الآيتان اللتان تقدمتا، وهما الآية الثانية والأربعون والثالثة والأربعون، وهذه الآية الرابعة والأربعون، تتحدث جميعها عن موضوع واحد، هو بيان تجهيل المشركين فى اتخاذهم الهة من دون الله، ولفت أنظارهم إلى حال أنفسهم فى الحياة، فهم يعيشون آمنين محفوظين من الجوائح والكوارث الكونية وأن الله وحده - لا آلهتهم - هو صاحب الفضل فى هذه النعم ولما بين الله فى الآيتين الاولين أن لاحافظ ولاراع الا الله، بين فى هذه الآية سبب غرور هؤلاء المشركين، وهو أن الله متعهم ومتع آباءهم على مقتضى حكمته، ولم يعجل لهم العذاب، وطالت أعمارهم فى الحياة فحملهم هذا الإمهال على تماديهم فى الكفر، وإعراضهم عن نداء الحق، وهتاف الإيمان.

ثم عادت الآية تضع بين أنظارهم تذكيراً آخر من شأنه إذا أحسنوا الوقوف أمامه أن يقودهم إلى الإيمان بما كفروا به من قبل. فلفت أنظارهم إلى آيات الله فى الأرض، من زلازل وبراكين ومحو وقرض وتكوين وترسيب، وقد عبَّر عن هذا كله بهذه الإشارة: **(نأتى الأرض ننقصها من أطرافها)** وقد وردت هذه العبارة لفظا ومعنى فى سورة الرعد [٤١] وكنا قد فصلنا القول تفصيلا وافيا فى فهم وشرح جديد خلا منهما كلام المفسرين جميعا قدماء ومعاصرين: والذى دعانا إلى هذا أن الذى ذكره المفسرون ليس مقنعا أبداً. وفيه كثير من التكلف، لذلك نوصى القارىء إلى العودة إلى ماسجلناه عن معنى نقص الأرض فى سورة الرعد فى السفر الثانى من هذه الدراسة ولاضرورة لتكرار ماقيل من قبل هنا توخيا للإيجاز.

وصورتا الاستفهام الواردتان فى هذه الآية تقدم نظائرهما كثيرا. ولابأس من الإشارة المجملة اليه هنا مع التعقيب عليه.

مذهب الآئمة فى **(آفلا يرون)** - هو حمله على الإنكار. وقد تعقبنا مذهبهم هذا

وبينا الوجه الذى دعاهم إلى حمله على الانكار فيما تقدم. وقلنا إن الذى دعاهم إلى هذا هو تصورهم أن الفاء - ومثلها الواو فى هذا الموضع - للعطف على مقدر يقتضيه المقام، وأن الهمزة ليست مقدمة من تأخير، بل هى داخلة على ذلك المقدر. وعلى هذا التصور جعلوا الانكار المفاد من الهمزة مسلطا على ذلك المحذوف المقدر. . وبقى النفي المفاد من (**لا**) - هنا - وفى نظائره - مسلطا على الفعل الذى بعده لذلك قالوا إن الاستفهام فى هذا الموضع - ونظائره - للإنكار.

وهذا لايسوغ الا على مذهب الامام جار الله الذى يجعل همزة الاستفهام إذا صاحبها عاطف من حروف العطف قارة فى مكانها وليست مقدمة من تأخير.

أما على مذهب الجمهور الذى يرى أن الهمزة مقدمة من تأخير فالاستفهام يكون للتقرير لا للإنكار، لأن همزة الاستفهام على هذا التقدير تكون داخلة على حرف النفى، ونفى النفى إثبات. وهذا هو معنى التقرير الذى يسفر عنه مذهب الجمهور، ومذهب الجمهور هو المتعين الأخذ به هنا، لأن المقام يقتضى إلزام المشركين بتلك الرؤية لا نفيها عنهم ولو على سبيل التأويل.

لذلك نقول: إن الاستفهام (**أفلا يرون**) للتقرير والالزام.

أما الاستفهام الثانى (**أفهم الغالبون**) فقد أجمع الأئمة على أنه للإنكار ومايناسبه من معان ثانية[1].

والخلاصة: أننا مع تقديرنا لسادتنا المفسرين نرى أن الاستفهام الأول للتقرير والإلزام والتوبيخ وأن الثانى- كما قالوا- للإنكار والتجهيل.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (**بل متعنا هؤلاء وآباءهم**) بل للاضراب الانتقالى من محاجتهم بما ذكر أولاً إلى تذكيرهم بأن إرجاء العذاب وتمتيعهم إنما هو من الله على مجارى حكمته.

وإيثار الماضى (**متعنا**) لإظهار المنة عليهم، كما أن إيثار اسم الإشارة الموضوع للمشار إليه القريب (**هؤلاء**) للحط من شأنهم لدلالة المقام على هذا المعنى.

---

(١) ينظر: تفسير أبى السعود (٦/ ٧٠) وروح المعانى (١٧/ ٥) والتحرير والتنوير (١٧/ ٦٨)

* **(حتى طال عليهم العمر)** مجاز عقلى بإسناد الإطالة إلى (العمر) عـلاقته المفعولية، وحقيقته: أطال الله عليهم العمر.

وإيثار حرف الاستعلاء **(على)** على حـرف اللام: (لهـم) إشـارة إلـى أن إطالة أعمارهم ليزدادوا إثما يثقل عليهم حمله.

* **(أنَّا نأتى الأرض ننقصـها من أطرافـها)** - أكد الخـبر بـ«أن» واسـمية الجملة لأن مضـمونه آية عظمى، وحقـيقة باهرة فـمـن حقهـا أن يُعبَّر عنـهـا بأسـلوب فخـم مثلها.

وفى **(نأتى)** استعارة تمثيليـة شبه فيها إصابة أمر الله للأرض وتوارد التـغيرات عليها بصورة من يقدم من مكان إلى مكان للقـيام بأعمال ذات شأن. أو تصريحيـة تبعية (مفردة) استعير فيـها «الإتيان للانزال بجامع شدة العناية والقصد فى كل. وآل فى (الأرض) للجنس، وليـست للعهـد على رأى من فسـرها بأرض الكفار يفـتحـها المسلمـون، لأن هذا الرأى لا ينطبق عـليه الـنقص، بل تظل الأرض هى الأرض؟ و**(من)** لابتداء الـغاية. و**(أطرافها)** كناية عن أبعاضهـا. والعبارة كلها مسوقـة لبيان كمال القدرة الآلهية.

* **(أفهم الغالبون)**- نفى الغلب وإنـكاره عن الكفـار بأسلوب قـصـرى كناية عن أن **(الغالبون)** هم غير المشـركين وهم حزب الله من المسلمين. أى ليس **(الغالبون)** هم بل غيرهم. لأن النفى فى الجمل القصرية يسـتلزم الاثبات فى جانب غير المتحدث عنهم.

* * *

١٣ - ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ، أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

الدراسة والتحليل

بعد الفراغ من محاجة المشركين أشارت السورة إلى ما أنزله الله على موسى وهارون عليهما السلام، والمهمة التى من أجلها أوصى الله اليهما، ثم التفت النظم الحكيم يخاطب اليهود مقرراً فضل الكتاب (القرآن) الذى أنزله على الرسول الكريم، مثنياً على القرآن بما هو أهله. ثم جاءت فاصلة الآية هكذا. (....**أفأنتم له منكرون**)..؟

ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما أكثر فى هذه السورة من الحديث عن الأنبياء بدأ بموسى وهارون لأن اليهود كانوا كثرة أيام نزول القرآن، وكان التشاور والتعاون بينهم وبين كفار مكة على مناوأة الإسلام والقعود له بالمرصاد قائما على قدم وساق فجاءت الآية تذكر اليهود بوجوب الإيمان بالقرآن، لأنه منزل من عند الله مثل التوراة التى يؤمنون بها. واختتمت الآية بالاستفهام.

وهو استفهام مجازى إنكارى عند الآئمة المفسرين وعند غيرهم من علماء البيان. وهذا الانكار ينشأ عنه معان أخرى مثل: الإفحام والتوبيخ

يقول الإمام أبو السعود فى قول الحق:

(**أفأنتم له منكرون**): إنكار لإنكارهم بعد ظهور كون إنزاله كايتاء التوراة. كأنه قيل: أبعد أن علمتم أن شأنه كشأن التوراة فى الايتاء والايحاء أنتم منكرون لكونه منزلاً من عندنا، فإن ذلك بعد ملاحظة حال التوراة لامساغ له أصلاً)[1]ونحا نحوه الامام الألوسى فنقل عبارته لفظاً ومعنى مع تصرف يسير[2]

واكتفى الامام النسفى بقوله: (استفهام توبيخ، أى: جاحدون أنه منزل من عند الله)[3] أما أبو حيان فقد استقصى القول فيه إذ يقول: «استفهام انكار وتوبيخ، وهو خطاب للمشركين، والضمير فى (له)- عائد على (ذكر)- وهو القرآن وفيه تسلية لرسول الله ﷺ، إذ أنكر ذلك المشركون كما أنكر أسلاف اليهود ما أنزله الله على

(١) تفسير أبى السعود: (٦/ ٧٢). (٢) روح المعانى (١٧/ ٥٨)

(٣) تفسير النسفى (٣/ ٨١).

موسى عليه السلام)[1]، والخلاف ظاهر بين ماذهب اليه الامامان: فأبو السعود حمل الخطاب فى (**أفأنتم له منكرون**) على اليهـود، وأبو حيان حمله على مـشركى مكة، والمقام يحتمل الأمرين معاً بيد أن الأرجح ما قاله أبو السعود، وإذا جمعنا بين القولين فلا حرج.

وهو عند الامام الطاهر بن عاشور استفهام توبيخى تعجيبى[2].

والخلاصة: أن هذا الإستـفهام إنكارى عند جـميع الآئمة ولا يقـدح فى هذا حمله على التوبيخ والتـعجيب، لأنهما مـعنيان يردفان على الانكار وإن لم يُصَـرَّحْ به كما صنع ابن عاشور.

وقـد رأينا الإمـام أباحـيـان يجـمع بين الانكار والتـوبـيـخ ونحن- فى مـثل هذا الاستـفهـام- يلوح لنا ردف الإلزام وقـيام الحـجة على الإنكار، لأن المقـام يقتـضى ملاحظة هذه المعانى جميعاً.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (**وهذا ذكر..**) أوثر اسم الاشارة الموضوع للمشار إليه القريب، لأن المقام يقتضيه من حيث تسمـيته (ذكر)- لأن ذكر الشيء يقـتضى قربه، وقرب الشيء يقـتضى ذكره وحضوره فى الذهن. هذه واحدة.

والثانية أن المقام يقـتضى أن يكون هذا الذكر قريبا، لأن فى قربه تقـريراً للمخاطبين بحضوره ومثوله أمام أعينهم لاستقباح إنكارهم لشيء دان منهم، يرونه ويحققونه، وما كان شأنه ذلك فما أجهل من ينكره؟

وفى تسميته (**ذكر**)- إيحاء وإعلام بأنه ينبـغى أن لا يزول عن الخاطر، ولاينبغى أن يتطرق اليه نسيان: فأولاً، لأنه منزل من عند الله.

وثانيا، لأنه مـبارك، كثيـر المنافع وافر الخيـرات، فيه نعم الدنيا، ونعـيم الآخرة. والجاهل هو الذى يحرم نفسه من الخير والبركة، وهما متاحان له.

---

(١) النهر الماد (٦/ ٣١٥) على هامش البحر المحيط.

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٩١).

* (**أفأنتم له منكرون**) تقديم ضمير المخاطبين (**أنتم**) لأنه محط الانكار. وتقديم الجار والمجرور (**له**)- على (**منكرون**) لأن له خصوصـية فى قبح الانكار، من أجل ذلك سورع به فقُـدِّم: لأن الإنكار من حيث أنه إنكار قد يستحـسن إن كان لشىء ضار، أما إيقاعه على القرآن المكنى عنه بالهاء فى (له)- فهذا هو منكر المنكرات وليس فى هذا التقديم قصـر كما ذهب بعض المفسرين، لأن المخاطبين سـواء كانوا اليهود أو المشركين لـم يكونوا مؤمنين بشىء غيره سوى التوراة.

* * *

١٤ - ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاهَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾؟

[الأنبياء: ٥٢].

الدراسة والتحليل:

بعد الإشارة إلى رسـالة موسى وهارون عليهما السلام، عـرض القرآن لمحات من قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه، وقدَّم لهذه اللمحات بهذا الإجمال الرائع:

﴿وَلَقَدَ آتَيْنَـا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّـا بِه عَالِمِينَ﴾ ثم جاءت الآية مـوضوع الدراسة تبين مواجهة إبراهيم عليه السلام لعقيدة قومه الوثنية.

(**ما هذه التـماثيل التى أنتم لها عـاكفـون**)؟ وهذا الاستفـهام تناوله الإمـام جـار الله فقال:

(**ماهذه التماثيل**) تجاهل لهم وتغابٍ ليحقر آلهتهم ويصغر شأنها مع علمه بتعظيمهم وإجلالهم لها»[1].

يعنى أن هذا الاسـتفهـام للتحـقير والازدراء وتسـفيـه عقول المخـاطبين وهـم أبوه وقومه.

أما أبو السعـود فيفهم من كـلامه فيه أنه للتـوبيخ ولكنه أورد هذا المعني ضمنا لا حملاً على الاستفهام مباشرة[2].

وكذلك سلك الإمام الألوسى[3].

---

(١) الكشاف (٢/ ٥٧٥).
(٢) تفسير أبى السعود (٦/ ٧٢).
(٣) روح المعانى (١٧/ ٦٢).

وأضاف الامام أبو حيان التوقيف على سوء صنيعهم إلى معنى التحقير الذى ذهب إليه الآئمة[1].

وللإمام الطاهر وجهة أخرى، فهو يرى أن هذا الاستفهام مسلط على الوصف، وهو العكوف للتماثيل، وإن كان الظاهر تسلطه على التماثيل لبيان عدم الملاءمة بينها وبين اختصاصها بالعبادة. وأن المراد من الاستفهام الاستدراج ليجيبوا بما أجابوا تمهيداً للكر عليه وإبطاله[2].

والخلاصة: أن هذا الاستفهام مجازى المراد منه الاحتجاج والتحقير والتوقيف على الخطأ الذى عليه المخاطبون.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(إذ قال لأبيه وقومه..)** هذه الجملة - ومابعدها - بمنزلة عطف البيان على ما قبلها.

وتقديم **(أبيه)** -على- **(قومه)**- لرعاية الصلة بين الإبن وأبيه، ولأن الإنكار المفهوم من الكلام لعقيدة القوم إذا خوطب به الأب أولاً كان أثره فى غيره أوقع، وتأثيره أبلغ.

وإيثار صفة الأبوة على الاسم العلم **(آزر)** إشارة إلى إخلاص إبراهيم فى نصرة الحق ودحر الباطل، فلم يمنعه من ذلك حب حبيب، ولاولاية قريب.

* **(ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون)** عبِّر عن الأصنام بـ(لها) التى هى لغير العاقل، وباسم الاشارة الموضوع للمشار إليه القريب حطا لقدرها وسخرية منها

وآثر كلمة، **(التماثيل)** على الأصنام تقريرا لحقيقتها من أنها مجرد صور وأشكال صنعوها وصوروها هم. وأنها لاتعدُ هذا الوصف السلبى العقيم.

وعُدىِّ العكوف باللام (لها) دون على، إما لتنزيل (عاكفون) منزلة اللازم كما يرى الزمخشرى أى فاعلون لها العكوف، وإما لتضمين العكوف معنى العبادة كما يرى أبو السعود وغيره.

وأفاد هذا التضمين استمرار العبادة، لأن العكوف هو ملازمة الشىء الشىء بلا

---

(١) البحر المحيط (٦/ ٣٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٩٤).

انفكاك لأحد الشيئين عن الآخر، كما يستفاد هذا الاستمرار من التعبير بالاسم (عاكفون) دون الفعل: تعكفون.

وفى هذا تقرير وتوكيد للإنكار عليهم. وبيان حقارة أصنامهم، وفيه الفن البديعى وهو «تجاهل العارف» مع ماله من لطف الدلالة.

* * *

١٥ - ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٥].

الدراسة والتحليل:

كان هذا هو رد قوم إبراهيم حين أظهر احتقاره لأصنامهم لأول مرة حسب السياق فى هذه السورة وكانوا قد سارعوا فأجابوه:

﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ فلم ترضه هذه الاجابة، بل استمر فى المواجهة فأعنف فى التعقيب:

﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وقد أذهلهم هذا القول فسألوه أَجَادٌّ هو فيما يقول أم هازل؟ وصاغوا تساؤلهم هذا فى هذه الصورة الاستفهامية: (**أجئتنا.....**).

وقد فسره الإمام الزمخشرى بما يُفهم منه أنه استفهام حقيقى لامجازى قال: (لاستبعادهم أن يكون ما هم عليه ضلالاً بقوا متعجبين من تضليله إياهم، وحسبوا أنما قاله على وجه المزاح والمداعبة، لا على طريق الجدية فقالوا له: هذا الذى جئتنا به جد وحق أم هو لعب وهزل)[١].

وكلام الإمام أبى السعود قريب من كلام الزمخشرى فى توجيه هذا الاستفهام[٢].

أما الامام الألوسى فقد نفى أن يكون الاستفهام حقيقيا حيث قال: .. (فالاستفهام ليس على ظاهره، بل هو استفهام استبعاد وتعجب).

ثم أشار إلى تردد (أم) هنا بين الاتصال والانقطاع، ونقل عن الطيبى أنه يرجح

---

(١) الكشاف (٢/ ٥٧٥)

(٢) تفسير أبى السعود (٦/ ٧٣)

الانقطاع على الاتصال. بمعنى أنهم بعد أن أضربوا عن سؤاله أحق هو وطالبوه بدليل يثبت صدق قوله أنكروا عليه بواسطة الهمزة التى دَلّت عليها (أم) دعواه وأثبتوا خلافها على سبيل التوكيد والبت.[1]

يعنى كأنهم قالوا: أجئتنا بالحق يا إبراهيم، ثم جزموا بأنه من اللاعبين الهازلين.

أما على اعتبار (أم) متصلة، فإن المراد هو طلب الجواب بتعيين أحد المتعادلين.

وتردد الإمام الطاهر بين الأمرين، فلم يفصح إن كان الاستفهام عنده حقيقيا أم مجازيا[2].

والخلاصة: أن هذا الاستفهام عند الآئمة، متردد بين الحقيقة والمجاز، وإن كان مجازيا فهو لإنكار وصف إبراهيم لهم بالضلال.

والذى نرجحه من وجهة نظرنا أنه استفهام حقيقى مشوب بالتعجب. أما (أم) فنرجح فيها الاتصال دون الانقطاع.

اسرار النظم وبلاغياته:

* **(قالوا..)** مفصولة عما قبلها لشبه كمال الاتصال، لأنها جواب عن سؤال مقدر نشأ عن قول إبراهيم - عليه السلام:

﴿لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين﴾

* **(أجئتنا)** فى المجىء استعارة تصريحية تبعية، لأنهم لم يريدوا منه قدومه من مكان إلى مكان، بل المراد منه مطالبته إياهم بترك عبادة الأصنام وتوحيد الله وقصر العبادة عليه.

وإيثارهم الماضى (جئتنا) على المضارع توكيداً لمواجهته إياهم وتوطئة لتوجيه دهشتهم أو إنكارهم إذا حمل هذا الاستفهام على المجاز.

وفيه إيجاز بالحذف حيث لم يقولوا: يا إبراهيم، وكأنهم بهذا الحذف يريدون تحقيره وعدم الاعتداد به.

---

(١) روح المعانى (١٧/ ٦٠)

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٩٤)

ويكونون قد كنوا بحذف اسمه من الكلام عن احتقاره وعدم الاكتراث بما يقول.

* (**بالحق أم أنت من اللاعبين**) المراد من (الحق) هنا الجدُّ، بدليل مقابلته باللعب المفهوم من اسم الفاعل: (**اللاعبين**) فهذا طباق إيجابى فيه غموض ودقة وقد عبَّروا فى الأول بالمصدر (الحق) وفى الثانى باسم الفاعل (اللاعبين) لإصابة غرضين:

الأول: ما أنكروه عليه هو الحق نفسه غير متلبس بفاعل إشارة إلى تعرية ما قاله لهم إبراهيم عليه السلام من أن تكون له أدنى صلة بالحق أو الجد.

الثانى: وعبروا باسم الفاعل فى الثانى إشارة منهم إلى قيام الوصف -اللعب- بالموصوف إبراهيم عليه السلام.

وآثروا (**اللاعبين**) على المفرد (**لاعب**) للإعلام بأن إبراهيم قد استقر وصفه ورسخ فيمن يطلق عليهم اللاعبون.

كما عبروا فى الثانى بالجملة الأسمية (**أنت من اللاعبين**). لدلالته الاسمية على الثبوت والدوام.

لايقال: أن هذه صياغة القرآن حكاية عنهم لانفس قولهم لأنا نقول:

إن القرآن عبَّر عن المعانى التى تضمنها كلامهم بلغتهم التى كانوا يتحدثون بها. فطابق معنى القرآن معنى كلامهم، وإن تباينت التراكيب والألفاظ. فجاءت الحكاية فى القرآن عين المحكى معانى لا ألفاظاً وتراكيب.

* * *

١٦ - ﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٩].

الدراسة والتحليل:

لما لم يُفد الحوار مع قوم إبراهيم، أعلن إبراهيم عليه السلام خطوة أخرى لإزالة ذلك المنكر فقال:

﴿وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ ثم نفذها:

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٧ - ٥٨].

لقد حطم أصنامهم وهم فى غفلة. فلما رأوها محطمة إلا الصنم الأكبر ذهلوا وأخذوا يتساءلون فيما بينهم: **(قالوا من فعل هذا بآلهتنا..)**.

وفى توضيح هذا الاستفهام يقول الإمام أبو السعود:

(قالوا: أى حين رجعوا من عيدهم ورأوا ما رأوا).

(من فعل هذا بآلهتنا): على طريقة الإنكار والتوبيخ والتشنيع)[١].

وردد الإمام الألوسى كلام أبى السعود[٢].

أما أبو حيان فقال: إن الاستفهام - هنا للإنكار والبحث[٣] يعنى أنه ليس للإنكار الخالص. وسيأتى بيان ذلك فى مبحث:

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(قالوا من فعل هذا بآلهتنا)**؟ فصلت هذه الجملة عما قبلها للاستئناف البيانى؛ لأن قوم إبراهيم حين فوجؤا بأصنامهم محطمة لابد أن يكون لهم مواقف وأقوال قد صدرت عنهم لما رأوا هذا الحدث الجلل. وهنا تتطلع النفوس إلى معرفة موقفهم وما صدر عنهم من قول فجاءت هذه الجملة جوابا عن ذلك السؤال، وآثروا كلمة **(آلهتنا)** على كلمتى: هؤلاء، أو الأصنام لقصد التشنيع على الذى حطمها، وإظهاراً لشناعة فعله الواقع على الآلهة وكان ينبغى إجلالها وتقديسها وفى إضافة الآلهة إلى ضمير أنفسهم للإعلام بحرصهم عليها والانتقام ممن اعتدى عليها.

---

(١) تفسير أبى السعود: (٦/ ٧٤). (٢) روح المعانى (١٧/ ٦٢).

(٣) النهر الماد: (٦/ ٣٢٣) على هامش البحر المحيط.

والاستفهام فى (من فعل هذا) الأظهر فيه أنه حقيقى مشوب بالإنكار، لأن القوم لم يكونوا يعرفون من قام بهذا العمل الجرىء، واشتغال أنفسهم بمعرفة الفاعل والبحث عنه أشد حضوراً فى النفس من الإنكار عليه.

ولهذا فإن الإمام أبا حيان كان أدق فهما لمرمى هذا الاستفهام من الأئمة الآخرين الذين أدْلَوا بدلوهم فيه.

* **(إنه لمن الظالمين)** يختلف معنى هذه الجملة - باختلاف معنى (من) فى **(من فعل هذا بآلهتنا)** - فإذا كانت - (من) - استفهامية تكون هذه الجملة استئنافا مسوقا لتقرير معنى ما قبله من قبح تحطيم آلهتهم والإنكار عليه. وهذا هو المتبادر إلى الذهن من حيث الظاهر، وإذا كانت - **(من)** - موصولة فالجملة خبر:

والتقدير: الذى فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين أما توكيد هذه الجملة سواء كانت استئنافًا أو خبراً بـ (إن) واللام، واسمية الجملة فالداعى إليه اعتقاد قوم إبراهيم فى تقديس أصنامهم وجعلهم آلهة تنفع وتضر. والاعتداء على الآلهة ظلم للنفس عندهم.

ولم يقولوا: ظالم بالإفراد وآثروا الجمع **(الظالمين)** مبالغة فى وصفه بالظلم ورسوخه فيه.

* * *

١٧ - ﴿ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ [الأنبياء: ٦٢].

الدراسة والتحليل:

قبيل هذه الآية قرر قوم إبراهيم أن يحاكموا من حطَّم آلهتهم محاكمة علنية يشهدها الناس جميعا كما حكى عنهم القرآن الأمين:

(قالوا: فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون) [الأنبياء: ٦١].

وتم لهم ما أرادوا، وسألوا إبراهيم عليه السلام: (.. **أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم)**.

وقد ترك الحديث عن هذا الاستفهام جُلُّ الأئمة، وممن عرض له الإمام الألوسى

وقال إنه للاستفهام عن الفاعل لا عن الفعل لأنه واقع. وهو عنده استفهام مجازى معناه الإنكار، وقد عزا هذا الرأى إلى سعد الدين التفتازانى، كما ذكر رأيا للخطيب القزوينى ذهب فيه إلى جواز بقاء الاستفهام على أصله، يعنى استفهام حقيقى معللا هذا الرأى بأن قوم إبراهيم لم يكونوا يعلمون من هو الذى حطم أصنامهم. ورد هذا الرأى الإمام الإلوسى بأن إبراهيم عليه السلام كان قد أقسم ليحطمن أصنامهم مخاطبا لهم[1].

كما عرض له الإمام أبو حيان ورأيه فيه هو رأى الخطيب القزوينى الذى تقدم[2].

والخلاصة: أن هذا الاستفهام المسكوت عنه عند كثير من الأئمة استفهام تقرير بالفاعل سواء كان حقيقيا أو مجازيا، لأن قولهم من قبل: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ يحملهم على التثبت منه أهو الفاعل أم غيره. وإذا حاولنا الجمع بين ما ذهب إليه الألوسى وما ذكره أبو حيان قلنا: إنه استفهام حقيقى المراد منه الإقرار أو عدم الإقرار ومشوب بالإنكار ونعنى بالإقرار - هنا - الاعتراف.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(قالوا...)**: جملة مفصولة للاستئناف البيانى على النسق الذى تقدم. وهذه الجملة تنبىء عن حذف جمل قبلها كثيرة والتقدير: فسعوا فى البحث عنه، ثم اقتادوه إلى مكان المحاكمة فلما مثل أمامهم قالوا.. ومن منهج القرآن فى القصص والمحاورات أن يترك فجوات واسعة وكثيرة بين الجمل لا يتم المعنى إلا بها، وأنها سهلة التصور، قريبة الإدراك، والإيجاز الحذفى فيها لا يخفى أثره، ولا إحكامه.
* **(سمعنا فتى يذكرهم)** نكَّروا إبراهيم عليه السلام، ولهذا التنكير دلالتان على سبيل التبادل لا الجمع، والمرجع فى تعيين إحداهما هو حال إبراهيم عليه السلام بين قومه

الدلالة الأولى: إذا كان إبراهيم قبل تحطيمه الأصنام معروفا بينهم بالدعوة إلى التوحيد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كانت دلالة هذا التنكير هى تحقيره

---

(١) روح المعانى (١٧/ ٦٤).　　(٢) البحر المحيط (٦/ ٣٢٤).

وتصغير شأنه، لخروجه عن المألوف من عقائدهم.

وإذا كان إبراهيم لم يكن معروفا بهذه الخلال، بل كان فى أول عهده بالرسالة، ولم يشتهر أمره فيها بينهم فدلالة التنكير على أصلها، ولا تحمل أية معانى مجازية.

* **(يقال له إبراهيم)** هذه الجملة مقررة لمعنى الجملة التى قبلها فى الدلالة على التنكير، وينسحب معناها على معناها وفق الاحتمالين اللذين تقدم بيانهما.

والذى يبدو لنا أن إبراهيم عليه السلام كان فى أول عهده بالرسالة. وأن اشتهار أمره رسولاً بدأ بعد واقعة تحطيم الأصنام.

* * *

١٨ - ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلاَ يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦ - ٦٧].

الدراسة والتحليل:

هاتان الآيتان تظهران قوة الحق الذى نصره إبراهيم عليه السلام قولاً وعملاً، كما تظهران وهدة الباطل وقد علا عليه الحق. رجل واحد يقهر جمعا من الناس تكالبوا جميعا على التحرش به، والكيد له، وفيهم أبوه، فما استطاعوا أن يقلصوا له ظلا، ولا أن يسكتوا له صوتا، ولا أن يشلوا له يداً، أو يوصدوا أمامه طريقا. وإبراهيم وحده من البشر أمامهم. حقا إنه كان أمة خاشعا لله حنيفا كما وصفه القرآن الكريم.

وهذان الاستفهامان: **(أفتعبدون..)** ثم **(ألا تعقلون)** تجاوزهما الأئمة جميعا إلا الإمام البيضاوى فقد قال فى الأول: (إنكار لعبادتهم لها بعد اعترافهم بأنها جمادات لا تضر ولا تنفع)[1]، ثم سكت عن الثانى.

والخلاصة: إن الاستفهام الأول **(أفتعبدون..)** للإنكار والتوبيخ والزجر والتجهيل.

أما الثانى فللإنكار والحث على إعمال العقل والتفكر المفضى إلى التمييز بين الحق والباطل.

---

(١) تفسير البيضاوى: أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٢/ ٧٤).

وعذر الأئمة فى ترك الحديث عنهما كثرة الصور الشبيهة بكل منهما التى مرَّت بهم فى كتاب الله العزيز، وأوضحوا المراد منها مرات متعددات. ثم وضوح الدلالة فيهما على المعنى المراد منهما كما يشف عنه المقام.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(قال أفتعبدون...)** الفاء عاطفة على مقدر دل عليه قولهم:

* **(لقد علمت ما هؤلاء ينطقون)** والمعنى: أتعلمون أنها جمادات صماء لا تحس ولا تسمع ولا ترى ولا تنطق فتعبدونها آلهة من دون الله. وعبَّروا عن آلهتهم - هنا - بـ(هؤلاء) عكس الأول حين قالوا: **(من فعل هذا بآلهتنا)** لأنهم لما نفوا عنها النطق هنا لم تساعدهم أنفسهم على إطلاق نعت الألوهية عليها وإيثار المضارع **(تعبدون)** لتقوية الإنكار على عبادةٍ هم متلبسون بها ساعة توجيه الخطاب إليهم. ولو جيء بالماضى بدل المضارع لما أفاد هذا المعنى؛ لجواز أن يكونوا عبدوها ثم رجعوا عن عبادتها.

* **(ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم)** عبرَّ عن آلهتهم بـ (ما) التى لغير العاقل تحقيراً لها، وتذكيرًا لهم بحقيقتها، وتجهيلاً ونعيا عليهم بالحمق والسفاهة.

وإيثار المضارع **(ينفعكم - يضركم)** ليشمل السلب جميع الأزمان والآماد، ولبيان بوار عبادتهم إياها. والجمع بين النفع والضر طباق استدعاه مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

وتنكير **(شيئا)** للدلالة على الانعدام، تزهيدًا لهم فى آلهتهم وترغيبا فى عبادة الله الذى لا ينفع ولا يضر معه شيء فى الأرض ولا فى السماء.

وتقديم النفع على الضر - هنا - لأن النفوس بالنفع أشد تعلقا منها بدفع الشر. فهى راغبة فى الخير فى كل وقت. أما دفع الشر فله مناسبات.

وفى حذف (شيئا) بعد الضر حيث لم يقل: ولا يضركم شيئا للعلم به من ذكره فى جانب النفع أو كنى بحذف المفعول عن نفى الفعل نفسه.

وإيثار (لا) من بين أدوات النفى لإفادتها نفى ما دخلت عليه فى جميع الأوقات.

وفى (**ما لا ينفعكم شيئا**) وما عطف عليه كناية عن الأصنام وقد أوثرت الكناية عن الاسم الصريح: الأصنام. لقرنها الدعوى بالدليل.

* (**أف لكم ولما تعبدون من دون الله..**) مر الحديث عن كلمة (أف) فى سورة الإسراء فى السفر الثانى من هذه الدراسة، وهى من الكلمات الموحية المثيرة للتصور الخيالى فى دلالتها على التضجر والتبرم والضيق من شىء يقرف النفوس وقد تصاحبها حركة الإشاحة بالوجه عن المتضجر منه، وإن المشاعر لتكاد ترسم صورة لإبراهيم عليه السلام، وهو قد قرف من قومه ومن جهلهم، ومن معبوداتهم المحقرة واللام فى (لكم) وفى (ولما) لبيان المتضجر منه. وتضجره من قومه نشأ عن انحطاط عقولهم وتفكيرهم أما تضجره مما يعبدون فلبيان تفاهتها وحقارتها، وهذا يعد لفتة تربوية بليغة من إبراهيم عليه السلام، لينصرف قومه عنها وليغيروا ما بأنفسهم ليغير الله تعاستهم سعادة وبؤساهم نُعْمَى، وكفرهم إيمانا.

* (**أفلا تعقلون**) - توبيخ لهم على إهدار عقولهم وقع موقعه فى ترتيب الأحداث. وحث وترغيب ليُعملوا تلك العقول التى عطلوها فاغتالهم الجهل ونعق فيهم الشيطان فلبوا نداءه، فزين لهم الباطل، وأتاهم من بين أيديهم، ومن خلفهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ليكونوا من أصحاب السعير.

وكان فى هذه المأساة التى ذكرها القرآن وهو ينزل فى مكة مغزيان:

الأول: التسرية عن قلب النبى من العناء الذى لقيه من صدود قومه عن الدعوة وعقيدة التوحيد والإيمان بالحياة الآخرة.

الثانى: التحذير والوعيد الشديد لمشركى العرب من أن يكون مصيرهم مصير هؤلاء المعاندين من الخزى فى الدنيا وأليم العذاب فى الآخرة.

* * *

١٩ - ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ، فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

الدراسة والتحليل:

من نعم الله على العباد أن هداهم إلى أمور دنياهم وآخراهم، فالوحى والرسالات للهداية فى أمور الآخرة وما يجب لها من عمل فى الدنيا، ثم هداهم عن طريق الإلهام والتسديد إلى استغلال ما أنعم الله به عليهم فى الدنيا وهذه الآية تشير إلى ما هدى إليه داود من الصناعات الواقية ومنها الدروع الحافظة من ويلات الحروب وقد عقب على هذا بقوله فى الفاصلة:

(**فهل أنتم شاكرون**)؟ وهو استفهام مجازى معناه التقرير والأمر أى اشكروا[(١)].

وهذه خلاصة ما ذكره الأئمة فى هذا الموضع.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (**لكم**) المخاطب هذه الأمة، والمُعَلَّم نبى الله داود عليه السلام، وإنما جُعِل تعليمه فضلا من الله علينا وإن لم نكن فى عصره، فلإن هذه الصفة لم تذهب بموت داود، بل ظلت بعده عبر الأجيال ولم تندثر.

* (**لتُحصنكم من بأسكم**) التحصين الحفظ والحماية، يعنى الدخول فى الحصن، والاحتماء به شبه حماية الدروع من طعنات العدو بوقاية الحصون لمن يدخل فيها بجامع دفع الضرر فى كل، وفى إسناد التحصين إلى اللبوس بمعنى الدروع مجاز عقلى لأن الحافظ هو الله. وعلاقته الآلية؛ لأن الدروع آلة الحفظ، والبأس كناية عن الشدة وأوزار الحروب.

* (**فهل أنتم شاكرون**) أوثرت (هل) على غيرها من أدوات الاستفهام لما فيها من معانى التحقيق، مبالغة فى الحث على الشكر، والتحذير من القصور فيه؛ لأن الشكر قيد النعمة.

* * *

(١) انظر تفسير أبى السعود (٦/ ٨٠) وروح المعانى (١٧/ ٧٧) والنهر الماد لأبى حيان (٦/ ٣٣٧).

٢٠ - ﴿ قُلْ إِنَّما يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠٨].

الدراسة والتحليل:

فى مطلع سورة الأنبياء عرض القرآن نماذج من مواقف مشركى العرب من الرسالة الخاتمة.. وها هى ذى السورة تعود فتذكر شيئا مما يتصل بالرسالة الخاتمة.

ولما كانت سورة الأنبياء قد ناصرت عقيدة التوحيد كثيرًا، فأنها لم تُنهِ شرطها الأخير إلا بإقرار عقيدة التوحيد، والحث على الدخول تحت لوائها الخفاق. وهذا ما عرضته علينا الآية موضوع الدراسة، ثم جاء فى فاصلتها هذا الاستفهام:

(فهل أنتم مسلمون) وهو استفهام تقرير وأمر مثل سابقه بلا خلاف يذكر، وإن كانت له دلالة فوق الأمر فهى الحث والترغيب.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(قل إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد)** صدرت الجملة بفعل الأمر (قل) لما تقدم مرات من العناية بالمفعول الوارد بعده، ووجوب إعلانه فورًا.

وفى العبارة قصران: الأول: **(إنما يوحى إلى)** أى لا إلى غيرى. وهذا إقرار بوحدة الرسالة فى عصره ﷺ، وفيه إشارة إلى تكذيب أدعياءالنبوة. وهو قصر صفة الوحى على موصوف هو محمد ﷺ.

والثانى **(أنما إلهكم إله واحد)** وهو قصر (الله) على الوحدانية وفى هذا تكذيب لعقائد تعدد الآلهة التى يدعيها المشركون، وقد صالت معهم السورة وجالت من قبل. وبين القصرين رحم ماسة فالوحى المقصور فى الجملة الأولى على محمد ﷺ، مقصور بمعنى آخر على وحدانية الله، وكأنه لم ينزل عليه من الوحى شىء غير التوحيد، إما لأن التوحيد أجل موضوعات الوحى فنزِّل التوحيد منزلة الموحى به كله، وإما لأن كل موضوعات الوحى كانت من أجل التوحيد.

* **(فهل أنتم مسلمون)** إيثار هل واسمية الجملة واسم الفاعل لتوكيد حصول الإسلام لله. بعد نصب الدلائل الموجبة له.

* * *

٢١ - ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ، وَإِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٩].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية بمنزلة ختام للجولة التى جالها القرآن فى سورة الأنبياء مع الشرك والمشركين، أنها من نهايات ذلك الحوار الحكيم الذى تناول فيه النظم المعجز شبهات القوم ففندها شبهة شبهة. لهذا أمر الله رسوله أن يعلن للمشركين جميعا، ويعلمهم واحدًا واحدًا أن الأمل فى هدايتهم عقيم وأنه برىء منهم فليعتبروه فى خصومة معهم، وإدبار عنهم. أما ما أظهره الله على لسان رسوله الكريم من نصرة حق الله، ودحر باطلهم فلا يعلم وقت حلوله إلا الله:

قد يكون قريبا، أو يكون بعيدًا، ولكنه واقع لا محالة. وقد جاء فى الآية هذا التعبير:

(وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون) وهو - فى الظاهر - أسلوب استفهام، ولكنه فى المعنى خبر وقد تجردت أداتا الاستفهام اللتان فيه، وهما الهمزة وأم عن الإنشائية والاستفهام إلى الخبر المحض، ومضمون هذا التركيب: التسوية بين الطرفين - القرب والبعد - فى عدم العلم بتعيين أحدهما.

ولذلك فإن الأئمة - جميعا - لم يقفوا أمامه لبيان المراد منه.

ومما يقطع بخروج هذا التركيب عن الاستفهام أنه خلا من المستفهم منه، كما خلا من طلب الفهم. فهو - هنا - مجرد إعلام المتكلم عن نفسه باستواء الطرفين فى عدم الجزم بأىٍ منهما. والتركيب كله فى موضع المفعول لفعل (أدرى) المنفى.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء)** الفاء للتفريع على ما تقدم من الدعوة إلى التوحيد، وهجر عبادة الأصنام.

والتولى هو الرجوع الحسى إلى الوراء، استعير هنا لرفض المشركين الإيمان بالرسالة الخاتمة. فهى استعارة محسوس لمعقول. وسرها البلاغى تجسيم جرائمهم المنكرة حتى

لكأنها تدرك بالبصر. على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية حيث حذف المشبه (الرفض) وذكر المشبه به (التولى) بجامع سرعة الوقوع فى كل منهما.

* وفى **(آذنتكم)** استعارة تصريحية تبعية - كذلك - حيث استعير (الإذن) للعلم، أى اعلمتكم، وهى استعارة معقول لمعقول، والجامع تباين اختلاف الحال فى كل. فالإذن يزيل الحظر، والعلم يزيل الجهل.

* و (**على سواء**) - كناية عن شمول البلاغ والإعلام، بحيث لا يخفى على أحد. وهو تركيب يغلب عليه الاستعمال فى مقام التحذير والوعيد.

* **(وإن أدرى أقريب أم بعيد)** الجمع بين القرب والبعد هنا طباق إيجاب اقتضاه مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

* **(ما توعدون)** كناية إما عن هزمهم وانتصار الحق عليهم. وإما عن حلول ما توعدهم به من عذاب عاجل. وإما عن قيام الحساب يوم يقوم الناس لرب العالمين والأصوب حلول العذاب العاجل بهم، لأن قوله تعالى بعده **(وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين)** إشارة إلى تأخير العذاب عنهم فى الدنيا.

* * *

سورة الحج

١ - ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّنْ يَنصُرَهُ اللهُ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥].

سورة الحج من السور المختلف فى عصر نزولها أمكية هى أم مدنية والمتفق عليه عند أهل العلم أنها جامعة بين المكى والمدنى جمعًا يكاد يكون ذلك متوازنا فيها ونصيب هذه السورة من أساليب الاستفهام قليل لم يتجاوز أصابع اليد الواحدة. وكان أول استفهام ورد فيها هو قول الله عز وجل الذى ذكرناه قبل هذا.

الدراسة والتحليل:

هذه الآية وإن كانت واضحة الدلالة من حيث مفرداتها وتراكيبها فإن المعنى المقصود بها فى غاية الدقة والغموض، وقد حام حول حماها سادتنا المفسرون، ولما يقاربوا حدَّ الاقناع فيها، إذ لا يزال أمرها خافيا بعد كل ما قالوه، وسندلى فيها برأى فى مبحث أسرار النظم وبلاغياته إذا شاء الله، أما الذى يهمنا -هنا- فهو النظر فى الاستفهام الذى فيها، وهو:

(هل يذهبن كيده ما يغيظ)؟

فى تناول الإمام الزمخشرى لهذه الآية بسط كلاما أومأ فيه إلى أن هذا الاستفهام للإنكار والاستبعاد(١).

وسلك مسلكه الإمام أبو السعود ولم يصرح بالإنكار وإنما هو مفهوم من كلامه(٢).

وتابعهما الإمام الألوسى ولم يصرح مثلهما بالإنكار(٣). وحاكاهم الإمام أبو حيان(٤).

---

(١) الكشاف: (٨/٣).

(٢) تفسير أبى السعود: (٩٩/٦).

(٣) روح المعانى: (١٢٧/١٧).

(٤) البحر المحيط: (٣٥٧/٦).

وكذلك الإمام النسفى[1].

أما الإمام الطاهر بن عاشور فهو الوحيد الذى صرَّح بأن الاستفهام فى الآية إنكارى[2].

والخلاصة: أن هذا الاستفهام إنكارى إفحامى مع ما يترتب عليه من توبيخ وتسفيه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(من كان يظن أن لن ينصره الله)** هذا شروع فى سوق مثل بديع ذكره الله عز وجل هنا لغرضين:

الأول: تقرير وتوكيد نصر الله لرسوله ﷺ وللمؤمنين الذين سارعوا إلى الإيمان بالله ورسوله. وأن هذا النصر حاصل لهم فى الدنيا بهدايتهم ودحر عدوهم، وفى الآخرة بدخولهم جنات النعيم التى ذُكِرَتْ قبيل هذه الآية مباشرة.

والثانى: تيئيس المشركين ومنكرى البعث من خذلان الله رسوله والمؤمنين، واستمرار غيظهم منهم مهما بلغوا من وسائل الكيد لهم وإيقاع الأذى بهم.

والتعبير بالظن إشارة إلى أن أقصى ما يصل إليه المشركون هو وقوع الظن فى أنفسهم بهزيمة الرسول ومن معه لما يرون من قوة الحق الذى هم عليه، ولن يصلوا إلى درجة اليقين لأن الواقع لا يُساعدهم عليه.

* **(فى الدنيا والآخرة)** كناية عن محالفة النصر لهم فى جميع الأزمان. وبين الدنيا والآخرة طباق من مقتضيات الحال.

* **(فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع)** هذا المثل الذى مهدت له الجملة السابقة. ونكاد نجزم أن المراد من (السماء) هنا هو المعنى الحقيقى، إذ لا ضرورة تقتضى صرفه عن ظاهره كما ورد فى كتب التفسير، بل هى السماء حقيقة؛ لأن هذا المثل مضروب للتحدى والتيئيس والتحسير فبين الله لهم أنهم لو فعلوا المستحيل من الصعود إلى السماء ما خذل الله رسوله، ولدام نصره له فى الدنيا والآخرة والسبب هو الوسيلة التى يمكنهم بها الصعود. وهى وسيلة مستحيلة كذلك، أما القطع فهو - فيما نرى

---

(1) تفسير النسفى: (٣/ ٩٦).

(2) التحرير والتنوير: (١٧/ ٢١).

- منع نزول النصر، وهذا مستحيل كذلك.

ولما يأسهم الله هذا التيئيس دعاهم إلى أن ينظروا هل ما طولبوا بالإتيان به يذهب غيظهم من نصر الله رسوله والحق وأهله.

والمعنى: ابذلوا ما تستطيعون وما لا تستطيعون من جهد وطاقة. ولو بلغتم عنان السماء فإن ذلكم ليس بِمُذْهِبٍ غيظكم. لأن نصر الله رسوله لن يتوقف.

* **(فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ)**؟ فعلا الأمر: **(فليمدد- فلينظر)** المراد من الأول التعجيز ومن الثانى التحسير.

وفى النظر استعارة للفكر، استعارة محسوس لمعقول سرها الحث على تدقيق التفكر المؤدى إلى خيبة الأمل من محاولات الكيد.

وإيثار **(هل)** ثم توكيد المضارع **(يذهبن)** لتحقيق الإنكار والنفى.

واسناد الإذهاب إلى الكيد مجاز عقلى علاقته السببية لأن الكيد سبب (عادى) فى الإذهاب.

و**(ما يغيظ)** كناية عن النصر، وأوثرت للدلالة على الغيظ وتأججه فى صدورهم.

* * *

٢ - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِى السَّمَـوَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ، وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ، وَمَن يُهِنِ اللهُ فَمَالَهُ مِن مُّكْرِمٍ، إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَايَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

الدراسة والتحليل:

من أظهر آيات تمجيد الله فى القرآن هذه الآية. فقد عدَّدت فى تفصيل حكيم أن الكون كله منقاد لله عز وجل، وكل مخلوقاته تسجد له وتعبده سجوداً مناسبا لها.

وقد توسطت هذه الآية آيتين سابقة عليها ولاحقة لها. وكلتا الآيتين تنصان على افتراق البشر فى مجال الطاعة والإيمان. أما هى فقد نصت على أن جميع المخلوقات -غير الإنسان- اجتمعت على الانقياد لله، ما يحس منها وما لا يحس.

وصُدِّرت الآية بهذا الاستفهام:

(**ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض..**)؟ وقد تقدم هذا التركيب (الاستفهامى): (**ألم تر..**) فى مواضع كثيرة من هذه الدراسة، وتتبعنا آراء أو رأى الأئمة فيه والذى يهمنا -هنا- الإشارة إلى معناه دون الإطالة بذكر ما قيل فيه من قبل توخيا للإيجاز.

والخلاصة: أن هذا التركيب أينما وقع، وهو كل استفهام دخلت همزته على فعل منفى دون توسط عاطف بينهما، فهو بالإجماع استفهام تقرير. وقد يُرْدف عليه معان مجازية تناسب المقام. ومن المعانى المناسبة له -هنا- الحث على التأمل وتمجيد الله والإخلاص فى طاعته واستشعار جلاله وكماله.

أما الرؤيا فهى علمية قلبية قد يشوبها بعض الإبصار الحسى بحسب الأنواع المذكورة، فسجود كثير من الناس الرؤية فيه بصرية لا محالة.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (**يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض**) يسجد هنا أقرب ما يكون من (التورية) له معنيان، قريب وبعيد فالقريب هو الإنكفاء الحسى على الأرض بوضع الجبهة واليدين والركبتين وأطراف أصابع الرجلين، والبعيد هو مطلق الطاعة والانقياد. وهو أعم من الأول. ونرجح إرادته هنا، لأن الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب غير العاقلة لا يكون منها هذا السجود.
* (**من فى السموات**) كناية عن الملائكة. و(**من فى الأرض**) كناية عن الناس ومؤمنى الجن. وهذا إجمال تلاه تفصيل بدءًا من (**الشمس**) وما عطف عليها إلى (**وكثير من الناس**) وقدمت الشمس على القمر وما عطف عليه لجلال شأنها، كما قدم القمر على النجوم للعلة نفسها.

وقدمت الثلاثة: الشمس والقمر والنجوم على ما بعدها لأنها كواكب علوية كما قدِّم (**من فى السموات**) على (**من فى الأرض**) للسبب نفسه.

وقدِّمت (**الجبال**) لشموخها وعظم وظيفتها فى تثبيت الأرض.

وقدِّم (**الشجر**) علـى (**الدواب**) تقديم الـسبب على المسـبب لأن الأشجـار مرعى الدواب.

وقدِّمت هذه المذكورات كلها على (**كثير من الناس**) لأنها لا تعقل. وسـجود ما لا يعقل لله أدخل فى مقام تمجيد الله من سجود من يعقل.

* (**وكثير حق عليه العذاب**) وأُخر هذا على ما قـبله، لأنهم عصاة فجرة، فـقدِّم عليه الطائعون لشرف الطاعة. وأخر العصاة لقبح المعصية.

* (**حق عليه العذاب**) إسناد (الحقية) إلى العـذاب مجاز عقلى علاقتـه المفعولية، لأن الفاعل الحقيقى هو الله. وحق بمعنى: ثبت. والله هو الذى يوقعه عليهم.

* (**ومن يهن الله فما له من مكرم**) استئناف مسوق لتقرير معنى ما قبله، وتهديد ووعيد للعصاة.

والجمع بين الإهانة والتكريم طبـاق استدعـاه مقتضى الحـال وتنكير (مكرم) لتأكيد النفى فى (**فما له**) كما أن (من) فيه لا ستغراق النفى جميع أفراد المنفى.

وفى (**يُهن**) كناية عن إنزال العقـاب الوفاق بكل مجرم حسب إجـرامه من المعاصى الكبيرة والكفر المستمر.

* (**إن الله يفعل مـا يشاء**) تذييل مقرر لمعنى مـا قبله وقد أكد الخبر فيـه بـ(إن) واسمية الجملة؛ لأن مضمون الخبـر حقيقة عظيمة، فمن حقهـا أن يُعبَّر عنها بأسلوب فخم عظيم مثلها.

فدواعى التوكيد فيه هو الكلام نفسه باعتبار مدلوله، لا المتكلم ولا المخاطب.

وفى (**ما يشاء**) تفخيم لفعل الله، وإطلاق إرادته من كل القيود إلا قيود حكمته عز وجل. فما اقتضته حكمته وخصصته إرادته أنجزته قدرته.

وهذا التفصيل الـذى أعقب ذلك الإجمال آية من آيات البلاغة المعـجزة فى كتاب الله العزيز ومن أحسن من الله حديثا؟

* * *

٣ - ﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ، وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٤].

الدراسة والتحليل:

جاءت هذه الآية عقب آيتين ذكرتا لتسلية النبى ﷺ وتثبيت قلبه، وتعزية له على ما يلقاه من عنت قومه وصدودهم. وكانت الآيتان قد سردتا نماذج من قصص أقوام الرسل السابقين:

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَد كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمودٌ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ [الحج: ٤٢ - ٤٣].

ثم جاء فى عجز الآية التالية لهما هذا الاستفهام:

(ثم أخذتهم فكيف كان نكير).

لم يقف الأئمة طويلا أمام هذا الاستفهام، ولم ينصوا على المراد منه، اللهم إلا الإمام الألوسى فقد ذكر فيه جملة وافية، قال:

(والاستفهام للتعجيب، كأنه قال: فما أشد ما كان إنكارى عليهم؟ وفى الجملة إرهاب لقريش)(١).

والخلاصة: أن هذا الاستفهام -كما يفهم من كلامهم- للتهويل والتفظيع، ولا منافاة بين هذا وبين ما ذكره الإمام الألوسى لأن الأمر الهائل الفظيع قَمِن بأن يعجب منه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(وأصحاب مدين، وكذب موسى)** الواو فى **(وأصحاب مدين)** للعطف على **(قوم نوح)** وأصحاب مدين هم قوم شعيب وعبِّر عنهم بـ**(أصحاب)** تفننًا فى الأسلوب، ودفعا لتكرار كلمة **(قوم)** ثلاث مرات متجاورة.

كما أعيد التكذيب فى **(وكذِّب موسى)** لطول الفصل بين **(فقد كذب)** ولم يُقَلْ: وقوم موسى؛ لأن موسى لم يكذبه قومه بل الذى كذبه فرعون مصر وقومه.

(١) روح المعانى: (١٧/ ١٦٥).

* **(فأمليت للكافرين)** الإملاء الإمهال، وصلة هذا الإمهال بالمقام الوارد فيه الحديث، وهو تسلية النبى ﷺ وتصبيره على أذى قومه أن يدرك ﷺ أن الله لم يستعجل العذاب لمكذبيه لحكمة، لا لأنهم لم يحق عليهم العذاب:

والمعنى: أصبر على آذاهم ولا تخدعنك سلامتهم فإنى أمهلهم كما أمهلت مكذبى الرسل من قبلك، ثم أنزلت بهم ما يستحقون فأخذتهم أخذا عجبا.

وفى **(للكافرين)** فن بديعى هو الجمع بعد التفريق، فقد فرَّق بينهم أولا هكذا:

قوم نوح - عاد - ثم - قوم إبراهيم - قوم لوط - أصحاب مدين ثم جمع بينهم فى الوصف بالكفر فقال: **(للكافرين)**.

* **(ثم أخذتهم)** العطف بـ(ثم) لما فيها من التراخى المناسب للإمهال. والترتيب المفيد لترتب إهلاكهم على التكذيب ترتب المسبب على السبب. وعاد وثمود كنايتان عن قبيلتيهما.

وفى **(أخذتهم)** استعارة تصريحية تبعية، شبه فيها الإهلاك بالأخذ، بجامع أحكام القبضة فى كل، استعارة محسوس لمحسوس وسرها أنهم أزيلوا من الوجود لم يفلت منهم أحد، إزالة الآخذ للمأخوذ.

* **(فكيف كان نكير)** النكير: الإنكار. وفيه مجاز مرسل حيث أطلق السبب، وهو الإنكار، وأراد المسبب، وهو العقاب؛ لأن الله أخذهم بسبب إنكاره كفرهم وعنادهم.

* * *

٤ - ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا، فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ﴾

[الحج: ٤٦].

الدراسة والتحليل:

بعد أن قرع أسماعهم قصص الماضين، وما حل بهم من عذاب الله الأليم. ولم يثمر فيهم ذلك النذير كر عليهم النظم القرآنى كرة أخرى، يحثهم على أن يعملوا قلوبهم وأسماعهم ومداركهم فى العظة والاعتبار، لأنهم بعدم اعتبارهم بما قُصَّ عليهم اعموا عقولهم وقلوبهم، وعمى القلوب داهية دهياء، وليس كذلك عمى الأبصار. فأعمى البصر إذا كان بصير العقل والقلب لا يضيره من عمى بصره شىء عند الله.

وقد صدرت الآية بهذا الاستفهام:

(أفلم يسيروا فى الأرض..؟).

قدَّم الإمام الزمخشرى كلمة فى هذا الاستفهام لم يكد يحيد عنها أحد من الأئمة من بعده، وإن لم يشر صراحة إلى المراد من الاستفهام. قال بعد ذكره **(أفلم يسيروا فى الأرض)**.

(يحتمل أنهم لما يسافروا فحُثُّوا على السفر ليروا مصارع من أهلكهم الله بكفرهم، ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا. وأن يكونوا قد سافروا ورأوا ذلك ولكن لم يعتبروا فجعلوا كأنهم لم يسافروا ولم يروا)(١).

هذا كلامه الذى دار فى فلكه من بعده من الأئمة وظاهر أنه لم يقل إن كان هذا الاستفهام للتقرير أو الإنكار.

وقال الإمام أبو السعود مع تعديل فى عبارة الزمخشرى:

(أفلم يسيروا فى الأرض).

(حث لهم أن يسافروا ليروا مصارع المهلكين فيعتبروا وهم وإن كانوا قد سافروا

---

(١) الكشاف: (٣/ ١٧).

فيها ولكنهم حيث لم يسافروا للاعتبار جعلوا غير مسافرين فحثوا على ذلك)[1]. أما الفاء -عنده- فعاطفة على محذوف قدَّره بقوله: (أغفلوا فلم يسيروا فيها)[2].

وذكر الإمام الألوسى عبارة الزمخشرى، ثم أضاف هذه الجملة (وجُوِّز أن يكون الاستفهام للإنكار أو التقرير)[3].

أما الطاهر بن عاشور فيرى أن الاستفهام فى الآية للتعجب[4].

والخلاصة: أن هذا الاستفهام إذا قدَّرنا أن الهمزة قارَّة فى مكانها غير مقدمة من تأخير عملا بمذهب الإمام الزمخشرى فيجوز حينئذ جعل الاستفهام للإنكار.

أما إذا قدرناها مقدمة من تأخير على مذهب الجمهور فإن الاستفهام فى هذه الحالة للتقرير قطعا، لأن همزة الاستفهام دخلت على حرف النفى (لم) فسلبت عنه النفى الواقع على الفعل بعده (يسيروا) ونفى النفى إثبات بالإجماع ولعل هذا هو الذى سوَّغ للإمام الألوسى أن يردد الاستفهام - هنا - بين الإنكار والتقرير.

ويبدو لنا - بكل وضوح - أن المقام يعين أن يكون المراد من الاستفهام هو التقرير. فالله عز وجل ينعى عليهم أنهم ساحوا فى الأرض وشاهدوا مصارع المجرمين، ولكنهم لم يعتبروا كأن لم تكن لهم عقول ولا آذان ولا أبصار.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(أفلم يسيروا فى الأرض)** هذا الاستفهام يتضمن مع التقرير الدعوة إلى التأمل واستخلاص العبر من مصارع المكذبين. والفعل **(يسير)** وإن كان مضارعا فى اللفظ فهو ماض فى المعنى، لأن (لم) لها فى المضارع عملين:

عمل فى لفظه وهو الجزم، وعمل فى معناه، وهو قلبه إلى المضى وهذا يؤكد أن المراد من الاستفهام -هنا- التقرير أى: أنهم ساروا فى الأرض، ولم يتعظوا.

* (فى) أوثر حرف الجر (فى) هنا فى قوله تعالى: **(فى الأرض)** على حرف الجر **(على)** لأن المقام يقتضى (فى) لا (على) وذلك أن (الأرض) هى موطن العبرة التى

(١، ٢) تفسير أبى السعود: (٦/ ١١١).

(٣) روح المعانى: (١٧/ ١٦٧).

(٤) التحرير والتنوير: (١٧/ ٢٨٧).

يراد من السير فيها الاستطلاع. وهذا يقتضى أن يكون السير شديد الصلة بالأرض حتى لكأنهم كانوا يسيرون فى جوف الأرض، على وزان قوله تعالى الذى تقدم بيانه فى سورة (طه): **(ولأصلبنكم فى جذوع النخل)** ولذلك لَمَّا أريد وصف عباد الله بالتواضع واعتدال المشى أوثر حرف الجر **(على)** فى قوله تعالى: **(وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا..)** [الفرقان: ٦٢].

فإن تناسب حرف الجر (على) مع قوله (هونا) فى غاية الروعة. حتى يخيل إليك أنهم لا يكادون يلامسون الأرض بأقدامهم تواضعا وإخباتاً وآل فى (الأرض) للعهد، وهى أرض الأقوام الذين أهلكهم الله بذنوبهم.

* **(فتكون لهم قلوب يعقلون بها)** الفاء - فيما نرى - لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى: ألم يسيروا فى الأرض سيراً يحيى قلوبهم، ويرهف أسماعهم من جرَّاء ما يعاينون من العظات والعبر التى حلَّت بمن قبلهم، وما هى منهم ببعيد لكفرهم كما كفروا. فهم لهم قلوب لم تبصر آثار السير فى الأرض، ولهم آذان لم ترعو بما تسمع آذانهم.

ولما كان للقوم قلوب وآذان عطلوها عن أداء وظائفها جعلوا كأنهم لا قلوب لهم ولا آذان. وزان ذلك قوله عز وجل:

(إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد) [ق: ٣٧].

* **(فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور)** الهاء ضمير القصة. ونفى العمى عن الأبصار كناية عن نفى ضرر عمى الأبصار إذا كانت القلوب مبصرة. أما العمى المسند إلى القلوب فهو استعارة تصريحية تبعية شبه فيها إغفال القلب وعدم قبوله للحق بإزالة الإبصار عن العين، بجامع فقدان المنفعة فى كل.

والمعنى: ليس العمى الحقيقى عمى البصر، بل عمى القلب فعمى البصر وإن ترتب عليه حرمان من بعض حظوظ الدنيا فلا يضار صاحبه - إذا استقام - فى الآخرة وعمى القلب وإن لم يؤد إلى حرمان من حظوظ الدنيا فإنه يسبب الشقاء والتعاسة

لصاحبه فى الآخرة وقوله (التى فى الصدور) لتحديد المراد من (القلوب) التى يصيبها العمى ولدفع توهم غير المراد بها.

* * *

٥ - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية تلفت الأنظار إلى بعض آيات الله الكونية، مظهرة أثرا من آثار قدرة الله الباهرة، مع الامتنان على عباده بالفيض العميم من الخيرات. وكان هذا اللفت جامعا بين آثار القدرة والإنعام ثم تمجيد الله عز وجل.

وقد تصدر الآية هذا الاستفهام:

(ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً..)؟

وهذا التركيب الاستفهامى المكون من هذه العناصر:

همزة الاستفهام - حرف النفى - الفعل المنفى. قد أجمع أهل العلم من مفسرين وبلاغيين أنه استفهام تقرير قولاً واحداً. وقد ينشأ عنه، أى عن التقرير معانٍ أخرى تناسب المقام، فلا داعى - إذًا - للإطالة بإعادة ما قيل فى مثله مما تقدم فى هذه الدراسة، وشذ الطاهر فجعله للإنكار(١). وهذا لا يصح.

والخلاصة: أن ما يقال فيه أنه استفهام تقرير وامتنان على العباد، وتذكير للناس بفضل الله عليهم.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(ألم تر..)** هذا الخطاب وإن كان مفرداً فى اللفظ فهو عام فى المعنى، يدخل فيه كل المكلفين، سواء كانوا مؤمنين أو غير مؤمنين، طائعين أو غير طائعين، فكل من على وجه الأرض فى كل زمان من العقلاء الراشدين، مخاطبون بهذه العبارة.

---

(١) التحرير والتنوير: (١٧/٣١٨).

ومعنى التقرير فى هذا الاستفهام - وأمثاله - أنه فى قوة:

(**قد رأيت**) لا محالة.

والرؤية فيه بصرية فى قوة الرؤية العلمية؛ لأن الذى يرى الماء نازلاً من العلو الفضائى على الأرض، يراه ببصره أولاً، ثم تتحول هذه الرؤية البصرية إلى (مخزون ذهنى) قارٌّ فى الوجدان.

* (**أنزل من السماء ماءً**) أوثر الفعل الماضى (أنزل) هنا لأن المقام مقام تقرير وامتنان يناسبه تحقق الوقوع و(**من السماء**) مجاز مرسل علاقته المجاورة النسبية و(**ماءً**) أوثر تنكيره لإفادة معنيين متلازمين:

* الكثرة المستفيضة.

* تفخيم شأن هذا الماء؛ لإنه سبب الحياة واستمرارها.

* (**فتصبح الأرض مخضرة**) ورد الفعل (**تصبح**) مرفوعا وكان الظاهر أن يرد منصوبا جوابا للاستفهام. ولأهل العلم فيه تخريجات مختلقه حكاها أبو حيان[1]. لا نريد الإطالة بذكرها، فنذكر ما أجمعوا عليه فى هذه المسألة، وهو منعهم جميعا أن يكون (**فتصبح**) جوابا للاستفهام. وهذا حق، ولكن ما ذكروه فى وجوه الرفع لم يسلم من المأخذ من بعضهم بعضا والذى يبدو لنا أن هذه الجملة (**فتصبح الأرض مخضرة**) جملة استئنافية. وقد رأيت فى شروح التلخيص أن الاستئناف قد يكون بالفاء. وهذا الاستئناف مسوق لبيان فائدة من فوائد إنزال الماء، وهى إخضرار الأرض بالنبات بعد نزول الماء.

ومما يدل على ذلك مخالفة النسق بين الفعلين فالأول ماضٍ (أنزل) والثانى مضارع (**فتصبحُ**).

ومما يؤيده - كذلك ما ذكره أبو حيان من أن صيرورة الأرض مخضرة لا يترتب على رؤية المخاطب، وهى المستفهم عنها - لإنزال الماء بل يترتب على إنزال الماء نفسه، وهو غير مستفهم عنه، وهذا كلام طيب.

---

(١) البحر المحيط: (٦/ ٣٨٦).

وفى (**تصبح**) استعارة تصريحية تبعية، حيث استعير الإصباح للصيرورة، ثم أشتق منه تصبح بمعنى تصير وسرها الإشارة إلى سرعة إخضرار الأرض بالنبات بعد نزول الماء. مع ما فى الإصباح من بشريات واعدة، يعنى شبه قرب الإنبات بقرب الصباح عقيب الليل، أو الصيرورة فليس لها زمن محدد، فهى تحتمل البعد والقرب معاً.

واختيار الإخضرار لما فى اللون الأخضر من إقبال الخير وإبهاج النفوس.

وإسناد الإخضرار إلى الأرض مجاز عقلى علاقته المكانية أو المجاورة؛ لأن الأرض مكان النبات، ومغرسه.

وإيثار اسم الفاعل (**مخضرة**) على (**خضراء**) لما يوحى به اسم الفاعل من ظلال القوة والتفاعل وكثافة الزروع وتشابكها.

* (**إن الله لطيف خبير**) أكد الخبر بـ(إن) واسمية الجملة لأن مضمونه حقائق عظيمة.

ومن حق الحقائق العظيمة أن يعبر عنها بأسلوب عظيم مثلها.

وفى حذف متعلق (**لطيف**) وهو: بعباده و(خبير) بما يصلحهم ويسعدهم إيجاز حكيم، وقد أفاد هذا الحذف عموم المتعلق. ولم يعطف (خبير) على (لطيف) للدلالة على أنه خبر مثله لا صفة.

* * *

٦ - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى الأَرْضِ، وَالْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ، إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥].

الدراسة والتحليل:

آية لافتة زاجرة، تذكر الناس بنعم الله عليهم، وتبرز للنظر آثار قدرته فى الكون، وتخوفهم مما قد يحل بهم لولا رأفته ورحمته بهم.

وتكرر فى صدرها الاستفهام الذى تقدم فى الآية المتقدمة مع اختلاف تعلق الرؤية:

* (**ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض..**).

وهو استفهام تقرير وتذكير وامتنان. والمخاطب عام يمثل جميع المكلفين. وهذه خلاصة ما قيل فيه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (.. **أن الله سخر لكم**..) أكد الخبر لتحقق متعلق الرؤية. وهى شاملة هنا للبصرية والعلمية باعتبار المعطوفات فمنها ما يرى بالبصر كجرى الفلك، وإمساك السماء. أما التسخير لكل ما فى الأرض فمنه ما يُعْلَم ومنه ما يرى.

وإيثار حرف الجر (فى) إشارة إلى تمكين المخاطبين بما فى الأرض لدنوه منهم.

* (**والفلك تجرى**..) إيجاز بالحذف، والتقدير: وسخر لكم الفلك. وإسناد الجرى، - والمُجرى هو الله - إلى الفلك مجاز عقلى علاقته المفعولية والتقدير (يجريها الله)، وهذا الإسناد للتناسب مع (سخر) لأن التسخير هو تهيئة الشىء للانتفاع به دون امتناع من الشىء المسخَّر كاستنشاق الهواء. وكمال التسخير فى الفلك أن يكون جريها طواعية منها لخدمة العباد.

وأوثر الماضى فى (**سخَّر**) لأن الانتفاع لا حق والتسخير سابق. ولم يأت هذا التسخير فى القرآن فى صورته الفعلية إلا ماضيا[1].

أما إيثار المضارع (**تجرى**) فلاستحضار الصورة فى الذهن لمكان النعمة فيها.

* (**بأمره**) احتراس بديع لدفع توهم غير المراد، وهو الظن بأن الفلك تجرى فى البحر من تلقاء نفسها أو بدفع الهواء، دون ملاحظة تدبير الله فيها.

* (**ويمسك السماء أن تقع على الأرض**) أوثر المضارع (**يمسك**) لبيان أن عناية الله فى إمساكها لا يخلو منها زمان. فهو يمسكها أو هو ماسك لها مسكا متتابعا وفى هذا تحذير للناس وتخويف من أن يحل بهم ما لا قدرة لهم على دفعه. وتوقع حدوث الخطر فى أية لحظة من شأنه إيقاظ النفوس من غفلتها، وعرفان النعمة لموليها وهو الله عز وجل، وشكر تلك النعمة.

* (**إلا بإذنه**) استثناء مفرغ من كل الأحوال. أى إلا فى حال الإذن من الله، ليكون

---

(١) انظر: دراسات جديدة فى إعجاز القرآن. مادة: سخر - مكتبة وهبة الطبعة الأولى.

العباد بين الخوف والرجاء، وهما شعار الصالحين.

* **(إن الله بالناس لرءوف رحيم)** تذييل مقرر لمضمون الكلام قبله.

* * *

٧ - ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، إِنَّ ذَلِكَ فِى كِتَابٍ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

الدراسة والتحليل:

من الآيات المعزية لرسول الله ﷺ، جاءت بعد الأمر له بالثبات أمام الكفر وأهله. وكون الله يعلم ما فى السماء والأرض فأنه يحصى أعمال الخصوم وغيرهم، ولن يفلت أحد منهم من العقاب.

والاستفهام **(ألم تعلم)** استفهام تقرير، أى أنت تعلم، ثم تذكير بهذه الحقيقة التى تزيد المؤمنين بصرًا وثباتا.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(ألم تعلم..)** إيثار العلم - هنا - على مجرد الرؤية، لأن إحاطة علم الله بكل شىء طريقة معرفته الخبر الصادق، لا رؤية البصر.

و**(ما)** كناية عن غيب السموات والأرض. وتقديم السماء على الأرض لشرفها وشرف من فيها. والجمع بينهما طباق واقع موقعه من أصل الدلالة، لا لمجرد التحسين.

* **(إن ذلك فى كتاب)**: استئناف مقرر لتوكيد ما قبله. واسم الإشارة (ذلك) للتنويه بعظمة قدرة الله، ورفعة شأنه وتنكير (كتاب) للتعظيم.

* **(إن ذلك على الله يسير)** تكميل أو تتميم بديع الموقع، سره البلاغى دفع توهم، أن يظن ظان مشقة الإحاطة بغيوب السماء والأرض على الله. فبين الله عز وجل أن هذا مع ما فيه من الاتساع والكثرة والدقة. يسير على الله العلى القدير.

* * *

٨ - ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ، يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا، قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ، النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٧٢].

الدراسة والتحليل:

لقطة وضيئة يصورها النظم القرآنى من معسكر المحاربين لله ورسوله. فقد أبت قلوبهم نور الإيمان، وكرهت أسماعهم سماع القرآن. وإذا تلاه عليهم تال كست وجوههم قتامة الباطل، وجرت فى عروقهم دماء الحقد، حتى ليكادوا يسطون بالدعاة.

أمام هذا التنكير البغيض للحق أمر الله رسوله أن يبكتهم ويبشرهم بالمصير الأليم الذى أعده الله لهم. وجاء هذا التبكيت فى هذه الصورة الاستفهامية:

(قل أفأنبئُكم بشرٍ من ذلكم؟ النار..).

لم يشر أى أحد من الأئمة إلى المراد من هذا الاستفهام.

وخلاصة ما يمكن قوله فيه أنه استفهام تهديد ووعيد وتبكيت.

أسرار النظم وبلاغياته:

* . . **(تُتلى عليهم آياتنا بينات)** التلاوة - هنا - كناية عن الدعوة إلى الله والتصديق بما أنزل على محمد ﷺ.

وإيثار حرف الجر (على) بدلا من حرف الجر اللام: **(لهم)** إشارة إلى أن سماعهم القرآن يُتلى عليهم أى هو سلطان وحجة عليهم إذا لم يؤمنوا بها.

وإضافة **(آيات)** إلى ضمير (الجلالة) - نا - لتعظيم الآيات و **(بينات)** لتوكيد التهديد للذين كفروا، وقطع العذر عنهم لأنهم يعرضون عن شىء واضح كل الوضوح فلا عذر لهم فى الإعراض عنه.

* **(تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر)** تعرف استعارة عن تشاهد وترى بجامع ما يترتب على كل من ترتب شىء على شىء أو كناية، أو مجاز مرسل أطلق فيه المسبب (العرفان) وأريد السبب (المشاهدة).

* وإيثار حرف الجر (فى) فى قوله تعالى (**فى وجوههم**) للدلالة على تمكين الكراهية فيها، ولو قيل: على. لما أفادت هذا التمكن وأوثر الموصول وصلته (**الذين كفروا**) على الضمير مما لو قيل: وجوههم، لما فى الصلة من التسجيل عليهم بالكفر، وهو أعظم الجرائم.

* (**يكادون يسطون**) كناية عن شدة غيظهم وحقدهم على الدعاة وأوثر المضارع (**يسطون**) لاستحضار صورة السطو والبطش تبشيعًا لها.

* (**بالذين يتلون عليهم آياتنا**) إيثار الجار والمجرور وصلته لبيان قبح كراهية الذين كفروا. وقبح سطوهم على الذين يدعونهم إلى ما فيه خيرهم فى الدنيا والآخرة.

* (**قل أفأنبئكم بشر من ذلكم**) استفهام تبكيتى إنذارى تهكمى أى أن ما فيه أنتم - الآن - شر. فتعالوا أخبركم بشر أدهى منه وأمر أعده الله لكم: النار وبئس المصير هى. وفى حذف المسند إليه (هو) - إيجاز بالحذف.

* * *

الفهـــرس